المنظمة العربية للترجمة

حميد بوزارسلان

قراءة في تاريخ العنف في الشرق الأوسط

من نهاية السلطنة العثمانية إلى تنظيم القاعدة

ترجمة

هدى مقنّص

توزيع: مركز دراسات الوحدة العربية

قراءة في تاريخ العنف
في الشرق الأوسط

من نهاية السلطنة العثمانية إلى تنظيم القاعدة

المنظمة العربية للترجمة

حميد بوزارسلان

قراءة في تاريخ العنف في الشرق الأوسط

من نهاية السلطنة العثمانية إلى تنظيم القاعدة

ترجمة

هدى مقنّص

مراجعة

المنظمة العربية للترجمة

الفهرسة أثناء النشر - إعداد المنظمة العربية للترجمة
بوزارسلان، حميد
قراءة في تاريخ العنف في الشرق الأوسط: من نهاية السلطة العثمانية إلى تنظيم القاعدة/ حميد بوزارسلان؛ ترجمة هدى مقنّص؛ مراجعة المنظمة العربية للترجمة.
543 ص. - (علوم إنسانية واجتماعية)
ببليوغرافيا: 455 - 471.
يشتمل على فهرس.
ISBN 978-614-434-082-0
1. العنف. 2. الشرق الأوسط. أ. العنوان. ب. مقنّص، هدى (مترجم). ج. المنظمة العربية للترجمة (مراجع). د. السلسلة.
320.9

"الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن اتجاهات تتبناها المنظمة العربية للترجمة"

المنظمة العربية للترجمة

بناية "بيت النهضة"، شارع البصرة، ص. ب: 5996-113
الحمراء - بيروت 2090 1103- لبنان
هاتف: 753031 - 753024 (9611) / فاكس: 753032 (9611)
e-mail: info@aot.org.lb - Web Site: http:/ / www.aot.org.lb

توزيع: مركز دراسات الوحدة العربية

بناية "بيت النهضة"، شارع البصرة، ص. ب: 6001 - 113
الحمراء - بيروت 2407 2034 - لبنان
تلفون: 750084 - 750085 - 750086 (9611)
برقياً: "مرعربي" - بيروت / فاكس: 750088 (9611)
e-mail: info@caus.org.lb - Web Site: http:/ / www.caus.org.lb

الطبعة الأولى: بيروت، كانون الأول (ديسمبر) 2015

المحتويات

الجزء الثالث: من حركات الجهاد في أرض الإسلام إلى حروب العقد الأول من الألفية الثالثة

مقدمة الترجمة

لا يمكن لأي كتاب أن يكون راهناً أكثر من كتاب **قراءة في تاريخ العنف في الشرق الأوسط، من نهاية السلطنة العثمانية إلى تنظيم القاعدة** لمؤلفه حميد بوزارسلان، على الرغم من صدور هذا الكتاب باللغة الفرنسية في العام 2007. فالعنف في الشرق الأوسط هو محطّ جميع الأنظار في أيامنا هذه، ونادرون هم المحلّلون والدارسون، على غرار حميد بوزارسلان، الذين يلقون ضوءاً كاشفاً على أشكاله المتعددة وأسبابه التاريخية، بعيداً من الكليشيهات الغربية والتبسيط المتسرّع والعِقَدية الجامدة، في محاولة لفهم أسس الحركات الإسلاموية المعاصرة.

تبدأ الدراسة بحقبة ثورات 1906-1918 التي تؤذن بنهاية السلطنة العثمانية وتنقسم إلى ثلاث حقبات تاريخية اعتبرت كل منها حقبة تحوّل في تاريخ الحركات السياسية والإسلاموية في الشرق الأوسط، وهذه الحقبات هي: 1906-1979، 1979-1991، 1991 حتى منتصف العقد الأول من الألفية الثالثة. تتمحور كل حقبة، وكل جزء من الكتاب يقابلها، حول أحداث العنف البارزة والشخصيات المؤثرة واللحظات التاريخية التي يتم وصفها وتحليلها من أجل فهم أشكال العنف التي تجلّت فيها.

ونجول في هذه الحقبات في أرجاء الشرق الأوسط الكبير من تركيا إلى العراق ولبنان وسوريا وفلسطين ومصر وصولاً إلى أفغانستان.

توخى بوزارسلان نهجاً زمنياً تعاقبياً بهدف الكشف عن كل مرحلة وتحليلها انطلاقاً من المؤثرات المعتملة في داخلها مع تركيز على الذاتيات الفردية التي ساهمت في تقرير مصيرها والمجالات الزمانية والمكانية التي تحركت فيها هذه الذاتيات مع إلقاء الضوء على أبرز الأحداث التي وقعت فيها. مكّنه هذا النهج من تبيان أشكال العنف المتنوعة التي شهدتها المنطقة وكيفية الانتقال من عنف حركات التحرير القومية إلى العنف الإسلاموي.

من خلال التذكير بمختلف مراحل الانتفاضات والنزاعات الكامنة وحركات التمرّد المكشوفة والحروب الأهلية، وبعيداً من الحروب التقليدية التي هزّت المنطقة، وبالأخص الحروب العربية الإسرائيلية والحروب العالمية، استكشف بوزارسلان الدوافع والاستراتيجيات وطرائق تنظيم هؤلاء المقاتلين في محاولة لإبراز خصوصيات المنطقة. وأكثر ما وفّق في إبرازه هو الانتقال من القومية واليسارية إلى الإسلاموية والانتقال من الإسلاموية التقليدية إلى إسلاموية تنظيم القاعدة. وإذ شهدت المنطقة، منذ صدور هذا الكتاب بلغته الفرنسية، في العام 2007، الكثير من التحولات، فقد آثر الكاتب حميد بوزارسلان أن يضيف على الطبعة العربية خاتمة أخرى تساعد القارئ على ربط التحليل الذي جاء في الكتاب بالتطورات الأخيرة التي حصلت على الأرض.

وما قد يؤخذ على هذا الكتاب هو تهميشه دور المصالح الدولية الموجودة حقيقة في المنطقة وأثر الحرب الباردة ووجود دولة إسرائيل في تأجيج العنف والصراعات. لكن ربما كان هذا المأخذ هو بالتحديد

سلطة القوة في هذا الكتاب. فما كتب عن تلك المؤثرات لا يعد ولا يحصى والكل مدركها ويعي أهميتها وهي في أشكالها القصوى ترتدي شكل "نظرية المؤامرة" التي تعمل أحياناً بمثابة عُصابة تحجب عن أعيننا مسؤولياتنا وما يعتمل في أرضنا من مؤثرات داخلية، ليكون فضل هذا الكتاب هو تبيئة العنف ووضعه في سياقه المحلي بعيداً من المقاربات التقليدية المعروفة.

أما المأخذ الأساسي الآخر، فهو عدم عودة الكاتب إلى اللغة العربية وهو ما شكل مأزقاً كبيراً في الترجمة. استشهد بوزارسلان، في معرض تحليله، بأقوال مباشرة، محكية أو مكتوبة، نسبت إلى شخصيات عربية كان قد اقتبسها من مصادر أجنبية، وقد أخذها عنها مترجمة إلى الفرنسية أو إلى الإنجليزية، ونحن لا ندري إن كانت الترجمة أمينة للنص الأصلي أم لا. في هذه الحالة، يتوجب على المترجم عموماً أن يرجع إلى النص الأصلي، إن كان يترجم إلى لغته وهنا إلى العربية: فالمترجم إلى العربية لا يعمل على ترجمة خطابات الرئيس جمال عبد الناصر إن هي وردت بالفرنسية، بل يعود إلى الخطابات نفسها ليضعها بلغتها الأصلية. وهذا ما فعلته في كثير من الأحيان، كلما تمكنت من الحصول على الأصل العربي ليتبين لي أن ثمة فوراق أحياناً، أشرت إليها في هوامش الكتاب، بين النص الفرنسي المترجم والذي استعان به الكاتب والنص العربي الأصلي. وأكتفي هنا بأن أذكر مثال سناء محيدلي وقد ذكر الاقتباس بالفرنسية أن لقبها هو "زهرة البقاع" في حين أنها قد طلبت في وصيتها قبل استشهادها أن تلقب بـ "عروس الجنوب".

إذاً ماذا يفعل المترجم فيما لو استحالت العودة إلى الأصل؟

هو أمام خيارين كلاهما مرّ: إما أن يتوقف عن الترجمة وهو على

قناعة أن الكتاب يحمل قيمة علمية أكيدة على الرغم من الثغرة التي تعتريه، وإما أن يرد بنفسه النص إلى العربية، ولا أقول يترجمه، مع الإشارة الواضحة إلى النصوص التي تنضوي تحت هذه الحالة حتى يكون القارئ على بيّنة ممّا يقرأ.

وهذا ما فعلته: رددت النصوص إلى العربية ووضعتها بالحروف المائلة على سبيل الأمانة.

واعتبرت أنه لهذا الأمر تبرير قد لا يخطر على بال، وهو أن الكاتب قد بنى كمّاً من تحليلاته على ما قرأه من أقوال بالفرنسية نسبت إلى شخصيات عربية، وحينما نرد النص إلى العربية بطريقة تحترم الأمانة للنص الفرنسي، نكون في الوقت نفسه أمينين لفكر المؤلف ومنطلقات تحليله. ونحن نطرح هنا إشكالية مفتوحة للنقاش، قد يعتبرها بعضهم مشكلة لكني أعتبر أن المشكلة الأكبر هي الوقوف أمام العقبة والاستسلام لها.

هدى مقنّص

مقدمة

الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر 2001، الانتفاضة الثانية، الهجمات الانتحارية بالمئات في مناطق النزاع ولاسيّما في العراق وأفغانستان وباكستان، مشاهد دامية في بيروت... هي أحداث وصور يبدو أنها تجعل العنف مرتسماً ضمن أقدار الشرق الأوسط.

ليست هذه الظاهرة بجديدة البتة، بل هي موجودة عبر القرن الماضي والسنوات الأولى من القرن الحالي: تغييرات الأنظمة في طهران وإسطنبول بين العامين 1906 و1908 تشرّع بشكل مستديم اللجوء إلى العنف كنمط عمل سياسي. حدث الانحدار العثماني في بداية القرن العشرين على خلفية "تعاملٍ قاسٍ" مع المجتمعات على امتداد أراضي السلطنة الشاسعة. واجهت سلطات الانتداب، التي تأسست في العشرينيات من القرن العشرين، موجة من الانتفاضات ولم تحافظ على بقائها إلا بالإكراه المتزايد. ثم جاء تقسيم فلسطين في العام 1948 فاتحاً الباب أمام مرحلة من الاحتجاج الواسع في العالم العربي، أدّت، في أقل من عقد من الزمن، إلى انقلابات عسكرية و"أنظمة ثورية" أكثر إكراهاً من تلك التي انقلبت عليها. وأثار الشرخ الرباعي في العام 1979، ونقصد به

الثورة الإيرانية، التمرّد الإسلامي في مكّة، اتفاقات كامب ديفيد وغزو أفغانستان، احتجاجاً إسلامياً هزّ التزام اليسار الثوري وأعاد تفسير مفهوم الجهاد بمعنى عسكري حصري. شهد عقد التسعينيات كذلك كفاحاً جهادياً مسلحاً في مصر والجزائر بقدر ما شهد زيادة الاحتجاج عبر الأوطان، وهو احتجاج صادر عن هوامش المجتمعات الإسلامية انتهى بالتراكم في مجال عملت القاعدة على تركيبه.

حين تقبل بالعمل على العنف في الشرق الأوسط فأنت تقبل بدخول أرض ملغومة. كيف بإمكاننا التغاضي عن أن المحاضرات والندوات العديدة، ومعها تقارير الخبراء الدقيقة وضمانات الموثوقية العلمية التي جاء بها كبار العلماء، قد نجحت في نهاية المطاف في تشريع تفسيرات العنف الثقافية والحضارية المنحى، حتى في ما يتعدى الأوساط الأمنية[1]؟ لن أتطرق هنا إلى هذه الجدالات، ولن أخوض في تحليل السياقات التي وضعت فيها هذه الخطابات، علماً أنها تتفق اتفاقاً تاماً مع الخطابات الإسلامية اليوم[2]. "الثقافة"، وهي مفهوم يصعب تصنيفه بشكل طبيعي، لا يمكنها أن تفسّر العنف إلا بشرط أن تُعتبر هي نفسها عنصراً من نظام تفسيري مركّب وديناميكي. على سبيل المثال، يتّصل عدد من الكلمات الجامعة المرتبطة بالعنف في الشرق الأوسط، كـ"ثورة" و"حزب واحد" و"مجتمع عضوي" و"أصالة" و"مجتمع نقي"، بثقافة سياسية عالمية بالكامل يرجع تاريخها إلى القرنين التاسع عشر والعشرين.

---

(1) Karim H. Karim, *Islamic Peril: Media and Global Violence* (Montreal: Black Rose, 2001), p. 74, and François Burgat, *L'Islamisme à l'heure d'Al-Qaida, réislamisation, modernisation, radicalisation* (Paris: La Découverte, 2005), p. 63.

(2) Aziz Al-Azmeh, *Islams and Modernities* (London: Verso, 1993),
كما سنرى فيما بعد، لا يتردد بن لادن أبداً في اللجوء إلى نظرية "صدام الحضارات".

إن الإحالات الثقافية والدينية القديمة، كالجهاد (بمعنى الجهد أو الحرب) والشهيد والدعوة، كما إحالات المتخيّل السياسي المبني حول الزعيم والمُلْك (حيث إن السلطة تفهم كمُلْكية) أو الدولة (بالمعنى المعروف وأيضاً بمعنى طائر الحظ) تقع جميعها كما هو واضح في مجال العالم الإسلامي، إلا أنها تفسَّر انطلاقاً من شبكات قراءة جاءت من بعدها وجاءتها من الخارج، فلا تعود تطلق العنف بنفسها بل تصبح "مصادرَ" مشرّعة له[3] بعد حدوثه. وهكذا، فإن الإحالات اللاهوتية والأخروية، التي تنبع عن ميراث تجارب وبنيان عقائدي ممتد على أكثر من أربعة عشر قرناً[4]، يعاد تنشيطها باستمرار في سياقات جديدة دائماً تملؤها ذاتيات لم يكن لها وجود في الماضي. إلا أن التشوّهات التي تصيب هذه الإحالات تدعونا إلى الإنصات إلى الدرس العظيم الذي ألقاه مكسيم رودنسون (Maxime Rodinson) منذ عقود خلت حين قال: "بعيداً من أي موقف على المستوى الفلسفي، إني أؤكد بقوة أن على عالِم الاجتماع أن يكون "وجودياً"، بمعنى من المعاني على الأقل. فالمجتمعات والجماعات لا تملك ماهية أو كياناً متصلاً أو إخلاصاً لـ"ثوابت" لا تتحرك، كما أنها لا تملك "مهمّة" أو "رسالة" جيدة أو سيئة. هي تملك وجوداً يُحدِث فيها تعديلات من دون توقّف. وما يحدّد وعيها وعملها هو وضعها الذي لا يكون هو نفسه بالضبط أبداً والذي يخضع

(3) Michael Gilsenen: "Problems in the Analysis of Violence," in: Jean Hannoyer, dir., *Guerres civiles*: *Economies de la violence, dimensions de la civilité* (Paris: Karthala, 1999), pp. 105-122, and *Lords of Marches: Violence and Narrative in an Arab Society, I. B.* (London: Tauris, 1996).

(4) Jean-Paul Charney, *Principes de stratégie arabe* (Paris: L'Herne, 2003), et Jean Flory, *Guerre sainte, jihad, croisade: Violence et religion dans le christianisme et l'Islam* (Paris: Seuil, 2002).

إلى لعبة التغيّرات الداخلية أو الخارجية"[5]. وكما يقول أيضاً فرانسوا بورغا (François Burgat) بطريقته الخاصة: "القوانين التي تحكم سلوك الـ أومو أوريتاليس (Homo Orientalis) أو إنسان الشرق، مدوّنة في مراجع علم الاجتماع السياسي أكثر ممّا هي مدوّنة في الكتب المقدّسة"[6].

لقد آليت على نفسي هنا أيضاً أن أقف على مسافة من المقولات التي تنتجها الأوساط الخارجة عن أوساط البحث، بدءاً بمقولة "الإرهاب". فهذا المفهوم يرتدي في الحقيقة قيمة تحليلية وقيمة كاشفة ضئيلة، هذا لأن التعريفات المتعدّدة الأشكال والمتغيّرة التي أعطيت له مع الوقت قد جعلته يفقد ببساطة عملانيته[7]. وكذلك مقولة "التطرّف" التي جُعلت مقولة عملانية ولاسيّما في سياق مرحلة ما بعد الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر، ومعها مجموعة من المصطلحات التي اعتادها القارئ الشريف، بالرغم منه، على غرار مقولة "التهديد الاستراتيجي" و"حرب الجيل الرابع". تحوّلت هذه الكلمات من مفاهيم مسيطِرة إلى أدوات "سيطرة بواسطة المفاهيم"[8]، وهو تحوّل قد جرى في سياق إفقار التحليل. أما بالنسبة إلى مصطلح "إسلاموي" فإني لا أستعمله هنا إلا بشكل افتراضي. فمن الواضح أنه على امتداد السنوات 1970 – 2000، أعلن عدد من الحركات "إسلاميته" وهو ما يعطي الباحث إذناً

(5) Maxime Rodinson, *Marxisme et monde musulman* (Paris: Seuil, 1972), p. 285.

(6) François Burgat, *L'Islamisme en face* (Paris: La Découverte, 1996), p. 19.

(7) Bruce Hoffman, *Inside Terrorism* (New York: Columbia University Press, 1998), pp. 13-44.

(8) Fanny Colonna, *Savants paysans: Eléments d'histoire sociale sur l'Algérie rurale* (Alger: Office des Publications Universitaires, 1987), p. 62.

باستخدام هذه الكلمة. لكننا لا نقاربها، كما لا نقارب "الماركسية"، بوصفها "شيء"، بل نتيجة آليات مركّبة ولدت في خلالها تيارات قدّمت نفسها بوصفها إسلامية، ثم تحوّلت وتطرّفت أو اختارت استراتيجيات برغماتية وصارت تمثّل مجموعة كبيرة من الانتماءات والولاءات.

يدرك الكاتب تماماً استحالة تغطية كل مظاهر العنف كما يستحيل تماماً تغطية كامل "الشرق الأوسط" وهو لايزال مفهوماً مبهماً وغير محدد، ولاسيّما أن التمثلات النزاعية قد وسّعته إلى حد أنها صارت تضم إليه أفغانستان وباكستان وحتى إندونيسيا شرقاً والمغرب العربي غرباً. من ناحية، ومع أخذ العلم بخطورة مظاهر العنف البنيوي أو النظامي الذي تتقاسمه المجتمعات الشرق أوسطية مع العديد من المجتمعات الأخرى، إلا أنني أتركها جانباً، كمظاهر العنف في السجون والثكنات والأسر والنظام المدرسي، ومظاهر العنف الذي يمارس على النساء أو الذي يرافق جوهر علاقات السيطرة، مهما كانت[9]. ومن ناحية ثانية، لايسعى الكاتب إلى الشمولية، بل يهدف إلى التقاط ديناميكيات الاستمرارية، كاستمرارية الأنظمة السلطوية والإكراه كنمط إنتاج الطاعة الذي يساهم بشدّة في عسكرة الدول والمعارضات معها، والمتخيَّلات الثورية الساعية إلى التحرّر الاجتماعي والوطني والاحتجاجات الأقلية وانفصالية الهوامش. هذا السعي لإبراز محاور بنيانية يجب ألا يقودنا إلى التغطية على أماكن وأوقات حدوث الشروخ، حيث تنشأ أنماط عمل جديدة وتقوم تراكيب سياسية جديدة فتعيد تحديد نزاعات قديمة أحياناً. فأنا أترك جانباً، على سبيل المثال، حقبة إزالة الاستعمار عن المغرب العربي (1956-1962) ومعها التوترات الأفغانية قبل العام 1979، ليس

(9) Elizabeth A. Stanko, dir., *The Meanings of Violence* (London: Routledge, 2003).

لأن حروب الاستقلال أو الاحتجاجات التي وسمت هذه المساحات لاتستحق تحليلاً معمقاً، بل لأنها موسومة بعمق بتاريخانية خاصة بها. وهذه ليست حالة الجهاد الأفغاني أو الجهاد الجزائري في ما بين عامي 1980 و2000 حيث إن "دورهما التجذيري" يتخطى بكثير حدود كل واحد منهما وقد قمنا بالتالي بتحليلهما بالتفصيل.

النهج التعاقبي الزمني المتبع هنا قد فرضه همّ كشف وتحليل كل مرحلة انطلاقاً من الضغوط التي تسيطر عليها والذاتيات التي تسمها والأمكنة - الأزمنة التي تحركت فيها هذه الذاتيات وتحولت، فتركت المعاني القديمة مكانها أمام معانٍ جديدة فرضت نفسها بالقوة أحياناً. الزمن الذي يعرّفه بيار بورديو (Pierre Bourdieu) بوصفه قوة تحديد "زمن الآخرين"[10]، هو أيضاً هدف وآلية الاحتجاجات على أنظمة السيطرة القائمة وبناء علاقات سياسية واقتصادية واجتماعية جديدة. بهذا المعنى، لايستطيع الباحث التقاط الزمن إلا عبر تموجات دائمة بين عدد من السلالم الزمنية[11]، بين "لحظة" حدوث عمل عنيف وبين المدة الطويلة. وكذلك الأمر بالنسبة إلى المكان الذي يتميز بتعددية مدهشة، من الريف البسيط إلى العالم بكليّته، تغذيه طوراً صورة محلية وطوراً حادثة تأسيسية أو انتظار الانقاذ أو أيضاً رجاء كوني.

خُصّص الجزء الأول من الكتاب إلى حالات الشغف الثوري في بداية القرن العشرين في بلاد فارس والإمبراطورية العثمانية، ثم في العشرينيات منه إلى إقامة أنظمة انتداب، ولاسيّما في العراق وسوريا

---

(10) Pierre Bourdieu, *Méditations pascaliennes* (Paris: Seuil, 2003), p. 328.

(11) انظر حول إشكالية السلالم:
Jacques Revel, dir., *Jeux d'échelles, La micro-analyse à l'expérience, EHESS* (Paris: Gallimard; Seuil, 1996).

وفلسطين كانت سبباً لقيام "الثورات الكبرى" رداً على تقسيم العالم العربي وحالة وعي الذات كمجتمع جديد تحدده إقليمية مفروضة عليه من الخارج. يبدأ الجزء الثاني لحظة تقسيم فلسطين في العام 1948 ويهتم بالاحتجاجات الثورية للأعوام 1950-1970 وبإقامة أنظمة سلطوية تستمد أحياناً مصادر استمراريتها من الحرب الباردة. وينطلق الجزء الثالث أخيراً من "لحظة سيّد قطب". يرتدي ميراث هذا المفكّر المصري الذي أعدم في العام 1966، كل معناه في خلال حلقة الاحتجاج الإسلامي الذي بدأ في العام 1979 ليمتد عبر حروب ثمانينيات القرن العشرين والحرب الأهلية الجزائرية في تسعينياته وهجمات الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر 2001، وصولاً إلى أيامنا هذه. تشهد هذه الحقبة كذلك على إكراه متزايد مارسته الدول وكان مسؤولاً إلى حد بعيد عن نشوء معارضات مسلحة جديدة.

لا يسمح هذا النهج التعاقبي الزمني بفهم التشكيلات السياسية المتوالية على النطاق الإقليمي وحسب، بل أيضاً الأطراف الفاعلة المؤثرة فيها. إن شبه استمرارية العنف لا يعني أبداً أنه ثمرة الديناميكيات نفسها ولا أنه يجيء عن يد الفئات نفسها. فـ"الكوميتاجيون" الأتراك في مراجعات والشخصيات والقبضايات السوريون في العشرينيات و"الضباط الأحرار" والفدائيون الفلسطينيون ومناضلو الأعوام 1950-1970 و"الحيطيون" أو "أفغان" التسعينيات لا يمثلون أنماط التنشئة الاجتماعية نفسها ولا يحملون الرجاءات بالإنقاذ نفسها. إذا كان باستطاعتنا التحدث بسهولة عن "حلقات تاريخية" شرق أوسطية، كحلقة أنظمة الانتداب أو حلقة "الثورات التقدمية" أو حلقة الاحتجاجات الإسلامية، فإننا مع هذا لسنا أمام تاريخ دوري ينتج عنفاً متزايداً باستمرار في حالة فقدان وزن اجتماعي. وأخيراً، فإن التقطيع التعاقبي الزمني،

الذي لايستبعد بالطبع القراءة العرْضية، هو الوحيد الذي يسمح بإجراء مقارنة بين الشرق الأوسط وسائر مناطق العالم، بدءاً بأوروبا. لايمكننا أن نفهم، على سبيل المثال، ظاهرة بشمولية التطرف اليساري في الأعوام 1950-1970، انطلاقاً من الإطار الشرق أوسطي وحده.

كما أن القراءة العرْضية موجودة في الكتاب بتبرير مزدوج. الأول النزاعات الكردية والفلسطينية، التي تنتج بشدة حالات إكراه وعنف، أو بعض المسيرات التاريخية الخاصة (تركيا، فارس/ إيران) التي يتم تحليلها في فصول خاصة تهتم بالمدة الزمنية الطويلة. والثاني هو العدد الكبير من الفصول المخصّص لتطوّر أنماط السيطرة والإكراه والعنف في كامل المنطقة خلال دورة تاريخية معيّنة.

سيكون من قبيل الوهم السعي إلى تقديم تعريف عن العنف، وهو بمصطلحه الفرنسي (Violence) يرجع إلى جذر لاتيني يحيل إلى مجموعة متعددة المعاني: التواء، لولب، التفاف، ثقب[12]. لكن دعونا نحدد بالقول إن العلوم الاجتماعية تستعمله لا كـ"شيء" بل كـ"مفهوم"[13]، ومن خلفه كعلاقة وممارسة سيطرة أو احتجاج ونمط تنظيم اجتماعي بقدر ما هو بلبلة اجتماعية[14]، ووسيلة لبناء المعنى وعكس المعنى اللذين يفهمان كرفض للتمثلات القائمة. يشير جان لوكا (Jean Leca) إلى أنه لا يمكن أن نفهم العنف كمتغيّر تابع (مسبَّب) ولا

(12) Fethi Benslama, "Commentaire: Violence et discernement," dans: Max Pagès [et al.], *La violence politique* (Paris: Erès, 2003), p. 178.

(13) Peter Haidu, *The Subject of Violence. The Song of Roland and the Birth of the State* (Bloomington: University of Indiana Press, 1993), p. 3.

(14) Daniel Pecaut, "De la banalité de la violence à la terreur: Le cas colombien," *Cultures et Conflits*, nos. 24/ 25 (1997), p. 166.

كمتغيّر مستقل (مسبِّب)، ولا كـ"وظيفة" أو ثقافة، ولا كسلسلة أطلقها طرف (هو البادئ)، بل كعنصر في أنظمة عمل متعددة حيث يمكن، بحسب الحالات الملموسة والأسئلة المطروحة، تفكيك العنف إلى "حالات عنف"[15].

شددت إيمان فرّاج، في مقالة بارزة حول مصر، على أن العنف الذي يحمل "أثر إزالة الشرعية" عن السلطة، يكون "محلِّلاً" لمختلف الأطراف، فـ"يعكس لهم صورة عجزهم نفسه"[16]. إن دور "محلِّل البعد الاجتماعي" بحد ذاته هو الذي سنهتم به هنا: محلِّل الهوامش حيث تنشأ الاحتجاجات المسلحة وترتدي معنى، محلِّل علاقات الأجيال التي لا يمكن حصرها بعملية الانتقال البسيطة أو بمجرد الشرخ بين الأجيال، محلِّل التراكيب السياسية الجديدة، كـ"الماركسية اللينينية" أو "الإسلامية" التي كانت في مرحلة أولى "غير مفهومة" وصارت مهيمنة بعدها. إنها كذلك هذه الوظيفة التي تمنع اللجوء إلى نمذجة تحصر الأطراف الفاعلة على حساب الآليات التي تفعل فيها وتطور في إطارها أنماط عمل. إنها هي أيضاً التي تدعونا إلى مقاومة أي تفسير يصاغ بمعنى عدوانية وسلوك وراثي[17] أو رجعة الموروث. سيظل بحثنا عن تفسير للعنف غير مجدٍ ما لم نضعه قبلاً في علاقة مع الأنظمة السياسية التي

(15) Jean Leca, "La "rationalité" de la violence politique," dans: Baudoin Dupret, dir., *Le phénomène de la violence politique: perspectives comparatistes et paradigme égyptien* (Le Caire: CEDEJ, 1994), p. 30.

(16) Iman Faragh, "La violence comme analyseur, le consensus national en question," dans: Ibid., p. 195, 201.

(17) انظر حول هذا الموضوع:
Paul Ricoeur, *La mémoire, l'histoire, l'oubli* (Paris: Seuil, 2000).

ولد فيها ومع آليات انفتاحها وانغلاقها وقدرات الدمج والإقصاء فيها ومهارتها في قبول وتشريع الاحتجاجات[18] أو اختيارها تجريم العنف سواء أكان اختياراً حراً أم مكرهاً[19].

يمثل مصطلح "إكراه"، المستخدم في هذا الكتاب لتعريف العنف الذي تمارسه دولة ما أو جسم قائم، بما فيه من حيث مظاهره الاعتباطية أو حين يتخذ شكل مذابح[20]، أحد الأدوات الأساسية التي يجري الاستيلاء على السلطة بواسطته فـ"يجعلها ممكنة"[21] ويؤمن إعادة إنتاجها[22]. هو بالتأكيد ليس الأداة الوحيدة بمتناول سلطة أو جسم قائم وليس مجنداً باستمرار. لكن، حتى في المجتمعات الديمقراطية، لا يمكن فهم السلطة بغض النظر عن "جيوش الدولة وقوى الشرطة والميليشيات والحراس واختصاصيي الإكراه الآخرين"[23]. وكذلك

---

(18) Donatella Della Porta, *Social Movements, Political Violence and the State. A comparative Analysis of Italy and Germany, Cambridge; Charles Tilly, The Politics of Collective Violence* (Cambridge: Cambridge University Press, 2003).

(19) انظر حول هذه الفرضية:
Fritz Sack and Heinz Steinert, *Protest und Reaktion* (Opladen: Westdeutscher Verlag, 1984); Sophie Body-Gendrot, *Ville et violence. L'irruption de nouveaux acteurs* (Paris: PUF, 1993), et Michel Wiervorka, *La violence* (Paris: Hachette, 2003).

(20) كما يذكرنا دافيد الكنز، إن المذابح ضد المدنيين متصلة اتصالاً وثيقاً بتأسيس "الدول الأمم المعاصرة".
David El Kenz, *Le massacre, objet d'histoire* (Paris: Gallimard, 2005), p. 12.

(21) Niklas Luhmann, *Die Politik der Gesselschaft* (Francfort/ Main: Suhrkamp, 2002), p. 55.

(22) Abdellah Hammoudi, *Master and Disciple: The Cultural Foundations of Moroccan Authoritarianism* (Chicago: Chicago University press, 1997), p. 84.

(23) Charles Tilly, *The politics of Collective Violence* (Cambridge: Cambridge University Press, 2003), p. 64.

الأمر بالنسبة إلى العنف السياسي أو الأهلي الصادر عن المجتمع والذي لا يمثل "عودة إلى الغرائز الموروثة"، بل يشكّل تارة رداً على "ضيق أشكال العمل المتوافرة" وتارة "خياراً استراتيجياً"[24]، أو أيضاً إمكانية تعتبر بشكل ذاتي كما لو أنها الوحيدة المتوافرة أو المناسبة في حال أزمة أو وضعية سيطرة.

وهكذا، فإن تحميل العنف بالمعنى يعني مقاومة تفسيره حصراً انطلاقاً من كونه أداة أو ظروف مادية أدّت إلى نشأته[25]. لا يمكن في الحقيقة فهم العنف من دون الأخذ بالاعتبار نظام الذاتية الذي يندرج في إطاره[26] والذي يعطي لنفسه معنى انطلاقاً منه ويتوخى "انتظار بعض النتائج التي لا تأتي في الواقع أبداً"[27].

كيف لا يحرّكنا، في هذا المجال، تحليل ألبير كامو (Albert Camus) مع تنديده الشديد بـ"الخطأ الدموي الذي ارتكبه الإرهاب الجزائري"، إلا أنه كتب في العام 1955 قائلاً إن هذا الأخير يولد "دائماً وفي كل مكان [...] من الوحدة ومن فكرة تقول بانعدام أي حيلة أخرى وبانعدام المستقبل، وتقول إن الجدران التي لا نوافذ فيها سميكة جداً،

(24) George Elwert, Stephan Feuchtwang and Dieter Neubert, dir., *Dynamics of Violence: Processes of Escalaltion and De-Escaltion in Violent Conflicts* (Berlin: Duncker, 1999), p. 9.

(25) انظر لنقاش المسألة:
Daren Ballentine and Jake Sherman, dir., *The political Economy of Armed Conflicts: Beyond Greed and Grievance* (Boulder: Lynne Tienner, 2003).

(26) Pamela J. Stewart and Andrew Strathern, *Violence: Theory and Ethnography* (London: Continuum, 2002).

(27) Albert O. Hirschman, *Les passions et les intérêts* (Paris: PUF, 1987), p. 117.

وحتى نتمكن من مجرّد التنفس والتقدم قليلاً يجب تفجيرها"[28]؟ وبدوره، ميشال دو سيرتو (Michel de Certeau) لاحظ أن التمثلات المسيطرة (والمفروضة أحياناً بالإكراه الصرف، وأحياناً باستبطانها) يمكنها أن تظهر عارية بالكامل في لحظة ما، أي معدومة المعنى وغير قابلة للتصديق فيجري رفضها بالعنف ومن خلاله. كتب قائلاً إن العنف "هو أولاً شيء آخر غير الوحشية الغبية التي يحدثوننا عنها في بروباغنداتهم. هو ناشئ عن الفئات الاجتماعية التي سحبت منها بعناية أي مسؤولية قبل أن توصف بـ"غير مسؤولة"، وهو يحتج وينفض ويمزق النظام الذي يقضي على الحركات العميقة وعمليات تجدّد بلد أو مجموعة. ينزع العنف إلى تأسيس لغة ذات معنى بين البشر"[29]. من هنا يشدّد دو سيرتو في كتابه هذا على "أنظمة الذاتية" التي بنيت انطلاقاً من "تمثلات ومشاعر معاشة"[30] ومن "العذاب" بوصفه "علاقة اجتماعية"[31]، وهي مكوّنات تشكل جزءاً لا يتجزأ من الواقع الذي تولد فيه.

إنه في النهاية هذا الهم الذي يدفعني إلى أن أشدد في هذا العمل على مفهوم العنف الرمزي وأن أعيد تعريفه. يفهم بيار بورديو هذا المفهوم على أنه استبطان آليات السيطرة ليؤدي تطبيعها إلى عدم إدراكها وفق ما هي عليه[32]. يقترح فيليب برود (Philippe Braud)

(28) Albert Camus, *Réflexions sur le terrorisme* (Paris: Nicolas Philippe, 2002), p. 136.

(29) Michel de Certeau, *La Culture au pluriel* (Paris: Seuil, 1993), p. 26.

(30) Arnaud Plagnol, *Espaces de représentation: Théorie élémentaire et psychopathologie* (Paris: CNRS, 2004), p. 11.

(31) Talal Asad, *Formations of the Secular: Christianity, Islam, Modernity* (Stanford: Stanford University Press, 2003), p. 89.

(32) Pierre Bourdieu et Loïc J. D. Wacquant, *Réponses* (Paris: Seuil, 1992), pp. 116-146.

معنى ثانٍ وهو "تجربة مؤلمة يخضع لها المرء ويدركها من خارج أي علاقة إكراهية"[33]. لا أستبعد هذين التفسيرين، إلا أني أستخدم مفهوم العنف الرمزي هنا من أجل وصف البناء اللغوي للعداء الذي يسبق العنف البدني بعد وقوعه كما يرافقه ويشرّعه. فيشكل هذا العنف كلاً يضم "التعامل القاسي" مع مجتمع ما و"اغتصاب" اللغة[34].

(33) Philippe Braud, "Violence symbolique, violence physique: Eléments de problématisation," dans: Hannoyer, dir., *Guerres civiles: Economies de la violence, dimensions de la civilité*, p. 34.

(34) Viktor Klemperer, *LTI: La Langue du Troisième Reich* (Paris: Albin Michel, 1996), et G. Steiner, *Langage et silence* (Seuil: Paris, 1969).

انظر أيضاً مفهوم "وَرَسلاح" الذي استخدمه:

Ulrich Beck, *Die Feindlose Democratie, Ausgewählter Aufsätze* (Stuttgart: Philipp Reklam, 1995), p. 168.

الجزء الأول

دول وقوميّات

واحتجاجات ثورية

(1979-1906)

الفصل الأول

متخيَّلات وشرعيات ثورية

ممّا لاشك فيه أن العنف السياسي ليس ظاهرة حديثة، لا في الشرق الأوسط ولا في سائر أنحاء العالم. تحصي مدوّنات الأحداث عدداً كبيراً من الاحتجاجات الشعبية وحركات التمرّد، سواء في المدينة أم في الأرياف، منذ القرنين التاسع والعاشر[1]. وفي تاريخ أقرب إلينا، شهدت القرون العثمانية الطويلة (1299-1922) موجات من التمرّد والقمع الشديدين، وقد نشط بعض منها على امتداد عقود من الزمن.

بيد أنه في خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، وتحت ضغط شروخ قاسية ناتجة عن نشوء القوميات المنافسة[2]، اتسع العنف والقمع مجدداً سواء في بلاد فارس أم في السلطنة العثمانية. كما ارتدى التدخل الاستعماري وحشية كبيرة[3]، تحت شكل الاستيلاء على أراضٍ، من

(1) Simha Sabahi, *Mouvements populaires à Bagdad à l'époque abbasside, IXe-XIe siècles* (Paris: Adrien Maisonneuve, 1981).

(2) Stéphane Yérasimos, *Questions d'Orient, Frontières et minorités des Balkans au Caucase* (Paris: La Découverte, 1993), p. 13.

(3) Olivier Le Cour Grandmaison, "Conquête de l'Algérie: La guerre totale," dans: David El-Kenz, *Le Massacre, objet d'histoire* (Paris: Gallimard, 2005), pp. 257-274.

أقاصي روسيا وصولاً إلى الجزائر. سواء أكانت التدخلات الأوروبية مسلّحة أو ملطّفة، إلا أنها أطلقت آلية طويلة ومؤلمة خسرت فيها القوى الإسلامية الأساسية مساحات من الأراضي، وكانت نتيجتها تهجيراً سكانياً كثيفاً ما يعيد إحياء ذكرى حروب الاسترداد الإسبانية (Recon-quista) المريرة. أثارت السياسة الاستعمارية كذلك شعوراً بالعجز أمام الـ"غرب" بالطبع، ولكن أيضاً أمام النفس وولّدت "مناخ استسلام خانع" إزاء "حرية مدنية في الحكم والقرار" كانت سائدة حتى ذلك الحين[4]. وبعد قرون من استقرار حكم السلالات العثمانية، بدت نبوءة ابن خلدون القاتمة وكأنها تتحقق من جديد وهي أن كل قوة محكوم عليها بالانحطاط[5].

إصلاح الدولة بالقوة

بذلت البلاطات العثمانية والفارسية جهوداً كبيرة من أجل إبعاد شبح الاستسلام والقضاء على ما أسمته هي حالة من الانحطاط.

في أوائل القرن التاسع عشر، بدأت في الإمبراطوريتين حقبة أطلق عليها اسم "النظام الجديد" وقد قامت أحياناً بتصفية النظام القديم بشكل شديد الوحشية ووضعت حداً للهندسة الإمبراطورية التقليدية ودعت إلى قيام حكم غير مباشر على الشعوب التي توزعت إلى مجموعات طائفية أو قبائل أو نقابات يمثلها في كثير من الأحيان محاورون من

(4) Louis Gardet, *Les hommes de l'Islam: Approche des mentalités* (Bruxelles: Complexe, 1984), p. 77.

(5) حول ابن خلدون، انظر أساساً:
Abdesselam Cheddadi, *Ibn Khaldoun L'homme et le théoricien de la civilisation* (Paris: Gallimard, 2006); Gabriel Martinez-Gros, *Ibn Khaldûn et les sept vies de l'islam* (Arles: Sindbad-Actes Sud, 2006), et Krzysztof Pomian, *Ibn Khaldoun au prisme de l'Occident* (Paris: Gallimard, 2006).

أصحاب الامتيازات. وقد حلّت محل النظام، الذي كان قد ولّد على مر القرون آليات السيطرة والإلحاق الخاصة به، هندسةٌ سياسيةٌ جديدة تهدف بوضوح إلى إقامة مركزية الدولة عبر تصفية الوضعيات الإدارية والسياسية الاستثنائية. كانت البلاطات مدفوعة بحالة طوارئ، فوحدها عملية ضغط الوقت، أي التطبيق الفوري للإصلاحات التي كانت أوروبا قد حققتها من أجل إحراز تقدم، بدءاً بمركزية السلطات والتقطيع العقلاني للأراضي، كان يفترض بها تأمين بقائها.

إن المثال العثماني الذي سنأتي هنا على دراسته بشكل خاص، لأنه قد حدّد فيما بعد مستقبل الشرق الأوسط، هو المثال الفاقع في هذا المجال. فُرضت الإصلاحات وجرى تطبيقها بوتيرة متسارعة وكان الثمن أن صار العنف الذي مارسته الدولة أمراً عادياً أو حتى مؤسسياً. وهكذا، قامت أجهزة جديدة لجمع الضرائب والتجنيد وأخرى قضائية وعسكرية نجحت، في خلال عقود، في تفكيك الإدارات ذات الوضعيات الاستثنائية، كالحكومات المحلية في كردستان، ومعها التشكيلات العسكرية التقليدية كحل الانكشارية في العام 1826 وهي وحدة المشاة العثمانية الخاصة التي أصبحت مزعجة سياسياً. بيد أن هذه الأجهزة الجديدة التي جعلتها الدولة، غير القادرة على القيام بأعباء طموحاتها، أجهزة بائسة، أصبحت بسرعة مصدر عدم الاستقرار والتعدّيات والعنف. وعندما كانت تحقق نجاحاً، كان ذلك مقابل استعمار داخلي لأراضي السلطنة. ففي سوريا، على سبيل المثال، "حققت السلطات العثمانية أبرز نجاحاتها على هوامش العالم الحضري. فقد تمكنت تدريجاً من احتواء الضغط البدوي ثم السيطرة عليه وتبنّت بعدها، ابتداءً من خمسينيات القرن التاسع عشر، إجراءاتٍ على المدى الطويل، من استخدامٍ دائمٍ للقوة المسلّحة وبالأخص بناء

سلسلة من الحصون الصغيرة تتحكم عموماً بموارد المياه في البادية مع تشجيع القبائل الصغيرة على الاستقرار"(6).

كما ولّدت الإصلاحات متخيَّلاً سياسياً جديداً. لم تتخلَّ الدولة العثمانية عن طموحها الرئيس وهو تحقيق العدالة بين رعاياها، على الرغم من أن الممارسة العملية تناقض هذا المبدأ بشدّة، إلا أنها سعت بعد ذلك إلى تأمين استمراريتها من خلال بناء "أمة" بإمكانها أن تصبح قاعدة للتعبئة والشرعنة. وقد اعتبرت الأجهزة العسكرية، التي أنشئت بمساعدة ضباط أوروبيين، نموذجاً لما يجب أن يكون عليه المجتمع الجديد. وليس من قبيل المفاجأة أن يصبح الجيش، الذي لا يمكن اعتباره حرساً إمبراطورياً ولا فرقاً احترافية مكلفة بالدفاع عن الأراضي، مركباً عضوياً في الإدارة الجديدة. وقد كان الجيش أكثر قمعاً في الداخل منه إنجازاً على الحدود، فتماهى تدريجياً مع "الأمة" ليصير الوعد ببنائها وخلاصها. وإذ به "ركيزة" السلطة التي يعتمد بقاؤها عليه، فاقتطع لنفسه حصة الأسد في موارد الدولة واكتسب شرعية لاسابق لها. وفي حين جُعِل الجيش ليخدم، حلّ في نهاية المطاف محل الدولة.

لم يكن التجنيد الإجباري، الذي فرض أساساً على الفلاحين، معتبراً بمثابة واجب وطني أو مدني، بل بمثابة ظلم. وصار مرادفاً للعنف الممارس على الشعب فتسبّب بأشكال عنف متعددة، من تمرّد أو تشكيل عصابات مسلحة من الفارّين من الجندية وصولاً إلى أشكال من العنف المخصخص(7). كما أن قيام بيروقراطية عسكرية ملتزمة بالأهداف التي

---

(6) Jean-Paul Pascual, "La syrie à l'époque ottomane (le XIX[e] siècle)," dans: André Raymond, dir., *La Syrie d'aujourd'hui* (Paris: CNRS, 1980), p. 43.

(7) Erik-J. Zürcher, dir., *Arming the State. Military Conscription in the Middle East and Central Asia, 1775-1925* (London: I. B. Tauris, 1999).

تحدّدها لها الدولة لم يضع حداً أبداً لأشكال منطق التعاضد الأولي؛ بل على العكس، فقد احتلت هذه الأخيرة البنى الجديدة لتخلق عصابات بالزّيّ العسكري[8]. وفي حالات أخرى، اعتبرت مهنة العسكر، وبالأخص من جانب الشخصيات العسكرية الجديدة، بمثابة أعمال تعدٍّ تمارس باسم مجموعة متضامنة على مجموعة سكانية معينة. ليس الجيش الجديد هوالقوة التي تصلح الدولة نفسها من خلالها وحسب[9]؛ ففي ما يتعدى أي ضرورة عسكرية، صار الجيش أيضاً أداة لتأمين الموارد وفرصة للترقي وأحياناً أيضاً استراتيجية للبقاء.

وقد لوحظت الظاهرة نفسها بالنسبة إلى الأجهزة البيروقراطية الأخرى التي سعت السلطنة العثمانية جاهدة إلى إنشائها. على الرغم من بعض النجاحات، في مجال تقطيع الولايات مثلاً، لم تتجذّر الإدارة الجديدة إلا بصعوبة كبيرة، فقد بقيت الدولة في كل مكان طرفاً خارجياً تنكر عليه الشعوب المحلية أي شرعية ولا تطيعه إلا مكرهة ومن دون أي إحساس بالانتماء. لم تتمتع السياسات الجديدة بوضعية "الدعوة الدينية" أو بإيديولوجية يمكن فهمها انطلاقاً من قواعد سياسية محلية، فرفضتها الشعوب رفضاً واسعاً أو كانت ببساطة غير مجدية. وكما يظهر من خلال دمج القبائل الكردية في العام 1891، عبر تشكيل ألوية الحميدية الخفيفة على طراز فرق القوزاق، أو أيضاً من خلال تسمية المتمرّد سيّد طالب النقيب حاكماً على البصرة في بدايات العقد الثاني من القرن

(8) James J. Reid, *Crisis of the Ottoman Empire: Prelude to Collapse 1839-1878* (Stuttgart: Franz Steiner Verlag, 2000)

(9) Odile Moreau, Abderrahman El-Moudden, dir., "Réforme par le haut, réforme par le bas: La modernization de l'armée aux XIX[è] et XX[è] siècles," *Quadrani di Oriente Moderno*, vol. XXIII, no. 5 (2004).

العشرين[10]، فإن الدولة العثمانية غالباً ما اضطرت، من أجل تأمين بقائها، إلى الاعتراف باستقلالية الأطراف الفاعلة من خارج الدولة، والاعتراف بالتالي بشرعية انشقاقهم. وقد كان أي إلحاق لقطاعات متمرّدة يحمل في طيّاته بذور انشقاقات مستقبلية.

شقّ على منطق المركزة أن يفرض نفسه لأنه كثيراً ما فشل في تأمين سلامة السكان، ذلك أن وجود الفرق العسكرية الجديدة كان عاملاً يفاقم الشعور بانعدام الأمان بدل أن يكون عاملاً مخفّفاً له في الولايات. وإذا كانت الكيانات ذات الوضعيات الاستثنائية قادرة في الماضي على ممارسة رقابة محلّية فعلية على أراضيها، فإن الأمور لم تكن كذلك بالنسبة إلى إدارة "رسمية" بعيدة. كثرت الديناميكيات الطاردة، ولم يجد السكان المدنيون حلاً آخر إزاء انعدام الأمان سوى الانطواء على هياكل غير حكومية.

في الأجزاء الشرقية من السلطنة العثمانية، بدأت عودة القبائل بشكل واسع. وقامت مواجهة مفتوحة بين الكيانات القبلية الجديدة وبين الهياكل الإدارية لتنتهي بإلحاق هذه الأخيرة تحت سلطة القبائل. وشهدت المنطقة التي ستسمى بالعراق بعد الحرب العالمية الأولى، عملية تطييف مفارقة وكثيفة بين المسلمين. فتشيّعت مجموعات كاملة من السكان المجاورين لبلاد فارس. والجدير بالذكر أن المذهب الشيعي، بهرمية مؤسساته الدينية وشعائره وآماله بعودة المهدي، يعطي معنى لحركات التعاضد المهددة ويولد مراجع شرعية جديدة تلك التي تمثلها مؤسسة رجال الدين[11]. وكما القبيلة، أصبح المذهب مساحة موازية حيث تركّز

(10) Charles Tripp, *A History of Iraq* (Cambridge: Cambridge University Press, 2000), pp. 24-25.

(11) Yitzhak Nakash, *Reaching for Power: The Shi'a in the Modern Arab World* (Princeton: Princeton University Press, 2006).

أطراف فاعلة غير حكومية بين أيديها أدوات العنف لتسخيرها في علاقاتها الداخلية كما في علاقاتها مع المركز.

المذابح طريقاً إلى القومية والأسلمة والمجانسة

أنتجت الإصلاحات في السلطنة العثمانية نتيجة معاكسة لتلك التي كانت مرجوة منها، فبدل أن تخلق "الأمّة" انطلاقاً من نسيج متغاير، سيّست الهويات الطائفية واللغوية لتبلورِها في هويات وطنية. فشهد نظام المِلل، الذي كان في الماضي يؤمن للـ"طوائف الوطنية"[12] استقلالية ذاتية في مقابل خضوعها وإلحاقها، فورة ملحوظة فتحت باب التحرّر الحقيقي أمام الأقليات المسيحية[13]. بيد أن هذا التحسّن لم يدم طويلاً، فسرعان ما شهدنا إمّا نزاعات طائفية كما في البلقان وإمّا سياسة قمعية مارستها الدولة المركزية ضد المسيحيين ولاسيّما الأرمن، في سائر أرجاء السلطنة. وبعد أن حاول الباب العالي أن يقيم في مرحلة أولى "عثمنة" فَوطائفية، صار يلعب بشكل مفتوح بديناميكية المسلمين ضد المسيحيين الطائفية، ولاسيّما ابتداءً من عهد السلطان عبد الحميد الثاني (1876-1909).

وفي الحقيقة، كان مشروع التغريب واستخدام الإسلام من أجل تثبيت لحمة الأمة المطلوب بناؤها يشكلانِ بالنسبة إلى السلطة العثمانية ضرورتين متناقضتين لكن غير قابلتين للانفصام. على سبيل المثال، لم يكن أمام عهد عبد الحميد الثاني، المعروف بأنه عهد ارتداد عثماني

(12) Maxime Rodinson, *Peuple juif ou problème juif*? (Paris: Maspero, 1981), p. 87, 91.

(13) Bernard Heyberger, dir., *Chrétiens du monde arabe*: *Un archipel en terre d'Islam* (Paris: Autrement, 2003).

حقيقي عن الإصلاحات، من مفرّ سوى التسريع في آلية التغريب التي كانت قد انطلقت قبله. بيد أن جزءاً من الشعوب الإسلامية التي كانت تعيش في ظل السلطنة اعتبرت هذه الآلية بمثابة إهانة وأطلقت للرد عليها إمّا تطرفاً من النوع السلفي (كالحركة السنية المطالبة بالعودة إلى أصول الإسلام) وإمّا أشكالاً من التديّن الشعبي والاحتجاجي. وكان ردّ الدولة آنذاك هو إعادة ضبط سياسة التغريب من خلال المغالاة في أسلمة الهوية وهو أمر يناقض مشروع المساواة أمام القانون بين جميع العثمانيين ويثير حنق المسيحيين مسرّعاً بالتالي حركتهم الانشقاقية.

انتشر بين النخب الطائفية المسيحية، المتأثرة بالأفكار القومية ثم الاشتراكية، الاعتبارُ القائل إن السلطنة هي "عصر الظلام"، وكان رد المتخيَّل العثماني اعتبار هذه النخب أعداءً بالقوة(14) فحاول أن يفرض عليها وضعية أكثر خضوعاً. وجاءت النتيجة دراماتيكية، على غرار ما حصل للأرمن الذين أصبحوا هدف مذابح منظمة بين العامين 1895 و1896. استخدمت ثلاث حوادث ذريعة لهذه المذابح وهي: مظاهرات قام بها ناشطون من حزب هينتشاكسوتيون الأرمني في إسطنبول جرى قمعها بقسوة، وتمرّد أرمن صاصون ضد الضرائب غير القانونية التي فرضها رؤساء قبائل كردية، واحتلال البنك العثماني من قبل ستة وعشرين ناشطاً من حزب داشانكسوتيون الأرمني. كان لزكي باشا، وهو أحد أقارب السلطان، ولعدد من المسؤولين الإداريين المحليين علاقة مباشرة بالمذابح.

بالطبع، حاول بعض الحكام، هنا وهناك، حماية الضحايا والوقوف في وجه عمليات القتل، إلا أن ما بين مائة ألف شخص وثلاثمائة ألف

(14) Noemi Levy, "L'Ordre dans la ville: Istanbul à l'époque d'Abdülhamid II (1876-1909)," (Mémoire de DEA préparé sous la direction de François Georgeon).

شخص لقوا حتفهم في نهاية المطاف[15]. أطلقت الصدمة الجماعية موجة من الهجرة الكثيفة بين الأرمن ذهبت إلى ما وراء حدود السلطنة بكثير أحياناً، وصولاً إلى القارة الأميركية. أما احتلال القبائل الحميدية للأراضي الأرمنية، فقد كان سبب قيام مشكلة زراعية في غاية الخطورة[16].

لا تسمح الأبحاث في ما وصلت إليه حتى الآن بالجزم بوجود مشروع مسبق التصوّر خلف المذابح التي ارتكبت[17]، لكن ممّا لا شك فيه أن القصر امتلك المعلومات الضرورية حول وقوعها كما امتلك الوسائل الكفيلة بإيقافها. ومن المؤكد أيضاً أنها شكلت الخطوة الكبرى الأولى في سياسة أسلمة الأناضول. استخدمت السلطة العثمانية هذه المذابح لتكرّس ثنائية معقولة ومفارقة في آن، وهي ثنائية "الدين - الأمة" لتشكل عناصر هويتها مستخدمة هذين المفهومين من أجل الإخضاع وتثبيت الفوارق والفصل. هذا لأن تأسيس فكرة الوطن على أساس انتماءات دينية ومذهبية يجعل أي فكرة مواطنة مستحيلة المنال.

أهواء ثورية في بلاد فارس

بالنسبة إلى الأطراف الفاعلة في تلك الفترة، كما بالنسبة إلى الباحث اليوم، تشهد الإصلاحات على آلية تغريب يمكن ملاحظتها في

---

(15) Gustave Meyrier, *Les Massacres de Diarbékir: Correspondance diplomatique du Vice-Consul de France 1894-1896* (Paris: L'Inventaire, 2000), et Hans-Lukas Kieser, *Der verpasste Friede. Mission, Ethnie und Staat in den Ostprovinzen der Türkei 1839-1938* (Zurich: Chronos, 2000).

(16) Jelle Verheij, ""Les Frères de terre et d'eau": Sur le rôle des Kurdes dans les massacres arméniens de 1894-1896," *Les annales de l'autre islam*, no. 5 (1998), pp. 225-276.

(17) François Georgeon, *Abdulhamid II: Le Sultan calife* (Paris: Fayard, 2003), p. 293-294.

ما وراء العالم الإسلامي أيضاً. التغريب كـ"آلية ارتقاء إلى الحضارة" أو "دخول عصر الأنوار" بالنسبة إلى جزءٍ من الإنتلجنسيا، يعني في الوقائع عنفاً ثلاثي الأبعاد: ضد المؤسسات القديمة، ومن بينها مؤسسات رئيسة كالدين الذي اتهم بأنه مسؤول عن تخلف البلدان الإسلامية؛ ضد المجتمع الذي أعلنه المتعلمون المُغرَّبون في حالة رثة؛ وأخيراً ضد النفس، لشدّ ما أحسّ المثقفون أن التغريب هو شكل استلاب مأساوي. بقيت عامة الشعب منطوية على الدين والمؤسسات التي تؤمن بقاءها وتماسكها، إلا أن المثقفين واجهوا إحساس رفض الذات والإدراك الحاد بأنهم خارج الزمان والمكان.

"التغريب" هو الأمل بنهاية فترة الانحطاط بفضل تجديدٍ آتٍ من مكان آخر. وهو أيضاً القدرة على الإثبات للنفس كما للغرب الخصم والنموذج في آن، أننا قادرون على التخلي عن نظامنا السياسي والإداري، المعتبر نظاماً "همجياً" من أجل ولوج حضارة الغرب. "التغريب" هو أخيراً الاندراج ضمن استمرارية ثورة 1789 وحركات التطرّف الأوروبي في القرن التاسع عشر، مع استيعاب الأجوبة المحافظة التي أنتجتها أوروبا نفسها من أجل إبعاد شبح أهوائها الثورية. لن تصيبنا الدهشة حينذاك حين يُفهم التغريب أولاً شرعنةً للحركات الاحتجاجية و/ أو الثورية الهادفة إلى قلب الأنظمة المتهمة بالفساد والتخلّف قبل أن يُفهم مرادفاً لنظام قمعي. في نهاية القرن التاسع عشر، وعلى نقيض ثقافة سياسية إسلامية راسخة في القدم، لم تعد الثورة تمثل الفتنة الكريهة، بل الرد السياسي الإيجابي على التدهور[18].

بدأ القرن العشرين الشرق أوسطي الحقيقي مع شرخ ثوري مزدوج

(18) Bernard Lewis, *Le Langage politique de l'islam* (Paris: NRF, 1988), p. 146.

يحمل علامة "الناقلين"، ومنهم الإنتلجيسيا أو اللجان الثورية القوقازية، ولاسيّما الأرمنية منها بين العامين 1906 و1908[19]. على الرغم من أن الشرخين الثوريين هما ثمرة تاريخ خاص بهما، إلا أنهما قد حدثا في سياق الثورة الروسية للعام 1905. اندرجت الثورة الأولى، تلك التي قامت في بلاد فارس، في خط تقليد احتجاجي قديم يرجع تاريخه إلى القرن التاسع عشر. فلنذكر الواقعة الأكثر رمزية في هذا الميراث: في الأول من أيار/ مايو 1896، اغتيل الشاه ناصر الدين، وهو المستبد المستنير الذي قام برحلات عديدة إلى أوروبا، على يد كاتب في التاسعة والأربعين من عمره اسمه ميرزا رضا كرماني. كل شيء يشير إلى أن القاتل قد عمل لوحده، لكنه كان متأثراً بالأفكار الثورية التي حملها المصلح جمال الدين الأفغاني. عُرف القاتل بانخراطه في حركة الاحتجاج ضد شركة التبغ التي مُنحت للبريطاني تالبوت، فقرر "قتل جذع الاستبداد". وحين سأله القاضي: "أما كنت تدرك أن قتل الشاه سيجرّ الفوضى وأعمال الشغب؟"، أجاب ميرزا رضا كرماني قائلاً: "نعم، هذا صحيح. لكن انظر إلى تاريخ أوروبا، لولا سفك الدماء لما وصلوا إلى شيء"[20].

لم يكن كرماني الوحيد الذي اعتنق موقفاً متطرفاً. فعدد من اللجان والطوائف التي أغوتها الأفكار القومية أو التقدمية قد نشطت في بلاد فارس في نهاية القرن التاسع عشر. أثارت تبعية البلاد الاقتصادية ونظام التنازلات، الذي أعطى الشركات الأوروبية حقوقاً هائلة واستثمارات متعددة يتطلب تمويلها ضرائب داخلية عالية، ردود فعل عنيفة لدى

(19) Anahide Ter Minassian, "Le Rôle des Arméniens du Caucase dans la révolution constitutionnaliste de la Perse (1905-1912)," in: Raoul Motika et Michael Ursinus, *Caucasia between the Ottoman Empire and Iran* (Wiesbaden: Reichett, 2000), pp. 147-176.

(20) Jean-Pierre Digard, *Bernard Hourcade et Yann Richard*: *L'Iran au XXè siècle* (Paris: Fayard, 1996), p. 25.

تجار البازار ورجال الدين والانتلجنسيا المتأثرة بالأفكار الغربية. وكما تدل الهجمات والمذابح التي اقترفت بحق البهائيين واليهود في العامين 1902 و1903، فإن بعض ردود فعل الجماهير قد تم تحويلها ضد "أعداء الداخل". أما بعض ردود الفعل الأخرى، كأعمال الشغب في العام 1905 الناجمة عن زيادة أسعار السكر المستورد من روسيا، فهي تهدف إلى الحصول على استقالة المسؤولين، ولاسيّما رئيس الوزراء عين الدولة.

ومع العام 1906، لم تعد النخبة السياسية الإيرانية تثق بنفسها بعد أن عانت بشدة من آثار ضعف روسيا، حاميتها، والتي خرجت مهزومة من حربها في العام 1905 مع اليابان[21]. نشط في داخل البلاد العديد من اللجان أو الأحزاب كاللجنة الثورية وجمعية الإنسانية أو الحزب الاشتراكي - الديمقراطي الذي يضم أفراد الانتلجنسيا أو أفراد الطبقات الوسطى[22]. وفي العام 1906، أعلن العلماء معارضتهم السافرة، وهم القادرين بحسب الأوضاع، أن يشرّعوا السلطة أو أن يعلنوا عصيانهم عليها ليصيروا الناطقين باسم المضطهَدين. عرّف اثنان منهم، من بين رجال الدين الأهم، وهما السيد محمد طباطبائي والسيد عبد الله بهبهاني، الاستبداد بوصفه شكلاً من أشكال الوثنية ("الأمير الذي يسعى إلى الاستقلال عن الله"، ويسعى بالتالي إلى الحلول محله) وشرّعا الانشقاق. وانضم قسم من الأعيان أيضاً إلى المعارضة.

من الواضح أن الاحتجاج الناشئ يحمل بصمات الاضطراب الثوري الذي يعتمل لدى الجارة الروسية، لكنه يندرج كذلك في سياقه

(21) Yann Richard, *L'Iran: Naissance d'une république islamique* (Paris: La Martinière, 2006), p. 93 et 97.

(22) Ervand Abrahamian, *Iran Between two Revolutions* (Princeton: Princeton University Press, 1982), pp. 81-83.

الخاص ويعيد تعريف المعجم السياسي انطلاقاً من سجل مزدوج. إليكم على سبيل المثال لفظة "ظلم" التي تحمل معنى دينياً قديماً بالإضافة إلى معنى ثوري حديث العهد. وكذلك مواجهة القوى الأجنبية، ولاسيّما روسيا وبريطانيا العظمى، فهي تنهل من معاداة الإمبريالية كما من الأفكار الدينية. والإكراه الذي تمارسه الدولة، فهو يفسَّر أيضاً انطلاقاً من لغة مزدوجة، من حيث المعنى والرموز، نابعة عن بعد محلي كما عن بعد عالمي وثوري. أما مطلب العدالة المجرد ومطلب "خان العدالة" (قصر العدل) الملموس ومعه مطلب المجلس، فهي كلها مطالب تردنا إلى لغة متعددة المعاني، ثورية وحتى اشتراكية في حين أنها تستعين بمتخيّل سياسي محلي.

جاء قمع المظاهرات السلمية في حزيران/ يونيو 1906 في طهران، حيث سقطت ضحيتان كلاهما من السيّاد، ليعيد تنشيط لغة محلية بوجه خاص، هي لغة البراءة والتضحية. كتب شاهد عيان هو ي. دولت أبادي يقول: "ربطوا قميص السيد الملطخ بالدماء إلى عصا وثبتوا عليه القرآن الكريم، وسار آلاف الأشخاص خلف الجثمان باكين وناثرين القش على رؤوسهم، اجتازوا الشوارع الضيقة والأسواق المسقوفة في طهران"[23]. تذكر هذه "الشهادة" المزدوجة من دون شك بما حلّ بالحسين، وهو الصورة الرمزية الذي يعتبر مقتله في العام 680 في كربلاء واحدة من الوقائع المؤسِّسة في المذهب الشيعي.

في مواجهة ما آلت إليه الأحداث، وبعد أن أصبحت بوابة سفارة بريطانيا العظمى نقطة تجمّع يومي للمظاهرات الشعبية، شعرت المملكة المتحدة أن عليها واجب التدخل لتهدئة المتظاهرين من ناحية، ولفرض

(23) Digard, *Bernard Hourcade et Yann Richard*: *L'Iran au XXᵉ siècle*, p. 30.

نفسها كحَكَم في الوضع القائم من ناحية ثانية. وتراجع الشاه في النهاية أمام الضغط المزدوج، الشعبي والبريطاني، وأقال رئيس وزرائه عين الدولة. وجاء القرار الإمبراطوري في التاسع من آب/ أغسطس 1906، يوم عيد ميلاد الملك، ليقبل بمطلب المتظاهرين الأساسي وهو تشكيل مجلس.

لكن المجلس الذي تشكل حلاً للأزمة هو أيضاً مصدر توترات. فقد كان منقسماً منذ البداية إلى جناحين: أحدهما شديد المحافظة يقوده الشيخ فضل الله نوري، ويرفض الحريات الفردية، والآخر "تقدمي" بقيادة السيد حسن تقي زاده، رجل الدين الشاب والمعادي لنظام رجال الدين. وكان ثمة عقبة أخرى أمام بقاء المجلس وهي خليفة الشاه مظفر الدين، الذي توفي في الثامن من كانون الثاني/ يناير 1908، بعد حكم دام أكثر من عشرين عاماً. كان الشاه محمد علي (1907-1909) أقل ميلاً لقبول استقلالية هذه المؤسسة الجديدة. وقد جاء اغتيال أمين السلطان، رئيس الوزراء الجديد نصير الأفكار الدستورية، بالإضافة إلى محاولة الانقلاب الفاشلة في 14 كانون الأول/ ديسمبر 1907، حيث جرت تعبئة صانعي الشغب ضد المجلس، لتشكل جميعها مؤشرات منذرة بالخطر بالنسبة إلى الجناح المتطرّف.

مع العام 1908، شهدت البلاد شبه حرب أهلية، مع حركات تمرّد مفتوحة في بعض المناطق التي صارت مستقلة ذاتياً بحكم الواقع، وهي حركات تضفي على نفسها، في كثير من الأحيان، شرعية المطالبة بالعدالة الاجتماعية[24] . في 23 حزيران/ يونيو 1908، وقعت محاولة انقلابية ثانية حين قصف قوزاق الشاه المجلس. فالتجأ بعض أنصار

(24) Abrahamian, Ibid., pp. 92-93

النظام الدستوري إلى السفارة البريطانية وأعدم أو قتل بعضهم الآخر، كالداعية جمال أصفهاني. وإذا كان الشاه في طهران قادراً على فرض الثورة المضادة بسهولة وقادراً على الحكم بواسطة المراسيم الملكية، إلا أن لجاناً ديمقراطية تحوّلت إلى ميليشيات مسلحة في أماكن أخرى، ولاسيّما في تبريز. أجبرت الشاه على إعادة الدستور، لكن قراره جاء متأخراً، ففي 16 تموز/ يوليو 1909، احتلت الميليشيات الدستورية طهران وأعدم رئيس الوزراء، الشيخ فضل الله نوري، المعروف بأنه محافظ متشدد، وأجبر الشاه على التنازل عن العرش لمصلحة ابنه الذي لم يكن يبلغ آنذاك سوى اثني عشر عاماً.

بيد أن الانتصار الدستوري كان نصف انتصار فقط. ففي الجزء الأكبر من المحافظات، بقيت السلطة بين أيدي القبائل في حين أن مراقبة الحدود كانت بأيدي البريطانيين والروس غير المستعدين للدفاع عن نظام إصلاحي جذري. وكذلك، سمح تكاثر اللجان المحلية (أنجومان) ذات التطلعات المتعددة والمتناقضة، بقيام تجربة ديمقراطية حقيقة، إلا أنها أصابت السلطة بالشلل[25].

انتصرت الثورة لكنها حرمت نفسها من ركائزها المتطرفة، فقد جرى نزع سلاح غالبية الميليشيات من دون أن يضع هذا الأمر حداً للتطلعات الديمقراطية التي كانت تنادي بها هذه الميليشيات. بقي عدد كبير من بينها ناشطاً أو أنه نشط من جديد مع الحرب العالمية الأولى والثورة السوفييتية. على سبيل المثال، في جيلان، ولدت "ثورة الغابات" في العام 1918، وقد كانت ثورة "إسلامية وشعبوية وشيوعية سرية" بقيادة يونس المعروف باسم ميرزا كوجي خان. لم تكن الحركة "الجنغالية" (نسبة إلى أدغال جنغل (Jungle)) تنوي الاكتفاء بالبقاء في جيلان، بل

(25) Digard, Ibid.

نوت الاستيلاء على "الدولة الإيرانية" من أجل تحريرها وتحويلها إلى "جمهورية الشورى"، وهي عبارة فارسية تعني جمهورية "سوفييتية"[26]. وأفضت الحركة إلى تأسيس "جمهورية سوفييتية" في العام 1920، ما لبثت أن انهارت بعد سنة نتيجة سحب المساعدة السوفييتية واندلاع النزاعات بين الشيوعيين وميرزا كوجي خان. لكن، على الرغم من الهزيمة التي منيت بها الحركة، إلا أنها شكلت مخزوناً للذكرى بالنسبة إلى حركات التمرد التي تلتها، وصار اسمها مرجعاً رمزياً لسلسلة من التنظيمات الثورية في السنوات 1960–1970.

السلطنة العثمانية

و"الثورة الفرنسية الشرقية"

الثورة الثانية التي يمكن وصفها بالحقيقة بـ تمرد عسكري (Pro-nunciamiento) تحمل دمغة الضباط في السلطنة العثمانية المنتمين إلى حركة "تركيا الفتاة". من العام 1895 إلى العام 1908، انتظمت معارضة "تركيا الفتاة" أو "الأتراك الشباب" في مساحة انفصالية نائية، ولاسيّما في أوروبا. جذبت إليها أفراد الإنتلجنسيا المسلمة في السلطنة ممن تحركهم إرادة إنقاذ الإمبراطورية، وتأثرت بعدد من التيارات السياسية الأوروبية من التيار المحافظ اليميني إلى الفوضوية مروراً بالدروينية الاجتماعية. واتصلت بالـ"كوميتاجي" الثوريين الأرمن الذين شكلوا واحداً من مكوناتها وواحداً من أعدائها في آن، كما اتصلت باللجان الثورية البلقانية الساعية إلى الاستقلال علماً أن الضباط العثمانيين كانوا في حرب معها. صحيح أن "الأتراك الشباب" كانوا بحاجة إلى برنامج سياسي محدّد،

(26) Richard, *L'Iran: Naissance d'une république islamique*, p. 180.

إلا أنهم كانوا مأخوذين بالعمل الثوري، وثقافة "الدم" و"القنبلة"[27].

على الرغم من تطرّف "الأتراك الشباب" المعلن، إلا أنهم شكّلوا على امتداد أكثر من عقد منَ الزمن "معارضة جلالة السلطان" ولم يهدّدوا بأي حال من الأحوال السلطة العثمانية. لكن حين تسلمت لجنة محلية يسيطر عليها مفكرون قوميون متشددون تتريكيون، على غرار بهاء الدين شاكر والدكتور ناظم وطلعت بيه، زمام قيادة "لجنة الاتحاد والترقي" في العام 1906، دقت ساعة الانتقال من البروبغندا إلى العمل الثوري. قلق جيل الاتحاديين الجديد هذا من إمكانية نزع سلاح المحافظات البلقانية التي تحدث عنها الملك إدوارد السابع والقيصر نقولا الثاني خلال لقاء القمة بينهما في ريفال، في 9-12 حزيران/ يونيو 1908. فشكّل اثنان من هؤلاء الضباط، هما أنور ونيازي، مجموعة محاربة تهدف إلى الدفاع عن "الوطن المهدّد" وقتلوا عدداً من كبار الضباط الذين أرسلهم القصر لدراسة الوضع. أصاب الهلع السلطان، وفي 23 تموز/ يوليو سمح بعودة "الأتراك الشباب" وأعاد العمل بالدستور المعلّق منذ أكثر من ثلاثين عاماً ودعا إلى إجراء انتخابات.

جرى الترحيب بعودة المعارضين واعتُبرت هذه العودة بمثابة "الثورة الفرنسية الشرقية"، كما اعتُبرت انجازاً في أرض شرقية لما بدأ (وفشل جزئياً) في فرنسا. بحثت حركة العام 1908 العثمانية عن شرعيتها في عالمية النموذج الفرنسي، أكثر مما فعلت حركة 1906 الفارسية، وبدت في مرحلتها الأولى، وكأنها تدشن حقبة انفتاح سياسي وأخوّة حقيقية بين "الطوائف" الإسلامية والمسيحية واليهودية. وفي

(27) Hans-Lukas Kieser, dir., *Aspects of the Political Language in Turkey 19th-20th Centuries* (Istanbul: The Isis Press, 2002), pp. 91-104.

مقابل القومية الإسلامية التركية أو التركية الغربية التي نادت بها اللجنة، ردّ الشارع بتضامن مختلف مكوّنات السلطنة الإثنية والطائفية[28].

الثورة التي أطلق عليها اسم "إعلان الحرية" لم تفرض نفسها بواسطة الاستقبال الحماسي الذي لقيته في إسطنبول وحسب، لكن أيضاً بواسطة العنف المؤسَّس الذي كان دوره في انتصارها هامشياً ومركزياً في آن. هو هامشي لأنه لم يوقع سوى بضع ضحايا، لكنه مركزي لأن الانشقاق المسلّح صار يعتبر بعدها نمط عمل شرعي ويشكل الإثبات على أن الجيش هو الذي يحدّد مصير الأمة. وللمرة الأولى منذ إصلاحات القرن التاسع عشر، لم يعد الانشقاق ثقافياً وحسب، بل صار عسكرياً أيضاً ما وضع "الأب" أمام خيار اللجوء بدوره إلى الإكراه ضد "أبنائه"، أو التراجع لتقديم التنازل على شكل هبة سلطانية وضم المتمردين بوصفهم أبناء ضالين عائدين إلى كنفه.

لم يكن تراجع "الأب الرحوم" يعني مع هذا أبداً أن نزاع الأجيال قد بلغ خواتيمه. فقد دلّ التمرّد على وجود شعور مأساوي بقتل الأب في داخل "الأتراك الشباب" ولاسيّما في قلب الاتحاديين. وحتى قبلها، في خلال فترة المنفى، كان عدد من المعارضين يعبّرون بحزن كبير عن ضرورة قتل "الأب العاق" لتأمين بقاء "الأسرة". سيظل السلطان في النهاية على قيد الحياة، لكنه سيدفع ثمن حياته إذلالاً وخلعاً عن العرش في العام 1909.

لحقت الثورة الإيرانية بمسيرة الثورة الروسية في نقطة واحدة في العام 1905، وهي أنها إذا كانت قد غيّرت بعمق المجتمع وأبرزت

(28) François Georgeon, *Des Ottomans aux Turcs: Naissance d'une nation, ISIS, Istanbul, 1995, M. ŞÜkrü Hanioğlu, Preparation for a Revolution. The Young Turks, 1902-1908* (Oxford: Oxford University Press, 2001).

دور الإنتلجنسيا المتنامي في إنتاج معنى سياسي جديد، إلا أنها أدّت في النهاية إلى عودة الملكية فوطّدت موقع الشاه و"الطبقات المسيطرة" القديمة من ملاّك الأراضي وتجار البازار ورجال الدين. ومثلها أدّت ثورة "تركيا الفتاة" أيضاً إلى عودة قوية، لم يحقّقها السلطان هذه المرة، ولكن النخبة الثورية.

وهكذا، جرى الانتقال بسرعة من العنف المؤسِّس الذي تبعته فترة من اللااستقرار المتميّز بنشأة العديد من الاحتجاجات الاجتماعية والسياسية والإثنية، إلى الإكراه الثوري الذي مارسته لجنة الاتحاد والترقي. وفيما النخبة الاتحادية تتحدث بلغة معادية أكثر فأكثر للثورة الفرنسية ولعقيدة حقوق الإنسان فيها "التي تنتقل كالجرثومة"، لن يكون أمام "الكلمة" خيار آخر سوى الصمت[29]. وبتشجيع من مفكرين قوميين، على غرار ضياء كوك ألب وتكين ألب ويوسف أقشورا، سرعان ما تحوّل القادة الاتحاديون، أمثال أنور وطلعت وجمال، إلى مدافعين عن الدولة والنظام وقد اعتبروه الشرط الذي لابد منه لبقاء الإمبراطورية.

أصبح هذا التطور ممكناً بفضل أحداث متعددة. بادئ ذي بدء، سمحت سلسلة "انقلابات صغيرة"[30] بتواجد اللجنة في مدن المقاطعات. وكان إبعاد أو إلحاق السلالات القديمة من الشخصيات المعروفة كفيلاً بأن حقّق للجنة قاعدة إقليمية موسّعة. ثم جاءت الانتفاضة المضادة التي اندلعت في إسطنبول يوم 31 آذار/ مارس 1909، لتدفع اللجنة إلى تسريع سيطرتها على السلطة. لم تكن انتفاضة

(29) Hannah Arendt, *Essai sur la révolution* (Paris: Gallimard, 1967), p. 21.

(30) Elie Kedouri, *Arabic Political Memoirs and other studies* (Londre: Frank Cass, 1974), p. 9.

31 آذار/ مارس مساندة للبريطانيين، كما ألصق بها هذا الاتهام، ولم تكن مقتصرة على "الارتقاء"، وهو مصطلح ازدرائي للقول بأنها "رد فعل ديني"، بل كانت تحمل علامة معارضة الجنود لضباطهم[31]. سعت إلى إرساء نظام أخلاقي، فتصدّت لأهم الوجوه الاتحادية المتهمة بإلحادها و"مناهضتها الدستور". ردّ الضباط بانتقام وحشي. أرسل "جيش الحركة" (Haraket Ordusu)، الذي يعتبر اسمه بحد ذاته برنامجاً، من سالونيك إلى إسطنبول فاحتلها وأعدم كبار قادة الانتفاضة، بدءاً بالدرويش وحيد الدين، إعداماً علنياً في مدينة لم تعد تشهد منذ زمن طويل هذا النوع من المشاهد الفظيعة. وكان الفعل مهماً بقدر رمزيته بالنسبة إلى انتصار الضباط الاتحاديين الذين أثبتوا أنهم لايشكلون مجرّد هامش في تاريخ الامبراطورية، بل هم مسيطرون عليها من ذلك الحين فصاعداً.

بالطبع، جرى تهميش اللجنة بعض الشيء خلال العامين 1911-1912، كما أبعدت مؤقتاً عن السلطة، إلا أنها ستتمكن من التذكير بعدم قبولها أي معارضة عسكرية، كتلك التي قام بها "الضباط المحرِّرون" (Halaskar Zabitan) في العام 1912، فكيف بالأحرى المعارضة المدنية. ثم جاءت الأزمات السياسية المتوالية والهزيمة العثمانية المدوّية في حرب البلقان الأولى (1912) لتضع اللجنة مجدداً في موقع مخلّص الأمة. وهكذا، قامت بانقلاب في 25 كانون الثاني/ يناير 1913، في وضح النهار، وقتلت من دون قصد، وزير الحربية ناظم باشا. أما اغتيال محمود شوكت باشا، قائد جيش الحركة السابق، والذي وضع على رأس حكومة اتحادية بالأمر الواقع، فقد دفع اللجنة إلى القضاء على العقبات التي وقفت في طريقها. فأسكتت المعارضة حين أعدم الكثيرون من

(31) العبارة لصاحبها:
Emin Türk Eliçin, *Kemalist Devrim Ideolojisi* (*Niteligi ve Tarihteki Yeri*) (Istanbul: Ant, 1970).

قادتها، ومن بينهم الداماد صالح باشا، على الرغم من أنه قريب السلطان بالمصاهرة، وأجبر آخرون على سلوك طريق المنفى، أمثال الأمير صباح الدين وشريف باشا، وهما من الليبراليين، كما أسكتت الصحافة نهائياً. وانتهت الثورة مع قيام نظام الحزب الواحد.

بعد العمل الثوري، جاء القمع الثوري الذي استعان بمعجم العداوة. وارتبطت الشعارات الاتحادية الأكثر رواجاً بالسلاح والدم وبضرورة ممارسة القسوة في النظام الثوري ("يجب سحق كل الرؤوس التي تريد تقاسم السلطة"، "يجب أن نكون أقسى من نيرون في ما خصّ السلام الداخلي"[32]، "تتلذّذ الأمة بقطع رأس الخونة لمحو العار الذي يلحق بها")[33]. أما بعض صحف اللجنة، فقد كانت تحمل عنوان القنبلة والحربة والسلاح.

وفي حين ظهرت مصطلحات ازدرائية لوصف غير المسلمين ("أنت يا عبدنا السابق")، فإن السجلات الرمزية والنحوية لتحديد المعارضين تبدّلت. ففي عهد عبد الحميد الثاني كان المعارضون من الأتراك الشباب يوصفون بأنهم من أبناء جلالة السلطان الضالين أو بأنهم من المشرّدين (Serseri) والأشقياء (Eskiya)، أما الآن فإن الخصوم صاروا معتبرين أعداء بكل بساطة. وقد عنت عودة النظام على أيدي أولئك الذين سددوا الضربات إليه، قطيعة نهائية مع "الضياع الثوري" وحرية التعبير والتعدّدية السياسية، لمصلحة "الضبط والربط".

(32) "Enver Pasa'nin Gizli Mektuplari" (lettres présentées par S. Hanioglu), Cumhuriyet, 9 octobre 1989.

(33) برقيات بعث بها جيش الحركة إلى الحكومة. جاء ذكرها لدى:
Tevfik Çavdar, *Talât Pasa. Bir Örgüt Ustasinin Yasam Öyküsü* (Ankara: Dost Kitabevi, 1984), p. 149.

وإذا كانت الثمالة الثورية قد وجدت كلمتها الجامعة في شعار حقوق الإنسان، إلا أن تحليل القمع الثوري تحليلاً هادئاً يُختصر في الأمر الذي أصدره ضياء كوك ألب وهو: "لاحقوق، بل واجبات وحسب" (Hak Yok, vazife var).

كانت لجنة الاتحاد والترقي التي عملت "كجمعية سرية في وضح النهار"[34]، تعتبر نفسها "روح الدولة". وقد جرى تكريسها باسم القومية التركية التي تعود إلى أرجينيكون، مهد الأمة الأسطوري في آسيا الوسطى، وباسم "الرسالة القومية" التي تضع المساحة السياسية تحت سيطرة مرجع خارجي وتشرّع القمع ضد المعارضين. تمتعت اللجنة بلامسؤولية قانونية كاملة، ولم تكن مسؤولة البتة أمام "الشعب" المتخلف وحتى الرجعي والعاجز عن فهم أهداف المهمة التاريخية التي ألقيت على عاتقها.

في العام 1913-1914، همّشت اللجنة قادتها الأوائل، بدءاً بأحمد رضا، لكنها بقيت أمينة لـ "روح الكوميتاجي"، الذي لخّصه أحد أعضاء اللجنة بقوله: "إن الانتماء إلى لجنة ثورية ليس، كما يظن بعضهم، سرقة ونهب، بل على العكس، الانتماء إلى لجنة ثورية هو قومية متطرّفة. والكوميتاجي هو من يضحي بكل ما يملك، بما فيه حياته، من أجل قضية وطنه، ويزدري الخطر. وهو يحرق ويدمر ويقتل من دون شفقة من أجل وطنه وأمّته، إذا لزم الأمر. نحن أيضاً، تحركنا بهذه الطريقة حين فرض علينا الوضع هذا الأمر"[35].

(34) Hannah Arendt, *Les Origines du totalitarisme le système totalitaire* (Paris: Seuil, 1972), pp. 102-103.

(35) *Fuat Balkan'in Hatiralari. Ilk Türk Komitacisi* (Istanbul: Arma Yayinlari, 1998), p. 7.

وسرعان ما أفضى الكوميتاجي إلى سيناريو توقّعه ميرابو (Mira-beau): "عشرة رجال يعملون معاً يمكنهم أن يفرضوا الرهبة على مائة ألف رجل كل لوحده"[36]. شكل كل عضو من الثلاثي شبكته السرية الخاصة ونظموا معاً منذ العام 1913 المنظمة الخاصة أو تشكيلات مخصوصة (Techkilat-i Mahsusa) التي ستؤدي دوراً أساسياً في إبادة الأرمن. كانت تشكيلات بقيادة رجال الظل في اللجنة، ومن بينهم بهاء الدين شاكر والدكتور ناظم، جندت أنصاراً ضمن الجمعيات ذات الميول القومية المتشددة والنظام شبه العسكري، التي أُسست في بداية العقد الثاني من القرن العشرين متفلّتة من أي رقابة رسمية. وتغلبت تشكيلات، مع دخول السلطنة الحرب الأولى في العام 1914، على مجمل البيروقراطية المدنية والعسكرية. كما شكلت أيضاً الرحم الذي خرجت منه الكثير من التنظيمات ذات المتخيّل الثوري على امتداد القرن العشرين، سواء أكان ذلك في تركيا أو في المقاطعات العربية التي كانت تابعة للسلطنة العثمانية.

(36) ذكرته: Arendt, *Essai sur la révolution*, p. 364.

الفصل الثاني

حرب عالمية
تفتيت السلطنة العثمانية
وأنظمة انتدابية

نحا المؤرخون حتى وقت قريب باتجاه قراءة الحرب العالمية الأولى على أساس أنها نزاع أوروبي أثّر بشكل رئيس في مصائر القارة العجوز. بيد أن الحرب كانت أيضاً شرق أوسطية على مستويات عدة وقلبت رأساً على عقب مستقبل هذه المنطقة. فهي لم تخلق وحسب ظروف أسلمة شبه كاملة في تركيا، بل أدّت أيضاً إلى تقاسم الأراضي العربية التابعة للسلطنة العثمانية وكانت مقدمة حقبة طويلة من الاحتجاجات واللااستقرار.

الحرب العثمانية وحرب الإبادة الأرمنية

كانت النتائج المترتبة على السلطنة العثمانية خطيرة، هي التي شاركت بملء إرادتها، أو بالأحرى بناء على قرار الثلاثي الحاكم، أنور وطلعت وكمال الذين لم يعلموا رئيس الوزراء سعيد حليم والقصر معه إلا بعد بداية الأعمال الحربية ضد روسيا. مثّلت الحرب بالنسبة إلى هذه النواة الصلبة الاتحادية وسيلة لتوطيد سلطتها عبر التعبئة العسكرية ومناسبة للتخلص من طلبات الإصلاح الأوروبية في المقاطعات

الشرقية، كما مثلت نهاية التبعية الاقتصادية إزاء أوروبا وإمكانية تفكيك الإمبراطورية الروسية مع ما هو مفترض أن يأتي في سياق هذا التفكيك من توحيد السلطنة العثمانية مع الشعوب التركمانية في آسيا الوسطى.

في ما خلا خسارة المقاطعات العربية، جاءت الحرب بنتائج ديموغرافية وسياسية كارثية. وقع ضحيتها ثلاثمائة وخمسون ألف جندي، وبالأخص على الجبهة الروسية وفي الدردنيل وأبادت الأوبئة المختلفة ستين ألف جندي. بلغ عدد الجرحى ما بين أربعمائة ألف وسبعمائة ألف جندي، وطرح الفارون الخمسمائة ألف من الجندية مشكلة أمنية حقيقية بعد أن أنتظمت غالبيتهم ضمن عصابات[1]. كان عدد سكان الأناضول وطراقيا التركية يفوق الأربعة عشر مليون نسمة بقليل فانخفض ليبلغ أحد عشر مليوناً ونيّف على الرغم من وصول عدة مئات آلاف من المسلمين إبان الحروب البلقانية بين عامي 1912 و1913, وفي حين كان 25% من السكان حضريين في العام 1914، هبطت هذه النسبة إلى 18% في العام 1923. صار البؤس واضحاً بشكل خاص في المدن الكبرى ولاسيّما في إسطنبول حيث "مؤشر البقاء" الذي حدد بـ100 في العام 1914 ارتفع إلى 405 في كانون الثاني/ يناير 1917، ثم إلى 1645 في كانون الثاني/ يناير 1918 ليبلغ 2205 في كانون الأول/ ديسمبر من العام نفسه.

أصبحت الحرب كذلك مسرحاً لهندسة ديموغرافية وإقليمية واسعة أدت إلى إبادة الأرمن في العام 1915، حيث يعتبر تاريخ 24 نيسان/ أبريل عموماً بداية حرب الإبادة. كانت الإبادة "وسيلة لوضع

(1) Erik-Jan Zürcher, "Between Death and Desertion: The Experience of the Ottoman Soldier in World War One," *Turcica*, no. 28 (1996), pp. 235-258.

اليد من دون مشكلة تذكر، على أراضي الآخرين" و"فرض الطاعة على من بقي على قيد الحياة"(2). كما كانت أيضاً وسيلة أعلنت النخبة الاتحادية بواسطتها انتصار القومية التركية، المتميزة عن الإسلام حيناً والمندمجة فيه حيناً آخر، على الجماعة المسيحية المعتبرة تهديداً من منظور اجتماعي درويني، بمجرد وجودها نفسه. صحيح أن عدداً من الأطراف قد ساهم في حرب الإبادة، من الشخصيات المدينية إلى القبائل الكردية، إلا أن "التشكيلة" هي المنظم الأساسي له. فقد فرضت نفسها على البيروقراطية التي أقيل أعضاؤها الرافضون للإبادة من مناصبهم أو أعدموا كما في ليسا، في مقاطعة ديار بكر.

عدد ضحايا حرب الإبادة الدقيق لا يزال مجهولاً. كان المؤرخون الأتراك قد اعترفوا، في سبعينيات وثمانينيات القرن العشرين، على سبيل "قطع كل حساب" بأن 000 700 أرمني من أصل 000 400 1 كانوا قد رُحلوا "إلى مكان آمن" رداً على "الانتفاضات والخيانات" التي اقترفتها اللجان الثورية الأرمنية، وأن 000 300 منهم قد لقوا حتفهم لأسباب خارجة عن إرادة السلطات، من مجاعة واعتداءات عصابات مسلحة وظروف مناخية(3). كما ذكر آخرون رقم 000 500 1 ضحية، ويبدو أن الرقم الحقيقي يدور حول المليون ضحية.

إرادة الإبادة موجودة من الأساس في الاستراتيجية الاتحادية.

---

(2) Alain Joxe, *Voyage aux sources de la guerre* (Paris: PUF, 1991), p. 25.

(3) تحرص كتابة تأريخية رسمية جديدة على إثبات أن أعداد المُرَحَّلين الحقيقية تبلغ 758 422 شخصاً فقط وأن عدد ضحايا المذابح يتراوح بين تسعة آلاف إلى عشرة آلاف ضحية وهو رقم أقل بكثير من "ما يقرب نصف مليون ضحية تركية نتيجة الفظاعات التي ارتكبها الأرمن". انظر: Yusuf Halaçoglu, *Ermeni Sorunu ve Gerçekler (1914-1918)* (Ankara: TTK, 2001).

إن وثائق الأرشيف التي وضعها فؤاد دندار بمتناول القراء الناطقين بالتركية والفرنسية لا تترك أي مجال للشك في المعنى الذي أعطاه القادة الاتحاديون لعملية الترحيل(4): موت مؤكد لكامل أفراد المجموعة، بمن فيهم من بقي على قيد الحياة ووصل إلى البادية السورية التي شكلت وجهة الترحيل النهائية. وكذلك الدكتور رشيد، والي ديار بكر، نصير الأفكار الاجتماعية - الداروينية، يعبر بوضوح عن إرادة القضاء بشكل كامل على الأرمن قائلاً: "كوني طبيب ما كان باستطاعته أن ينسيني وطني. كان على رشيد، بوصفه طبيباً، أن يتصرف بحسب متطلبات مهنته. لكن، وقبل أي شيء، إن الدكتور رشيد قد ولد تركياً. [...] جنسيتك تأتي قبل أي شيء آخر. [...] كان الأرمن الشرقيون مشحونين إلى درجة كبيرة [ضدنا] حتى أنهم لو بقوا في بلدهم (Memleket) لما بقي تركي واحد ومسلم واحد على قيد الحياة، [...] فقلت في نفسي حينذاك: "يا دكتور رشيد، أنت أمام إمكانيتين، فإما أنهم سيبيدون الأتراك وإما أن الأتراك سيبيدونهم". ما كان بمقدوري أن أقف متردداً بين هاتين الإمكانيتين. فانتصر انتمائي إلى تركيا على وضعيتي كطبيب. وقلت في نفسي: "بدل أن يقضوا علينا، يجب أن نقضي عليهم [Ortadan kaldirmak]". [...] وإذا حاسبني التاريخ على هذا الموقف سأقبل بحسابه. [لكن] لا آبه لما تكتبه أو لما ستكتبه الأمم الأخرى عني"(5).

---

(4) Fuat Dündar, "L'Ingénierie ethnique du Comité Union et Progrès et la Turquisation de l'Anatolie (1913-1918)," (Thèse de doctorat de l'EHESS, Paris, 2006).

(5) Taner Akçam, *Türk Ulusal Kimligi ve Enneni Sorunu* (Istanbul: Iletisim Yayinlari, 1992), pp. 175-176,

تأتي الكتب التركية باستمرار على ذكر هذا النص على غرار بلال ن. سيمسير، المؤرخ الرسمي للمسألة الأرمنية الذي يذكره بدوره مضيفاً: "حينما تم تلقي أمر ترحيل الأرمن إلى خارج الأناضول، قام الدكتور رشيد بتطبيقه بحماسة في منطقة دياربكر" (المرجع المذكور، ص 168).

تمت العمليات بسرعة مذهلة: بحسب الأرشيف التي نشرته السلطات التركية نفسها، في ما عدا بعض المواقع، لم تعد طراقيا التركية والأناضول تضم أي أرمني في خلال بضعة أشهر(6). تتفق الشهادات المتعددة على القول إن من تمكن من البقاء والوصول حياً إلى سوريا التي شكلت الوجهة النهائية، كان بشكل شبه حصري من النساء بعد أن قتل الرجال مسبقاً وبكثافة. أما في العديد من المواقع الأخرى، ومن بينها ديار بكر، حيث كان المسيحيون من غير الأرمن معنيين بالأمر(7)، فإن عملية "الترحيل" لم تحدث في الحقيقة لأن المذابح كانت قد نظمت محلياً(8).

إضافة إلى أن حرب الإبادة كانت نمط تنظيم ومجانسة، فقد كانت كذلك وسيلة استملاك اتبعتها لجان تصفية الأملاك غير المنقولة والمنقولة العائدة إلى لأرمن والتي تم تشيكلها فور ذلك. استخدمت هذه الثروات لبناء "برجوازية وطنية" من ناحية، وهذا هدف اتحادي أعلن عنه منذ بضع سنوات، ولتوطيد تحالف بين القادة الاتحاديين والأعيان المحليين، من ناحية أخرى(9).

---

(6) T. C. Basbakanlik Devlet, *Arsivleri Genel Müdürlügü, Osmanli Arsivi Daire Baskanligi, Osmanli Belgelerinde Ermeniler* (*1915-1920*) (Ankara: T. C. Devlet Arsivleri Genel Müdürlügü, 1994).

(7) في ما يتصل بمصير المسيحيين من غير الأرمن، انظر:
Florence Hellot, "La Fin d'un monde: les Assyro-Chaldéens et la Première Guerre mondiale," dans: Bernard Geyberger, dir., *Chrétiens du monde arabe: Un archipel en terre d'islam* (Paris: Autrement, 2003), pp.127-145.

(8) انظر على وجه الخصوص:
Raymond Kevorkian, *Le Génocide des Arméniens* (Paris: Odile Jacob, 2006); Ugur Üngör, "A Reign of Terror. CUP Rule in Diyarbekir Province 1913-1918," (Mémoire de master de l'Université d'Amsterdam, 2005), et Dündar, "L'Ingénierie ethnique du Comité Union et Progrès et la Turquisation de l'Anatolie (1913-1918), ".

(9) بعد مرور تسعين عاماً، لا تزال هذه الإبادة الجماعية معتبرة في تركيا على أنها رد عادل قامت به الدولة على "خيانة" الأرمن. انظر:

انتهت الحرب العالمية بانتصار الحلفاء، لكنها استمرت محلياً عبر حرب ثانية في الأناضول. بين العامين 1919 و1920، احتل الجيش اليوناني إزمير وأجزاءً شاسعة من منطقة بحر إيجيه والأناضول الأوسط في محاولة منه لتحقيق الفكرة الكبرى (Magali Idea). وسيطرت القوات البريطانية على إسطنبول كما استولت الجيوش الفرنسية والإيطالية، لفترة وجيزة، على قيليقيا وبعض المواقع في منطقة المتوسط. وشيئاً فشيئاً، تشكلت في الأناضول مقاومة تضم الشخصيات المحلية التي استفادت من حرب الإبادة وعصابات الكوميتاجي وفيالق الجيش التي بقيت حية بعد الحرب والقبائل الكردية وأفضت إلى قيام كيان سياسي جديد عاصمته أنقرة. بالإضافة إلى الحرب ضد المحتلين، اتسمت المرحلة ما بين العامين 1919 و1922 بحملات عسكرية ضد جمهورية أرمينيا التي تأسست في العام 1920 وبمذابح منظمة ضد يونانيي الجسر، ثم بحريق الأحياء المسيحية في إزمير بعد أن استرجع الجيش التركي المدينة في العام 1922، وأخيراً بتبادل سكاني لأكثر من تسعمائة ألف مسيحي من الروم الأرثوذكس، من بينهم مجموعات تركية بالكامل، في مقابل أربعمائة ألف مسلم من اليونان[10].

بحسب التقديرات العثمانية، التي هي دون العدد الحقيقي بالتأكيد، كان حوالي 20% من سكان تركيا في حدودها الحالية من غير المسلمين. وفي العام 1924، انخفض هذا العدد ليبلغ 2% وليصير 1% في نهاية القرن العشرين. على الرغم من أن هذه الإحصاءات معبّرة جداً، إلا أنها

Talinn Ter Minassion, "Le Cas arménien: De l'usage du "massacre" dans le discours négationniste," dans: El-Kenz, *Le Massacre, objet d'histoire*, pp. 318-332.

(10) Hervé Georgelin, *La Fin de Smyrne: Du cosmopolitisme aux nationalismes* (Paris: CNRS, 2005).

لا تبين حجم التحولات الجذرية التي شهدتها منطقة الأناضول التي تعتبر قلب السلطنة العثمانية. وفي حين نشأ كيان سياسي جديد يعلن عن نفسه منادياً بانتصار القومية التركية على المجموعات الإثنية والطائفية الأخرى، صار العداء هو الموضوع المركزي والشرعي في القومية التركية ليعتلي منصب الإيديولوجيا الرسمية في العام 1923.

أنظمة الانتداب أنظمة إكراهية

على الرغم ممّا ارتكبته لجنة الاتحاد والترقي من فظاعات حملت وزرها، وحتى إن المقاومة الكمالية زادتها حدة خلال حرب الاستقلال في ما يتعلق بيونانيي الجسر، فإن تركيا حازت الاستقلال والاحترام على المستوى الدولي، وهو أمر لم يكن من نصيب مجموعتين سكانيتين أخريين هما العرب والأكراد اللتين انقسمتا بين دول عدة، ليعاني العرب من "كثرة" الدول في حين أن الأكراد سيعانون من غيابها[11].

منذ ما قبل الحرب، كان ثمة قومية عربية وقف خلفها على وجه الخصوص المثقفون المسيحيون أمثال نجيب عازوري وكان قد قرأ موريس باريّس (Maurice Barrès). وقد تمخضت هذه القومية عن قيام تنظيمات على غرار "القحطانية"[12]، وهي لجنة سرية تضم مثقفين وعسكريين، و"الفتاة"، وهي جمعية للشبان العرب، كما أفضت إلى مؤتمرات رسمية إلى هذا الحد أو ذاك، كمؤتمر باريس في العام

(11) في سبيل رؤية شاملة، انظر:
Nadine Picaudou, *La décennie qui ébranla le Moyen-Orient: 1914-1923* (Bruxelles: Complexe, 1992).

(12) تستخدم كلمة "قحطانية" لدى بعض التيارات القومية العربية لتعريف العرب "الأصيلين".

1913[13]. لكن، كما يقول عديد داويشا (Adeed Dawisha) ظل هذا التيار ضعيفاً، حتى في بداية الحرب العالمية الأولى. لم يكن السكان العرب يدافعون بشدة عن السلطنة إلا أنهم لم ينفصلوا عنها. وكان حوالي ثلاثمائة ألف من جنودهم يحاربون، بالقوة أو بملء إرادتهم، في الجيوش العثمانية ولم يكن شيء يدل إلى أن الرأي العام يدعو في غالبيته إلى الاستقلال[14].

بدأت الثورة العربية في حزيران/ يونيو 1916، وقد اشتعلت بطلب تقريباً من البريطانيين في مقابل وعد بإنشاء "مملكة البلدان العربية" تحت قيادة الشريف حسين، وكانت أول أعمالها الرمزية الهجوم على الثكنات العسكرية العثمانية في مكة وبعدها في الحجاز[15]. أعلن الشريف حسين ملكاً في تشرين الثاني/ نوفمبر من السنة ذاتها. إلا أن القول الشائع اللئيم الذي يعتبر أن الوعود لا تلزم سوى من يصدقها نادراً ما صحّ من قبل بقدر ما صحّ في هذه الحالة. كتب هاردينج (Hardinge) نائب ملك بريطانيا العظمى في الهند يقول بدءاً بالعام 1915: "آمل بشدة في أن تتشظى الدولة العربية المستقلة حتى لو نشأت. ما كان بوسع أحد أن يصمّم مشروعاً أكثر ضرراً بالمصالح البريطانية في الشرق الأوسط من هذا المشروع. هو يعني ببساطة كاملة حكماً سيئاً وفوضى وفساد، بما أن العرب لم يعرفوا ولن يعرفوا أبداً أي تماسك وانسجام"[16].

على عكس الوعود التي قطعت للعرب قبل الثورة الشهيرة،

(13) Peter Mansfeld, *The Arabs* (London: Penguin, 1980), pp. 176-183.

(14) Adeed Dawisha, *Arab Nationalism in the Twentieth Century: From Triumph to Despair* (Princeton: Princeton University Press, 2003), p. 37.

(15) Mansfeld, Ibid., pp. 187-208.

(16) Stéphane Yérasimos, *Questions d'Orient: Frontières et minorités des Balkans au Caucase* (Paris: La Découverte, 1993), p. 153.

عملت اتفاقيات سايكس-بيكو (تشرين الثاني/ نوفمبر 1916) بين فرنسا وبريطانيا، وبعدها مؤتمر سان ريمو (24 نيسان/ أبريل 1920) على تقسيم الولايات العربية في الإمبراطورية العثمانية، فمنحت سوريا ولبنان إلى فرنسا، ومنحت العراق وفلسطين وشرق الأردن إلى بريطانيا العظمى. وقام روبير دو كي (Robert de Caix) المفكر والعالم بشؤون الشرق ومبعوث كليمنصو الخاص إليه، بتقديم مبرر شرعي لعملية تقسيم العالم العربي بالقول: "إن السلام في العالم سيكون مكفولاً بشكل أفضل لو قام في الشرق عدد من الدول الصغيرة تقع العلاقات في ما بينها تحت سيطرة فرنسا وبريطانيا، فتدير نفسها بالقدر الأكبر من الحكم الذاتي الداخلي ولا تحمل النزعات العدوانية التي تتسم بها الدول القومية الموحدة الكبرى"[17]. هذا التقسيم الذي جاء على شكل أنظمة انتدابية، دمّر بشكل دائم أحلام وحدة عربية وأثار بالتالي ردود فعل عنيفة وثورات لدى الشعوب العربية.

انتج الحكم الانتدابي دولاً أطلق عليها اسم دول إقليمية[18]، صارت فيها أجهزة بيروقراطية وآليات دمج (وإقصاء) وإنتاج موارد. هذه "الأمم الجديدة" التي جرى تركيبها من هنا وهناك، بعواصمها ومقاطعاتها وخوارطها السياسية، وجرى تضمينها واجبات "مواطنة" جديدة، كانت تنذر بتغيير حقيقي في النظام السياسي والإداري.

(17) Roger Heacock, "Le Système international aux prises avec le colonialisme: Les Délibérations sur la palestine dans la commission permanente des mandats de la société des nations," dans: Nadine Méouchy and Peter Sluglett, dir., *The British and French Mandates in comparative Perspectives/ Les mandats français et anglais dans une perspective comparative* (Leiden: Brill, 2004), p. 169.

(18) للاطلاع على هذا المفهوم، انظر:
Bahgat Korany [et al.], *Les Régimes politiques arabes* (Paris: PUF, 1990), p. 282.

وإذ كانت الدولة في وقت واحد جهازاً وحقلاً للسلطات أو شبكة علاقات بين أجهزة قائمة (من ملكية وجيش وبيروقراطية...)، فقد فرضت نفسها في هذه الكيانات الجديدة كالطرف الفاعل الأول في ممارسة العنف. احتاجت مؤسسة الدولة إلى عملية مركزة وإلى سياسة توظيف صارمة وفرض ضرائب معمّمة وعسكرة الحدود التي تهدف بشكل واضح إلى تدمير روابط الانتماء السابقة الموروثة عن السلطة وإخضاع السكان المحليين. وكانت كل دولة، من خلال "هويتها الوطنية" تبخس من قيمة "الآخر"، سواء أكان خصماً سياسياً واجتماعياً أو مجموعة إثنية أو طائفية. وصار تصنيف السكان بحسب تبعياتهم يعني بالضرورة تصنيف بعضهم الآخر على أنهم "أعداء الأمة" في الداخل أو "غير وطنيين" ولا شرعية لهم. وحين لا تكون جزءاً من الأمة في سياق تركيبة هويتها والمهمات التاريخية التي تصوغها لنفسها فهذا يعني أنك "تخرج" منها. وكما يقول غسان سلامة فإن "الخروج" (بالعربية في النص) المثقل بالرموز والانفعالات والمرادف للخيانة[19]، يبرر بحد ذاته اللجوء إلى الإكراه.

اكتسبت الكيانات الناشئة عن الحرب قدرة على الاستمرار وأصبحت "أوعية للسلطة"[20]. وإذ اتهمت بأنها خانت مثال الوحدة

(19) Ghassan Salamé, "Où sont donc les démocrates," dans: Ghassan Salamé, dir., *Démocratie sans démocrates: Politiques d'ouverture dans le monde arabe et islamique* (Paris: Fayard, 1994), p. 23.

تشير عبارة "خروج عن الولاية" إلى مقتل الخليفة الرابع، علي بن أبي طالب، في شباط/ فبراير من العام 661م. على يد أحد الخوارج. وكان هؤلاء قد رفضوا فكرة التحكيم بين علي ووالي الشام، معاوية، الذي خلفه قبل أن يعلنوا انشقاقهم.

(20) Anthony Giddens, *The Nation-State and Violence* (Berkeley & Los Angeles: *University of California Press*, 1987), p. 120.

العربية[21]، صارت تعاني بشكل مزمن وعلى امتداد القرن العشرين، من هشاشة ونقص في شرعيتها.

ومنذ العام 1919-1920، تزايدت في الدول الخاضعة للحكم الانتدابي الأعمال الانشقاقية، أي "أشكال المقاومة (...) ضد خصم هو السلطة التي كلفت نفسها بمهمة قيادة الناس في حياتهم وفي معيشتهم اليومية"[22]. وكان الاحتجاج رداً على قيام دول اعتبرتها المجتمعات تعنيفاً لها. وإذ اعتبرت الدولة الانتدابية قمعية من حيث التعريف بها، فقد أدينت عن حق أيضاً لالتحاقها بقوة خارجية تضاهيها استبداداً وازدراء. وهكذا، اكتسبت الثورة، وهي الشكل الأخير للانشقاق، معنى مزدوجاً: رفض الحكم الانتدابي ومعه الدولة التي أنشأها وإدراك الذات كمجتمع جديد. رأى "الانشقاق المسلح" في الدولة عدواً أي الجزء المركزي بالتالي في مساحة سياسية محددة. وفي نظر المنشقين، صار التمرد مرادفاً للاندماج والمشاركة بواسطة السلاح وليس مرادفاً لـ"الخروج" أو "الخيانة".

العراق، قبائل وحَضَر وعنف

تعتبر الحالة العراقية معبّرة بشكل خاص في هذا المجال. في خلال سنوات الحرب، نلاحظ في الأراضي التي ستشكل العراق في ما بعد، حركة مزدوجة من التعاون مع العثمانيين ومقاومتهم.

مع حلول نيسان/ أبريل 1915، انتفض سكان النجف وطردوا

(21) Israel Gershoni, "Rethinking the formation of Arab Nationalism in the Middle East, 1920-1940: Old and New Narrations," in: James Jankowski et Israel Gershoni, *Rethinking Nationalism in the Arab Middle East* (New York: Columbia University Press, 1997), p. 12.

(22) Michel Foucault, *Sécurité, territoire, population. Cours au Collège de France, 1977-1978, Hautes Etudes* (Paris: Gallimard; Seuil, 2004), p. 204.

الفرق العثمانية ليحكموا أنفسهم بواسطة مسودة دستور أصدر محلياً، حتى آب/ أغسطس من العام 1917 ووصول البريطانيين[23]. في الفترة نفسها، شكل الشيعة فرقاً من المتطوعين للقتال إلى جانب العثمانيين ضد الجيش البريطاني. وفي العام 1918، بعد فترة من الصمت وعلى الرغم من تعاون بعض القبائل الكبرى مع البريطانيين، ثار الشيعة في مدينة النجف. قلائل هم علماء الدين الذين ساندوا الانتفاضة التي أنتجت قادتها وأبطالها المحليين، كالشاب فاضل ذي العشرين ربيعاً أو نعيم البقّال البالغ من العمر ستين عاماً. حوصرت المدينة ومنع عليها الوصول إلى ينابيع مياهها العذبة، فدامت مقاومتها ستة أسابيع، وبعد استسلامها، أعدم فيها أحد عشر شخصاً وجرى ترحيل مائة وثلاثة وعشرين آخرين إلى الهند.

بعد العام 1920، قامت "طبقة من الأفراد المتعاونين"[24] ممن ارتاحوا للسيطرة البريطانية ورفضوا أي فكرة تمثيل سياسي خاص معتبرين "البلاد" بمثابة "غنيمة" حرب ترجع شرعاً إلى البريطانيين. تحدث عبد الرحمن الجيلاني، الذي أصبح فيما بعد رئيساً للوزراء، فقال لجرترود بل (Gertrude Bell) مستشارة المفوض السامي البريطاني: "لقد غزا الإنجليز هذه البلاد ودفعوا الثمن وهم ليسوا بحاجة إلى أن نقبل بانتصارهم، (...) أنا أعترف بانتصاركم، أنتم الأسياد وأنا

(23) Hanna Batatu, *The Old Social Classes and the Revolutionary Movements of Iraq: A Study of Iraq's Old Landed and Commercial Classes and of its Communists, Ba'thists and Free Officers* (Princeton: Princeton University Press, 1978), p. 19.

(24) Peter Sluglett, "Les mandats/ The mandates: Some Reflections on the Nature of the British Presence in Iraq and the French Presence in Syria," in: Méouchy and Sluglett, dir., *The British and French Mandates in comparative Perspectives/ Les mandats français et anglais dans une perspective comparative*, p. 122.

التابع"[25]. وقد حث خضوع قطاعات واسعة من الريف السلطة الانتدابية إلى اعتبار القبيلة "فئة تحليلية"[26] ولكنها فئة عملانية أيضاً من أجل إدارة البلاد.

وقام الحكم الانتدابي إذاك بخيار حمل معه نتائج وخيمة. كان يحذر فئة "الأفنديين"، أي المثقفين الذين نشؤوا على الطريقة الغربية، ويعتبر أنهم معثمنين وفاسدين، كما كان يحذر سكان المدن والدماثة بشكل عام كنمط حياة ويفضل عليها الأرياف ليختار كمحاورين له شيوخ القبائل. يحدد طوبي دودج (Tobby Dodge) هذه السياسة على أنها نابعة من نقل التاريخ البريطاني على أرض مغزوة، فيقول: "شكل شيوخ القبائل المجموعة المستعدة للعمل بوصفها من "الأسياد الإقطاعيين" الذين يعيشون في المتخيَّل البريطاني. فمُنحوا دور الارستقراطية الريفية المولجة إقامة توازن بين الدولة والمجتمع والحفاظ عليه." ومن المفترض بالشيخ كذلك أن يكون قادراً على "حل التناقضات بين حداثة الدولة الليبرالية وقلة نضج المجتمع العربي من حيث المنطق الاستعماري الخاص بالنمو التاريخي"[27]. بالتطابق مع هذه السياسة، ألغت سلطات الانتداب بكل بساطة المجالس البلدية التي كانت تشكل واحداً من آخر آثار النظام العثماني.

بقدر ما أعطت السلطة الانتدابية قيمة للمناطق الريفية، على الرغم من انتفاضات هذه الأخيرة المتكررة والمقموعة بشدة، اعتبرت الإسلام

(25) Pierre-Jean Luizard, "Introduction," *Monde arabe Maghreb-Machrek*, no. 163, Mémoires d'Irakiens: A la découverte d'une société vaincue (1999), p. 16.

(26) Toby Dodge, *Inventing Iraq: The Failure of Nation-Building and a History Denied* (London: Hurst & Company, 2003), p. 77.

(27) Ibid., p. 61 et 64.

المرتبط بالمناطق الحضرية "عقبة أمام النمو" و"مسؤولاً عن كل مشاكل" العراق[28]. وبحسب تقليد عثماني بالكامل، أدخلت هذه السلطة تلاوينا في الإسلام حيث أصبح المذهب الشيعي عامل تفرقة. وكما يشير بيار جان لويزار (Pierre-Jean Luizard)، "تبدّت سنّية الدولة في مفهوم الهوية العراقية نفسها الذي فُرض رسمياً منذ بداياته وسرعان ما جرى توجيهه نحو بعض المغالطات، فأنكرت السلطات التي كانت تحت سيطرة القوى الأوروبية على العراقيين "الأصيلين" هويتهم العراقية، أمثال الشيخ مهدي الخالص ومهدي الجواهري [الشيعيان]"[29] إن "نزع الهوية العراقية" هذا عن الشخصيات الشيعية هدف كذلك إلى القضاء على أي صلة بين القبائل ورجال الدين الذين كانوا يؤدون في كثير من الأحيان، دور الحكم في النزاعات المحلية.

لم ينجح تمجيد النظام الريفي القبلي الذي وصف بـ"المتوحش ولكن المتعاون" في إخفاء الحركات المقاومة التي توطدت في المدن كما في الأرياف، والتي لم يتمكن الاستخدام الشديد للقوة ولاسيّما الطيران العسكري[30] من إخضاعها. وانتشرت الإضرابات ومظاهرات الأعيان وبالأخص في بغداد. وساهمت فتوى آية الله تقي الشيرازي التي حرّمت العمل لمصلحة الإنجليز في نزع الشرعية أكثر فأكثر عن "طبقة الأفراد المتعاونين" حتى في ما يتخطى بكثير الأوساط الشيعية.

لم تكن هذه الفتوى العامل الوحيد، إلا أنها مهدت الطريق أمام

---

(28) Dodge, Ibid., p. 135 et pp. 144-145.

(29) Luizard, "Introduction," *Monde arabe Maghreb-Machrek*, p. 14.

(30) اعتبر الطيران في أي حال من الأحوال كبديل عن القوات البرية يتسم بالفعالية من الناحيتين الاقتصادية والعسكرية. بين العامين 1921 و1922، شهدت القوات البريطانية في العراق تقليصاً لتبلغ اثنتي عشرة فرقة ثم أربع فرق.
Dodge, Ibid., p. 67.

الثورة الكبرى في العامين 1920-1921، والتي جاء تنظيمها على يد أطراف متعددة، كميلشيا حرس الاستقلال الشعبية. كثيراً ما أظهرت الانتفاضة على أنها رد شيعي على السيطرة السنية التي تغطيها السلطات الانتدابية. وقد ضمّت هذه الانتفاضة شخصيات ذات رمزية كبيرة أهمها الصدر بن آية الله حسن الصدر الكاظمي وميرزا التقي شيرازي وشيخ الشريعة الأصفهاني من النجف ومهدي الخالصي من الكاظمية[31]. ومع هذا، لم يكن تأثيرها تعميق الشرخ الطائفي بل على العكس توطيد التحالف بين السنة والشيعة فتولد متخيَّل العراق اللاطائفي. وكما يقول حنا بطاطو، صارت الثورة مسرح "أخوّة كبرى بين الشيعة والسنة، لا سابق لها في الحوليات العراقية"[32].

سحقت الانتفاضة بوحشية قصوى وقضى فيها خمسمائة بريطاني وخمسة آلاف عراقي. الإكراه مربح والزمن لمصلحة السلطة التي أدخلت من ناحية النظام البرلماني الشكلي ومارست من ناحية أخرى وبشكل تدريجي تسلطاً قوياً. تمكنت الحكومتان المتعاقبتان من ترسيخ الدولة العراقية زمنياً، حكومة سيد عبد الرحمن الجيلاني الذي جعل برلمان المحاسيب يصادق، في آذار/ مارس 1924 وبغالبية ضئيلة، على "معاهدة التحالف" مع بريطانيا العظمى للعام 1922، وحكومة ياسين الهاشمي الذي سنّ القوانين بواسطة المراسيم وأدخل التدريب العسكري الإلزامي إلى المدارس بتأثير من الوطنيين المتطرفين في وزارة التربية.

(31) Yitzhak Nakash, *Reaching for Power: The Shi'a in the Modern Arab World* (Princeton: Princeton University Press, 2005), p. 77.

(32) Batatu, *The Old Social Classes and the Revolutionary Movements of Iraq: A Study of Iraq's Old Landed and Commercial Classes and of its Communists, Ba'thists and Free Officers*, p. 173.

استفادت عودة السلطة القوية من دعم ثلاثة أطراف هي: القبائل "المحايدة" كقبائل كود وعمارة، والعلماء السنّة والمؤسسة العسكرية. بيد أن الجيش هو الذي فرض نفسه ركيزة للنظام أكثر من هذا القطاع أو ذاك من المجتمع بالرغم من الدعم الذي وفره. بين العامين 1936 و1938، زاد عدد الضباط من 800 إلى 1426ضابطاً، ثم بلغ في العام 1941، 1718 ضابطاً. أما عدد الجنود في الخدمة فقد انتقل من 500 19 جندي إلى أكثر من 000 26 جندي، ليبلغ 000 44 جندي. وفي العام 1933، كما امتلك الجيش 37 طياراً وهو رقم كبير جداً في تلك الفترة، ليرتفع بعد سنة إلى 127 طياراً[33].

لم يكن الجيش أحد ركائز الدولة وحسب، بل كان أيضاً محطة دمج للفئات الأكثر حرماناً. من خلال العلاقات التي أقامها الجيش مع المجتمع، دخلته الأفكار المتطرفة التي كانت منتشرة بين الإنتلجنسيا وغير محبّبة لدى السلطة. وكما يقول حنا بطاطو، في العشرينيات، "حتى الضباط الشريفيين الأقدم والأعلى رتبة، كانوا في سياق زمنهم، يميلون إلى التطرّف أكثر منه إلى الاعتدال. وكانوا شبيهين بهذا، على أرض الواقع، بالشباب الأتراك"[34]. وهكذا، صارت المؤسسة الرئيسة التي تؤمن استمرارية الدولة هي نفسها التي تهددها بالقدر الأكبر من الداخل. فإذا كان قد قمع الجيش "الشعب" باسم الدولة، إلا أنه بدا قادراً على الثورة في وجه هذه الدولة ذاتها باسم "الشعب". وبهذه الطريقة، أنتج الانتداب تناقضاً بنيوياً لم يتمكن خلفاؤه من التغلب عليه.

قدّمت كل انتفاضة للجيش فرصة القيام بوظيفته القمعية وتوطيد

(33) Ibid., p. 27.

(34) Ibid., p. 320.

مكانته ضمن النظام. في العام 1927، قمع حركات التمرّد الشيعية التي انفجرت بعد إصدار كتاب لضابط سنّي اعتبر مهيناً بحق الشيعة. وتكرّر الشيء نفسه مع الانتفاضات الكردية في العامين 1930 و1931، والتي سحقها الجيش بمساعدة الطيران الملكي البريطاني. كما كان الجيش مسؤولاً عن القمع الفظيع الذي مورس على الثورات المسيحية واليزيدية في العام 1932 بعد الاستقلال الشكلي للبلاد[35]. جسد الجنرال بكر صدقي "الحماسة الوطنية" التي تجلّت في المذابح المنظمة ضد مئات الأشوريين المختبئين في منازلهم في مقاطعة الموصل في آب/ أغسطس من العام 1932 وقد قدِّر عدد الضحايا بثلاثة آلاف ضحية. وكانت أعمال صدقي الحربية، التي قام بها في الحقيقة من دون أمر من السلطة المركزية، سبباً جعل منه بطلاً قومياً إلى درجة أنه استقبل في بغداد بوصفه المدافع عن "الوطن والدولة الجديدة ضد الإمبرياليين المتآمرين"[36]. وشكّل الأكراد، الذي انتفضوا في العام 1932 بقيادة أحمد البرزاني، هدفاً آخر لعمليات القمع. وقد قام سامي زبيدة بدراسة دقيقة لهذه الحادثة التاريخية وهو يعتبر أن عملية السحق الوحشي التي مورست على الانتفاضة سببها "الحاجة إلى انتصار" لدى الدولة العراقية

(35) Nelida Fuccaro, *The Other Kurds: Yazidis in Colonial Iraq* (London; New York: I. B. Tauris, 1999).

(36) السخرية المأساوية في هذه الحادثة هي أن الأشوريين الذين يطالبون بدولة مستقلة قد ذبحوا لأنهم اتهموا بمساندة البريطانيين لهم، علماً أن هؤلاء قد تركوهم من أجل أن يقدموا دعمهم إلى حكومة بغداد الذين ظلوا حماة لها.
Sami Zubaida, "Violence ethnique en Irak, l'affaire des Assyriens de 1933," dans: Baudoin Dupret, dir., *Le Phénomène de la violence politique: Perspectives comparatistes et paradigme égyptien* (Le Caire: CEDEJ, 1994), pp. 121-136.

التي أصبحت إذاك مستقلة رسمياً[37]. ولنذكر أخيراً قمع انتفاضة شيعية جديدة في العام 1935 اندلعت في منطقة غراف ورميثة والديوانية[38].

في خلال هذه الآلية الإكراهية، أصبحت المؤسسة العسكرية كذلك آلة لإنتاج الانشقاقات على السلطة. فأقام انقلاب الجنرال بكر صدقي في تشرين الأول/ أكتوبر 1936، حكومة حكمت سليمان المتسلّطة والخاضعة لسيطرة العسكر. أما اغتيال صدقي في آب/ أغسطس 1937 في الموصل وبعده اغتيال سليمان فقد جاءا بالظروف المؤاتية لصعود طغمة عسكرية أخرى مؤلفة حصراً من سبعة ضباط سنّة. تآمرت هذه المجموعة الجديدة لقتل بكر صدقي والتسبب بسقوط حكومة حكمت سليمان لتدشن عهداً سياسياً جديداً في العراق حيث السياسيون المدنيون "لن يتمكنوا من البقاء في السلطة إلا بموافقة هؤلاء الرجال"[39].

إنتفاضات في سوريا وفي مصر

على الرغم من اختلاف التجربة الانتدابية في سوريا عن التجربة الانتدابية في العراق، إلا أنها أثارت رفضاً واسعاً من جانب الشعب ترافق بموجات من العنف. فواجه هذا البلد الجديد بشكل فوري ظاهرة انشقاق، ولاسيّما في المناطق المحاذية لتركيا على سبيل المثال لا الحصر. وفي المرحلة الممتدة بين عامي 1922 و1924، أحصى جان دافيد مزراحي (Jean-David Mizrahi) 381 حادثة من جراء أعمال

(37) Ibid.

(38) Reeva S. Simon, "The imposition of nationalism in a non-nation state: The case of Iraq during the interwar period, 1921-1941," in: Jankowski et Gershoni, *Rethinking Nationalism in the Arab Middle East*, pp. 91-92.

(39) Charles Tripp, *A History of Iraq* (Cambridge: Cambridge University Press, 2000), p. 94.

العنف تسببت بمقتل 289 شخصاً، كان بينهم 93 من القوات الفرنسية و86 مدنياً و110 أفراد من العصابات المسلحة[40].

لا يمكن فهم هذه المقاومة انطلاقاً من سجل "العصابات" التقليدي حصراً حيث تجد مصادرها ومتخيَّلها، لأن عدداً من "رجال العصابات" السياسيين هؤلاء يعطون شرعية لأنفسهم من طريق خطاب متطرف ووطني وديني أو حتى مناصر للعثمانيين. "كان مصطفى حاج حسين وأصله من جبل الزاوية رفيقاً سابقاً لإبراهيم هنانو، وكان عقيل إسقاطي وأصله من منطقة حريم، وديدي بك أوغلو وحقي بك، آخر ممثل لسلالة البكوات المحليين في بانياس، وهي سلالة كجك علي أوغوللاري التي تسيطر أعمالها على كل التاريخ المحلي في أول ثلثين من القرن التاسع عشر، من زعماء الحرب الحقيقيين القادرين على جمع مئات الرجال المسلحين خلفهم"[41]. كما تعمل العصابات بالتعاطي مع اللجان الوطنية، التي غالباً ما تكون سرية وتشكل محلياً "انعكاس نظام ما" ووسيلة "إعادة إنتاج رمزية على الأقل للجسم الاجتماعي"[42].

في سوريا كما في العراق، لم تنجح السلطات الانتدابية في فرض نفسها وفرض احترام حدودها مع تركيا إلا مقابل عمليات قمع مكثف تمثل العنف فيها على وجه الخصوص، عبر عرض رؤوس "قطاع الطرق"[43] في الساحات العامة. بيد أن العنف لم يستطع الوقاية من الانتفاضات المحدودة كتلك التي قام بها إبراهيم هنانو بين العامين

(40) Jean-David Mizrahi, *Genèse de l'Etat mandataire. Service de renseignements et bandes armées en Syrie et au Liban dans les années 1920* (Paris: La Sorbonne, 2003), pp. 115-116.

(41) Ibid., p. 117.

(42) Ibid., p. 123.

(43) Ibid., pp. 151-163 et 272.

1919 و1921، وهي تستمد أصولها من العصبيات المحلية والخطاب الديني ومن الشعور الوطني أيضاً[44].

كما قاد الاحتجاج الخفي بين العامين 1919 و1922 إلى انتفاضة شاملة بين العامين 1925 و1927 تحت قيادة الزعيم الدرزي سلطان باشا الأطرش. أطلق على الانتفاضة منذ البداية اسم "الثورة الكبرى" وارتدت مغزى لسببين: هي أولاً متعددة بالنظر إلى القوى المشاركة فيها إذ أقامت صلات بين سلسلة من الاحتجاجات المختلفة، كتلك التي تزعمها عادل أرسلان[45] أو تلك التي قام بها الجندي الفرنسي السابق، فوزي القاوقجي، في حماه، ثالث أكبر مدينة في البلاد. فاوض القاوقجي في البداية مع العائلات المحلية الكبيرة، كعائلة البرازي وعائلة عزم قبل أن يضطر إلى مغادرة المدينة ليوفر عليها قصف الجيش الفرنسي لها بعد أن تسبب حصارها بوقوع 344 ضحية من المدنيين في غالبيتهم[46]. ثانياً، بقدر ما أن ثورة العام 1920 قد اعتبرت مؤشراً على ابتكار العراق، شكلت ثورة 1925 مرادفاً لولادة نوع من "الهوية السورية" المتعددة الطوائف وقد تبلورت على شكل هوية سياسية ووطنية "في الخلفية"، تجمع من يعادي "العدو" الفرنسي[47]. كما كانت نتاج المقاومة التي صدرت عن

(44) Nadine Méouchy, "Le Mouvement des Isabat en Syrie du Nord à travers le témoignage de Chaykh Youssef Saadoun (1919-1921)," in: Méouchy and Sluglett, dir., *The British and French Mandates in comparative Perspectives/ Les mandats français et anglais dans une perspective comparative*, pp. 649-671.

(45) Juliette Honvault, "Instrumentalisation d'un parcours singulier: La trajectoire mandataire de l'Emir Adil Arslan pour consolider les ruptures de l'indépendance syrienne," in: Ibid., pp. 345-360.

(46) Michael Provence, "A Nationalist Rebellion without Nationalists? Popular Mobilizations in Mandatory Syria 1925-1926," in: Ibid., pp. 673-692

(47) Ibid., p. 677.

الأعيان وعن هوامش المجتمع الحضري على السواء فسمح تحالفهما بتشكيل كتلة مهيمنة حقيقية.

ما كان الزعيم في المدينة، على الرغم من قوة تأثيره والقبضة التي يمارسها على الشأن العام، قادراً على الاستغناء عن "القبضايات" المتجذرين في النسيج الاجتماعي للأحياء التي يؤمنون فيها النظام على الرغم من تحديهم للقانون[48]. تحدر هؤلاء الأشخاص ذوي "العضلات المفتولة" في كثير من الأحيان من أصول متواضعة وعرفوا بكرمهم كما بوحشيتهم واعتيادهم على تخطي النظام العام، وقد انخرطوا على غرار حسن الخراط، حارس أحد أحياء الشام، ضمن آلية "تسييس" حقيقية. "نشأ وعي سياسي على مستوى الأحياء حيث تحولت الخصومات المستعرة إلى تحالف ضد الفرنسيين" كما يقول فيليب خوري قبل أن يضيف قائلاً إن ثورة العام 1925 "قد ساعدت عدداً من الشبان على اكتساب سمعة في الأحياء الشعبية في المدينة والتحول إلى قبضايات. وفي الواقع، لوحظت عملية تداول سريعة بين القبضايات خلال هذه الفترة حيث حل الأبطال الجدد محل الأبطال الذين يسقطون"[49]. ويقول خوري أيضاً إن القبضايات قد أصبحوا بالنسبة إلى السياسيين بأهمية رجال الدين.

على عكس سوريا والعراق وهما دولتان جديدتان، امتلكت مصر

(48) Michael Johnson, "Political bosses and their gangs: Zu'ama and Qabadayat in the Sunni Muslim quarters in Beirut," in: Ernest Gellner and John Waterbury, dir., *Patrons and Clients in Mediterranean Societies* (London: Duckworth, 1977), pp. 207-224.

(49) Philip S. Khoury, "Syrian Urban Politics in Transition: The Quarters of Damascus During the French Mandate," in: Albert Hourany, Philip S. Khoury and Mary C. Wilson, dir., *The Modern Middle East* (Berkeley: University of California Press, 1993), p. 447.

بنية دولة قديمة. على الرغم من السيطرة الاستعمارية النمط التي فرضتها بريطانيا العظمى عليها ابتداءً من العام 1882، كانت في بداية القرن العشرين أكثر استقراراً من السلطنة العثمانية المنتهية. بيد أنها شهدت في العام 1919 ثورة شبيهة في بعض نواحيها بثورة العراق وسوريا وفلسطين. لم يكن لهذه الثورة "قائد" رسمي، إلا أنها قامت باسم حزب الوفد وزعيمه سعد زغلول، الطرف الوطني الأساسي على الساحة السياسية المصرية. أما العامل الذي أطلق الثورة فقد كان بالتحديد اعتقال زغلول ونفيه إلى جزيرة مالطا في 8 آذار/ مارس 1919.

كانت ثورة شعبية لكنها تلقت دعم علماء الدين المناهضين للبريطانيين وللقصر الذي اعتُبرت سيطرته أشبه بسيطرة قدماء المماليك، وكانوا من العبيد ذوي الأصول التركية ليصيروا بعدها أصحاب السلطة. عبأت الثورة سكان الريف بكثافة إلى درجة أنها فاجأت السلطات البريطانية بقدر ما فاجأت القوى الوطنية نفسها(50)، إلا أن مواقعها ضمن سكان المدن كانت حقيقية وظلت موجودة حتى بعد هزيمتها بمدة طويلة. أثارت الثورة سلسلة من التحركات الاجتماعية، ولاسيّما لدى العمال حيث شارك سائقو ترامواي القاهرة بكثافة فيها ولم يتوانوا عن إنشاء منظمات عمالية جديدة تطالب تارة بزيادة الأجور وتارة بقيام نظام "بلشفي".

دفعت الثورة ثمناً غالياً: "قتل حوالي ثلاثة آلاف مصري على الأقل وأحرق عدد من القرى ونهبت الممتلكات ودمرت المحطات وقطعت السكك الحديدية"(51). كما أن عودة الهدوء لم تكن تعني نهاية الثورة بما

(50) Reinhard Schulze, *A Modern History of Islamic World* (New York: New York University Press, 2002), p. 54.

(51) Ibid., p. 54.

أن موجة من الاضرابات عمّت البلاد في آب/ أغسطس 1919 مندرجة ضمن استمرارية "الثورة الشعبية التي قامت في الربيع السابق. فتحت "الثورة الوطنية" ضد الحكم البريطاني الطريق أمام المنظمات العمالية والعمل النضالي، في حين أن نسبة التضخم قد مكنت النضالات العمالية من الازدياد"[52].

الثورات الفلسطينية

في فلسطين كذلك، اتسمت حقبة الانتداب بالعنف. ونجم التطرّف هذه المرة عن الانتقال "من القومية العربية في فلسطين إلى القومية الفلسطينية"[53]. يمكن اعتبار تأسيس المؤتمر الوطني الفلسطيني، في العام 1920، بمثابة عمل استقلالي قام به هذا التيار في مواجهة القوميات العربية التي سبقته.

بيد أن رفض الحكم الانتدابي في فلسطين ترافق أيضاً مع رفض الصهيونية ومع نشوء مستعمرات يهودية بكثافة على امتداد العشرينيات[54]، ما تسبب بإفقار حقيقي للسكان العرب وانتزاع ملكياتهم. ووقعت أعمال الشغب الأولى المعادية للصهيونية في العام 1920، تبعتها حوادث شغب أخرى أكثر اتساعاً في العام 1929 كانت نتيجتها إعدام خمسة فلسطينيين في حزيران/ يونيو من العام 1930.

(52) Joel Beinin et Zachary Lockman, "1919, Labour Upsurge and National Revolution," in: Hourany, Khoury and Wilson, dir., *The Modern Middle East*, p. 425.

(53) James L. Gelvin, *The Israel-Palestine Conflict: One Hundred Years of War* (Cambridge: Cambridge University Press, 2005).

(54) وهكذا، "في العام 1932، أدى شراء الأراضي من قبل الصهاينة إلى طرد حوالي عشرين ألف أسرة من الفلاحين"، المصدر نفسه، ص 103.

في فلسطين، كما في سوريا والعراق، أدى الأعيان المحليون دوراً حاسماً في أعمال الاحتجاج، وقد تسببوا بشللها أحياناً بسبب انقساماتهم الداخلية، كالنزاعات بين آل الحسيني وآل النشاشيبي. بيد أن هذه الشخصيات لم تكن الأطراف الوحيدة المعنية بهذه الانتفاضات. ففي العام 1935، على سبيل المثال، أسس عز الدين القسام، المتحدر من أسرة رجال دين سوريين، مجموعة عسكرية أطلق عليها اسم "اليد السوداء" وتزعم معارضة مسلحة. "خلافاً للناشطين السياسيين الآخرين في فلسطين، ركز القسّام جهوده حصراً على الطبقات المتواضعة التي كان يعيش بينها"، فأنشأ مدرسة مسائية. كان قريباً من الناحية الفكرية من حركة الإخوان المسلمين، المنظمة المصرية التي أسّسها حسن البنا في العام 1928، كما كان خصماً للمعتقدات الدينية الشعبية المتهمة بالتطيّر، وتمكن من تجنيد عدة مئات من المقاتلين ضمن الأوساط الشعبية(55). وحين قتل في السنة نفسها، أصبح فوراً رمز المقاومة الوطنية والدينية على حد سواء.

لم يكن القسام "العربي الغريب" الوحيد الذي تبنى حركة الاحتجاج الفلسطينية. ومع تكاثر المظاهرات المساندة للفلسطينيين في العراق وسوريا ومصر، استقال السوري فوزي القاوقجي من منصبه كضابط في الجيش العراقي في نيسان/ أبريل 1936 ليشارك في الثورة التي اندلعت بعدها بأيام قليلة(56). بدأت هذه الانتفاضة الجديدة التي عرفت باسم "الثورة الكبرى" مع اغتيال يهوديين في نابلس تبعته حلقة من

(55) Ted Swedenburg, "The Role of the Palestinian Peasantry in the Great Revolt (1936-1939)," in: Hourany, Khoury and Wilson, dir., *The Modern Middle East*, p. 488.

(56) Adeed Dawisha, *Arab Nationalism in the Twentieth Century: From Triumph to Despair* (Princeton: Princeton University Press, 2003), p. 109.

العمليات الانتقامية والعمليات الانتقامية المعاكسة. فأنشئت تحت قيادة مفتي القدس الحاج أمين الحسيني لجنة عربية عليا علماً أنها لا تتحكم بكامل ديناميكيات المعارضة. وشكلت المواجهات والإضرابات وحركات المقاطعة التي كانت مؤشرات على تحوّل "الطبقات الشعبية" إلى العمل، تحدياً بالنسبة إلى السلطات البريطانية بقدر ما كانت تحدياً "لقيادة الأعيان على رأس الحركة الوطنية وهددت أسس سيطرة التجار وملاك الأراضي"(57).

انتصر القمع في النهاية على الثورة في تموز/ يوليو، ولكن لفترة قصيرة فقط. شاركت كل أسرة فلسطينية، رغماً عنها أو بمحض إرادتها، في حركة تسلح كثيفة أدت مع بداية خريف العام 1937، إلى قيام تسعة آلاف إلى عشرة آلاف فلسطيني بهجوم ضد القوات البريطانية والمستعمرين اليهود. كان رد البريطانيين وحشياً بوجه خاص إذ نظموا "فرقاً ليلية خاصة" ومارسوا شكلاً من العقاب الجماعي. احتاجت قوات الاحتلال إلى سنتين لسحق الانتفاضة وتسببت باستنزاف المجتمع الفلسطيني مع وقوع خمسة آلاف قتيل وعشرة آلاف جريح واعتقال خمسة آلاف وستمائة وسبعة وتسعين شخصاً.

القومية العربية واليمين المتطرف

كانت الدول العربية التي ولدت بعد تفتيت الإمبراطورية العثمانية محكومة بنخب يمكن التعريف عنها على أنها عثمانية ومؤلفة، في الفترة الأولى، من "أفندية" وبرجوازية تجارية وقبائل إلى حد ما. أما نظام "الديمقراطية البرجوازية" الذي أقامته هذه النخب فقد أعطاها شرعية أكيدة وأمّن لها الطاعة والديمومة، لكنه استبعد إلى حد كبير "الشعب".

(57) Swedenburg, Ibid., p. 468.

بيد أن هذا الأخير سيدخل في النظام، ليس من طريق اللعبة الانتخابية أو التمثيل السياسي، بل بواسطة المؤسسات التربوية والعسكرية التي أنشأتها الدول. في العراق وسوريا وأيضاً في مصر، شكلت السلطة نخباً جديدة من أصول شعبية كانت ضرورية من أجل حسن عملها لكنها أساءت تقدير إمكانياتها تجاه الالتزام القومي إلى حد بعيد.

اتصلت القومية العربية في العشرينيات والثلاثينيات تارة بالإسلام وانفصلت عنه تارة. وإذ تموضعت أحياناً ضمن دولة إقليمية، إلا أنها كثيراً ما ابتعدت عنها لتغطي المجال العربي بالكامل. وهكذا، أعلن المؤتمر الإسلامي في القدس، الذي انعقد بين 7 و17 كانون الأول/ديسمبر 1931، إقامة دولة عربية موحدة كما أعلن الحرب على الاستعمار بوصفهما الهدفين الرئيسين. ضم المؤتمر الذي انعقد برئاسة المصري عبد الحميد سعيد، مندوبين من أفريقيا الشمالية وجاوا وسيلان ونيجيريا وحتى من يوغوسلافيا. وحتى نفهم عملية نشوء متخيّل قومي عربي، يجب أن نلتفت إلى إنشاء حزب الاستقلال العربي في العام 1932 ولجنة العمل القومي في العام 1933 ودورهما في التمرد العسكري في العراق في العام 1941.

امتلك الحاج أمين الحسيني، وهو من أبرز شخصيات هذه الحركة، موقعاً سياسياً ورمزياً فاقت أهميته حدود فلسطين، ولا سيّما في العراق حيث ذهب في العام 1939 واستقبل كالأبطال من جانب الضباط المقربين من رشيد عالي الجيلاني، الانقلابي نصير النازية المعلن انتقاماً من البريطانيين[58]. لاشك في أن هاتين الشخصيتين غير

(58) Batatu, *The Old Social Classes and the Revolutionary Movements of Iraq: A Study of Iraq's Old Landed and Commercial Classes and of its Communists, Ba'thists and Free Officers*, p. 173.

كافيتين حتى نصف القومية العربية في تلك الفترة بأنها "يمينية" متطرفة. بيد أن هذا التيار، الذي كان نتاجاً غير مباشر للأفكار الرائجة آنذاك في أوروبا، قد شهد أيام عزّ في الشرق الأوسط، ولاسيّما في الثلاثينيات من القرن العشرين حيث هدّد هنا وهناك القاعدة الاجتماعية لنوادي المثقفين القوميين العرب الذين يفسرون القومية العربية تفسيراً ثقافياً أو "رومنطيقياً".

يقول راينهارد شولز (Reinhard Shulze) "إن المثل العليا لدى اليمين الإسلامي تتطابق بشكل أكبر مع الفاشية الإيطالية تحت حكم موسوليني ومع نظامه النقابي للتمثيل الاجتماعي والنظرة المثالية إلى التاريخ. لا يمكن فصل القومية الاشتراكية عن العنصرية وعن معاداة السامية (...) وقد كانت منذ البداية ظاهرة هامشية في العالم الإسلامي"[59]. لم ينتقل اليمين القومي العربي إلى عضوية على النمط النازي، إلا بشكل هامشي، إلا أنه اعتبر الحياة نتيجة الأعمال الحربية بين "الأجناس" المتنازعة، حيث تمثل الحرب شرط البقاء بحد ذاته في حين أن الهمجية المولِّدة تمثل شرط النهضة الحضارية. وتعرّف بعض القوميين العرب إلى اليمين المتطرف عبر انتشار أفكاره وأنماط عمله في جميع أنحاء العالم. دمج هذا اليمين العلموية بالروحانية وتقديس الشباب بمثال المجتمع غير النزاعي، فشكل تطرّفه نموذجاً "بديهياً".

تناغم اليمين المتطرف مع إحباطات وتوقعات القومية العربية الصاعدة وتوخى انتشاره إعادة مطابقة ناشطة[60] وقفت ضد السلطات الانتدابية وضد الأنظمة التي أقامتها. في الثلاثينيات، أنجز الطلاق بين

(59) Schulze, *A Modern History of Islamic World*, p. 107.

(60) Kenneth Thompson, *Beliefs and Ideology* (London: The Open Press, 1986), p. 29.

الفريقين إلى حد كبير. وفي حين عمل الممسكون بالسلطة من أجل المحافظة على الدول التي نشأت عن اقتسام العالم العربي، تطرّفت النخب الجديدة لتسقط رؤيتها في إطار رومنطيقية ثورية وروحانية، منادية بـ"اتصال ديماغوجي بين الزعيم والشعب وبقيادة سياسية وصفت بالثورية تحت لواء رجل المرحلة، وبالتأطير والتلاعب عبر انضمام إجماعي، خارج أي وساطة عضوية وأي صلة متمايزة اجتماعياً"[61]. وكثيراً ما أجبر اليسار الشيوعي نفسه على اتباع هذا النموذج بذاته.

في مصر، انتصرت مجموعات عديدة، ومن بينها جمعية مصر الفتاة، لأفكار هذا اليمين الوطني. وبالطريقة ذاتها، وعلى الرغم من مهاجمة الوطنية كبرنامج ومعها اللجوء إلى العنف ضمن دار الإسلام، ساور "الإخوان المسلمين" حلم شبه عسكري يستوحي إلى حد كبير التيارات الفاشية. ونادوا كذلك بنوع من التنظيم السرّي المؤلف من خلايا أطلق عليها اسم "أسرة" تضم الواحدة منها خمسة إلى عشرة أشخاص[62] كما تميزوا بـ"قمصانهم السوداء".

في العراق، كان لأفكار اليمين المتطرّف استقبال إيجابي حتى ضمن أوساط السلطة. في العام 1933، شرح سامي شوكت الذي حلّ محل ساطع الحصري (1880-1968)، القومي العربي الرومنطيقي، على رأس إدارة التربية، قائلاً إن الأمة التي لا تتقن مهنة الموت بالحديد والنار يكون محكوم عليها أن تفنى تحت حوافر الخيل وجزم الجيوش

(61) René Gallissot: "Mouvement ouvrier et movement national: Communisme, question nationale et nationalismes dans le monde arabe," dans: dir., *Mouvement ouvrier, communisme et nationalisme dans le monde arabe* (Paris: Editions Ouvrières, 1978), p. 32.

(62) Guilain Denoeux, *Urban Unrest in the Middle East: A Comparative Study of Informal Networks in Egypt, Iran and Lebanon* (Albany: State University of New York Press, 1993), p. 94.

الغربية، (...) إنه لمن واجبنا أن نحسّن مهنة الموت، مهنة الجيش، المهنة العسكرية المقدسة[63]. وقد تأثرت كذلك بهذا التيار مجموعة شباب "الفتْوَنة" شبه العسكرية التي تأسست في العام 1935 وكانت واحدة من القوى المحرّكة للمعارضة حتى تاريخ انقلاب رشيد عالي الجيلاني في العام 1941.

في سوريا، كان تأثير اليمين المتطرف ظاهراً كذلك. وكما يقول فيليب خوري "إن اللغة الوطنية بحد ذاتها قد شهدت تحولاً. وشدّدت هذه القوى الصاعدة أكثر على العدالة الاجتماعية والاقتصادية بالنسبة إلى الجماهير وعلى الوحدة العربية كبديل للأفكار الوطنية الدستورية القديمة وأشكال النظام البرلماني الليبرالي والحريات الفردية"[64]. ليس من دواعي الدهشة هنا أيضاً أن تكون الحركة الوطنية، بما فيها الكتلة الوطنية التي هي من أنصار المفاوضات مع فرنسا، مشدودة إلى خيار تشكيل ميليشيات وتنظيم كشافة الأمويين[65].

تسلّط في بلاد فارس وتركيا

لم تخضع السلطات في بلاد فارس وتركيا لمعاناة الأنظمة الانتدابية ولأعمال العنف التي تسبّبت بها. بيد أن هاتين الدولتين المتسلطتين لم

(63) Peter Sluglett, "Le Parti Ba'ath: Panarabisme, national-socialisme et dictature," dans: Chris Kutschera, *Le Livre noir de Saddam Hussein* (Paris: Oh! Editions, 2005), p. 91.

(64) Israel Gershomi, "Rethinking the formation of Arab nationalism in the Middle East, 1920-1940: Old and new narrations," in: James Jankowski and Israel Gershoni, *Rethinking Nationalism in the Arab Middle East*, p. 17.

(65) Philip Khoury, "The paradoxical Arab nationalism: interwar Syria revisited," in: Ibid. p. 277.

تتوانيا عن إقامة "حداثة في حالة حصار"[66] واتباع سياسات إكراهية صارمة.

في خلال الحرب العالمية الأولى، ارتُهِنت بلاد فارس لنزاع هي غريبة عنه واحتلتها روسيا وبريطانيا العظمى. لن نتطرق إلى النتائج الاجتماعية والاقتصادية، وسنكتفي بالقول إن النزاع أفقد البلاد استقرارها السياسي وأدى إلى سقوط حكم القاجار الملكي بعد انقلاب في العام 1921 جاء بالضابط القوزاقي القديم رضا خان، صاحب المستوى التعليمي الضئيل والمجهول حتى ذلك الحين، على رأس البلاد، ولن يعلن الرجل عن نفسه رسمياً شاه البلاد سوى في العام 1925.

ظهرت تناقضات النظام الداخلية في بداياته، حتى إن الصحافي زياد الدين طبطبال، شريك رضا خان في الانقلاب والذي عيّن رئيساً للوزراء، ألغى معاهدة العام 1919 بين إيران وإنجلترا التي تحوّل في الواقع بلاد فارس إلى محمية وعمل على تقارب مع روسيا السوفييتية. خضع طبطبال للتطهير بعد ثلاثة أشهر وعاش في المنفى في سويسرا حتى وفاته في العام 1944. وبعد سنتين على الانقلاب الذي قام به الضابط السابق، تمكن من استبعاد أصدقائه وشركائه وفرض سلطته المطلقة على الجمعية العمومية وعلى البلاط الملكي ليكتسب استقلالية تامة ويفرض برنامج تغريب بالقوة.

ترافق توطيد حكم رضا خان، الذي "يخشى الأمة ورأيها من خلال

---

(66) صاحب العبارة هو ديفيد نوجنت:
David Nugent, "Before History and Prior to Politics: Time, Space and Territory in the Modern Peruvian Nation-State," in: Thomas Blom Hansen and Finn Stepputat, dir., *States of Imagination: Ethnographic Explorations of the Post-Colonial State* (Durham; London: Duke University Press, 2001), p. 258.

الصحافة"[67] مع تشكيل جيش قوي قوامه أربعمائة ألف رجل في العام 1941، واتباع إيديولوجيا قومية رسمية شديدة اللهجة، تركز أساساً على الماضي قبل الإسلامي للبلاد التي أعيدت تسميتها باسم "إيران" في 21 آذار/ مارس 1935. استندت عودة السلطة الملكية القمعية في السنوات 1921-1925، وبالأخص ضد الحركات الديمقراطية و/ أو الجمهورية، إلى أصحاب الأراضي والأعيان الريفيين كما إلى البيروقراطية العسكرية التي أعيد تشكيلها على نمط فرقة القوازاق القديمة. إلا أن هذه العملية أدت على المدى القصير إلى تهميش هذه الفئات وأحياناً إلى تصفية بعض شخصياتها البارزة تصفية جسدية[68].

وكذلك، شهدت الاحتجاجات من جانب الأقليات، ولاسيّما الكردية منها، قمعاً وحشياً. على غرار مصير التمرّد الذي قاده الزعيم القبلي الكردي، اسماعيل آغا سيمكو، الذي بدأ في العام 1919-1920. كان سيمكو حليفاً سابقاً للإمبراطورية العثمانية في خلال الحرب العالمية الأولى، ومسؤولاً عن مذابح اقترفت بحق الأشوريين، إلا أنه انزلق تدريجاً نحو إسلام قومي كردي وعاند طهران حتى العام 1930، على الرغم من الانقسامات الداخلية بين القبائل الحليفة. وقد اغتالته فرق الشاه في خلال توجهه إلى طاولة المفاوضات.

كما أطلق الشاه، ولكن من دون جدوى[69]، برنامج القضاء على القبائل في الأرياف، وهو برنامج رديف لسياسة العلمنة بالقوة التي اتبعها

---

(67) Richard, *L'Iran: Naissance d'une république islamique*, p. 190.

(68) Ervand Abrahamian, *Iran Between Two Revolutions* (Princeton: Princeton University Press, 1982), pp. 150-151.

(69) كما لا حظ دبلوماسي بريطاني، لا يمكنه أن يمارس "نفوذه في المناطق القبلية إلا من خلال السياسة القديمة التي تقضي بتحريض مقصود لقبيلة ضد الأخرى مع الإبقاء على جذوة النزاعات القبلية مشتعلة"، المصدر نفسه، ص 174.

أساساً في مجال العدل ونمط اللباس والعادات. وقد تسبب البرنامجان بمعاداة الأرياف له ومعها الطبقات الوسطى ورجال الدين الذين ساندوا عودة الملكية في بداية العشرينيات. وفي العام 1928، أُحدث قانون يقضي بـ"توحيد اللباس" وأثار تطبيقه في العام 1935 شبه ثورة في مدينة مشهد تسبب قمعها بعشرات القتلى[70]. في كانون الثاني/ يناير 1936، حظّر قانون جديد على النساء ارتداء الحجاب في الأماكن العامة، ما أثار ردود فعل كثيفة، ولا سيّما من قبل منظمة "فدائيّو الإسلام" وقد قمعت بدورها عبر إعدام أو اغتيال عدد من علماء الدين المعروفين[71].

في تركيا، قام نظام الحزب الواحد هو حزب الشعب الجمهوري، الذي أصبح فيما بعد "الحزب-الدولة" عبر دمج الإثنين معاً، بتكريس زعيمه، مصطفى كمال، أباً للأتراك (أتاتورك) في العام 1934، كما اتبع أيضاً نهج الوطنية الاشتراكية الداروينية. وترافق التسلط الكمالي مع مشروع حضاري وثوري على حد سواء مع جمع الاثنين ضمن ملامح القومية التركية الأساسية. في غياب عدو خارجي، صار "العدو الداخلي" هو هدف الثورة والحضارة والأمة. فالكمالية هي في الحقيقة "شميتية" (نسبة إلى شميت) بشكل فطري تؤمن بأن أي "نظام ثوري" لا يمكنه البقاء من دون أعداء، وهم في الواقع كثر. يشهد على هذا فقرة من المجلة الكمالية "قدرو"، تقول: "أكبر خطر يحدق بالثورات هو انتفاء الأعداء. بل يمكن القول إن الثورات حتى تعيش وتبلغ أهدافها، يجب أن تخترع أعداءً لها في حال عدم وجودهم. وسيكون حقاً من الظلم الافتراض أن الثورة التركية لا أعداء لها. إليكم قوة مظلمة (الارتقاء) التي تسمع صفيرها من وقت إلى آخر كالثعبان. وهذه غالاتا التي لا تفتأ تعمل من

(70) Richard, *L'Iran: Naissance d'une république islamique*, p. 203.

(71) Jean-Pierre Digard, *Bernard Hourcade et Yann Richard: L'Iran au XX^{e} siècle* (Paris: Fayard, 1996), p. 87.

أجل أسيادها في الخارج. وهذا تيار عثماني، يرتدي، خلف انجذابه لـ"ما وراء الأمة"، عمامة "مسلة"[72] أو يخفي تحت قبعته العالية رزم وثائق الاستسلام. وأخيراً، ها هي الطبيعة التي لا تبخل علينا بجمالها ولكنها تخفي عنّا ثرواتها وكنوزها. إنها لجبهة كاملة في النهاية، جبهة سيشيخ أمامها جيلان على الأقل قبل أن تبدأ الثغرات بالظهور فيها. هؤلاء هم أعداؤنا. يجب أن نظهر كل هذا أمام أعين الشباب ونشرحه لهم حتى تنهمر قبضات أياديه على هؤلاء الأعداء. لكن، وحتى ينقض الشباب على هذه القوى بعناد، يجب أن ينشأ بحسب رؤيا النظام السياسية وينضج من خلالها"[73].

من بين "الأعداء" تحتل الهوية الكردية مكانة الجريمة التي يعاقب عليها القانون. قامت أكثر من عشر انتفاضات كردية، ولاسيّما في الأعوام 1925 و1930 و1936-1938 رداً على سيطرة القومية التركية، وقد قمعت بوحشية وسقط فيها عشرات آلاف القتلى. شكل القمع في كردستان واحدة من أهم وسائل التحديث للجيش التركي، وبالأخص بالنسبة إلى الطيران العسكري[74].

كما في فارس، سعت السلطة الكمالية إلى احتكار مساحة الرؤية من أجل إعادة تحديدها بحسب المتطلبات القومية والثورية والحضارية. وفي حين أن شعار "أيها المواطن، تكلم التركية" زيّن بشكل شبه منهجي كل صور وتماثيل مصطفى كمال في غالبية الساحات العامة في الأناضول، منع قانون صدر في العام 1925 ارتداء الطربوش التقليدي.

(72) Corpus juridique préparé par Ahmed Cevdet Pacha (1822-1895).

(73) *L'éditorial de Kadro*, no. 14 (1933), p. 4.

(74) Robert Olson, "The Cheikh Said Rebellion: Its Impact on the Development of the Turkish Air Force," *The Journal of Kurdish Studies*, no. 1 (1995), p. 77-84.

أعلن هذا القانون بعد خطاب ألقاه مصطفى كمال أهان فيه بشكل خاص طرائق اللباس "غير الحضارية"، وأثار تطبيق هذا القانون ردود فعل واسعة انتهت بحوالي مائة عملية إعدام. تضمنت عملية "التغريب" إزالة القدسية عن المساجد وفرض "السهرات الراقصة" على أعيان المدن، كما ارتدت شكل عنف رمزي مؤسسي ضد "الشعب المتخلف". وفي حين ظلت السلطة تلجأ إلى المرجعية الدينية تستمد منها شرعيتها، إلا أنها اعتبرت "الارتقاء"، وهو المصطلح المستخدم للحديث عن "التزمت الديني"، بمثابة تهديد بالنسبة إلى الجمهورية والأمة على السواء.

ترافقت هذه السياسة مع فرض ضرائب باهظة على الفلاحين المجبرين كذلك على القيام بأشغال شاقة، وكانت من بين الأسباب التي أدت إلى قيام حركات معارضة واسعة في مقاطعات الأناضول في الثلاثينيات. وعلى الرغم من أن حادثة مينيمن التبشيرية كانت وحيدة من نوعها، إلا أنها محملة بالمعنى؛ ففي كانون الأول/ ديسمبر 1930، أعلن المدعو محمد الكريتي نفسه "مهدياً" وذبح رقيباً في الجيش على صراخ الجموع المنادية بـ"موت الجمهورية". أمر مصطفى كمال في البداية بشطب مدينة مينيمن وسكانها ثلاثون ألف نسمة، عن الخريطة قبل أن "يعدل" العقوبة فيأمر بإعدام تسعة وعشرين شخصاً من بينهم يهودي واحد[75].

صحيح أن السلطة الكمالية تمكنت من تأمين ولاء شعبي كما أمنت بقاءها إلى ما بعد وفاة مؤسسها في العام 1938 بكثير من خلال تعبئة الشباب وإنشاء منظمات جماهيرية، إلا أن السلطوية الكمالية ستترك، كما في إيران، ميراثاً تنازعياً سيقود البلاد، مع بداية الستينيات، إلى حلقة من الاحتجاجات المتطرفة وسلسلة من التدخلات العسكرية.

(75) Gevin D. Brockett, "Collective Action and the Turkish Revolution: Towards a Framework for the Social History of the Atatürk era, 1923-1938," in: S. Kedouri, dir., *Turkey Before and After Atatürk. Internal and External Affairs* (London: Frank Cass, 1999), pp. 44-46.

الفصل الثالث

من النكبة إلى "الأنظمة الثورية"

شكلت سنوات الحرب العالمية الثانية في الشرق الأوسط نوعاً من "عصر جليدي". احتلت القوات البريطانية والسوفييتية إيران ابتداءً من 25 آب/ أغسطس 1941، وكان الشاه فيها قد حاول التقارب مع ألمانيا النازية. إن إيران هي البلد الوحيد الذي عانى كثيراً من نتائج الحرب العالمية الثانية، فتركيا التي قادها عصمت إينونو بعد وفاة مصطفى كمال في العام 1938، تبنت رسمياً سياسة حيادية، لكنها في الواقع أملت بأن انتصار ألمانيا سيمكنها من تحقيق حلم الإمبراطورية الطورانية الطوباوي القديم، تلك الإمبراطورية التي تجمع كل الشعوب ذات الأصول التركية. وإذا كان الضباط القريبون من ألمانيا النازية، تحت قيادة رشيد عالي الجيلاني، قد استولوا على السلطة إثر انقلاب قاموا به في العراق، فإن انتصارهم لم يدم كثيراً بعد أن طردهم البريطانيون. وفي أماكن أخرى، كسوريا ولبنان وفلسطين، فقد استمر نظام الحكم الانتدابي على الرغم من بعض الاحتجاجات.

تخلّت تركيا في اللحظات الأخيرة، عند نهاية العام 1944، عن سياسة الحياد الإيجابي إزاء ألمانيا النازية ووضعت نفسها تحت الحماية

الأميركية ذات الموارد المادية والرمزية الكبيرة جداً. كما ضمنت واشنطن أمن حليفتها الجديدة ضد الاتحاد السوفييتي، وهو أمر يفسر استمرارية النظام التركي على امتداد الحرب الباردة. استعادت إيران سيادتها مع حلول العام 1946 وعادت إليها الملكية من طريق ابن الشاه المخلوع السابق، رضا شاه. وعمل أحمد قوام، صاحب الميول اليسارية، وقد انضم إلى الملك الشاب بعد أن كان رفيق دربه، على قمع حركات المعارضة الناشئة. وفي كانون الأول/ ديسمبر 1946، سحقت جمهوريتا آذربيجان وكردستان المستقلتان بعد سحب الدعم السوفييتي لهما، وكانتا قد أعلنتا عن قيامهما في بداية العام. أما قاضي محمد، رئيس الجمهورية الكردية، الذي سلّم نفسه من دون أي مقاومة، فقد أعدم علناً. وكذلك الأمر بالنسبة إلى الثورة التي اندلعت في العام نفسه في خوزستان موقعة مائتي قتيل. كما أوقع قمع حزب توده الشيوعي عدة مئات القتلى بدوره[1]. وحاول حزب قوام الديمقراطي في إيران أن يأخذ في الحسبان بعض المطالب الاجتماعية التي حملها الشيوعيون ما أدى إلى تهميشهم أكثر فأكثر.

"إحياء" و"حرب":

تطرّف في القومية العربية

في المشرق العربي[2]، قويت شوكة الدول بشكل ملحوظ بالنسبة إلى مجتمعاتها، لكنها عانت باستمرار من ضعف شديد في شرعيتها ومن

(1) Ervand Abrahamian, *Iran Between Two Revolutions* (Princeton: Princeton University Press, 1982), p. 281.

(2) بالنسبة إلى المغرب العربي، في فترة ما بعد الحرب التي لن نعالجها هنا، انظر:
Daniel River, *Le Maghreb à l'épreuve de la colonisation* (Hachette: Paris, 2002).

عجز عن احتكار أدوات العنف[3]، بل على العكس، كما تقول إليزابيث بيكار (Elizabeth Picard) في ما يتعلق بلبنان، علماً أنها ملاحظة يمكن تعميمها على عدد من البلدان الأخرى، بقي الزعماء الذين تحوّلوا إلى رجال سياسة هم أطراف العنف الأساسيين[4].

صحيح أن الأنظمة منذ العشرينيات قد توطدت، إلا أنها لم تسيطر على الاتحادات التي من المفترض بها أن تشكل قاعدة لها. وفي حين احتفظت مسألة الاستقلال الوطني بحدتها وازدادت خطورة بسبب النزاع في فلسطين، بدت الأنظمة منزوعة الشرعية في عيون نخبها ذاتها، بدءاً بالجيش وجيل الشباب اللذين يشكلان عناصر جامعة لعدد من الطبقات الاجتماعية[5]. ممّا لاشك فيه أن الدول تؤطر الاندماج الاجتماعي لسكانها من خلال شبكة الثكنات والمدارس الكثيفة، وهما تشكلان آليتين قويتين تعملان على إحلال التجانس، لكن لا تتحوّل هذه المؤسسات، للمفارقة، إلى أطراف سياسية فاعلة إلا بالاحتجاج على الأنظمة التي تعتمد عليها رسمياً. وسعت الأنظمة القائمة إلى تأمين حماية إضافية من الخارج من أجل أن تغطي ضعفها وتواجه الميول الانشقاقية في مجتمعاتها كما بين ضباطها ونخبها الفكرية، ما أدى إلى عزلها أكثر فأكثر على المستوى الداخلي.

---

(3) بالنسبة إلى الدول القوية التي تتمتع بشرعية ضعيفة، انظر:
Kalevi J. Holsti, *The State War, and the State of War* (Cambridge: Cambridge University Press, 1996), p. 83.

(4) Elizabeth Picard, "Violence sociale et ordre étatique au Machrek," dans: Baudoin Dupret, dir., *Le phénomène de la violence politique: Perspectives comparatistes et paradigme égyptien* (Le Caire: CEDEJ, 1994), p. 104.

(5) Henry Laurens, *Paix et guerre au Moyen-Orient: L'Orient arabe et le monde de 1945 à nos jours* (Paris: Armand Colin, 2005), p. 13.

لم تعد أطراف المعارضة في غالبيتها من الأوساط الريفية أو من "الطبقات الاجتماعية القديمة". فمنذ العشرينيات، نشأت طبقة جديدة من الأفندية والمثقفين والضباط والبيروقراطيين. في مصر، على سبيل المثال، وفي حين زادت أعداد التلاميذ في المدارس المتوسطة والثانوية من خمسة آلاف تلميذ في العام 1920 إلى مائة وعشرين ألف تلميذ في العام 1950، إلا أن أعداد الطلاب الجامعيين شهدت صعوداً سريعاً من ثلاثة آلاف طالب إلى اثنين وثلاثين ألف طالب عن الفترة نفسها. والأرقام في العراق معبّرة أكثر فأكثر: من 229 تلميذاً في المدارس المتوسطة والثانوية في العام 1921 إلى 969 13 تلميذاً في العام 1940. وفي سوريا، ازداد عددهم من أربعة آلاف في العام 1939 إلى ستين ألفاً في العام 1955[(6)]. ما كان باستطاعة الشبان المتحدرين من هذا النظام التربوي الحديث أن يكتفوا بهذا القدر الضئيل من الاندماج الاجتماعي الذي تحدّده لهم الوظيفة العامة كأفق لمستقبلهم.

جاء التعبير عن المعارضة من خلال قيام أحزاب سياسية على نمط الجمعيات وقد ارتسمت في سياق منطق القطيعة مع "النظام القائم" ومع "ثقافة المجتمع التقليدية"[(7)]. وكانت الأحزاب مساحات قومية تنتقد الماضي بشكل جذري. أعادت كتابة الماضي بشكل مؤلم وهدفت إلى إسقاط الأمة العربية الموحدة في زمن الأصالة الذي سيحل محل

(6) Adeed Dawisha, *Arab Nationalism in the Twentieth Century: From Triumph to Despair* (Princeton: Princeton University Press, 2003), p. 125, p.140.

(7) لهذا التحليل، انظر:
Bertrand Badie, "L'Analyse des partis politiques en monde musulman: La crise des paradigmes universels," dans: Yves Mény, dir., *Idéologies, partis politiques et groupes sociaux* (Paris: Presses de la FNSP, 1991), pp. 327-343.

زمن الإدانة والفساد وقد فرضه في البداية العهد العثماني ثم النظام الانتدابي والتبعية تجاه الدول الأوروبية التي ظلت مستمرة على الرغم من الاستقلالات الشكلية(8).

من بين هذه الأحزاب يأتي حزب "البعث". على الرغم من أنه تأسّس رسمياً في العام 1947، إلا أن تاريخه يرجع إلى نشاط زكي الأرسوزي الذي كان أول من وقّع في العام 1938 كتاباته بعبارة "البعث العربي" وقد أسمى مكتبته أيضاً بهذا الاسم(9). وقد عمل الأرسوزي بالتعاون مع صلاح الدين البيطار الذي فضّل اسم "الإحياء العربي". وبرزت شخصية سورية أخرى هي عبد الرحمن الشهبندر الذي اغتيل في العام 1940 وكان قد أسّس في العام 1924 حزب الشعب وشارك في ثورة العامين 1925-1926 قبل أن يلتجئ إلى مصر ليصبح مرجعاً أسطورياً لكوكبة حقيقية من الناس الساعين إلى ولادة جديدة فأوحى إليهم ببعضٍ من توجهاته. لم يعترض الشهبندر على الديمقراطية في مرحلة النضال القومي، إلا أنه نادى بـ"الدكتاتورية المستنيرة" في فترة ما بعد الاستقلال وأصرّ على ضرورة تكوين "الشخصية العربية". كان طبيباً من أنصار الداروينية الاجتماعية وقد اعتبر الأمة كجسم حي تدفعه الثورة قائلاً إن الطفرة في المجتمعات الإنسانية، ليست سوى الثورة بحد ذاتها، ليس كاحتمال ولكن كآلية ضرورية للحياة السياسية. من

---

(8) حول هذا الموضوع انظر مقالات عميقة المعاني لـ:
Gustav E. von Grunebaum, *L'Identité culturelle de l'islam* (Paris: Gallimard, 1969).

(9) كتب الأرسوزي يقول منذ العام 1930: "أن تصنع أمة أو أن تخلق "أشباحاً"، أن تكون نبياً أو فناناً، هذه هي المشكلة" ذكره:
Olivier Carré, "Le Mouvement idéologique bathiste," dans: André Raymond, *La Syrie d'aujourd'hui* (Paris: CNRS, 1980), p. 186.

وجهة النظر هذه، كان الإسلام بحد ذاته طفرة من هذا النوع وقد ولّد في خلال جيل واحد، ظروفاً جديدة بالكامل[10].

انبثق البعث إذاً في أرض قومية كانت قد حرثت بعمق وفي مناخ فكري مثقل بالمعاني والتعريفات والآفاق الجديدة. بيد أنه تمثل بالشكل الأكثر تطرفاً في شخصية ميشال عفلق. فرض عفلق نفسه قائداً بدون منازع للحزب في خلال المؤتمر التأسيسي في العام 1947، وجمع حوله المناضلين القوميين من أصول مختلفة. كان ميشال عفلق طالباً سابقاً في قسم التاريخ في جامعة السوربون وقد اعتنق هذا المفكر المسيحي الشاب ميراث الإسلام بوصفه روح المجتمع والحضارة والثقافة التي ينتمي إليها كل عربي، وقد كان الحزب في غالبيته الساحقة من المسلمين وفي العام 1955 ضمّ بين أعضائه الـ289 خمسة مسيحيين فقط[11]. بيد أن العروبة هي "الدين" و"ماورائية الأمة العربية". يعتبر عفلق الثورة بمثابة الواجب الأخلاقي ويمجد الطاقة والتضحية بالنفس. ينسب إلى جيل "الطليعة" "المهمة الأبدية"، مهمة العروبة أي بناء الوطن العربي من جبال طوروس إلى "المحيط العربي" (المحيط الهندي) ومن الأطلسي إلى الجبال الأثيوبية. "الجيل الجديد" بالنسبة إليه هو المهندس الأساسي لمجتمع الغد وللشخصية العربية الجديدة التي صقلتها القومية المعتبرة بمثابة قدر وليس بمثابة خيار[12].

---

(10) Youssef M. Choueiri, *Arab Nationalism: A History* (Blackwell: Oxford, 2000), p. 151.

(11) Hanna Batatu, *The Old Social Classes and the Revolutionary Movements of Iraq: A Study of Iraq's Old Landed and Commercial Classes and of its Communists, Ba'thists and Free Officers* (Princeton: Princeton University Press, 1978), p. 743.

(12) Choueiri, Ibid., pp. 154-160.

يحمل عفلق رؤية يونغية عن الحرب ويعتبرها شرط بقاء الأمة نفسه، كتب يقول: "إن ثورة العرب في هذا العصر هي الحرب لأنها المجال الأوسع والأكمل والأسلم لتفتح جميع مواهبهم وتفجر كفاءاتهم وبطولاتهم، والحضارة التي يسعى العرب إلى بنائها لن تبنى إلا من خلال النضال في أعلى مراتبه وأشكاله، أي النضال الشعبي المسلح[13]". وإذا كان عفلق يتحدث قليلاً عن الشعب، إلا أنه يشدّد بقوة على "القوى الحية" في الأمة وعلى "الأقلية الحزبية المنظمة" المستقوية بـ"وعي" سياسي والمكلفة القضاء على الانحطاط الذي طال أمده قائلاً: "إن الحالة التي وصل إليها العرب منذ قرون عديدة، وليس فقط منذ بدء الاستعمار الغربي وإن الأوضاع التي نشأت في بلادنا منذ مئات السنين إلى اليوم، أحدثت خللاً وتشويهاً عميقاً جداً في بنيان الأمة، وتباعداً بين شعور الأمة العربية وبين الحياة نفسها فلم تعد أمتنا بالتالي تستجيب لدواعي الحياة الاستجابة السليمة"[14].

استمد بعث عفلق أفكاره الأساسية من اليمين الأوروبي المتطرّف بين الحربين العالميتين، وقبل بالاشتراكية العلمية ولاسيّما بعد اندماجه في العام 1953 مع الحزب الاشتراكي التابع لأكرم حوراني، لكن بعد مزاوجته مع "الروح"[15]. كما أنه قطع مع المعجم السياسي التقليدي

(13) Michel Aflaq, *Choix des textes de la pensée du fondateur du parti Ba'ath: Unité-Liberté-Socialisme* (Madrid: [s. n.], 1977), p. 88.

في عودة إلى كتابات ميشال عفلق والنص الأصلي وهو بعنوان حرب تشرين والمصير القومي، يتبين أن سياق هذا الاقتباس متصل بحرب تشرين وليس بالحرب بشكل مطلق [المترجمة].

(14) Michel Aflaq, "L'Unité arabe plus haut que le socialisme," dans: Anouar Abdel-Malek, *La Pensée politique arabe contemporaine* (Paris: Seuil, 1975), p. 222.

(15) Batatu, *The Old Social Classes and the Revolutionary Movements of Iraq: A Study of Iraq's Old Landed and Commercial Classes and of its Communists, Ba'thists and Free Officers*, p. 736.

في القومية العربية، على غرار كلمات مثل "وثبة"، واستخدم مفهوم "انقلاب" وهي مفردة سياسية عثمانية قديمة ذات أصل عربي تعني ثورة بقدر ما تعني "تجديد"[16].

فلسطين 1948:

الأنظمة العربية المشلولة والمدانة

لا يمكن تفسير الاتجاه الجذري الذي سلكته القومية العربية في مرحلة ما بعد الحرب بأثر اليمين المتطرّف ورفض الاستعمار الأوروبي حصراً أو بسبب تبعية العالم العربي الفعلية للقوى الأوروبية على الرغم من تحقيق الاستقلال في بعض البلدان وحسب. يجدر بنا كذلك أن نقيس أثر الحرب الأولى بين العرب وإسرائيل وقيام الدولة العبرية.

لن أشدّد هنا على تاريخ الوطنية الفلسطينية، وهو موضوع يغطيه كمّ كبير من الأدبيات العلمية، كما أني لن أشدد كذلك على قيام دولة إسرائيل في 1948 وقد أجاد في تحليلها هنري لورانس[17] (Henry Laurens)، ولا على المواجهات بين اليهود والفلسطينيين والاغتيالات والعمليات الانتقامية التي قامت بها مختلف الجماعات اليهودية والفلسطينية التي كانت مسؤولة عن وقوع ألفي قتيل بين العامين 1947 و1948[18]. سأذكر فقط بأن هزيمة العام 1948 جاءت أولاً نتيجة هشاشة

---

(16) Ibid., p. 740.

(17) Le Troisième tome de: Henry Laurens, *Question Palestinienne 1947-1967. L'accomplissement des prophéties* (Paris: Fayard, 2007).

(18) لتوليفة حول التأريخ الإسرائيلي الجديد الذي ندين إليه بهذه المعلومات، انظر: Dominique Vidal et Joseph Algazy, *Le Péché originel d'Israël: L'expulsion des palestiniens revisitée par les nouveaux historiens israëliens* (Paris: L'Atelier, 1998).

قصوى أصابت المجتمع الفلسطيني في خلال فترة الانتداب. بحسب رشيد خالدي، على عكس ما كان قد حصل في العراق وسوريا، لم تسمح سلطات الانتداب بقيام مؤسسات دولة في فلسطين وبدلاً عنها فضلت تمثيل المجتمع بطريقة غير رسمية بواسطة الأعيان، بدءاً بالمفتي الحاج أمين الحسيني، الذين تمتعوا بإمكانيات كبيرة ما أدى إلى وقوع نتائج كارثية على الفلسطينيين كما على اليهود والبريطانيين[19]. أضف إلى ما سبق أن الكلفة البشرية والرمزية لفشل ثورة 1936-1939 كانت قد أضعفت المقاومة الفلسطينية لفترة طويلة[20].

كما تجدر الإشارة إلى أن قيام دولة إسرائيل قد تسارع بسبب إدراك فظاعات المحرقة التي لا يمكن من دونها فهم طغيان المخاوف والشعور بالعجلة لدى القادة الصهاينة بدءاً بدافيد بن غوريون. في العام 1942، حين تبنّى المؤتمر الصهيوني في بالتيمور القرار الخاص بإقامة دولة إسرائيل بشكل فوري، لم يكن حجم عمليات الإبادة معروفاً بعد، لكنه كان من الواضح أن بقاء اليهود لم يعد ممكناً في أوروبا نفسها كما أن الخوف من تخلي البريطانيين عنهم قد زاد من شعورهم بالملحاحية.

وأخيراً، يتعين أن نضيف أن الحرب بين الإسرائيليين والفلسطينيين لم تترافق وحسب مع سلسلة من أعمال العنف ضد السكان المدنيين، ومن بينها مجزرة دير ياسين في 9-11 نيسان/ أبريل 1948 التي راح ضحيتها

---

(19) للعلاقات بين الحسيني والنظام النازي، انظر:
Gerhard Höpp, *Mufti Papirien, Briefe, Memoranden, Reden und Anrufe Amin al-Husseinis aus dem Exil* (Berlin: Schiller Verlag, 2002).

(20) Rachid Khalidi, "The Palestinians and 1948: The Underlying Causes of Failure," in: Eugene L. Rogan and Avi Shlaïm, dir., *The War in Palestine: Rewriting History of 1948* (Cambridge: Cambridge University Press, 2001), pp. 12-36.

117 شخصاً لتصبح رمزاً لأعمال العنف تلك[21]. ارتدت الحرب أيضاً شكل احتلال أراضٍ وسياسة تنظيف عرقي مرافقة لها. استولت إسرائيل على 77% من أراضي فلسطين التاريخية مجبرة 750000 فلسطيني من أصل أكثر من 1,4 مليون فلسطيني على الرحيل[22]. واستمرت الأعمال "الانتقامية" إلى ما بعد قيام الدولة بكثير موقعة ضحايا جديدة ومحدثة عمليات تهجير أخرى[23]. وقد لخّص إيهود باراك، رئيس الوزراء الإسرائيلي السابق، الثمن الذي دفع لقاء قيام دولة إسرائيل بـ"هدم ونفي مجتمع بأكمله، بالترافق مع آلاف القتلى وتدمير مئات القرى"[24]. وتمأسس العنف بطريقة مستدامة كشرط بحد ذاته لأن تكون فلسطينياً وذلك نتيجة "تحويل الشعب الفلسطيني إلى أقلية" أي بمعنى تحويله إلى طرف تابع سياسياً وقانونياً وبقائه في مخيمات للاجئين منذ العام 1948.

لم تكن الخسائر الإنسانية العامل الوحيد الذي أعطى حرب العام 1948 مكانة مركزية في تاريخ الذاتيات، وبالتالي في تاريخ العنف في الشرق الأوسط. إذا كان تأسيس دولة إسرائيل بالنسبة إلى الصهيونية

---

(21) Benny Morris, *The Birth of the Palestinian Refugee Problem Revisited* (Cambridge: Cambridge University Press, 2004).

(22) Henry Laurens, *Question Palestinienne 1947-1967. L'accomplissement des prophéties* (Paris: Fayard, 2007).

(23) على غرار تدمير حوالي خمسين منزلاً في 14 تشرين الأول/ أكتوبر 1953 في قرية خبيه في الأردن، ما أوقع أكثر من 40 ضحية من المدنيين رداً على قتل امرأة وطفليها في قرية بالقرب من مطار اللد في تل أبيب.
Michael Walzer, *Guerres justes et injustes* (Paris: Gallimard, 2006), p. 395.

(24) James L. Gelvin, *The Israel-Palestine Conflict: One Hundred Years of War* (Cambridge University Press, Cambridge, 2005), p. 126.

بمثابة "اكتمال التاريخ"[25]، فإن النكبة تعني بالنسبة إلى الفلسطينيين، وكذلك بالنسبة إلى الرأي العام العربي، "طرداً من التاريخ" وتشكل قطيعة على مستويات عدة. فهي تمثل، بداية، بتراً حقيقياً على المستوى المادي للكلمة، جاء بعد ثلاثة عقود أو أقل على قيام فرنسا وبريطانيا العظمى بتقطيع أوصال العالم العربي. ثم أن النكبة هزّت لفترة طويلة شرعية عدد من الأنظمة العربية وتسبّبت بحقبة طويلة من اللااستقرار الممهور بالانقلابات في سوريا والعراق ومصر، وهذا موضوع لنا عودة إليه. وأخيراً، منذ العام 1948، حولت النكبة اليهود، وهم كثر في العالم العربي، إلى كبش محرقة ذاك الشعور القومي العدواني. وكما يقول مكسيم رودنسون "إن المشكلة الفلسطينية التي خلقتها الصهيونية وضاعفها انتصارها المحلي، قد نشرت، كشيء لابد منه، كراهية اليهودي في العالم العربي حيث معاداة السامية لم تكن معروفة فعلياً في السابق. وقد ساهمت فيها البروباغندا الصهيونية الناشطة جداً والدائمة والساعية إلى إثبات أن الصهيونية واليهودية وممارستها هي مفاهيم متوازية. وساهمت المشكلة الفلسطينية في تقوية العناصر الأكثر رجعية في البلدان العربية الراغبة، كما في أي مكان آخر، في إعطاء الأولوية إلى المسائل القومية على التقدم الاجتماعي"[26].

انتشر شعور معاداة السامية بسرعة في مجمل العالم العربي. في العراق، مثلاً، مشى الحزب الشيوعي خلف الحملات المعادية للسامية[27] بعد أن فقد الكثير من هيبته حين أيّد قيام دولة إسرائيل

(25) Maxime Rodinson, cité par: Georges Corm, *Le proche-Orient éclaté 1956-2000* (Paris: Gallimard, 1999), p. 125

(26) Maxime Rodinson, *Peuple juif ou problème juif*? (Paris: Maspero, 1981), p. 128.

(27) Sami Zubaida, "Etre irakien et juif," *Monde Arabe Maghreb-*

في البداية. اعتقل عدد من اليهود ومنع الباقون من السفر، كما طرد مرفأ البصرة كامل أطقم الموظفين اليهود، أي ما يوازي ربع موظفيه، كما اعتقل رجل أعمال يهودي يدعى شفيق عدس وأعدم علناً بسبب "التعاون" مع إسرائيل[28].

وقد عرّت النكبة الفلسطينية الدول العربية على مستويات عدة وفاقمت من أزمة شرعيتها. في مصر، على الرغم من إرادة الملك فاروق دخول الحرب، عارض الجيش في المرحلة الأولى أي سياسة حربية، والسبب بسيط: فالجيش المستخدم أساساً كجهاز لحفظ الأمن الداخلي لا يتمتع بأي جهوزية للدخول في حرب. بيد أنه خضع لإرادة الملك في النهاية بدافع من ردات فعل الرأي العام، ولاسيّما الطلاب، ومن التعبئة التي نظّمتها حركة الإخوان المسلمين وقد اندفع متطوعوها إلى ساحة المعركة وأيضاً بضغط من الدول العربية الأخرى. ثم سينزلق الجيش من الممانعة إزاء التدخل إلى أوهام العظمة حين يشرح محمد حيدر باشا، وزير الدفاع آنذاك، قائلاً إن جيشه سيتمكن، حتى بدون مساعدة الدول العربية الأخرى، من احتلال تل أبيب في غضون خمسة عشر يوماً. وقد لزم الأمر فيما بعد القيام بجهود دبلوماسية هائلة لإقناع القوات الإسرائيلية بالانسحاب من الأراضي المصرية التي احتلتها. وكانت النتيجة الفورية اغتيال رئيس الوزراء محمود فهمي النقرشي باشا في نهاية العام 1948، على يد أحد أعضاء الإخوان المسلمين في عمل منفرد متهماً رئيس الوزراء بالتعاون مع اليهود[29]. مع عملية "قتل

Machrek, no 163, (1999), pp. 155-162.

(28) Charles Tripp, "Iraq and the 1948 War: Mirror of Iraqis disorder," in: Rogan and Shlaïm, dir., *The War in Palestine: Rewriting History of 1948*, pp. 125-150.

(29) Fawaz A. Gerges, "Egypt and the 1948 War: internal conflict and

المستبد" هذه أعلن الإخوان المسلمون في الواقع تخليهم عن عقيدتهم التي تحظر عليهم اللجوء إلى القوة في "دار الإسلام".

وفي حين أن العراق عاجز عن ممارسة أي تأثير عسكري في المجال الفلسطيني، أضحى الوضع شبه خرافي في سوريا المجرّدة من أي جيش وطني. إضافة إلى عدم الاستقرار السياسي في البلاد الذي يحول دون تشكيل قوة عسكرية، كان الخوف ثم الهاجس بأن تتوصّل مقاومة عربية فعالة إلى دمج البلاد التي استقلت منذ العام 1946 ضمن كيان سياسي عربي كبير. على امتداد الأزمة، كان هدف الرئيس شكري القوتلي إقامة تحالف مع مصر والسعودية يفترض به أن يوازي الكتلة الأردنية العراقية ويؤمّن بالتالي استقلال سوريا. وقد أطيح بشكري القوتلي من منصبه بعد مضي عام واحد(30).

نهاية "الديمقراطية البرجوازية" في العالم العربي

الاحتجاجات المتطرفة التي شاعت بعد النكبة اعتبرت هذه الأخيرة إثباتاً على الأهداف السرية التي يحيكها الغرب منذ الحرب العالمية الأولى، إن لم نقل منذ فجر التاريخ. في ما خلا شعبية وانتشار نظرية المؤامرة في الشرق الأوسط التي نستشفها من خلف هذه الصورة، بات كل برنامج التغريب بمثابة فخ ما أفقد الديمقراطية البرجوازية مصداقيتها(31). وبعد أن تنازلت السلطة الاستعمارية، مقابل إقامة نظام

---

regional ambition," in: Ibid., pp. 151-177.

(30) Joshua Laundis, "Syria and the Palestine war: Fighting King ‘Abdallah’s’Greater Syria Plan’," in: Ibid., pp. 178-205.

(31) بالنسبة إلى التجارب التي يمكن وصفها بـ"ديمقراطية برجوازية" في العالم العربي، انظر:

Peter Sluglett, "Les Mandats/ The mandates: Some Reflections on the Nature of the British Presence in Iraq and the French Presence in Syria," =

برلماني، فمنحت الدول استقلالاً شكلياً، بدا هذا النظام بمثابة "واجهة" ديمقراطية في أفضل أحواله، وبمثابة فخ يجدر إظهار زيفه وخداعه في أسوئها[32].

وهكذا، دقّت ساعة المسعى إلى الأصالة[33]، ساعة "الغائية القومية (التي تهمّش) قيم العالمية والحرية وحقوق الإنسان (...) محتفظة من الأمة (الفرنسية) العظمى بالفكرة القومية وحسب"[34]. حملت النكبة قضية القومية العربية إلى أوجها وأعادت تعريف الغيريات على أساس حربي، وسواء أحالت الغيرية إلى التعددية الطائفية الداخلية في العالم العربي أو إلى الغرب، فإن الغيرية قد أصبحت في الواقع مرادفاً لعداوة لاجدال فيها أو لخيانة مكشوفة أو مقنّعة. ارتدت فكرة الأمة كجسد عضوي مهدّد بدخول عناصر خارجية عليه شرعية جديدة وصارت حلقات الانتقال "من التاريخ المعقلن إلى التاريخ المفبرك" كالانتقال من الثقة بالنفس إلى اليأس"، بمثابة السمة المزمنة في الرأي العام[35].

نظراً إلى العجز عن دخول حرب فعلية ضد إسرائيل والغرب من أجل حل المسألة القومية، صار سجل الثورة وحده ذا قيمة لأنه من

Méouchy and Peter Sluglett, dir., *The British and French Mandates in comparative Perspectives/ Les mandats français et anglais dans une perspective comparative*, pp. 103-127.

(32) Gamal Abd-Al Nasser, "Les Lendemains de l'indépendance," dans: Anouar Abdel-Malek, *La Pensée politique arabe contemporaine* (Paris: Seuil, 1975), pp. 115-125.

(33) Issa J. Boullata, *Trends and Issues in Contemporary Arab Thought* (Albany: State University of New York Press, 1990), p. 14.

(34) Samir Kassir, *Considérations sur le malheur arabe* (Paris: Actes Sud, 2003), p. 56.

(35) Abdallah Laroui, *L'Idéologie arabe contemporaine* (Paris: Maspero, 1982), p. 81 et 130.

المفترض به أن يكون قادراً على "محاسبة" الأنظمة الخائنة والدخيلة في جسد الأمة وإنتاج القوة اللازمة للمحن الآتية. يؤدي مفهوم الخيانة في الحقيقة دوراً مركزياً في نشر فكرة الثورة. ومثلما يدل اغتيال النقرشي، اعتبرت الأنظمة القائمة مسؤولة بشكل أساسي عن الهزيمة، ليس بسبب قلة تجهيزها، بل بسبب خيانتها. هكذا، أمكن تفسير الظلم الاجتماعي والاقتصادي بوجود أعداء في الداخل يعملون لحساب أعداء الخارج. في مقابل الإجماع الفارغ والعاجز عن تعبئة الجماهير لدى الأنظمة الحاكمة، حملت الثورة معها وعداً بإجماع مقنع قادر على التعبئة كما حملت وعداً بـ"مبدأ المطلقات"[36].

الإخوان والضباط:

صانعو الثورة المصرية

فلنبدأ بمصر حيث قامت معارضة ضد الملك فاروق وصفته بالفساد والتبعية لبريطانيا العظمى بدعم من حزب يشكل واجهة خارجية هو حزب الوفد. ضمت المعارضة أساساً وليس حصراً، الإخوان المسلمين و"الضباط الأحرار"، من دون أن يصار إلى التمييز بشكل واضح في ما بينهما. في حين اتسم الضباط بأنهم توليفة إسلامية وطنية، كان الإخوان أشبه "بحركة وطنية أكثر منها حركة مهدية أو وهابية. وقد (هدفوا) إلى توليد طاقة شعبية لتسلم السلطة أكثر ممّا (هدفوا) إلى عودة الفضائل الإسلامية"[37].

تتحدر جماعة الإخوان المسلمين من أصول بعيدة ترجع إلى نهاية

(36) Hannah Arendt, *Essai sur la révolution* (Paris: Gallimard, 1967), p. 278.

(37) Albert Hourani, *Arabic Thought in the Liberal Age, 1798-1939* (Cambridge: Cambridge University Press, 1983), p. 360.

القرن التاسع عشر حين تألفت من فرعين هما جمعية الشبان المسلمين وجماعة الأخوّة الإسلامية وضمّت حوالي مائتي ألف عضو في الأربعينيات من القرن العشرين. بيد أن الحركة السياسية القوية المنادية بالإسلام لن ترى النور إلا بعد الصدمة المزدوجة عند تقسيم أراضي السلطنة العثمانية وإلغاء الخلافة في العام 1924. طرح "انسحاب تركيا" التي "تخلّت عن الإسلام" مسألة إقامة خلافة جديدة بشكل طارئ، إلا أنه بيّن أيضاً استحالتها. في سياق الفشل هذا، في العام 1928، كان حسن البنّا في الثانية والعشرين من عمره حين أنشأ تنظيم الإخوان المسلمين الذي تميز عن سواه ببرنامج سياسي ثوري حتى لو أنه استبعد مبدئياً استعمال العنف في دار الإسلام.

تأثر بعض الإخوان بأفكار اليسار، كالشيخ كربلاء الغزالي الذي كان مقرباً من البنّا ودعا في العام 1951 إلى "اشتراكية إسلامية". بيد أن حسن البنّا يعتبر، ضمن فلسفة أخلاقية شاملة، أن الإسلام هو الإيديولوجيا والإيمان، الوطن والجنسية، الدين والدولة، الروح والعمل، الكتاب والسيف؛ فالله هو الهدف والرسول هو الهادي والقرآن هو الشرع والجهاد هو الطريق والموت في سبيل الله هو الأمل الأكبر[38]. قال حميد عنايات عند تحليل هذا البرنامج "إن الإخوان قد أعادوا تعريف إيديولوجيتهم للمرحلة التالية بطريقة تبيّن قدرة الإسلام في أن يكون إيديولوجية شاملة". من المبادئ التي تقود الجماعة ثمة مسلّمة أساسية تتصل بـ"صحة الإسلام في كل زمان ومكان"[39].

(38) Zidane Meriboute, *La Fracture islamique: Demain, le soufisme?* (Paris: Fayard, 2004), p. 88 et 94, and Hassan Al-Banna, *On the doctrine of the Muslim Brothers, in Barry Rubin et Judith Colp Rubin, Anti-American Terrorism and the Middle East, Understanding the Violence* (Oxford: Oxford University Press, 2002), pp. 27-28.

(39) Hamid Enayat, *Modern Islamic Political Thought* (London:

قام الإخوان بتنمية "شعور وطني ذي نزعة فاشية"[40] بين فترة الحربين العالميتين وفكروا بالتغيير الاجتماعي بواسطة الإصلاح كما امتلكوا كذلك ميليشيات غير مسلحة. وقد اندرج الإخوان في ديناميكية بإمكانها أن تدفعهم نحو العنف من خلال تسييسهم وأشكالهم التنظيمية ومنها وحدات مكلفة بالتجسّس وبالعمليات الخاصة، وأيضاً من خلال وجودهم في داخل الجيش. بعد مشاركتهم في الحرب ضد إسرائيل في العام 1948، قاموا بسلسلة اعتداءات منظّمة ضد دور السينما ونوادي الرقص والفنادق الباذخة في القاهرة ونظّموا مواجهات عديدة مع قوى الأمن.

في العام 1949 تأسّس التنظيم الثاني، وهو تنظيم الضبّاط الأحرار، حول نواة أقدم منه، على يد جمال عبد الناصر الذي دخل الأكاديمية العسكرية في العام 1937 . كان أعضاء هذا التنظيم من الشباب البالغين من العمر ما بين الثانية والثلاثين والسابعة والثلاثين. وصار التنظيم بعد العام 1948 "أداة لتسلّم السلطة"[41] سرعان ما ضمّ حوالي مائة ضابط، بعض منهم لا يدرون بوضوح ماهية التزامهم ومن بينهم عبد الناصر وأنور السادات.

حين تسلموا السلطة، كما يقول أوليفييه كاريه (Olivier Carré) "نفّذ جمال عبد الناصر عملية الانقلاب العسكري في 23 تموز/ يوليو 1952 ، لكن الإخوان هم الذين كانوا قادرين على تأمين القاعدة الشعبية اللازمة لنجاحها وديمومتها. اعتبر الإخوان أن "ثورة 23 يوليو"

MacMillan, 1982), p. 85.

(40) Maxime Rodinson, *Marxisme et monde musulman* (Paris: Seuil, 1972), p. 259.

(41) Laurens, *Paix et guerre au Moyen-Orient: L'Orient arabe et le monde de 1945 à nos jours*, p. 125.

من صنيعهم. كان من بين الضباط الأحرار اثنان من الإخوان هما عبد الرؤوف ومهنى كمال الدين حسين في حين أن السادات وعبد الناصر كانا قريبين منهم نظراً إلى صداقتهما مع حسن البنّا منذ العام 1941 بالنسبة إلى السادات ومنذ العام 1944 بالنسبة إلى عبد الناصر"(42). وممّا لا شك فيه أن الضباط الأحرار قد غازلوا الإخوان وتأثروا بأيديولوجيتهم كما بنشاطهم النضالي، وحتى الحربي في خلال الحرب من أجل فلسطين. لكن الإخوان لا يشكلون مرجعيتهم الوحيدة لأنهم كذلك نتاج اندماج الفئات الشعبية بواسطة المؤسسات التربوية والعسكرية في المجتمع المصري لعشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين.

تأثر الضباط الأحرار باليسار، فأسقطوا أنفسهم في التحوّل الثوري لكنهم أحلّوا الجهاز العسكري الواسع محل الإنتلجنسيا الوطنية و"الطبقات المسحوقة"؛ والأفضل من هذا أنهم اعتبروا أنفسهم طبقة مسحوقة. فمن خلالهم "وجدت الدولة في الفئات الشعبية خداماً يعززونها ووجدت الفئات الشعبية في الدولة السيد الذي يرفع من شأنها"(43). ومع ميل الضباط إلى مسألة العدالة الاجتماعية، كان الخطاب اليساري يقدم إليهم أساساً موضوع الثورة والاستقلال الوطني الذي خانته "طبقات المستبدين عملاء الامبريالية" عبر فشلها في الحرب ضد إسرائيل. الصلة بين فلسطين و"الأمة" واضحة في خطاب الضباط وخطاب عبد الناصر الذي أصيب على الجبهة الفلسطينية يشهد بقوله: "كنا نقاتل في فلسطين لكن أحلامنا كانت تتمحور حول مصر، كانت المعركة موجهة ضد العدو في كمائنه، فيما قلوبنا تحوم حول وطننا الذي

---

(42) Olivier Carré, *Mystique et politique: Lecture révolutionnaire du Cor'an par Sayyid Qotb, frère musulman* (Paris: CERF-Presses de la FNSP, 1984), p. 10.

(43) Bertrand de Jouvenel, *Du pouvoir* (Paris: Hachette, 1998), p. 302.

تركناه في حراسة الذئاب[44]." يضيف قائلاً: "كنت مؤمناً أن الذي يحدث في فلسطين كان يمكن أن يحدث وما زال احتمال حدوثه قائماً، لأي بلد في هذه المنطقة ما دام مستسلماً للعوامل والقوى التي تحكمه الآن"[45].

وقعت "الثورة المصرية" في مرحلة مضطربة وفي سياق التظاهرات المعادية للبريطانيين. في كانون الثاني/ يناير 1952، رد البريطانيون على الهجوم الذي وقع على واحدة من قواعدهم، فهاجموا قسم شرطة الإسماعيلية، حيث من المفترض أن الهاربين قد لجؤوا إليه. دامت المواجهة اثنتي عشرة ساعة وانتهت بموت حوالي خمسين شرطياً مصرياً. أثارت هذه المذبحة التي اعتبرت إثباتاً حقيقياً للقوة المادية والرمزية، ثورات في طول البلاد وعرضها ضد المصالح البريطانية وأيضاً في القاهرة ضد الأحياء الراقية حيث اندلعت مئات الحرائق. تأثر "الشارع المصري" بالإخوان المسلمين وبالمناضلين اليساريين من دون أن يكون تحت سيطرتهم، فخرج بعنف ضد السلطة[46].

---

(44) Mehran Kamrava, *The Modern Middle East: A political History since the First World War* (Berkeley: University of California Press, 2005), p. 90.

(45) Jean-Paul Charnay, *Principes de stratégie arabe* (Paris: L'Herne, 2003), p. 218,

تمت العودة إلى النص الأصلي باللغة العربية من أجل نقل الاقتباسات الخاصة بالرئيس جمال عبد الناصر وقد وردت في مذكراته، وجاءت مختلفة بعض الشيء عن الترجمة الفرنسية التي وردت في نص هذا الكتاب والتي إذا ما ترجمت كما هي ستعطي النص الآتي: "كنا نقاتل في فلسطين لكن أحلامنا كانت متصلة بمصر. كان رصاصنا موجهاً إلى العدو في الخنادق المواجهة لنا لكن قلوبنا كانت تحوم حول وطننا الأم البعيد، فريسة الذئاب التي تعبث به (...) كنت على قناعة أن ما كان يحدث في فلسطين كان يحدث ولايزال يمكن أن يحدث في كل بلد مسلم في المنطقة" [المترجمة].

(46) يبقى كتاب:

Jacques Berque, *L'Egypte: Impérialisme et révolution* (Paris: Gallimard, = 1967),

وقع على عاتق قيادة الوفد ورئيسها النحاس باشا مهمة قمع المعارضة، بنجاح، قبل أن يستغني الملك عنه في 27 شباط/ فبراير 1952. صحيح أن الملك قد أصبح طليق اليدين إلا أنه فقد مصداقيته السياسية[47]. وجاء الانقلاب الذي تلا ثورات الشارع، وقد وصفتها الأعمال التأريخية بأنها المرحلة الثانية من "الثورة المصرية"، لتجبره على التخلي عن السلطة والانتقال إلى المنفى. واستبدل النظام الملكي بمجلس قيادة الثورة (23-26 تموز/ يوليو 1952)، بقيادة محمد نجيب الذي أتى به في الواقع جمال عبد الناصر.

سرعان ما وقع النظام الجديد في فخ مشاريعه الطموحة والتي صاغها في ستة أهداف: "تصفية الإمبريالية، القضاء على الإقطاع واحتكار السلطة والسيطرة عليها، بناء جيش قوي، إحلال العدالة الاجتماعية، إرساء حياة ديمقراطية سليمة"[48]. على الرغم من الإصلاح الزراعي الشجاع الذي صدر منذ 9 أيلول/ سبتمبر 1952، "أدركت الطغمة العسكرية تدريجاً أن المشاريع الأساسية التي تشكل سبب وجودها (وهي باختصار الاستقلال والتحديث) لا تتمتع بأي أمل في إطار نظام برلماني يرتكز على نشاط الأحزاب"[49]. وبالنظر إلى الوضع الملح، ضغط الضباط الزمن الثوري من خلال إلغاء المؤسسات التي لا تخضع لسلطة وحيدة. وفي كانون الثاني/ يناير 1953، تم تشكيل "هيئة التحرير" وهي في الحقيقة حزب واحد لتبدأ عملية قمع شاملة لكل المعارضين الذي مثلوا أمام محاكم استثنائية.

= أفضل مرجع حول هذه المسألة.

(47) Laurens, *Paix et guerre au Moyen-Orient: L'Orient arabe et le monde de 1945 à nos jours*, p. 125.

(48) Dawisha, *Arab Nationalism in the Twentieth Century: From Triumph to Despair*, p. 182.

(49) Rodinson, *Marxisme et monde musulman*, p. 643.

في 18 حزيران/ يونيو 1953، أعلنت الجمهورية على الرغم من معارضة اللواء محمد نجيب الذي كان في البداية رئيساً للوزراء ثم الرئيس الرسمي في النظام الجديد. قرّر عبد الناصر كذلك حل تنظيم الإخوان المسلمين الذي اتهم بالتعاون مع الإنجليز. واعتبر الضباط مذّاك أنهم يشكلون بأنفسهم المرجعية الوحيدة من دون أي صلة عضوية أو إيديولوجية مع معارضة أثّرت فيهم ودفعتهم نحو التطرّف ولكنها ترهن مستقبل ثورتهم. وقطع عبد الناصر مع الإخوان حين قال إنه لم يفهم كيف يمكن أن يحكم المرء بواسطة القرآن وحده. أما معارضة محمد نجيب للتوجه الجديد الذي سارت فيه الثورة، فقد أدّت إلى سقوطه بعد تحرك شعبي وإضراب عام. وجاء عبد الناصر، ابن ساعي البريد، الرجل الذي صنع نفسه بنفسه وكان في حالة "عدم تناغم ثقافي" مع نجيب[50] ليحل محله في شباط/ فبراير 1954 قبل أن يزيحه نهائياً في 14 تشرين الثاني/ نوفمبر من العام نفسه. وصار بعدها طليق اليدين فعيّن صديقه عبد الحكيم عامر على رأس الجيش وقام بسلسلة تطهيرات ضد أنصار نجيب متهماً إياهم بالخيانة.

قامت ديناميكية راديكالية جديدة ابتداءً من العام 1961 مع المرحلة التي دعيت بـ"الثورة الاشتراكية" وقد تضمنت، في ما تضمنت، تأميم المصارف وأهم مؤسسات البلاد. واعتبرت "الجماهير العربية" الطرف الفاعل الأساسي في بناء الوحدة العربية والحرية والاشتراكية. وفي 23 حزيران/ يونيو 1962، تم تكريس عبد الناصر بواسطة استفتاء شعبي وجعل منه الدستور رئيساً قوياً يتمتع بسلطات استثنائية. أُبقيَ على البرلمان لكن جرى انتقاء أعضائه بشكل مسبق.

(50) Corm, *Le proche-Orient éclaté 1956-2000*, p. 254.

وجمعت سلطة عبد الناصر في شخصه سمات النظام العسكري والنظام الثوري ونظام الحزب الواحد. وبدعم من الجيش كجسم واحد، تطلع الحكم إلى تنظيم اجتماعي جديد من النمط العسكري وفرض التجنيد الإلزامي باسم الأمة على الأطفال والشبان، إناثاً وذكوراً.

حظي الحكم الثوري الوطني بالتمجيد بفضل معاداته للإمبريالية وبنى سطوته على دمج السلطات ليستفيد منها إلى أقصى الحدود باسم الأمة من دون أن يفقد حسّه الواقعي. وكما يبيّن هنري لورانز (Henry Laurens)، اقترب عبد الناصر في المرحلة الأولى بشكل ملفت من بريطانيا العظمى، فوقّع معاهدة تعاون عسكري في 19 تشرين الأول/ أكتوبر 1954. كانت الراديكالية في السياسة الخارجية بطيئة قبل تسارعها ووجدت مسبّباتها في سلسلة من العوامل هي: التقارب مع سوريا التي انحازت إلى الأفكار "اليسارية"، دعم مصر جبهة التحرير الوطنية الجزائرية ما دفع حكومة غي موليه (Guy Mollet) إلى إطلاق لقب "هتلر الجديد" على عبد الناصر، سياسة فرنسا المركزة على إسرائيل في الشرق الأوسط وأخيراً قرار واشنطن رفض تمويل بناء السد العالي في أسوان.

انطلاقاً من هذه الخلفية المأزومة ورداً على أعمال الإذلال المتوالية لما اعتبره عبد الناصر حيوياً في مجال تنمية البلاد، قام هذا الأخير بحركة مدوّية. ففي 26 كانون الثاني/ يناير 1956، بعد مرور سنة ونصف السنة على توقيع المعاهدة مع البريطانيين، أصدر قراراً بتأميم قناة السويس، معلناً بهذه الطريقة تأسيس مصر الثورة "تأسيساً حقيقياً"[51]. انتهت المغامرة بهزيمة عسكرية بعد تدمير الجيش المصري تدميراً شبه كامل

(51) Laurens, *Paix et guerre au Moyen-Orient: L'Orient arabe et le monde de 1945 à nos jours*, p. 171.

في الحرب التي شنتها فرنسا وبريطانيا وإسرائيل ضد مصر، لكن عبد الناصر سيفوز "بشكل كاسح على المستوى السياسي"[52]. وإذ ارتدى هذا النصر شكل انتقام لهزيمة 1948، صار عبد الناصر الزعيم الأكثر شعبية في العالم العربي ("من المحيط الهادر إلى الخليج الثائر، لبيك عبد الناصر")[53].

سوريا: من الانقلابات إلى نظام القائد الأوحد

في سوريا، كشف الاستقلال الذي تم الحصول عليه في العام 1943 وصار ناجزاً في العام 1946، عن تهميش متزايد للنخب الوطنية والتقليدية التي كانت على رأس الحركة النضالية ضد سلطات الانتداب في خلال العشرينيات والثلاثينيات. كما ساهمت حرب فلسطين في تسارع هذه الآلية. صحيح "أن العائلات الكبرى (عائلات جبري وكيخيا وقدسي في حلب، وعائلات عزم وبرازي وكيلاني في حماة، وعائلة أتاسي في حمص، وعائلات عسلي وحفار ومردم وقوتلي في الشام)، التي قادت الكفاح من أجل الاستقلال قد اكتسبت شرعية"[54] إلا أن قبضة هذه السلالات المدينية قد انحصرت على المستوى المحلي من دون أن تنجح في خلق "جسم سياسي" قادر على أن يكوّن سلطة مركزية دائمة ويقاوم "المنعطف الفلسطيني".

في العام 1949، قام الجنرال الكردي، حسني الزعيم العائد لتوّه من جبهة فلسطين، بانقلاب غير دموي قبل أن ينقلب عليه الجنرال

---

(52) Idem, p. 179.

(53) Dawisha, *Arab Nationalism in the Twentieth Century: From Triumph to Despair*, p. 183.

(54) Pierre Sateh Agate, "Le Croissant fertile," dans: Bahgat Korany [et al.], *Les Régimes politiques arabes* (Paris: PUF, 1990), p. 298.

سامي الحناوي وينفذ فيه حكم الإعدام بعد بضعة أشهر. وما لبث العقيد أديب الشيشكلي أن انقلب على الحناوي في 19 كانون الأول/ ديسمبر 1949 وقُتل هذا الأخير على يد الأكراد في لبنان حيث كان قد لجأ. وانعطف النظام الجديد نحو السلطوية حين حظر الأحزاب وحلّ الجمعية العمومية وأجرى انتخابات جديدة في العام 1953 قبل أن ينطلق في تجربة الوحدة السياسية مع مصر، في إطار الجمهورية العربية المتحدة، التي لم تدم سوى بضع سنوات، بين العامين 1958 و1961، تاريخ انفصال سوريا عنها.

لم تؤمن الانعطافة الراديكالية فوراً استقرار البلاد، على عكس نظام جمال عبد الناصر. فكان توالي الانقلابات ووجود برلمان على الرغم من ضعفه وقوة السلالات المدينية المحلية من العوامل التي حالت دون ولادة زعيم - طاغية في دمشق. بيد أن عناصر المقارنة مع مصر كثيرة . "في ما يتعدّى تشابه السير الذاتية بين ثورات هؤلاء الضباط الذين نشأوا خلال فترة الانتداب، ثمة تفكير ونهج متشابهين. كانوا يهتمون أولاً بردّ اعتبار الوظيفة العسكرية بعد أن أصيبوا بصدمة هزيمة فلسطين واستخدامها بشكل منحاز من قبل السياسيين مع العار الذي وصم به الجيش بشكل علني"(55).

وابتداءً من الأعوام 1953-1964، كما في مصر أيضاً، قامت آلية راديكالية تدريجية في البداية ثم تسارعت إلى درجة إحداث حالات من القطيعة، على غرار صعود قوة حزب البعث الذي أسسه ميشال عفلق والذي حاز، في العام 1954، 16 مقعداً في الجمعية العمومية، في حين حصل الحزب الشيوعي على مقعد واحد وحزب الشعب على 32 مقعداً

(55) Elizabeth Picard, "La Syrie de 1946 à 1979," dans: André Raymond, *La Syrie Aujourd'hui* (Paris: CNRS, 1980), p. 154.

والحزب الوطني على 25 مقعداً. وبعد أن اتهم حزب الشعب بأنه أراد إجراء تقارب مع العراق، وبالتالي مع "الإمبريالية"، ثم بأنه حاك "مؤامرة" ضد الرئيس شكري القوتلي في العام 1956 في خضم أزمة السويس، اعتبر خائناً وأخرج بالقوة من الجمعية العمومية. وصار حزب البعث في موقع القوة الثانية في البلاد ليجيء تعيين صلاح الدين البيطار في منصب وزير الخارجية فيوطد موقعه.

ابتداءً من العام 1960 وإزاء فشل الوحدة السياسية مع مصر وقد اعتبرتها سوريا بمثابة إذلال، قام حيدر الكزبري بانقلاب آخر في 28 أيلول/ سبتمبر 1961 حمل إلى السلطة نخبة جديدة، عسكرية في غالبيتها. وفي 8 آذار/ مارس 1963 وقع انقلاب آخر قام به ضباط تابعون لخلية أعلنت عن نفسها أنها البعث الجديد وكانت مؤلفة أساساً من حافظ الأسد وصلاح جديد وأمين الحافظ، فاستبدلت الحكومة بـ"مجلس قيادة الثورة".

اعتبر الانقلاب "ثورة" وشكل في الحقيقة شرخاً في تاريخ البلاد. فمنذ نهاية آذار/ مارس، أحيل 700 ضابط إلى التقاعد وكان من بينهم ضباط ناصريون. وفي حين برزت وجوه جديدة مثل حافظ الأسد على مقدمة المسرح السياسي، كان أنصار الراديكالي صلاح جديد يدخلون إلى الحكومة في العام 1964 ويطبقون سياسة التأميم، ولاسيّما في مجال صناعة الأنسجة حيث قمعت المظاهرات المناهضة لهذه الإجراءات قمعاً شديداً[56]. وفي 23 شباط/ فبراير 1966، وقع انقلاب ثالث، داخلي

(56) يؤكد ميشال سورا (Michel Seurat) أن إجراءات التأميم كانت إلى حد كبير لمصلحة البرجوازية التجارية وبرجوازية الدولة المتحالفتين.
Michel Seurat, "Les Populations, l'Etat et la société," dans: Raymond, *La Syrie d'aujourd'hui*, p. 126.

هذه المرة، أجبر الجناح الأيمن من الحزب، بدءاً بميشال عفلق، على اللجوء إلى بغداد[57]. جاء الانقلاب الجديد بالدكتور الأتاسي والدكتور زوين إلى السلطة وصفّى معسكر صلاح الدين البيطار، قديم البعث والذي كان أول أمين عام للحزب في العام 1947، كما اعتقل رئيس الوزراء والرئيس اللواء أمين الحافظ في حين تسارعت سياسة التأميم والتخطيط على الطراز السوفييتي. واتخذ مؤتمر الحزب، الذي عقد في أواخر أيام تشرين الأول/ أكتوبر من السنة ذاتها، شكل انقلاب القصر حيث احتدمت الحروب بين الأطراف المختلفة.

أما الحدث الأخير في هذه السلسلة الطويلة فكان انقلاباً جديداً في 12 تشرين الثاني/ نوفمبر 1970 أنجز تكريس حافظ الأسد زعيماً أوحد في سوريا. لن ننسى محاولتين انقلابيتين، في حزيران/ يونيو 1973 وفي تشرين الثاني/ نوفمبر 1976، وقد قام بهما ضباط من السنّة أو "الحيوتي" رائق النقري، فهما تشيران إلى أن "الجيش العقائدي" قد أصبح في الحقيقة آلة قمع ضخمة (...) حيث التناقضات "الطبقية" صارخة للغاية وحيث تمارس السلطة بشكل وحشي ما (قد) يدفع بعض الأفراد المجتمعين على عجل إلى محاولة المستحيل"[58]. بيد أن هاتين المحاولتين تدلان أيضاً على أن أي تحرك عسكري داخلي لن يتمكن بعد الآن من هزّ استقرار النظام وديمومته.

يخلص أوليفييه كاريه وبحق إلى القول إن تاريخ حزب البعث في

---

(57) يعترض عفلق على تحولات النظام قائلاً: "عندما يكون الضابط في القيادة وهو في قطعته العسكرية، لن يكون قائداً حزبياً وقائداً شعبياً.. وإن لغته لن تكون لغة العقيدة والحوار وإنما لغة القوة والسلاح". (ميشال عفلق، **في سبيل البعث**، الجزء الرابع، عن موقع: albaath online [المترجمة]).
Olivier Carré, "Le Mouvement idéologique bathiste," dans: Ibid., p. 195

(58) Seurat, "Les Populations, l'Etat et la société, " dans: Raymond, *La Syrie d'aujourd'hui*, pp. 136-137.

سوريا، وهو "حزب الوحدة القومية-العربية والاشتراكية العربية، يتسم "منذ بداياته بانقسامه إلى فصائل"[59]. خلف هذا التشظي الحقيقي، قامت مأسسة بطيئة، مع المجلس العسكري البعثي في البداية، وقد احتفظ بوجوده الكامل واستقلاليته[60]، ثم مع المؤسسة العسكرية وأخيراً مع نخبة جديدة ضمن الحزب داست حرفياً على جسم الجيل القديم الوطني. في العام 1966، اعتبر "المجلس القطري" للحزب نفسه مستقلاً بالكامل ولم يعد لقدامى البعثيين أي تأثير. وتوفي عفلق في المنفى في بغداد في 23 حزيران/ يونيو 1989 وقتل صلاح الدين البيطار في باريس على يد عملاء سوريين على الأرجح في 21 تموز/ يوليو 1980.

وثبة وانتفاضة في العراق

بعد أن كان العراق قد تمتع بما يشبه الاستقرار بعد فشل انقلاب رشيد عالي الجيلاني، القريب من ألمانيا النازية في الأول من نيسان/ أبريل - 29 أيار/ مايو 1941، أصبح البلد الثالث الذي تعاظمت فيه المعارضة وتوالت الانقلابات العسكرية. أثارت مفاوضات سرية بين بغداد ولندن، حول خطة تقسيم فلسطين وإبقاء القوات البريطانية، ردود فعل قوية في المجتمع مجبرة الملك فيصل الثاني على رفض تحمُّل مسؤولية تلك المفاوضات. وعلى الرغم من هذا التحوّل، دخلت البلاد في مرحلة "وثبة" وهو مصطلح يصف المظاهرات التي نظّمها الحزب الديمقراطي الوطني وحزب الاستقلال والحزب الشيوعي والتي شكّلت "أكبر وثبة شعبية في تاريخ الملكية"[61].

(59) Ibid., p. 198.

(60) Pierre Guingamp, *Hafez el-Assad et le Parti Ba'ath en Syrie* (Paris: L'Harmattan, 1996), p. 127.

(61) Batatu, *The Old Social Classes and the Revolutionary Movements of Iraq: A Study of Iraq's Old Landed and Commercial Classes and of its* =

أنتشر الحزب الشيوعي بين الشيعة لكنه جذب إلى صفوفه أيضاً عدداً من السنة العرب والأكراد والمسيحيين؛ وفي عامي 1936-1937 وبعدها في عامي 1947-1948، كان قادراً على تنظيم إضرابات واسعة[62]. بيد أن رأسه كان يقطع بين مرحلة وأخرى (اعتقالات وتعذيب، وفي العام 1948 أعدم قادته ومن بينهم زكي باسم ومحمد الشلبي)[63] من دون أن يقلل هذا الأمر من تأثيره الذي يمتد إلى ما وراء الأوساط "الماركسية"[64] بكثير. تدل المذكرات التي كتبت حول هذه المرحلة أن التطرّف لا ينحصر في مناضلي أحزاب اليسار أو في الأوساط الوطنية[65]، فقد ولدت تجمعات مختلفة حتى في قلب الجيش. كما قامت في الخمسينيات تنظيمات أخرى على نقيض الحزب الشيوعي لكنها ناشئة عن آلية التسييس ذاتها، كالحزب الإسلامي للسنّي نومان عبد الرزاق، والمدعوم أيضاً من قبل آية الله محسن الحكيم، وحزب الدعوة لمحمد باقر الصدر.

في العام 1952، قمعت حكومة الفريق أول الركن نور الدين محمود[66]، بعيد تشكيلها، قمعاً شديداً مظاهرات ضد القانون الانتخابي ارتدت شكل ثورات وعرّفت عن نفسها كانتفاضات. وفي آب/ أغسطس

Communists, Ba'thists and Free Officers, p. 545.

(62) Ibid., p. 443.

(63) Ibid., p. 568.

(64) Ibid., p. 304.

(65) Ahmad Al-Habbubi, "Itinéraire d'un nationaliste arabe," *Monde arabe Maghreb-Machrek*, no.163: Mémoires d'Irakiens: A la découverte d'une société vaincue (1999), pp. 112-116.

(66) ورد في الفرنسية "نور الدين محمد" والصحيح هو "نور الدين محمود" [المترجمة].

1954، بدأت حملة قمع جديدة "قامت باسم محاربة الشيوعية" وكانت تستهدف في الواقع أي مثقف اعتبر موقفه نقدياً[67].

بدا توقيع حلف بغداد في العام 1955 والذي يؤكد سيطرة بريطانيا على البلاد، بمثابة خيانة حقيقية في نظر المعارضة. أما انتخابات العام 1957، حيث فاز 116 نائباً من أصل 135 نائباً بالتزكية، فقد أفقدت الحكم مصداقيته أكثر فأكثر وأدت إلى قيام جبهة وطنية موحدة جمعت الحزب الديمقراطي الوطني والحزب الشيوعي وحزب البعث. وصفت الجبهة رئيس الوزراء القديم/ الجديد، نوري السعيد، بأنه "حليف إسرائيل" و"خادم الاستعمار" و"مستبد كما لم يعرف الشرق مثله أبداً"[68] كما اتهمته بالخيانة، ولاسيّما في السياق المتوتر الذي تلى حرب السويس.

وفي ما وراء الملكية، وجدت النخبة السياسية ما بعد العثمانية نفسها مهمّشة وفاقدة المصداقية. وبين العامين 1957 و1958، شهدت البلاد حالة من عدم الاستقرار الشديد مع توالي خمس حكومات. وفي العام 1957، تسبّبت المظاهرات والإضرابات بوقوع العديد من الضحايا، وخصوصاً تلك التي قام بها عمّال السكك الحديد الذين حاولوا تنظيم مسيرة نحو بغداد. وأخيراً في 14 تموز/ يوليو 1958، قام الضباط الشبان المجتمعين حول عبد الكريم قاسم، البالغ من العمر آنذاك أربعة وأربعين عاماً، بقلب الملكية واغتيال أفراد الأسرة المالكة، كما اعتقل رئيس الوزراء نوري السعيد وأُعدم بعد أيام. يدلّ الانقلاب الذي جرى بسهولة على أن عدداً من الضباط يشاطرون راديكالية من هم

---

(67) Charles Tripp, *A History of Iraq* (Cambridge: Cambridge University Press, 2000), p. 137.

(68) Rashid Khalidi, "Consequences of the Suez Crisis in the Arab World," in: Albert Hourany, Philip S. Khoury and Mary C. Wilson, dir., *The Modern Middle East* (Berkeley: University of California Press, 1993), p. 540.

دونهم رتبة أو على الأقل ينظرون إليها بعين الرضى[69]. سواء أكانوا كباراً أم صغاراً، فإن العسكر قد وقعوا تحت تأثير النموذج المصري، ولا سيّما أن الانقلاب، في مرحلة تسلّم السلطة، يحمل نقاط تشابه مع انقلاب الضباط الأحرار في العام 1952.

بيد أن العراق أكثر تشظياً بكثير من مصر من الناحية الإثنية والطائفية والسياسية. وتعتمد نخبه السياسية المتباينة في بقائها على "تسامح" السلطة وكذلك على التسامح المتبادل بين مختلف الأطراف. حاول قاسم، على سبيل المثال، وفي المرحلة الأولى، ممارسة سياسة انفتاح إزاء الحزب الشيوعي، وقد كان الأقوى في الشرق الأوسط، فسمى ثلاثة وزراء من الشيوعيين في حكومته من بينهم سيدة هي نزيهة الدليمي. بيد أن المواجهات بين الشيوعيين ومعارضيهم، ولا سيّما البعثيين في خلال الذكرى الأولى للانقلاب في كركوك والموصل أذنت لمرحلة اتسمت فيها سلطة الضباط بالهشاشة. وجاءت الثورة الكردية التي بدأت في أيلول/ سبتمبر 1961 ثم سرعان ما اتخذت شكل حرب أهلية، لتزيد من سرعة هذه الآلية.

أضف إلى ما سبق أن التعاضد الداخلي بين شباب المؤسسة العسكرية لا يمكن أن يستند إلى نسيج دولة قوية ومركزية كما في مصر، وعلى عكس "فلسفة الثورة" لدى ناصر، لا تشكل القومية العربية المصبوغة بالاشتراكية خطاباً مساعداً على التماسك الاجتماعي. وهكذا، سقط النظام المترنح منذ العام 1959 تحت ضربة انقلاب وطني شارك فيه البعثيون أمثال علي صالح السعيد والعقيد أحمد حسن البكر

(69) Batatu, *The Old Social Classes and the Revolutionary Movements of Iraq: A Study of Iraq's Old Landed and Commercial Classes and of its Communists, Ba'thists and Free Officers*, p. 765.

والفريق مهدي عماشي. أعدم عبد الكريم قاسم وعرضت جثته على شاشة التلفزيون، وتألف مجلس وطني لقيادة الثورة برئاسة المشير عبد السلام عارف ومساعده أحمد حسن البكر.

كان الجيش، في هذا الانقلاب، في وضعية تنافس حاد مع أطراف قمعية أخرى، خلافاً للوضعين المصري أو السوري تماماً. فالحرس القومي التابع لحزب البعث والذي يضم حوالي ثلاثين ألف عنصر، قام بحملة إبادة حقيقية ضد الشيوعيين الذين دفعوا غالياً جداً ثمن تحالف حزبهم مع عبد الكريم قاسم إذ قُتل ثلاثة آلاف منهم. تسبّب وجود هذا الحرس المعادي بشدة لمناضلي الحركة الناصرية بحالة من القلق أجبرت المشير عارف على مهاجمة البعث عسكرياً ابتداءً من 18 تشرين الثاني/ نوفمبر، كمقدمة للتقارب المجهض مع عبد الناصر. وهكذا، فشل بعثيو "الجيل الثاني"[70] في الاستفادة من الانقلاب مع أنهم كانوا رأس حربة له. كما أن وفاة الرئيس بحادثة طوافة لم تقدم لهم الفرصة الإضافية التي كانوا يأملون بها بما أن عبد الرحمن عارف خلف أخاه على رأس السلطة.

وكانت محاولات الانفتاح الديمقراطي والليبرالي التي قام بها رئيس الوزراء عبد الرحمن البزاز إبان حكم عارف الثاني ولكن خلافاً لأوامره، محطّ بعض أمل في رؤية العراق يخرج أخيراً من حلقة الأنظمة العسكرية الدموية. بيد أن ابتعاد البعث عن السلطة لم يكن سوى ابتعاداً مؤقتاً وفي 17 تموز/ يوليو 1968، وقع انقلاب أخير أذن ببدء آلية استقرار على الطريقة السورية حيث إن البعث أسّس نظام الحزب الواحد. وسارع الفريق أحمد حسن البكر الذي استمر على رأس الدولة

(70) Dawisha, *Arab Nationalism in the Twentieth Century: From Triumph to Despair*, p. 198.

حوالي عشر سنوات، إلى توطيد سلطة أسرته على مجمل البلاد، ومن بينها سلطة قريبه صدام حسين وعشيرته التكريتية.

في خلال هذه المرحلة، أصبح البعث إلى حد بعيد قشرة فارغة. وكما رأى تشارلز تريب (Charles Tripp)، أدّى صدام حسين، حتى قبل العام 1968، دوراً حاسماً في تكوين الميليشيات القادرة على فرض سيطرتها على الشارع[71] ومنه على الساحة السياسية بواسطة الخوف. مرّت مأسسة النظام الجديد عبر إنشاء أجهزة جديدة كثيراً ما كانت خارجة عن سيطرة البعث كحزب. وفي 17 تموز/ يوليو 1968، أنشئ المكتب العسكري لحزب البعث والقيادة القطرية تلتها أجهزة استخبارات، كالجهاز الخاص والأمن العام. أما المؤتمر السابع للحزب الذي عقد في السنة ذاتها، فهو لم ينتهج خطاباً اشتراكياً فحسب بل شهد كذلك ظهور جيل جديد من أصحاب القرار على حساب الجيل القديم، كان أفراده جميعهم قريبين من صدام حسين ومن بينهم طه ياسين رمضان وعزّت إبراهيم الدوري.

وإذ نضيف إلى ما سبق انقلاب الضباط الأحرار السودانيين في العام 1956 ومن بعده انقلاب معمّر القذافي في ليبيا في العام 1969، يرتسم أمامنا خط مولّد مشترك سيصبح علامة مسجلة لهذه الحلقة الثورية الطويلة التي امتدّت على ثلاثة عقود. كانت الأنظمة الجديدة نتاج أزمة بنيوية لم تستطع "الأنظمة القديمة" تخطيها ولا الأحزاب السياسية بواسطة "المشاركة" في حين أنها تمتعت أحياناً بدعم شعبي حقيقي. بنت الأنظمة الجديدة التي حلّت محلها إجماعاً وطنياً وامتلكت شرعية لا جدال فيها وهي لا تنبع من التمثيل البرلماني بل من عكسه، أي

(71) Charles Tripp, *A History of Iraq* (Cambridge: Cambridge University Press, 2000), p. 190.

من قدرتها على إلغاء "الديمقراطية البرجوازية" بقوة السلاح وقد اعتبرت هذه البرجوازية فاسدة وعقبة أمام إنتاج القوة في مواجهة إسرائيل و"الإمبريالية" الأوروبية والأميركية بالأخص.

الانقلاب بما هو قطيعة جذرية

يطيح الانقلاب بالمواقع الممسكة بالسلطة من أجل حسن إنقاذ الدولة المعتبرة مهدّدة. هنا وكما في أماكن أخرى، "لا يشكل الانقلاب قطيعة بالنسبة إلى مصلحة الدولة العليا، بل هو تمظهر الدولة بحد ذاتها فيه. إنه توكيد لمصلحة الدولة العليا التي تؤكد أنه يجب بأي حال من الأحوال إنقاذ الدولة مهما كانت الأشكال التي نستخدمها حتى نتمكن من إنقاذها"[72]. بهذا المعنى، ما من شك في أن تسلُّم العسكر السلطة في مصر وسوريا والعراق كما في السودان وليبيا هو بمثابة "إعلان" ناجح أكثر منه ثورة شعبية تقود إلى تغيير في النظام.

مع أن هذه الانقلابات مدفوعة بإرادة إنقاذ الدولة ومنفّذة من قبل الجهاز المعني بها أكثر من سواه، إلا أنها في الوقت نفسه نتاج آلية راديكالية ونتاج أنواع من القطيعة تسارعت بفضلها. مع بداية الخمسينيات، لم تعد الأنظمة السياسية القديمة قادرة على تجاوز تناقضاتها ولم تعد بالتالي قادرة على تأمين إعادة إنتاج نفسها. وصارت تواجه معارضات متنوعة ولكن جذرية لم تكن تريد استيعابها وسرعان ما عجزت عن ذلك في سبيل توسيع قاعدة شرعيتها. وكما في أي سياق ثوري كان، "لم تتمكن أي طبقة من السيطرة" على أي نزاع ناشئ ولا حتى الطبقة التي "تحتل ظاهرياً موقعاً مركزياً". "(أنتج) النزاع الثوري

(72) Michel Foucault, *Sécurité, territoire, population: Cours au Collège de France, 1977-1978* (Paris: EHESS; Gallimard; Seuil, 2004), pp. 267-268.

على الدوام نتائج لم تتوقعها أو تحسب لها حساباً أي جماعة معنية به[73]." إذا كانت "الحالة الثورية" في الشرق الأوسط الملموسة بوضوح مع بداية الخمسينيات، قد أفضت إلى أنظمة عسكرية، فهذا لأن الضباط الشبان كانوا قد أصبحوا راديكاليين بحد ذاتهم إلى درجة أنهم أطاحوا بقادتهم وأيضاً لأنه ينظر إليهم بوصفهم الفئة الأكثر "وطنية" والقادرة على الفصل في نزاعات المعارضين وتقديم بعض المطالب الاجتماعية وتأخير أخرى وحل المسألة "الوطنية" التي تخص المجتمع بأسره.

أما مصطلح "الثورة" الذي كان يحيل في الأساس إلى الانتفاض والاضطراب والتمرد وحتى الانقسام، فقد اكتسب في خلال القرن العشرين، وبالأخص في نصفه الثاني، معنى إيجابياً[74]. لم يكن التغيير على المستوى الدلالي وحسب، بل إن الانشقاق نفسه اكتسب وجهاً شرعياً ضمن المجتمعات العربية. نادراً ما كانت القطيعة، في مرحلتها الأولى، دموية لكنها كانت جذرية على الدوام. في مصر مثلاً، أُرسِل الملك المخلوع مع عائلته إلى المنفى، وسرعان ما جرى استبدال كل أصحاب السلطة السابقين تقريباً، ولاسيّما في الجيش، بطاقم من الشباب. في العراق، اغتيلت أسرة الملك ورئيس الوزراء في العام 1958، ووجدت وجوه النظام القديم الأخرى "مخرجاً" لها، في حين كان الجيش مسرحاً لعمليات تطهير واسعة.

وإذا كانت الأنظمة الجديدة أيضاً قد تعسكرت بسرعة، إلا أن الإنتلجنسيا التحقت بها بكثافة مع تهميش النخبة الفكرية "العثمانية"

(73) Theda Skocpol, *States and Social Revolution: A Comprehensive Analysis of France, Russia and China* (Cambridge: Cambridge University Press, 1979), p. 18.

(74) Bernard Lewis, *Le Langage politique de l'islam* (Paris: NRF, 1988), p. 146.

أو "المناصرة لسلطات الانتداب" السابقة. أضيف إلى الصراع الطبقي بين الفئات الشعبية وبين الباشاوات أو الأفندية السابقين، صراع بين الأجيال، وفي المجتمعات المعروفة باحترامها فارق السن والوضعية الاجتماعية والهرميات، فرض شبان لا يتمتعون بوضعية مرموقة أنفسهم من دون أن يتسبب هذا الأمر برفض لهم ضمن مجتمعاتهم. فقد كان عبد الناصر في الرابعة والثلاثين من عمره حين تسلّم السلطة، وإذا كان عبد الكريم قاسم في الرابعة والأربعين من عمره في العام 1958 في حين كان عبد السلام عارف في الثانية والأربعين في العام 1963، إلا أن صدام حسين الذي فرض نفسه كرجل النظام القوي، خلف صورة أحمد حسن البكر الوصائية، لم يكن يبلغ سوى الواحدة والثلاثين من عمره في العام 1968. وبين العامين 1952 و1963، ضمّ حزب البعث العراقي اثني عشر مسؤولاً رفيعي المستوى من أصل أربعة وعشرين مسؤولاً، لم يبلغوا بعد سن الرابعة والعشرين في حين كان عشرة منهم بين الخامسة والعشرين والتاسعة والعشرين واثنين منهم بين الثلاثين والرابعة والثلاثين. وحتى بين عامي 1964 و1970، كان ثمانية عشر من هؤلاء المسؤولين من أصل أربعة وعشرين ما دون الخامسة والثلاثين من العمر[75]. وإذا كان النمط الثقافي الذي يقدم على سواه سلسلة توارث وطاعة انطلاقاً من علاقات المعلم والتلميذ هو واحد من أنماط التسلط في الشرق الأوسط[76]، فإن انقلاب التراتبية الهرمية من طريق الانشقاق قد أصبح واحداً من هذه الأنماط.

---

(75) Batatu, *The Old Social Classes and the Revolutionary Movements of Iraq: a Study of Iraq's Old Landed and Commercial Classes and of its Communists, Ba'thists and Free Officers*, pp. 1080-1081.

(76) Abdellah Hammoudi, *Master and Disciple: The Cultural Foundations of Moroccan Authoritarianism* (Chicago: Chicago University Press, 1997).

حتى لو أن الأجيال الجديدة ترجع بدورها إلى التقليد الذي يعتبر مساحة تمد بالقوة[77]، إلا أن صغر سن الجسم السياسي قد حمل أثراً كبيراً في المتخيّل الاجتماعي والسياسي الذي قطع مع المتخيّل "القديم". وإن أردنا التعبير بفجاجة، نقول إن قتل الأب قد أصبح شرعياً بالكامل. اعتبر الأمير بمثابة رب الأسرة الذي خان أسرته، إما بسبب عدم كفايته وإما بخيار مقصود منه. وصار هدر دمه أو الحكم عليه بالنسيان في المنفى البعيد إجراءً يمكّن أسرته من التطهّر منه واكتساب مقاومة جديدة وقدسية جديدة تحت قيادة شخصٍ شاب.

من خلال أجيالٍ من العسكر الشبان، عملت الأمة العربية على إسقاط نفسها في المستقبل كما أعادت تعريف نفسها بوصفها أمة شابة تحمل مهمة وطنية وحتى عالمية من ناحية، وذات قاعدة ذكورية عسكرية من ناحية أخرى. بواسطة العنف ومن خلاله، حلّ الجسم الداني بما أنه جسم الشعب، والنموذجي بما أنه رشيق ومحارب، محلّ جسم الأمير القاصي والعجوز والأرستقراطي الذي أصبح عقبة أمام تفتح الأمة. عبر التعبئة الجماعية للـ"قوى الحية"، أنيطت بهذا الجسم الجديد مهمة ضبط "الأمة" من أجل تجهيزها بالقوة التي تحتاج إليها في سبيل بقائها. كما ابتكر هذا الجسم لغة سياسية جديدة، غالباً ما كانت عدائية وحربية، عفوية وشديدة المسرحية كذلك، من خلال إخراج مشاهد تتناقض تناقضاً تاماً مع كلمة أصحاب القرار "الشيوخ" المخلوعين وهي كلمة اتسمت بالشحوب والبروتوكولية.

وأخيراً، لم تحمل الأنظمة الجديدة علامة رؤساء الأركان الذين سرعان ما أطيح بهم، بل علامة "الشعب" الذي أدخل إلى الأكاديميات

(77) Maurice Fleury, "Un Système arabo-musulman," dans: Bahgat Korany [et al.], *Les Régimes politiques arabes* (Paris: PUF, 1990), p. 82

العسكرية. وقد امتلكت، في فترة قصيرة سحرت في خلالها الألباب، قاعدة اجتماعية حقيقية لم تنحصر بالشباب أو بالإنتلجسيا، فكان لها بالتالي شرعية "طبيعية". لم تؤسس أنظمة عسكرية وحسب بل كان لها حقاً أثر البداية من الصفر على المستوى السياسي. وفي كل الحالات تقريباً، سرعان ما قُطع رأس برجوازيات تجارية قديمة وطبقات من أعيان المدن. وحتى من دون تأميم مفروض على نطاق واسع، انتزعت ملكية الطبقات المسيطرة القديمة وأقرّ إصلاح زراعي بشكل شبه فوري تقريباً بعد "الثورة"(78). أنشأت الأنظمة الجديدة كذلك الحق بالتعليم والرعاية الصحية، وعلى الرغم من أنها ولدت من رحم انقلابات، إلا أنها بدّلت في الواقع العلاقات الطبقية والقيم الاجتماعية والمؤسسات وبدّلت بالأخص بنية الدول التي ورثتها(79).

"مظلوم بالأمس واليوم ظالم"

في العام 1991، علّق مكسيم رودنسون على مساهمة كان قد قدّمها في العام 1972 وتحدث فيها عن فيكتور هوغو (Victor Hugo) قائلاً: "...فليحوّل الزمن المُمِل الحزين من كان مظلوماً بالأمس إلى ظالم اليوم"، وخلص إلى القول: "حتى إنه ثمة علامات عديدة، (وأكثر من علامات أيضاً) تدل على أن الحركات القومية في العالم الثالث تميل إلى اتباع هذا السبيل حتى قبل أن تحرز انتصاراً كاملاً"(80).

---

(78) Ayad Al-Qazzaz, "Iraq Revolution," in: James V. De Fronzo, dir., *Revolutionary Movements in World History* (Santa Barbara: ABC Clio, 2006), p. 434.

(79) Skocpol, *States and Social Revolution: A Comprehensive Analysis of France, Russia and China*, p. 29.

(80) Maxime Rodinson, *Marxisme et monde musulman* (Paris: Seuil, 1972), p. 143.

تشهد "الثورات العربية" على هذا التحوّل، ولاسيّما الثورتان السورية والعراقية وبدرجة أقل المصرية منها، فمهما كانت العوامل المسبّبة لها والدعم الشعبي الذي نجحت في تعبئته، جاءت نتيجتها كارثية على المدى القصير بعد الإطاحة بالأنظمة القديمة. يكفي، للتأكد من هذا الأمر، درس عبادة الشخصية لدى صدام حسين الذي قورن مرة بجلجامش ومرة بنبوخذنصر ومرة بصلاح الدين، أو لدى حافظ الأسد، أو النظر أيضاً إلى ترسخ نظاميهما في منطق الدولة والملك. لن تتمكن النخب الجديدة التي سرعان ما شكلت طائفة "عسكرية تجارية"[81] من تخطي منطق الافتراس الذي سيصبح في خلال بضع سنوات مبدأ بقائها السياسي.

وأيضاً، في حين أن هذه النخب الجديدة لم تكن عنيفة في مرحلة الاستيلاء على السلطة، إلا أنها سرعان ما أصبحت قمعية حيال المعارضات التي جاءت بها، بدءاً باليسار والشيوعيين، والإخوان المسلمين في مصر الذين شكلوا واحدة من دعامات هذه النخب. ومهما كان اليسار وطنياً، ولاسيّما الأحزاب الشيوعية، فإنه يمثل بديلاً اجتماعياً أكثر تطرفاً قادراً على جذب سكان المدن وإخافة السلطات الجديدة بسبب رغبته في الإطاحة، ليس فقط بالتراتبيات الهرمية القائمة، لكن أيضاً بالقواعد الدينية والأخلاقية. يشرح ميشال عفلق الأمر قائلاً إن الشيوعية ملحدة والعربي مؤمن؛ الشيوعية هي دكتاتورية البروليتاريا والميثاق الوطني البعثي يرفض إحلال دكتاتورية طبقة بدل أخرى؛ الشيوعية تطالب بتدمير الطبقة البرجوازية والإشتراكية العربية ترفض اللجوء إلى القوة، صار الشيوعيون آلاتٍ في حين أنهم كانوا بشراً؛

(81) Georges Corm, *Conflits et identités au Moyen-Orient* (1919-1991) (Paris: Arcantère, 1992), p. 73 et 92-93.

أنكروا الحرية لأن الحرية هي مظهر ثقة في الفرد في حين أن الفرد في النظام الشيوعي لا يملك شخصية ولا إرادة؛ واقع الشيوعية يختلف تماماً عن المثال الذي يعلنه المروِّجون للشيوعية[82].

بيد أن الأنظمة الجديدة حاربت اليسار لسبب آخر أيضاً، فهي تضم "الآخرين" أي كل من لا يذوب في "جسد الأمة العضوي"، ولاسيّما اليهود في مصر والعراق علماً أنهم كانوا يعارضون بشدة السياسات الأميركية والأوروبية والإسرائيلية. في مصر، ابتداءً من كانون الثاني/ يناير 1959 وحتى العام 1964 بالنسبة إلى بعضهم، كشف القمع الذي مورس على الشيوعيين، المحتجزين في معسكرات اعتقال وقد ضمّوا في صفوفهم عدداً من اليهود، عن بعدٍ معادٍ للسامية لم يجرؤ النظام على الإشهار به.

في العراق، أضعفت الحملات المعادية للسامية الحركة النقابية منذ العام 1948، لتشكل مقدمة لعملية طرد مكثّف لليهود بين عامي 1958 و 1963. كما تضمنت هذه الحقبة مذابح موجهة ضد الشيوعيين إلى درجة أن الانقلاب البعثي الأول في العام 1963 أعلن صراحة عن عدائه للشيوعية موقعاً بين الثامن والعاشر من شباط/ فبراير حوالي ثلاثة آلاف ضحية. واستمرت حملات القمع بين الفينة والأخرى إبان الانقلاب البعثي للعام 1968 لتسجل بين العامين 1978 و1979 مقتل عدة مئات من أعضاء الحزب الشيوعي اتهموا بأنهم تسربوا إلى الجيش أو أنهم كانوا غير مخلصين للنظام[83].

(82) Fleury, "Un Système arabo-musulman," dans: Bahgat Korany [et al.], *Les régimes politiques arabes*, p. 82.

(83) Tripp, *A History of Iraq*, p. 218, and Salaam Yousif, "Le Déclin de l'intelligentsia de gauche en Irak," *REMM*, no. 117-118 (2007), pp. 51-79.

أما بالنسبة إلى الإخوان المسلمين في مصر، فشعروا أن النظام الجديد بتوجهاته "العلمانية" قد خانهم وأنه يشحن ثورته بمعنى وطني لا ديني. وكان عبد الناصر على حق حين خشي الدعم الشعبي الذي يتمتع به الإخوان. "سادت فكرة بين الإخوان المسلمين مفادها أن تسلّم الضباط الأحرار السلطة سيمكنهم من تحقيق مثلهم الإسلامية بسهولة. وحين أظهر الضباط أنهم أقل عقائدية بكثير ممّا كانوا عليه في أرض المعركة وأكثر برغماتية ممّا يرغب فيه الإخوان، سرعان ما ولد النزاع بينهما بالحدة والعنف اللذين يميزان العمليات الثأرية التي تنشأ بين من كانوا أصدقاء في الماضي"[84]. تحوّل الضباط الأحرار إلى جهاز إكراهي مارس قمعاً على الإخوان فقتل أو أعدم العشرات منهم، كما اعتقل أكثر من 1450 إخوانياً وأصدر بحقهم أحكاماً بالأشغال الشاقة[85].

الإجماع القومي والتجذّر في الدول الإقليمية

على الرغم من استناد الأنظمة الثورية إلى خطاب الوحدة العربية، إلا أنها انكفأت على أطر الدولة الموروثة عن الحقبة الاستعمارية أو الانتدابية والتي تؤمن لها العديد من الموارد السياسية والاقتصادية والعسكرية. يمكن تلخيص سياستها بالقول إنها تفضل الإمارات المحلية على الإمبراطورية العربية التي ولدت ميتة عند نهاية الحرب العالمية الأولى. وفشلت محاولات التوحيد، من بينها المحاولة الأكثر اكتمالاً بين سوريا ومصر بين العامين 1958 و1961، ما وضع حداً نهائياً للقومية العربية السياسية مع أنها بقيت حيّة في الوجدان الشعبي.

(84) Hamid Enayat, *Modern Islamic Political Thought* (London: MacMillan, 1982), p. 86.

(85) Carré, *Mystique et politique: Lecture révolutionnaire du Cor'an par Sayyid Qotb, frère musulman*, p. 11.

شكلت القومية والخوف من الاشتراكية والمكانة الممنوحة للدين في خطاب الدولة والحزب الواحد، وقد بيّن أوليفييه كاريه اتساع مداها[86]، جزءاً من الثقافة السياسية الإجماعية لدى الأنظمة الجديدة. فـ"الحزب - الدولة - الأمة" لا يمكنه أن يقبل بأي تباين مهما كانت طبيعته، معتبراً إياه شرخاً يهدد انصهار الفرد ضمن الجماعة بوصفهما أطراف هذه الدراما الوطنية والكونية والتي تدعى "الثورة".

تتغذى الإجماعية هنا كما في الجزائر المستقلة والثورية[87] من مرجعيات عديدة كاليعقوبية ومبدأ التوحيد الذي يشكل أساس الإسلام وبالتالي شرط تماسك أمّة المؤمنين، ومن أثر الثقافة السياسية المستوردة من أوروبا في عشرينيات القرن العشرين، وقراءة التاريخ الذاتي على أنه فشل ناجم عن انقسام المجتمعات العربية. لذا أرادت الأمة أن تكون في الوقت نفسه، عربية ومسلمة وثورية، هذا لأن العروبة تسمح برفض كل مطالب الأقليات، من كردية وسنية وشيعية في سوريا والعراق ومسيحية ويهودية، والتي سيكون لنا عودة إليها، والإسلام يسمح بقمع اليسار "المادي"، كما تسمح "الثوروية" بضرب الإسلاموية التي تعتبر مشروعاً منافساً لمشروع القومية العربية.

يجسد "الحزب" بـ"قيادة مثالية" نسخة مصغرة عن الأمة السامية والسليمة التي يرغب في إعادة إحيائها[88]، كما يقول ميشال عفلق، كما

(86) Olivier Carré, *La Légitimation islamique des socialismes arabes: analyse conceptuelle combinatoire de manuels scolaires égyptiens, syriens et irakiens* (Paris: FNSP, 1995).

(87) Omar Carlier, *Entre Nation et Jihad: Histoire sociale des radicalismes algériens* (Paris: Sciences Po, 1995).

(88) Samir Al-Khalil, *Irak, la machine infernale, politique de l'Irak moderne* (Paris: J-C. Lattès, 1991), p. 255 et 283;

في ما يتعلق بـ "دستور" الحزب الذي يعود تاريخه إلى 17 حزيران/ يونيو 1947، انظر =

يشكل أساس التنظيم الاجتماعي الجديد الآمن والمتجانس. ففي سوريا، على سبيل المثال، تم تأطير المجتمع الذي ينظر إليه "كتنظيم سياسي" بحوالي 275000 مناضل بعثي[89] (مع احتساب "الأصدقاء" يقفز عدد البعثيين الرسمي من أكثر من 63000 بقليل في العام 1971 إلى أكثر من مليون بعثي في العام 1992)[90]. إذا كان يتم التغاضي عن الشيوعيين الموالين للاتحاد السوفييتي تحت قيادة الكردي خالد بكداش، لأنه قد جرى استيعابهم، إلا أن الأمر يختلف مع الشيوعيين المتطرفين ثم مع قدامى البعثيين وأخيراً مع الإسلاميين. مع حلول العام 1963، تفرّد البعث برؤية عضوائية للأمة السورية، فمارس سياسة عرقية إزاء الأكراد واعتبرهم بمثابة غرباء. وهكذا تشكل "حزام عربي" أراد تعريب الحدود مع تركيا واسترجاع الجنسية السورية من الأكراد "الغرباء"[91].

تقول إليزابيث بيكار: "في ما عدا العراق ربما، لا وجود في العالم العربي (إلا في سوريا) لتناقض كهذا بين غليان التعبئة الحزبية في سنوات الاستقلال الأولى والغطاء المحكم الذي أقفل على الحياة السياسية بعد مضي عقد من الزمن"[92]، ما يسجل خروجاً من المسعى نحو الوحدة العربية كما هو خروج من الاشتراكية لمصلحة الطائفية وعقلية المُلك.

= ملحق أوليفييه كاريه:
Olivier Carré, "Le Mouvement idéologique ba'athiste," dans: Raymond, *La Syrie d'aujourd'hui*, pp. 207-216.

(89) Seurat, "Les Populations, l'Etat et la société, " dans: Raymond, *La Syrie d'aujourd'hui*, p. 122 et 133.

(90) Fabrice Balanche, "Alouites, une secte au pouvoir," *Outre-Terre*, no. 14 (2006), p. 86.

(91) Ismet Cheriff Vanly, *Le Problème kurde en Syrie* ([s. l.]: Comité pour la Défense du peuple Kurde, 1968).

(92) Elizabeth Picard, "Fin de partis en Syrie," *REMM*, no. 81-82 (1996), p. 211.

في العام 1970، جاء حافظ الأسد وهو نموذج الضباط العلويين الذين جرى إعدادهم بطريقة باطنية، ليستكمل انقلاب العام 1963 الذي دفع بالنخبة العلوية إلى أعلى، من دون أن يكون انقلاباً ذا طبيعة طائفية. فرض هؤلاء الضباط حكمهم من طريق الرعب، وقد سبب قمع الإخوان المسلمين ثورة إسلامية في حماة بعد مرور عقد من الزمن.

مثّل النظام في الحقيقة المؤسسة العسكرية، ولم يتمكن من البقاء إلا بفضل التحكيم الملتبس الذي مارسه الأسد بين مختلف أجزاء هذه المؤسسة. وحين اكتسب واحد من مكوناتها، هو رفعت شقيق الرئيس الأسد، درجة كبيرة من الاستقلالية في العام 1985، لم يتوانَ حافظ الأسد عن اللجوء إلى العنف للحد منها. وازداد استبداد النظام أكثر فأكثر كما ازدادت ريعيته. وفي العام 1978، قررت القمة العربية أن تدعمه بمبلغ 1,8 مليون دولار لـ"مجهوده الحربي" ضد إسرائيل. وفي الحقيقة، لن يحصل سوى على نصف المبلغ، ما مكنه من الابتعاد عن النشاط الإنتاجي في الداخل من أجل تأمين جزء من احتياجاته[93].

كما في سوريا، قدم البعث نفسه في العراق كـ"حزب يؤطر الجماهير أكثر منه حزباً جماهيرياً"[94]. اعتبر الأقلية الكردية تهديداً دائماً سواء لعروبة العراق كما للعالم العربي. وكذلك بالنسبة إلى الشيوعين، فكان مجيء البعث إلى السلطة لمدة قصيرة في العام 1963 مناسبة لاغتيال قاسم وثلاثة من المقربين منه، حيث إن الاعتقال والمحاكمة ثم الإعدام قد جروا في غضون ساعة واحدة[95]، ثم عرضت جثثهم أمام الناس. أما

(93) Pierre Sateh Agate, "Le croissant fertile," dans: Bahgat Korany [et al.], *Les régimes politiques arabes*, p. 307.

(94) Philippe Rondot, *La Syrie* (Paris: PUF, 1978), p. 55.

(95) Ibid., p. 977.

الانقلاب الجديد في العام 1968، فقد أرسى الوحشية قانوناً وتركيبة سياسية. بعيد تسلم السلطة، في تشرين الأول/ أكتوبر 1968، "كشف" النظام "عملاء صهاينة" أجريت لهم محاكمة سريعة أدت في الخامس من كانون الثاني/ يناير 1969، إلى تنفيذ أربع عشرة عملية إعدام أمام مئات آلاف البغداديين الذين تجمعوا بهذه المناسبة[96]. هدف المشهد الفظيع إلى خلق شعور بالموالاة لدى الجماهير عبر بث الرعب في قلوبهم وإلى تركيب المجال السياسي والبصري والرمزي بواسطة الموت. وقد طبق هذا النهج مرات عدة: في العشرين من شباط/ فبراير وفي 24 و30 نيسان/ أبريل، وفي 15 أيار/ مايو وفي 21 و25 آب/ أغسطس، وفي 8 أيلول/ سبتمبر وفي 26 تشرين الثاني/ نوفمبر من السنة ذاتها. وقد صار مشهد الإعدام مناسبة احتفالية شعبية وسياسية. تحدث صلاح عمر العلي، أحد الوزراء البعثيين إلى الجماهير المجتمعين في واحدة من هذه المناسبات ليقول لهم إن العراق لن يقبل بالخونة والجواسيس وعملاء الطابور الخامس والصهاينة والإمبرياليين الأميركيين، وسيعمل على كشف مؤامراتهم وتعليق المشانق لجواسيسهم حتى لو امتلأت ساحات العراق بجثث الخونة والجواسيس[97]. يشرح صدام حسين المسألة قائلاً إن الثورة "تختار أعداءها" وهي تختارهم لأن بعضهم يعملون ضد برنامج الثورة ويسعون إلى أذيتها ولأنهم ينوون حرفها عن مبادئها الأساسية وعن أصولها الحقيقية[98].

(96) Judith Miller et Laurie Mylorie, "The Rise of Saddam Hussein," in: Micah Sifry and Christophe Cerf, dir., *The Iraq War Reader* (New York; London: Touchstone, 2003), p. 24.

(97) Al-Khalil, *Irak, la Machine infernale, politique de l'Irak moderne,* p. 87.

(98) Ibid., p. 48.

لم يتم توجيه إكراه الدولة ضد "عدو الداخل" وحسب الذي يختبئ في قلب المجتمع، بل وجب البحث عن العدو أيضاً في قلب النظام الذي يعيد إنتاج نفسه بفضل التطهير الدائم لخلاياه الفاسدة. في بداية كانون الثاني/ يناير 1971، أعدم سبعة وخمسون عسكرياً ومدنياً، مع أنهم من الوطنيين، لأنهم قاموا بمحاولة لقلب النظام. وشيئاً فشيئاً تم نسج شبكة من دوائر الاستخبارات مهمتها أن تراقب الواحدة منها الأخرى. وفي العام 1980، كان خمس السكان العاملين (أي 67000 شخص) مكلفاً بشكل رسمي بممارسة نوع من أنواع العنف في أجهزة الشرطة أو الدفاع أو مراقبة المجتمع عموماً[99].

وفي العام 1971، تنبأ صدام حسين بأن الوسائل التي يتبعها حزبه لن تترك أي فرصة لمن يختلف معه بأن يتسلق بضع دبابات ويقلب نظام الحكم[100]. وفي 16 تموز/ يوليو 1979، لم تترك طريقة صدام في اعتلاء سدة الرئاسة أي شك في ما يتعلق بنهجه في الحكم إذ إن ثلث الكوادر العليا قد تم القضاء عليها. الرمزية قوية ومسرحية: الرئيس الجديد يقرأ بصوت خفيض وبعيون دامعة أسماء الخونة الذين حاكوا مؤامرة موالية لسوريا بقيادة الجنرال حسين المشدي، وقد كان هذا الأخير بالفعل من أنصار التقارب مع سوريا التي يقودها حزب بعث منافس. سرعان ما اعتقل "الخونة" الواحد والعشرون تحت عيون الكاميرات التي نشرت

(99) The Executive Council of the Iraqi National Council, *Crimes Against Humanity and the Transition From Dictatorship to Democracy* (London: Salahaddin, INC, 1993), p. 3.

أدخل الأطفال المجندون في هذا الجهاز الذي ساهم في تدمير الخلايا الأسرية.

Al-Khalil, *Irak, la machine infernale, politique de l'Irak moderne*, p. 117.

(100) Miller et Mylorie, "The Rise of Saddam Hussein," in: Sifry and Cerf, dir., *The Iraq War Reader*, p. 28.

صوراً مباشرة وأعدموا بشكل شبه فوري. كل شيء يشير إلى أن الأعضاء الباقين قد أجبروا على المشاركة في إعدام المبعدين. في العام 1982، وحدهم ثلاثة أعضاء من أصل ستة عشر عضواً في المجلس الجديد نجوا من عمليات التطهير غير الدموية هذه المرة[101].

أما عمليات التطهير التي جرت في العام 1979 والتي تشبه المحاكمات الستالينية في العام 1936، فقد سجلت تغييراً رئيساً وشكلت، بحسب رأيي، انتقالاً إلى نظام توتاليتاري. حين مورس القمع في داخل السلطة وضد "أصحاب السلطة"، ارتدى بعداً رمزياً كبيراً في المجتمع ليصير الخوف هو أداة الشرعية الأولى[102]. ومنذ ذلك الحين، طالت السياسة القمعية التي مورست على نطاق واسع، الأكراد ومعهم الطائفة الشيعية بمجملها، بمن فيها أعضاء حزب البعث. وبدا صدام حسين أشبه بيزيد بن معاوية، الخليفة الذي قتل الحسين بن علي، حفيد نبي الإسلام، ما يفسر جزئياً على الأقل استعادة كربلاء موقعها الرئيس في المتخيّل الشيعي العراقي[103].

أمكن تفسير "الخصوصية العراقية" ضمن الأنظمة الثورية العربية بواسطة "الوحدة العضوية" في الدولة أساساً التي منعت قيام أي خلافٍ داخليٍ بين النخبة الحاكمة. لكن النظام امتلك كذلك وسائل تدمير بنى

(101) Peter Sluglett, "Portrait d'un dictateur," dans: Chris Kutschera, dir., *Le Livre noir de Saddam Hussein* (Paris: Oh! Editions, 2005), p. 58.

(102) Jean Leca, "La Démocratisation dans le monde arabe: Incertitude, vulnérabilité et légitimité," dans: Ghassan Salamé, dir., *Démocraties sans démocrates: Politiques d'ouverture dans le monde arabe et islamique* (Paris: Fayard, 1994), p. 31.

(103) Pierre-Jean Luizard "Introduction," *Monde arabe Maghreb-Machrek*, no. 163 (1999), pp. 5-23, et Danan Makiya, "Où va l'Irak?" *Monde arabe Maghreb-Machrek*, no. 163 (1999), pp. 207-213.

التعاضد، بما فيها العائلة مع استخدام القمع البيروقراطي المفرط كوسيلة للوصول إلى هذا الهدف. كما أن النظام العراقي، أكثر بكثير من الأنظمة الأخرى في الشرق الأوسط، اعتبر الآخر عدواً من دون أن يحدّده بشكل مبدئي. وهكذا، استطاع أن ينشر رعباً نظامياً لا علاقة له بنزاع محدد أو تهديد حقيقي. وأخيراً، كما سائر الأنظمة التوتاليتارية، دمج النظام البعثي عقلانية "وضعية" مع "مهمة رسولية"[104]، مولداً ديناميكيات تدمير ذاتي تفسّر إلى حد بعيد سياسته الخارجية ولاسيّما غزوه الكويت في العام 1990.

(104) Jean Leca, "L'Hypothèse totalitaire dans le Tiers Monde: Les pays arabo-islamiques," dans: Guy Hermet, Pierre Hassner et Jacques Rupnik, dir., *Totalitarisme* (Paris: Economica, 1984), pp. 225-226.

الفصل الرابع

من بدايات الحرب الباردة إلى حرب الأيام الستة
تطرّف المتخيّلات الجماعية

مع تسلّم الأنظمة الثورية العربية الحكم، فَقَدَ الغرب موقعه المهيمن في الشرق الأوسط، والمقصود بالغرب السلطات الانتدابية السابقة، ومعها إيطاليا بالنسبة إلى ليبيا، كما الولايات المتحدة. ومع هذا، لا يمكن البتة الحديث عن استقلال سياسي لأن الدول العربية، مثلها مثل تركيا وإيران، صارت في الوقت نفسه طرفاً في الحرب الباردة ورهينة لها.

فوقعت حرب السويس في العام 1956 ثم تلتها انعطافة الولايات المتحدة المؤيدة لإسرائيل لتجعل من الدفاع عن هذا البلد عنصراً ثابتاً في سياستها الشرق أوسطية، ما دفع مصر إلى الوقوف بجانب الاتحاد السوفييتي. لا تملك مصر علاقات تاريخية وسياسية أو ثقافية قوية معه، إلا أن "ابتعاده" جعله يبدو في عيون عبد الناصر بمثابة "أهون الشرور". وفي المقابل، فهم الاتحاد السوفييتي سريعاً فوائد انتهاج سياسة مؤيدة للعرب فصار مصدر موارد اقتصادية وعسكرية على حد سواء بالنسبة إلى مصر. كما قدم دعماً للأنظمة الثورية التي جاءت في ما بعد في سوريا والعراق وليبيا.

أنظمة متسلّطة مؤيدة للولايات المتحدة

لم يرتدِ انقسام الشرق الأوسط إلى معسكرين، بين الخمسينيات والسبعينيات، شكل مواجهة بين نظامين اقتصاديين متنافسين، علماً أن هذا البعد لم يكن غائباً، بل ارتدى شكل نمطين من الأنظمة المتسلّطة يؤيّد كل طرف فيها واحدةً من الكتلتين الشرقية والغربية. نجد في الكتلة الأولى مصر وسوريا والعراق في مقابل أنظمة أمنية محافظة ومؤيدة لأميركا كالسعودية وتركيا وإيران في الكتلة الثانية.

بدأت موارد السعودية تزداد بشكل ملموس بعد الصدمة النفطية في العام 1973 وأخذت تفرض نفسها بوصفها الحليف الأساسي لأميركا في العالم العربي. ارتكز النظام على حلف بين أسرة آل سعود ومحمد بن عبد الوهاب (1703–1792)، أعيد إحياؤه بواسطة الاستيلاء على مجمل شبه الجزيرة في العام 1932 ما أدى إلى قيام المملكة السعودية. أكسب هذا الحلف السلطة الملكية التي منعت أي نشاط سياسي، شرعية بوصفها حارسة الأماكن المقدسة مع إطلاق يدها للتحالف مع "دار الحرب" أي البلدان غير الإسلامية التي يُحلَّل إعلان الحرب ضدها. وفي المقابل، أدى العلماء الوهابيون دور الشرطة الأخلاقية في المملكة والمرجعية الشرعية الأخلاقية.

أما تركيا، فقد انتهجت التعدّد الحزبي بعد الحرب العالمية الثانية التي لم تشارك فيها وشهدت مداورة سياسية في العام 1950. بيد أن النظام البرلماني كان يعاني إما انقطاعاً وإما شللاً بسبب انقلابات العام 1960 والعام 1971. وإذا كانت التعددية السياسية قد سمحت، جزئياً على الأقل، بإدماج الأعيان في المقاطعات، سواء الحضريين منهم والريفيين، ومعهم برجوازية إسطنبول والمعارضين ذوي الميول الدينية،

إلا أنها بدت عاجزة عن إعطاء مكانة ما للمطالب الكردية والعلوية التي تتناقض مع هوية الأمة الوحدوية، كما اعتبرت اليسار عدوها الأساسي على الرغم من بعض انفتاح حصل باتجاهه في الستينيات.

عودة الملكية السلطوية في إيران

في إيران، لم تحمل عودة الملكية في العام 1946 أي استقرار مع توالي 12 رئيس وزراء و17 حكومة من العام 1941 حتى العام 1953. كما أنها لم تضع حداً للاحتجاجات أو للتطلعات الديمقراطية لدى سكان المدن. وقد حملت هذه الاخيرة محمد مصدّق إلى السلطة في العام 1953، فحاولت حكومته أن تحدّ من صلاحيات الشاه، من ناحية، وأن تسيطر على الموارد النفطية، من ناحية أخرى، عبر تأميم شركة النفط البريطانية-الإيرانية، ما جعل بريطانيا تعلن حظراً فورياً على النفط الإيراني.

وقفت الملكية ضد مصدّق وساندها جزء كبير من رجال الدين. كان كبار رجال الدين، أمثال آية الله كاشاني[1] وآية الله بورجردي، ومعهم مجموعة "فدائيي الإسلام"، معادين بوضوح لمشروع تأميم النفط كما لنية مصدَّق منح النساء حق الاقتراع. وفي الحقيقة "أيّد كاشاني وكبار العلماء الإيرانيين معه بشدّة الانقلاب الذي قامت به وكالة الاستخبارات الأميركية. كما أن آية الله محمد بهبهاني الذي كان والده أحد قادة الثورة الدستورية، قد نظم بنفسه مظاهرات البروليتاريا الرثة من أجل دعم فرق الشاه التي حاصرت مقر إقامة مصدَّق[2]".

---

(1) في العام 1919، أصدر الإنجليز حكماً غيابياً بالإعدام على آية الله كاشاني بسبب معارضته الانتداب البريطاني في العراق، ثم اتهم بالتعاون مع ألمانيا واعتقل في العام 1942. وتوفي في العام 1952.

(2) Henry Munson, *Islam and Revolution in the Middle East* (New Haven: Yale University Press, 1988), p. 52.

في 28 شباط/ فبراير 1953، جنّد القصر مجموعة من الناس من هنا وهناك في محاولة فاشلة للإطاحة برئيس الوزراء. كما فشلت محاولة أخرى في السنة ذاتها ما أجبر الشاه على مغادرة البلاد مؤقتاً. بيد أن المحاولة الثالثة، في 13 آب/ أغسطس 1953، التي خططت لها وكالة الاستخبارات الأميركية وكلفت حوالي 300 قتيل، قضت على مصدّق الذي أجبر على الفرار واعتقل ثم حكم عليه بثلاث سنوات سجن مع إعدام وزيره للعلاقات الخارجية، حسين فاطمي.

تحمل الإطاحة بمصدّق وحلول فضل الله زاهدي مكانه دروساً كثيرة في ما خص تحليل الحدث السياسي في الشرق الأوسط، بدءاً بقدرة الأنظمة على استخدام البروليتارية الحضرية الرثة، المؤطَّرة إلى هذا الحد أو ذاك، كقوة ضاربة. ستتكرر هذه الصورة غير الجديدة في بلدان أخرى وفي أوقات أخرى، في سياق المذابح المنظمة ضد المسيحيين في تركيا بتاريخ 6 و7 أيلول/ سبتمبر 1955 وضرب الإخوان المسلمين في خلال الانتخابات التشريعية المصرية للعام 2005.

مع عودة السلطة الملكية، أصبح القمع سمة ثابتة في النظام. أصدر الحكم العسكري الذي سيظل ساري المفعول حتى العام 1957، أحكاماً بإعدام العديد من قادة "فدائيي الإسلام" الذين وقفوا ضد مصدّق، إلا أنهم قد أصبحوا مزعجين بعدها، كما أصدر أحكاماً بإعدام 28 عضواً من حزب "توده" الذين "تسلّلوا" إلى الجيش، في حين حكم على مئات آخرين منهم بأحكام سجن طويلة[3]. في العام 1957، سلّم الشاه الجنرال تيمور بختيار مهمة خلق جهاز أمن داخلي، حمل اسم "سافاك" الشهير أي "منظمة المعلومات والأمن الوطني"، وسرعان ما اكتسب هذا الجهاز سمعة سيئة.

(3) Yann Richard, *L'Iran: Naissance d'une république islamique* (Paris: La Martinière, 2006), pp. 271 et 273.

تمتع الشاه بالدعم الغربي المتمثل أساساً بالمكانة المميّزة التي احتلتها إيران ضمن معاهدة السنتو، أو معاهدة تنظيم الشرق الأوسط للعام 1955، التي شكلت امتداداً لحلف شمال الأطلسي في المنطقة، فقرّر في العام 1962 أن يتبنى فكرة الثورة ليدخل إلى نادي "المستبدين التقدميين". وجاءت وفاة آية الله بورجردي في آذار/ مارس من العام 1961، وكان يعارض أي إصلاح زراعي، لتقدم له فرصة إطلاق ثورته البيضاء. هدفت هذه الثورة الرسمية إلى إنشاء نظام تكنوقراطي وتعاوني مستند إلى التربية والإصلاح الزراعي، وتضمنت تسعة عشر مبدأ. وقد صُمِّمت بالكامل من منظار اجتماعي انضباطي وحتى عسكري وأنشأت ثلاثة "جيوش"، أولها للـ"علم" وثانيها للـ"وقاية الصحية" وثالثها للـ"نمو والازدهار"(4).

لم تتمكن الثورة البيضاء من حل أي من المشكلات الاقتصادية التي يعاني منها المجتمع الإيراني لكنها أزاحت منذ البداية أي أفق انفتاح سياسي محدثة ردود فعل معادية ولاسيّما من قبل رجال الدين، وقد كانوا حلفاء الشاه السابقين. وصدر القانون حول مجالس المقاطعات الذي فرض بند فيه على أعضائها قَسَماً على الكتاب المقدس من دون أن يحدد إن كان الكتاب هو القرآن، تاركاً بالتالي مجال القسم على العهد القديم أو الجديد أو على الأفيستا. فتسبب هذا الأمر بردود فعل متوالية من قبل رجال الدين. وجاءت المظاهرات الأكبر في يوم 3 حزيران/ يونيو 1963، في خلال احتفالات ذكرى عاشوراء ورداً على ما جاء في الصحافة الرسمية من ردود عنيفة ضد آية الله الخميني. أثار اعتقال هذا الأخير، بعد قيام متظاهرين بقتل رجل شرطة، تظاهرات في شيراز

(4) Marie Ladier-Fouladi, *Population et politique en Iran: De la monarchie à la république islamique* (Paris: INED, 2003), p. 10.

وطهران تسببت عمليات قمعها بمقتل مئات عدة، بحسب الاختصاصي في العالم الإسلامي نيكي كيدي (Nikki Keddie)، في حين أن عالم السياسة مارفن زونيس (Marvin Zonis) قدر القتلى بآلاف عدة[5]. وبعد اتهام الخميني بأنه يمثل "الرجعية السوداء" طرد باتجاه العراق حيث قاد حملة عنيفة ضد نظام الشاه، منددًا بـ"بعمليات الابتزاز والنهب التي يمارسها عملاء الإمبرايالية" وبـ"ثقافة الإمبريالية السامة التي تتغلغل في أعماق المدن والقرى عبر العالم الإسلامي لتحلّ محل ثقافة القرآن"[6]. مع الثورة البيضاء، أصبح رجال الدين بشكل دائم واحدة من دعائم المعارضة المتطرفة في إيران.

شكل القمع في العام 1963 لحظة حاسمة في إعادة تحديد المعجم الديني ورموزه بواسطة التطرف ومن خلاله. نُسِب إلى الإمام الحسين قوله إن هذه الثورة ليست من نوع الثورات التي يمكنكم أن تساهموا فيها بأموالكم وبخطبكم أو بتوزيع صحف على الشعب - الطريقة التي يمكنكم أن تتعاونوا فيها على هذا القيام هي الشهادة والتضحية بالذات. كما نُسِب إليه أنه قال في الجملة الأخيرة إنه لا يطالب التجار أو الكتاب الأقوياء بالقنب بل المساعدة الوحيدة التي يريد الحصول عليها هي إرادة المؤمنين والأبطال الصادقين في التضحية بدمهم، معتبراً أن ذرية النبي تستحق أن تولى الإمارة والقيادة في الدين والدنيا[7].

لم يكن أمام متمردي العام 1963 أي فرصة بالنجاح لأن سكان

---

(5) Munson, *Islam and Revolution in the Middle East*, p. 55.

(6) Hamid Argar, "The Oppositional Role of the Ulema in Twentieth Century Iran," in: Nikki R. Keddie, *Scholars, Saints and Sufis, Muslim Religious Institutions since 1500* (Berkeley; Los Angeles; London: University of California Press, 1972), p. 258.

(7) Gustav Thaiss, "Religious Symbolism and Social Change: The Drama of Hussein," in: Ibid., p. 360.

المدن لم يشاركوا إلا جزئياً في عمليات الاحتجاج لشدّ ما تمتع القمع في المدن بفعالية حقيقية. وحتى لو لم تكن هذه العمليات تبشر بشيء من الثورة الإسلامية التي قامت في العام 1979، إلا أنها اتخذت شكل انتفاضة جذرية ومحافظة ضد سلطة تعطي نفسها شرعية من خلال آليات تحديث مناوئة للحريات.

حافظ النظام على بقائه. وفي العام 1974، ظن الشاه نفسه أنه يسير تحت قيادة الخالق[8] وحمايته، فحاول التخلي عن التقويم الإسلامي ليضع مكانه التقويم الشاهنشاهي. وفي العام 1975، أسّس الحزب الوطني ("راستاخيز"، أي "البعث" أو "النهضة") حيث يفترض بكل إيراني تخطى الثامنة عشرة من عمره أن ينتمي إليه بشكل طبيعي. وأمّنت له أجهزته الأمنية، ومن بينها السافاك، سيطرة متوحشة على رجال الدين وعلى الشباب المنحاز للأفكار اليسارية. أما الصدمة النفطية، التي رفعت مداخيله بشكل ملموس، من 2,4 مليار دولار إلى 18,4 مليار دولار في خلال سنتين، فهي لم تسمح له فقط بأن يحصل على دعم البرجوازية الريعية بل سمحت له أيضاً بأن ينشئ جيشاً مجهزاً تجهيزاً عالياً.

النكسة

قال جاك بيرك في درسه الافتتاحي في كوليج دي فرانس في العام 1956، وكان يتحدث عن الشرق وبشكل أخص عن العالم العربي: "تعمل هذه الشعوب جاهدة (...) من أجل أن ترفع ركام ماضيها وماضينا، ومن بين هذا الركام، للأسف، توجد شرعيات، (لكنها) تلحق الكدمات بأنفسها. ويشوِّهها التوتر فتصير بناها زائلة وعزيمتها ملتبسة. وتتغلب العاطفة عندها دائماً على الملموس كما يتغلب الرمز على الفعل. ترتدي

(8) Richard, *L'Iran: Naissance d'une république islamique*, p. 269.

كل ظاهرة لديها عدة مستويات، مثلما يجب فهم كل السلوكيات بحسب أكثر من سجل. من هنا تواجه صعوبات جمّة في التعبير ونواجه نحن صعوبات جمّة في التفسير. وكل هذا ينتج بيننا وبينها من حين إلى آخر ما لا يمكن التكفير عنه"[9].

ليس المطلوب هنا الحكم على جاك بيرك على أساس إسراف في التحليل النفسي قد تحمله هذه الفقرة، بل المهم في المقابل هو التشديد على أن أوروبا الغربية والولايات المتحدة كان بإمكانهما، بعد قيام دولة إسرائيل والثورة المصرية، أن تطورا قراءات أخرى وتنطلقا منها لتمارسا سياسات شرق أوسطية أخرى وأنماطاً مختلفة لإدارة حقبات ما بعد الاستقلال، ولتردّا بشكل مغاير على التجارب الثورية التي هزّت الشرق الأوسط. لايسعنا سوى أن ندهش بعمق، على الرغم من مرور عقود طويلة، أمام الخيارات التي أدت بفرنسا وبريطانيا العظمى إلى السير في طريق حرب السويس الكارثية أو حرب الجزائر اللتين وطدتا قناعة الشرق الأوسط العربي بأنه فريسة غرب إمبريالي وعزّزتا إيمانه بالثورة الوطنية كنمط مقاومة أوحد، في حين كان لا يزال تحت صدمة العار الذي لحق به في العام 1948.

على الرغم من أن حرب الأيام الستة (من 5 إلى 11 حزيران/ يونيو 1967) تندرج أساساً في ديناميكية عربية-إسرائيلية، إلا أنها شكلت حلقة جديدة في سلسلة سوء التفاهم وخلقت "ركاماً" إضافياً. كانت بمثابة هزيمة ضخمة بعد عدد من الانتصارات التي سجلت في حرب السويس واستقلال الجزائر، فاعتبرت من الجانب العربي على أنها المرحلة النهائية من "المخططات الإمبريالية" التي يفترض أن تشكل

(9) Jacques Berque, *Opera Minora* (Paris: Bouchène, 2001), vol. 2, pp. 228-229.

إسرائيل فيها الامتداد إلى قلب العالم العربي. وانتهت الحرب في الحقيقة بالقضاء شبه التام على الجيوش المصرية والسورية والأردنية. في ما يتعدّى خسائرها البشرية (11500 ضحية، من بينها 1500 ضابط في الصفوف المصرية وحدها وأكثر من 700 بين الأردنيين و2500 من السوريين) أدت إلى احتلال الضفة الغربية والقدس وقطاع غزّة، وقد كانت الأولى والثانية تحت حكم أردني والثالثة تحت حكم مصري. تبعت هذا بعد عقد من الزمن، سياسة الاستيطان اليهودي في الأراضي الفلسطينية. وكانت الحرب كذلك سبباً في فتح مسألة فلسطينية ثانية ذلك أن الاحتلال الإسرائيلي لكامل الأراضي الفلسطينية التي كانت تحت الانتداب البريطاني قد ترافق مع طرد 000 400 فلسطيني من أراضيهم أو مغادرتهم إياها.

وكما يقول دانييل ريفيه (Daniel Rivet)، لم تزد هزيمة العام 1967 "نكسة إلى أجواء النكبة التاريخية التي كان العالم العربي قد سقط فيها لأول مرة في العام 1948 وحسب" بل إن 1967 هي أيضاً "حدث ووقفة يكرّسان فقدان الشرق العربي كل أوهامه إزاء غرب يضع نفسه في علاقة اعتبرت غير متكافئة في سياق المبارزة الوَرَسياسية بين شعبين تاريخيين عابرين للقوميات، الشعب اليهودي والشعب العربي، اللذين يصلبان هويتيهما لينقلبا نحو إيمانين توحيديين منقطعي الصلة"[10].

كانت الحرب مرادفاً لبتر جديد في العالم العربي وهي المؤشر الملموس الأول على إنهاك الصيغ السياسية، فقد تبدّى جلياً أن الأنظمة الثورية عاجزة عن الدفاع عن الوطن العربي كما عن أولئك الذين أطاحوا بهم أو حتى عن المحافظين الذين يحاربونهم. والأسوأ من

(10) Daniel Rivet, "D'Ankara et Rabat, entre religion, civilisation et sécularisation," *Vingtième Siècle*, no. 82 (2004), p. 9.

هذا، مع ازدياد غضب المجتمعات وإحباطاتها، فاقمت الهزيمة من الخصومات بين الدول العربية، وبالأخص الثورية منها، ما سجل انتصار الدول الوطنية النهائي على الوطن القومي العربي[11]. وليس من دواعي الدهشة أن نلاحظ عودة الحركة الإسلامية بعد هذه الحرب وقد اعتبرت نفسها بديلاً عن الأنظمة المحافظة كما الثورية.

سرعان ما ارتد هذا الفشل بشكل خطير على الأنظمة الثورية لكن ينبغي أن ينظر إلى هذه الارتدادات بشكل نسبي على المدى القصير. فهذه الأنظمة ليست مهدّدة، ولا يعود السبب إلى أنها اكتسبت فعالية بيروقراطية وقمعية وحسب. فحين قدّم عبد الناصر استقالته بعد الهزيمة، توسّل إليه مئات آلاف القاهريين حتى يبقى في السلطة بدافع من تضامن ومن حداد أيضاً. وجددت البيعة التي يعرِّفها برنارد لويس (Bernard Lewis) على أنها "اتفاق تعاقدي بين الحاكم والمحكوم يعترف فيه كل طرف بواجبات متبادلة"[12]، وكان هذا بطلب من الشعب وبالأخص سكان المدن. العائلة المجروحة تلتحم مجدداً بتجديد الولاء للأب، المسؤول عن الهزيمة والمكلوم في آن. وهكذا، لا يحمل تجديد الولاء لـ"الريّس" المصري أي وجه شبه مع "المظاهرات العفوية" التي سيعتادها العراقيون والسوريون في السبعينيات وحتى التسعينيات. انتصر "الزعيم" لزمن، بفضل الكاريزما التي يتمتع بها، على القديس كصورة مبجلة[13].

(11) Adeed Dawisha, *Arab Nationalism in the Twentieth Century: From Triumph to Despair* (Princeton: Princeton University Press, 2003), p. 217 et 242.

(12) Bernard Lewis, *Le Langage politique de l'Islam* (Paris: Gallimard, 1988), p. 92.

(13) Michael C. Hudson, *Arab Politics: The Search for Legitimacy* (New Haven & London: Yale University Press, 1977), p. 245.

وأثارت وفاته في العام 1970 "هجرة ألم حقيقية" في شوارع القاهرة حيث التدافع أدّى إلى وفاة حوالي عشرة أشخاص(14).

إذا كانت محنة حرب الأيام الستة قاسية بالنسبة إلى القومية الثورية العربية، إلا أنه يجدر بنا الملاحظة أن الأنظمة التي حملتها هذه القومية إلى السلطة ما زالت قوية، وستظل خلال عقد من الزمن تستمد قوتها من تطرّف إقليمي وبالأخص فلسطيني.

تطرّف فلسطيني

عزّزت هزيمة العام 1967 بقوّة التطرّف الفلسطيني على المستوى الإقليمي، على عكس الوضع في الأراضي المحتلة التي ظلت، في المرحلة الأولى على الأقل، خالية من التنظيمات المناضلة الكبيرة، حتى لو أنها ضجّت بنشاطات نقابية وثقافية وبلدية. على الرغم من فعالية البلديات التي تسيطر الحمولة (العشائر)(15) عليها جزئياً، ومعها التنظيمات الطلابية والعمالية والنسوية وأيضاً التنظيمات اليسارية، إلا أنه لايزال يبدو من الصعب تصوُّر مساحة سياسية مستقلة على نطاق الأراضي المحتلة. لايكمن التفسير في الممارسات الأردنية القمعية قبل العام 1967، وبعدها الممارسات الإسرائيلية التي حدّت بقدر كبير النشاطات السياسية الفلسطينية، وحدها. فالوقائع تقول إن غير المفكّر

(14) Catherine Mayeur-Jaouen, "Grands hommes, héros, saints et martyrs: Figures du sacré et du politique dans le Moyen-Orient du XXe siècle," dans: Catherine Mayeur-Jaouen, *Saints et héros du Moyen-Orient contemporain* (Paris: Larose; Maisonneuve, 2002), pp. 5-34 et Anne-Claire De Gayffier-Bonneville, "Du roi Farûq au président Nasser: L'héroïsation du diraigeant égyptien," dans: Ibid., pp. 75-101.

(15) Aude Signoles, "Histoire(s), mémoires et ambivalences: le cas des municipalités palestiniennes dans la lutte nationale," dans: Nadine Picaudou, dir., *Territoires palestiniens de mémoire* (Paris: Karthala, 2006), pp. 219-234.

فيه في السياسة ينبع من "تكليف" الخارج أي فلسطين المنفية بالتمثيل الوطني. وفلسطين هذه، التي تخشاها الأنظمة العربية المحافظة، ومعها تركيا وإيران، في حين أن الأنظمة الثورية تحاول استخدامها، ستنتج أنماط عمل سياسي جديدة ترتكز على متخيّل متطرّف.

فلسطين الخارج، المفترض بها تجسيد الأمة الفلسطينية بكليتها، كانت على عاتق حركة فتح أولاً، وقد تأسّست في العام 1957، ثم على عاتق منظمة التحرير الفلسطينية التي أنشئت في العام 1964. ومع إنشائها، خرجت أجواء الحركات الفلسطينية تدريجاً من سجل الذات الضحية لما بعد النكبة لتدخل في منطق "الثورة" وهو مصطلح يعني التحرير والثورة في آن[16]. في العام 1969، حلّ ياسر عرفات مكان رجل القانون أحمد الشقيري، السيء السمعة، على رأس المنظمة، وحلّ معه خيار الكفاح المسلّح الذي لا يستثني في الوقت نفسه الواقعية السياسية، فاكتسب شرعيته.

تم تركيب منظمة التحرير حول فتح وظلّت في الواقع تكتّل منظمات مستقلة تتخطاها باستمرار إلى يسارها مبادرات غير تنظيمية. كانت عناصر عديدة من المنظمات الفلسطينية أكثر تطرّفاً بكثير من حركة فتح، مثل الجبهة الشعبية الديمقراطية الفلسطينية (1969، وقد أعيدت تسميتها بـالجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين في العام 1975) بقيادة نايف حواتمة، والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بقيادة جورج حبش

(16) Jihane Sfeir, "Le désastre et l’exode, alnakba/ al-hijra," dans: Ibid., p. 43.

(تأسست في العام 1967). وأقامت هذه التنظيمات كذلك علاقة مع القوى المسماة تقدمية، ولاسيّما في لبنان، ومن بينها حركة القوميين العرب التي أسسها في العام 1952 طلاب من الجامعة الأميركية في بيروت[17].

على الأرض، نشطت الحركة النضالية الفلسطينية في الأردن أو في لبنان أكثر ممّا نشطت في فلسطين. في الأردن، حيث كان اللاجئون الفلسطينيون في طريقهم إلى تشكيل أغلبية الشعب، عاشت الملكية استقراراً هشاً أمّنه لها الحرس البدو والشركس. وإذ وقعت بين فكي كماشة، وسط الأنظمة الثورية السورية والعراقية وإسرائيل، وقد حافظت فعلياً على علاقات ثنائية مع هذه الأخيرة[18]، أصابتها هشاشة كبيرة بعد حرب الأيام الستة. وتصاعدت حدّة التوتر بعد قيام الفلسطينيين بهجوم على إسرائيل انطلاقاً من قرية الكرامة الأردنية في آذار/ مارس 1968[19]، وبعد الدعوات إلى الإطاحة بالملكية وقيام عدة محاولات لاغتيال الملك في أيلول/ سبتمبر 1970، وأخيراً بعد خطف أربع طائرات على الأراضي الأردنية (بين 6 و9 أيلول/ سبتمبر)، دخل الملك حسين في مواجهة مع مناضلي منظمة التحرير الفلسطينية تحوّلت إلى عمليات قمع

(17) Dawisha, *Arab Nationalism in the Twentieth Century: From Triumph to Despair*, pp. 204-205.

(18) لن تعترف رسمياً بالدولة العبرية إلا في العام 1994.

(19) "في الواقع، سجل العام 1968 انطلاقة خاطئة بالنسبة إلى الفدائيين. لم يتكرر النجاح النسبي في معركة الكرامة ولم تشكل عمليات الكوماندوس (الفلسطيني) في الأراضي المحتلة يوماً تهديداً عسكرياً جدياً بالنسبة إلى إسرائيل"،
Peter Mansfeld, *The Arabs* (London: Penguin, 1980), p. 345.

مكثف أدت بحسب أدنى تقدير، إلى وقوع 3500 قتيل، من بينهم مدنيون كثر، و 10 000 جريح[20].

وقفت الأنظمة الثورية المؤيدة للفلسطينيين من دون حراك أو عاجزة أمام المجزرة. وانتهى تدخل خاطف من قبل الجيش السوري المتخفي تحت ستار قوة فلسطينية بانسحاب سريع حتى قبل أن يدخل في أي اشتباك عسكري. أفضى هذا الحدث، الذي شكل أول مواجهة واسعة بين دولة عربية وقوى غير نظامية فلسطينية، إلى تطرّف كبير في هذا الحراك. وصار "أيلول الأسود" محطة في التاريخ الفلسطيني كما صار اسم منظمة سيئة الذكر.

تطرّف يساري وانخراط في العنف

انضمت المنظمات الفلسطينية بكلّيتها تقريباً إلى الأجواء الشائعة وتميزت باعتناقها الماركسية اللينينية أو الاشتراكية على الأقل. تستجيب الماركسية إلى نداءٍ وإلى مطالبة بالمعنى وسعيٍ خلف "إطار رمزي جديد (يمكّن من) صياغة المشكلات السياسية والتفكير بها والتصرّف حيالها انطلاقاً منه"[21]. في الخمسينيات والستينيات، كان الشرق الأوسط، مثله مثل جزءٍ كبيرٍ من العالم غير الغربي، في حالة "قابلية إيديولوجية"[22] ملأتها الماركسية اللينينية التي لا تكتسب أي معنى إلا من خلال طريقة استخدامها من قبل من يتلقاها.

نستعيد كلمات جورج قرم لنقول إن المنظمات الفلسطينية ظنّت

(20) Henry Laurens, *Paix et guerre au Moyen-Orient: L'Orient arabe et le monde de 1945 à nos jours* (Paris: Armand Colin, 2005), p. 275.

(21) Clifford Geertz, "Ideology as a Cultural System," in: David Apter, dir., *Ideology and Discontent* (New York: The Free Press, 1964), p. 65.

(22) Rodinson, *Marxisme et monde musulman*, p. 311.

أنها حين "تضحي بالحرية الفردية لمصلحة المجموعة المجرّدة، (سيتمكّن) التاريخ من تحقيق القفزات". واعتبرت أن "الثورة الشعبية في كافة أنحاء العالم العربي، على الطريقة الصينية التي جذبت آنذاك الكثير من الشباب في أوروبا وأميركا اللاتينية، قد أصبحت بمتناول يدها"[23].

على غرار "باعة الكومنترن المتجولين"[24] أو على غرار عدد من مجموعات الأقليات في حقبة ما بعد الحرب العالمية الثانية التي يحللها دونالد ل. هوروفيتز[25]، اندرجت الحركة النضالية الفلسطينية في شمولية يسارية نجح إصرارها على الأخوّة التي تربط "الشعوب المضطهَدة" بـ"الطبقات المضطهَدة"، في شرعنة كفاح يصطبغ بلون أممي وتقوم به مجموعة قومية معينة[26].

اعتبرت منظمة التحرير الفلسطينية، التي تقود، ظاهرياً على الأقل، غالبية المنظمات الفلسطينية، أنها مولجة بمهمة ثلاثية وهي: عودة لاجئي العام 1948 وبناء مجتمع علماني ومتعدد الطوائف (مسيحي ويهودي وإسلامي) بدل دولة إسرائيل؛ القيام بالثورة العربية على النطاق الإقليمي؛ والقيام أخيراً بالثورة العالمية بوصفها اندفاعة عالمية شاملة تحمل معها تحرّر كل الشعوب المضطهدة. وكما نرى من خلال صورة الشهيد لدى

---

(23) Georges Corm, *Conflits et identités au Moyen-Orient* (1919-1991) (Paris: Arcantère, 1992), p. 63.

(24) Talinn Ter Minassian, *Colporteurs du Komintern: L'union soviétique et les minorités au Moyen-Orient* (Paris: Sciences Po, 1997).

(25) Donald L. Horowitz, *Ethnic Groups in Conflict* (Berkeley; Los Angeles: University of California Press, 1985).

(26) انظر حول هذه الإشكالية بشكل خاص:
Jean Leca, "Nationalisme et universalisme," *Pouvoirs,* no. 57 (1991), pp. 32-42.

الحركة الفلسطينية في الستينيات، فإن متخيّل "اليسار العالمي" يضاف إلى السجلات المحلية أي الإسلام والخريستولوجيا[27].

احتل العنف المندمج تماماً مع هذا المتخيّل الثوري، مساحة ازدادت شراسة مع بداية السبعينيات، كما يشهد على هذا تدمير طائرة تابعة للخطوط الجوية السويسرية متجهة إلى إسرائيل في شباط/ فبراير من العام 1970 (47 قتيلاً) وخطف طائرات في أيلول/ سبتمبر 1970 وشباط/ فبراير 1972، واحتجاز وزراء منظمة الأوبيب رهائن في فيينا في العام 1975 وقتل ركاب في مطار تل أبيب في 30 أيار/ مايو 1972 من قبل مناضلين من الجيش الأحمر الياباني (24 قتيلاً و80 جريحاً، مع انتحار اثنين من أصل ثلاثة مهاجمين بواسطة قنابلهم اليدوية)، وتدمير طائرة بوينغ 707 في العام 1975 وخطف طائرة من الخطوط الجوية الفرنسية نحو أنتيبي في العام 1976 وأخرى تابعة للخطوط الجوية الألمانية، لوفتهانزا، نحو مقديشو في العام 1977. وإبان الألعاب الأولمبية للعام 1972 في ميونيخ، قام مناضلون تابعون لمنظمة "أيلول الأسود" يحملون قناعة تقول "إن العالم لا يحترم إلا القوي ولا ينفذ سوى شعاراته"[28]، باحتجاز أحد عشر إسرائيلياً وقتلهم بعد أن حاصرتهم قوات الأمن الألمانية. مثلت هذه المذبحة شططاً في رومنطيقية ثورية لا سيطرة لبنية القيادة في منظمة التحرير الفلسطينية عليها.

ساهمت حوادث العنف اللافتة في ربط الكفاح المسلح الفلسطيني

---

(27) Friederike Pannewick, "The Martyred Poet on the Cross in Arabic Poetry. Sacrifice, Victimization or the Other Side of Heroism," in: Friederike Pannewick, dir., *Martyrdom in Literature: Visions of Death and Meaningful Suffering in Europe and the Middle East from Antiquity to Modernity* (Wiesbaden: Dr Ludwig Reichart, 2004), pp. 105-121.

(28) Jean-Paul Charnay, *Principes de stratégie arabe* (Paris: L'herne, 2003), p. 294.

بـ"الإرهاب" لزمن طويل في عيون الرأي العام الغربي. واعتبر الأكثر تطرفاً أن الهجمات ضد المدنيين تحلّ، من طريق الضحايا التي تتسبب بها، محل المواجهة المستحيلة على الأرض. هدف العنف الفلسطيني إلى زرع الخوف في قلب "العدو" الذي لا قدرة على إضعافه عسكرياً. يعلم أصحاب هذه الأعمال بالطبع أن ضحاياهم أبرياء، لكن تحويل هؤلاء الناس إلى ضحايا يشكل، في نظرهم، النتيجة البنيوية والمستمرة لتحويل الفلسطينيين إلى ضحايا. ويعتبر هذا النوع من العنف، الذي حظي بتغطية إعلامية واسعة، منقطع الصلة مع أنماط العمل الفلسطينية في الأربعينيات من حيث بنائه المتخيّل والمتحرّر من أي وازع أخلاقي.

تجسدت هذه الرومنطيقية "السوداء" في صور مناضلين كثيرين، من بينهم المناضلة الشهيرة ليلى خالد المولودة في حيفا في العام 1944، وقد مثلت صورة الفدائية الشابة البالغة الجمال والتي ضحت بأنوثتها وبشّعت نفسها في خدمة حرب العصابات. كان التزام ليلى خالد الشخصي نابعاً من شهادة شعبها ومن شهادة "تشي". فقد شكل تشي غيفارا، كما قالت، مثال السلوك النموذجي والالتزام الكامل، وعاش بطلاً كما مات بطلاً. في حين اعتبرت أنها هي المناضلة "الثورية" كانت تعيش في سكينة الكويت البعيدة بينما شعبها بحاجة إلى ثوريين وإلى أبطال من عيار تشي غيفارا. فقررت الانضمام إلى صفوف الثورة، وصممت على أن تصنع من ذرات جسدها قنابل وأن تنسج فلسطين جديدة من خيوط روحها[29]. كانت الإرادوية أساساً لالتزام ليلى خالد بقدر ما أن التزامها استلهم قوته من يأسها الشخصي النابع من اغتيال الـ"تشي" في العام 1967 بعد أن تخلت عنه طبقة الفلاحين التي أراد تحريرها، كما كان نابعاً من الملاحظة القائلة إن الثورة الفلسطينية ضحية

(29) Ibid., p. 292.

خيانة البعث وعبد الناصر و(الملك) حسين[30]. تبين نصوص فلسطينية أخرى كيف أن اليأس والكآبة والإيمان حالات تتفق تماماً مع "النظرية العلمية الثورية"[31] وتوازي بوضوح نصوص شرعنة العنف بوصفه ممارسة و"واجب تاريخي" و"التزام أخلاقي" ضمن اليسار الغربي[32]. ممّا لاشك فيه أن الماركسية اللينينية، وقد شكلت العقيدة المرجع، تمارس تأثيراً حاسماً في شرعنة العنف الذي اختلط مع الثورة إلى درجة اتحاده معها.

اليسار المتطرّف في الشرق الأوسط

من المستحيل حصر العمل الفلسطيني في تلك الحقبة بهذه الأعمال الملفتة. يندرج النضال الفلسطيني واقعاً في إطار أوسع وأكثر انتظاماً لا يكتسب معناه إلا من خلال بنى النمو الاجتماعي والتراتبية الهرمية التي يولدها. فالمخيمات الفلسطينية، ولاسيّما في لبنان، منظمة على شكل دول صغيرة، بحسب نموذج المناطق المحررة لدى رجال العصابات اليساريين في أفريقيا وآسيا، في خلال الستينيات على وجه الخصوص. ضمت هذه المخيمات عشرات آلاف الأشخاص، وشكلت مدناً أشبه بحصون جذبت كذلك عدداً من المقاتلين غير الفلسطينيين من العرب والأكراد والأتراك وحتى اليابانيين والأوروبيين الذين انخرطوا في النضال الفلسطيني باسم الواجب الأممي.

على النطاق العالمي، جرى النظر إلى المقاومة الفلسطينية في سياق

(30) Ibid., pp. 534-538.

(31) Ibid., pp. 464-501.

(32) Isabelle Sommier, "L'Attrait de la guerre révolutionnaire," *Sociétés et Représentations*, no. 6 (1998), pp. 333-350.

تأثر بأصداء حرب فيتنام وبالنضالات القائمة في أفريقيا أو في أميركا الجنوبية. وشكلت صورة الفدائي رمز الشخص الذي يحقق العدالة بقدر ما ارتدت رمز العدالة بحد ذاتها. واعتبر الجسم السياسي المحيط بعرفات كما لو أنه يجسد شعباً صار ضحية بكلّيته وقبل بشموخ التضحية من أجل الشعوب جميعها. أضف أن اللغة الجسدية واللغة السياسية، اللتين لا يمكن فصلهما لدى عبد الناصر، قد اعتبرتا كذلك تعبيراً عن المعاناة العربية كما عن آمال شعب يقاتل من أجل العالم الثالث بأسره.

وعلى العكس، فإن شرق أوسط الستينيات والسبعينيات قد تغذّى من مرجعيات ثورية قريبة أو بعيدة من العالم الثالث[33]، ولكن أيضاً من أوروبا الشمالية. أما الأقرب فهو المثال الجزائري ومجاهدوه وكذلك فرانز فانون الذي دعا، في وجه الخيبات التي سببتها عمليات استقلال الدول الأفريقية، إلى عنف منقذ يتخطى النضال البسيط من أجل تحرير الأرض ويتجه تصاعدياً فلا تكون له أي حدود سوى اكتماله بالذات[34]. من الجائز التفكير أن المناضلين الفلسطينيين الذين لا يبلغون أكثر من خمسة وعشرين عاماً في أغلب الأحيان قد تأثروا بفانون. وتظهر في البعيد صور أخرى تناقض النخبة البيروقراطية السوفييتية أو نخبة أوروبا الشرقية، ونقصد بها صور "العم هو" وماو.

في الشرق الأوسط غير العربي كذلك، مارست الماركسية تأثيراً كبيراً وأنتجت أحياناً نقاشاً فكرياً نوعياً ومقولات تحليلية ومفاهيم جديدة. ولا يمكننا سوى أن نعجب بمستوى النقاشات التي دارت بين مكسيم رودنسون، الذي تحوّل إلى ماركسي مستقل بعد أن قطع علاقاته

---

(33) Gérard Chaliand, *Mythes révolutionnaires du tiers-monde. Guérillas et socialismes* (Paris: Seuil, 1979).

(34) Franz Fanon, *Les Damnés de la terre* (Paris: Gallimard, 1991).

مع الحزب الشيوعي الفرنسي، وبين محاوريه من البلدان العربية وأيضاً من تركيا وإيران.

تأثر هذان البلدان كثيراً برسالة اليسار العالمي، وبالأخص بعد حركات الاحتجاج الأوروبية في العام 1968، بيد أن الشيوعية امتلكت فيهما أيضاً تاريخاً خاصاً بها. ففي إيران حيث جرت عمليات قمع في العام 1953 تلاها الحكم العسكري، تولّدت قناعة لدى العديد من الشبان حول استحالة قيام ديمقراطية برجوازية. وربط اليسار السلطة بالعمل الإكراهي الانتقامي الذي طال مجموعة السياسيين المطاح بهم كما طال فئة الشباب، مستدعياً رداً ثورياً عنيفاً. تعزّز هذا الشعور بعد عمليات قمع الاحتجاجات في العام 1963. تذكرت صحيفة يسارية في العام 1974 أن "مذابح العام 1963 شكلت انعطافة تاريخية. قبلها، عملت المعارضة جاهدة حتى لا تحارب النظام إلا بواسطة المظاهرات في الشارع والإضرابات العمالية والنشاطات السرية. أما مذبحة العام 1963، فقد أثبتت فشل هذه الوسائل وعدم فائدتها. فترك المناضلون بعدها الإيديولوجيا، وطرحوا على أنفسهم سؤال "ما العمل؟" وقد كان الجواب واضحاً وهو الكفاح المسلح[35].

بقدر ما ترافق التطرّف مع التجذّر في قلب الفئات الشعبية، ترافق أيضاً مع التشرذم الداخلي. ففي منعطف السبعينيات، قطعت منظمتان كل صلاتهما مع حزب توده ولم يعد يربطهما أي شبه بخطيب المنبر الشيوعي التقليدي. ظهرت وجوه جديدة كثيرة، لا تكاد تبلغ الخامسة والعشرين، متعلّمة في غالبيتها ومتحدّرة من أسر ميسورة أو مثقفة، فقادت حركات يسارية جديدة كان الجزء الأكبر من مناضليها من

(35) Mojahed, cité par: Richard, *L'Iran: Naissance d'une république islamique*, p. 288.

الشبان الأصغر سناً، في حوالي العشرين من العمر وأحياناً أقل، هم أفراد الأجيال الأولى من الطبقات المدينية أو "الفلاحين المتخلّين عن أصلهم الفلاحي"[36]. ينطبق عليهم كذلك القول إن الانتقال إلى العنف يشكل في وقت واحد مؤشر "فك الإجماع"[37] وطلب اندماج واعتراف. استهدفت أجهزة الشاه القمعية هؤلاء الشباب الذين عاشوا في وضعية طوارئ وفي مناخ الكفاح المسلح الرومنطيقي وحرب العصابات، سواء الريفية على الطريقة الصينية أو المدينية على الطريقة البرازيلية. وحتى لو كانت التنظيرات تختلف بشكل جذري من منظمة إلى أخرى وكان المعجم يكتسب قيمة كاشفة لا يفهمها غير الاختصاصيين اليوم، فإن المسلّمة الأساسية تظل مشابهة لما سبق، أي أن السلطة تستند إلى وهم القوة. وستكشف "الشرارة الأولى" أو البؤرة الثورية الأولى الخديعة وتهز "التوازن الاصطناعي" إذ حافظت على نظام السيطرة.

في تركيا، ومع منتصف الستينيات، استخدمت عقيدة مكافحة التمرّد، كما مارستها بريطانيا العظمى وفرنسا في ماليزيا وفيتنام والجزائر وكما جرى تعليمها في الأكاديميات العسكرية الأميركية[38]. بدأت الحرب المفتوحة ضد عدو الداخل، أي اليسار الذي تضخّمت صفوفه بمشاركة مكثفة من قبل الطلاب والعمال من أصول كردية أو علوية في أغلب الأحيان. دعمت الدولة في هذا السبيل "كومندوس" اليمين المتطرف الذين قادهم العقيد السابق المؤيد للنازية، ألب أرسلان تركش.

---

(36) بالنسبة إلى هذا المفهوم، انظر:
Farhad Khosrokhavar, *L'Utopie sacrifiée: Sociologie de la révolution iranienne* (Paris: Sciences Po, 1993).

(37) Philippe Braud, "Avant-Propos," *Cultures et Conflits*, nos. 9-10 (1993), p. 15.

(38) Benjamin Stora, *Algérie-Viêt-nam en France et en Amérique* (Paris: La Découverte, 1993).

في 16 شباط/ فبراير 1968، وبينما تضاعفت عمليات الاغتيال السياسي، جرى قمع مظاهرة ضد زيارة الأسطول السادس الأميركي سقطت فيها ضحيتان لتعرف الحادثة في تاريخ البلاد باسم "الأحد الدامي".

اشتدّت مطاردة اليسار بعد التدخل العسكري في 12 آذار/ مارس 1971 الذي استهدف كذلك المناضلين الأكراد والحزب الإسلامي وعلى رأسه نجم الدين أربكان. وفي العام 1972، أعدم ثلاثة قادة من اليسار المتطرّف من بينهم الشخصية الرمزية، دنيز جزميش، قائد جيش تحرير شعب تركيا. وبين العامين 1971 و1973، قتل أو عذِّب العشرات حتى الموت، ومن بينهم ماهر شايان، قائد جبهة تحرير شعب تركيا وابراهيم كاياكايا، قائد جيش التحرير الثوري لعمال وفلاحي تركيا. ويشكل استعراض صور الجثث المضروبة بالرصاص الإثبات المادي على انتصار الدولة الساحق على المناضلين الذين لم يتجاوزوا في غالبيتهم بعد الخامسة والعشرين من عمرهم. انكفأ اليسار إلى وضعية الضحية ورسم عالماً إدراكياً صار يُحدَّد أي عمل من خلاله بالإضافة إلى تعارضه مع أي مبدأ من مبادئ الواقع[39]. إبان حقبة الرعب الأبيض أو قمع الحركات الثورية، أَسَرّ كايباكايا، على سبيل المثال، قبيل اعتقاله في العام 1972، إلى أحد أصدقائه بحلمه الأعز على قلبه فقال: "أتخيل نفسي مع فرقة من رجال العصابات المسلحة في واحدة من القرى، يهاجم الاتحاد الفلاحي الثوري قرية ويقتل السيد بأسلحة بدائية (...)، تتوجه وحدة البروباغندا إلى القرية وتعزز هذا العمل بواسطة مسرحية. يا له من مشهد عظيم"[40].

(39) في سبيل إطار تفسيري، انظر:
Rainer Paris, "Ohnmacht als Presion, ber Opferrhetorik," *Merkur*, vol. 58, no. 9-10 (2004), pp. 914-923.

(40) Turhan Feyizöglu, *Ibo. Ibrahim Kaypakkaya* (Istanbul: Ozan Yayincilik, 2000), p. 181.

حمل قطع رأس "جيل 48" نتيجة مزدوجة، هي من ناحية، تطرّف متسارع لدى اليسار من خلال جيل أطلق عليه اسم جيل 58 وتشرذمه الداخلي، من ناحية أخرى. بعد حقبة النظام العسكري، وجد اليسار نفسه عالقاً في ميراث قادته الراحلين، وهو ميراث مقدس لا يمكن بالتالي مسّه وسيعمل تأويله على تغذية الانشقاقات الداخلية. فصارت المقاهي الممتلئة بالدخان أماكن تخاض فيها نقاشات عاصفة وتسودها التمزقات الداخلية والصراعات العقائدية لمعرفة ما إذا كانت تركيا نصف إقطاعية أو مابعد إقطاعية، أو لتقديم تعريف "صحيح" لمفهوم "المراجعة التحريفية". وولدت مدارس جديدة شبه هرمونيطقية أو دغمائية، أجاد أورهان باموك وصفها في "الكتاب الأسود"، وتمفصلت مع ديناميكيات أكثر فأكثر طائفية، علوية وسنية. وتزاوجت صدمة العام 1971 مع سقوط ثورة البرزاني في العراق، والتي سنعود إليها، لتثير كذلك إحساساً بالطوارئ ما دفع الحركة الكردية في البلاد إلى رفض أي خيار يدعو إلى تأجيل الثورة.

لايزال تاريخ هذه الأجيال المتعاقبة من رجالٍ ونساءٍ أيضاً، كثيراً ما نتساهن، بانتظار أن يكتب، وقد كانوا جميعهم مدفوعين بيوطوبيا تحرّر الجنس البشري بواسطة التضحية بالنفس.

الجزء الثاني

حروب إقليمية، إسلام ثوري وقمع

(1979-1991)

الفصل الخامس

شرخ عنوانه سيّد قطب

شبَّ عدد من "متعلمي" المغرب كما المشرق، ممن ولدوا بين الأربعينيات والستينيات، في أحضان تقليد يساري، فجهلوا كل شيء عن الإسلام كدين، وأيضاً كمجموعة من القواعد والاستعارات والمعاني، في حين أن الإسلام ظل يحدد، جزئياً على الأقل، معجم اليسار الثوري، الوطني أو الأممي[1]. لم ينبع هذا الجهل من رفض وحسب، بل من نقد الدين بحد ذاته أيضاً، بوصفه عقبة أمام التقدم ومصدر تخلف، أو باعتباره، من قبيل الحنو، عالم الأهل المحبوبين لكن المبعدين في زمن انقضى. لذا، لم يكن الدين قادراً على الاندراج في صورة الأمة المستقبلية التي يُنظر إليها بمنظار التقدم والقوة.

بعد انقضاء بضعة عقود من الزمن، نجد أن التناقض بين ذاتيات الحقبة الثورية وبين ممارسات الأنظمة التي كانت مرتكزات لها هو تناقض مذهل. صحيح أن السلطات الثورية، كما في مصر، دعت إلى "الاشتراكية العلمية" كما إلى "الاشتراكية العربية"، إلا أنها لم تتخلَّ عن الإسلام كخطاب وموقع لاكتساب الشرعية. يذكر مكسيم رودنسون أن

---

(1) لرواية شخصية بقدر ما هي جيلية، انظر:
Fethi Benslama, *La Psychanalyse à l'épreuve de l'islam* (Paris: Flammarion, 2002), notamment pp. 17-22 .

عبد الناصر قد لجأ إلى مفتي القاهرة من أجل إدانة الشيوعية المتحدرة، برأيه، من الفكر الإسماعيلي الذي يستند بدوره، كما قال، إلى أفلاطون، مدعي الفلسفة اليوناني، الذي يؤيد شيوعية النساء. في العراق، استحصل أحد الآباء على فتوى تقضي بحرمان ابنه من الميراث لأنه اعتنق الشيوعية[2]. والأمثلة في هذا المجال لا حصر لها.

أوهام "الحزام الأخضر"

إذا كان لا مندوحة من وجود الإسلام في حياة المجتمعات الشرق أوسطية اليومية في عقود الخمسينيات حتى السبعينيات، إلا أنه يختلف بشكل واضح عن الإسلاموية، وهي تيار سياسي همّشه اليسار ولا يملك مصداقية إلا في نظر الولايات المتحدة وبدرجة أقل في نظر أوروبا الغربية. فالغرب، ولاسيّما الولايات المتحدة، أيّد تشكيل "حزام أخضر" في مواجهة اليسار من أجل محاصرة الأنظمة الثورية العربية بأنظمة محافظة اعتبرت بمثابة "طوق صحي" ضد التهديد الشيوعي.

حظي هذا الدعم بالطبع بمقدمات عِقَدية نابعة من ثقافة سياسية أميركية بقدر ما هي نابعة من عوامل سياقية. على الرغم من أن الولايات المتحدة بلد علماني إلى درجة كبيرة، إلا أنه يعتبر نفسه مجتمعاً دينياً، من دون أن يحيل التديّن لديه إلى المسيحية وحدها، ولا إلى دين سياسي أخلاقي وثوري. لذا، لاتملك الولايات المتحدة أي سبب لتحذر الإسلام الذي يحمي الأنظمة المحافظة في الشرق الأوسط ويضفي عليها الشرعية. كما أنها تعتبر النظام السوفييتي وحلفاءه الشرق أوسطيين تجسيداً لمادية مؤسَّسة على إنكار البعد الروحي والإلهي. لذا،

(2) Maxime Rodinson, *Marxisme et monde musulman* (Paris: Seuil, 1972), pp. 166-167.

من الأفضل مواجهتها بتديّن مؤيّد للأميركيين بدل مواجهتها بخطاب مناهض للشيوعية وحسب. وأخيراً، يجدر إيلاء التحالف القائم بين واشنطن والنظام البوريتاني السعودي أهمية، وهو تحالف تخطى كل الأزمات التي هزّت الشرق الأوسط، بالنظر إلى وزنه الاقتصادي والرمزي وتعاليمه التي تدعو إلى طاعة الأنظمة القائمة طاعة غير مشروطة. ألا يمنع بذلك العالم العربي من الانزلاق بكليّته نحو التطرّف القومي و/ أو اليساري؟

تحلّت سياسة "الحزام الأخضر" بالفعالية على المدى القصير، إلا أنها تستند إلى خطأ قراءة مزدوج تسبّب بمقتلها. في المرتبة الأولى، لا ترى الولايات المتحدة، ومعها جزء كبير من أوروبا، أن البحث عن مصدر التطرّف العربي الأساسي يجب أن يقع في المسألة الوطنية. فعلى الرغم من استغلال هذه الأخيرة وإنكارها في الممارسة من قبل الدول الثورية نفسها، إلا أنها هي بالذات التي تدفع المعارضة الشرق أوسطية نحو اليسار، لا الرغبة في إقامة نظام شيوعي.

كان فرانز فانون واحداً من الأوائل، منذ العام 1958، الذين التقطوا هذه الظاهرة، منطلقاً من أفريقيا لا من الجزائر أو من العالم العربي. حين شدّد فانون على أن الالتزام باليسار في هذه القارة لا علاقة له باعتناق أي عقيدة، وضع إصبعه على ما سيشكل مأزقاً حقيقياً بالنسبة إلى الولايات المتحدة، قال: "يجب أن يعلم الأميركيون، إذا ما أرادوا محاربة الشيوعية، أنه يجب أن يعتنقوا مواقف شيوعية في بعض المجالات. فالشعوب المستعمَرة والمستعبَدة من قبل الأمم الغربية تعتبر أن البلدان الشيوعية وحدها هي التي وقفت للدفاع عنها في كل مناسبة. ولا تهتم هذه البلدان المستعمَرة بمعرفة ما إذا كان هذا الموقف مدفوعاً بمصلحة الاستراتيجية الشيوعية، بل ترى أساساً أن هذا السلوك العام يساير مصالحها الخاصة.

ليست الشعوب المستعمَرة شيوعية بوجه خاص، بل هي قطعاً مناهضة للاستعمار"[3].

لا يختلف الوضع البتة في الشرق الأوسط العربي. وعلى سبيل المثال، ليست الثورة بحد ذاتها، بل رد واشنطن المذّل على طلب المال الذي تقدم به عبد الناصر من أجل بناء سد أسوان هو ما دفع مصر إلى تأميم قناة السويس وتسريع التقارب مع الاتحاد السوفييتي.

أما خطأ القراءة الثاني فهو يكمن في إهمال ديناميكيات التطرّف الموجودة بمعزل عن أي اعتبار عِقَدي، والتي يمكن بالتالي للإسلاموية أن تأخذها على عاتقها. اتبع أصحاب القرار الأميركيون مقاربة تشييئية معتبرين أن الإسلام نظام عِقَدي مطيع ومحافظ وبوريتاني ومتلائم في جوهره مع النظام الرأسمالي. وعلى امتداد فترة طويلة من الزمن، جرى تفسير التطرّف والنشاطية الإسلاموية بحد ذاتهما من خلال معاداتهما الشيوعية وليس من خلال مقدرتهما الثورية. والحقيقة أن الإسلاموية، على الرغم من أنها كانت هامشية سياسياً، قد شكلت واحداً من مكوّنات المساحة الفكرية والميدان الاحتجاجي في جزء كبير من الشرق الأوسط، حتى في غمرة الحقبة الثورية.

من حسن البنّا إلى سيّد قطب

لا حاجة بنا هنا إلى العودة إلى القرن التاسع عشر، أو إلى التشديد على وجود الإسلام كمرجعية في الثورات المصرية والسودانية للعام 1880، أو إلى التشديد على أن الحياة الفكرية الإسلامية في المجال العثماني وأيضاً في ما ورائه، أي في روسيا والهند، تحمل هاجس الوحدة

(3) Franz Fanon, *Pour la révolution africaine:Ecrits politiques* (Paris: La Découverte, 2006), p. 111.

الإسلامية. في حين انتشرت عبر العالم الإسلامي الكتب التي تضع الهلال في مواجهة الصليب وتدعو إلى وحدة الإسلام[4]، وقف عدد من المفكرين عند تناقض تسبّب بصراعات سيطرت على العقود التالية. وهذا التناقض هو الآتي: "لا يمكن إنكار الخلافة كهدف كما لا يمكن تأكيدها كواقع"[5]. وحاول الفكر السلفي، الذي اتخذ تارة بعداً تحديثياً وليبرالياً، في بداية القرن العشرين، وتارة مظهراً بوريتانياً ومحافظاً، أن يتخطى هذا المأزق ولكن في مقابل تطرّفه هو نفسه. وانتهى إلى الإسلاموية كتيار مهووس بمسألة العلمانية التي اعتبرها بمثابة "فقدان للهوية" و"اعتداء ثقافي"[6] بقدر ما كان مهووساً بالاستقلال، وليس باستقلال أرض وطنية مستعمرة ولكن استقلال أرض الإسلام بحد ذاتها. ألم يعتبر رشيد رضا (1865-1935)، هذا المفكر السلفي السوري، في العشرينيات من القرن العشرين، أن الجهاد قد أصبح فرضاً فردياً مطلقاً بما أن "الغريب قد استولى على الجزء الأكبر من بلداننا"[7]؟

مع تأسيس حسن البنّا[8] حركة الإخوان المسلمين في العام 1928، تخلّى ما قد أصبح بمقدورنا أن نعرّفه باسم التيار الإسلاموي عن تقليد ديني مزدوج: أولاً، كما يذكرنا مكسيم رودنسون، انتقل إخلاص

(4) Jacob M. Landau, *The Politics of Pan-Islam, Ideology and Organization* (Oxford: Clarendon Press, 1994).

(5) Abdallah Laroui, *Islam et modernité* (Paris: La Découverte, 1986), p. 27.

(6) Georges Corm, *Le Proche-Orient éclaté 1956-2000* (Paris: Gallimard, 1999), p. 180 et 225.

(7) Charnay, *Principes de stratégie arabe*, p. 212.

(8) لن أتطرق هنا إلى المرجعية الرئيسة الثانية في الحركة الإسلاموية في النصف الأول من القرن العشرين، أي السيد أبو الأعلى المودودي (1903-1979) المفكر الهندي (ثم الباكستاني) الذي وضع مشروع دولة إسلامية خاضعة خضوعاً مطلقاً لتعاليم الله.

المؤمن من الله الخالق إلى الإسلام، ليس كإيمان ولكن كنظام سياسي واجتماعي واقتصادي وأخلاقي(9). ثانياً، انتقلنا من السلفية الكلاسيكية، صاحبة الاندفاعات نحو الماضي أو الاندفاعات التحديثية، إلى تسييس المرجعية الدينية. صحيح أن حسن البنّا ظل يطيع الحرم الأساسي الذي أصدره العلماء المسلمون بين القرنين العاشر والثالث عشر والذي يقضي بمنع استعمال العنف في دار الإسلام، حتى في ظل حكم الأمراء الفاجرين، إلا أن حركته حركة سياسية وشبه عسكرية تدعو إلى طاعة القائد الذي يشكل "جزءاً من الرسالة". فحسن البنّا يعتبر أن ثقة الجندي (العضو في الإخوان المسلمين) بقائده وبمقدرته وإخلاصه تجاهه يجب أن يكونا عميقين إلى درجة أنهما يولّدان الحب والتقدير والاحترام والطاعة(10). كما دعا علناً إلى إعادة الأسلمة من الأسفل وبواسطة الإصلاح معتبراً أن الإسلام هو "الحل" لأزمات المجتمعات الإسلامية. في سبيل نشر أفكاره، أعطى البنّا الأولوية إلى البروباغندا، وكانت آنذاك تقنية جديدة ظهرت في الفترة ما بين الحربين العالميتين(11). وأخيراً استوحى النموذج شبه العسكري للشباب بالزي العسكري الذي جربته آنذاك حركات اليمين المتطرّف في أوروبا في الفترة ذاتها.

سيّد قطب، الشهيد

سبق وقمنا بالتركيز على العلاقات بين الإخوان المسلمين وبين الضباط الأحرار المصريين كما على انتهاء هذا التحالف على أرض

(9) Cité par: Abdou Filali Ansary, "Entre foi profonde et lucidité assumée," *Prologues*, *Revue maghrébine du livre*, no. 24 (2002), p. 32.

(10) Cité dans: Mohamed Ferjani, "Politique et religieux dans la pensée et dans l'histoire du monde musulman," *Prologues: Revue maghrébine du livre*, no. 24 (2002), pp. 91-92.

(11) انظر نصوصه في:
Charnay, *Principes de stratégie arabe*, pp. 494-496.

الواقع. فقد أذنت محاولة اغتيال عبد الناصر التي قام بها أحد الإخوان، بمبادرة شخصية منه على الأرجح، بوقوع هذا الشرخ رسمياً، مترافقاً مع سياسة قمع شرسة ضد الإسلامويين. بيد أن الانتقال من الحركة النضالية الإسلامية إلى قراءة الإسلام قراءة ثورية لن يتم إلا في ستينيات القرن العشرين، في فترة تهميش الإخوان المسلمين فعلياً نتيجة القمع ونتيجة شعبية عبد الناصر السياسية.

كان سيّد قطب، هذا الأديب النحيل الساعي إلى الأصالة[12]، صانع إعادة التعريف الثوري الأساسية هذه. ولد قطب في العام 1906 ولم يتعرّف إلى الإخوان المسلمين إلا بعد فترة قضاها في الولايات المتحدة حيث حلّ ضيفاً على جامعة ولاية كولورادو العليا في بولدر، وأعاد اكتشاف "الأصالة الإسلامية" بفضل هذه التجربة وأيضاً بفضل لقاء مأزوم مع اليسار. احتفظ قطب من رحلته إلى أميركا بين العامين 1948 و1950[13]، بصورة متناقضة تتأرجح بين احترام لتديّن بوريتاني ونفور من انحلال مادي. ازداد قطب تسييساً بفضل اتصالاته باليسار القومي العربي أو الأممي وبفضل قراءة كتّاب غربيين، ولاسيّما ألكسي كاريل وأُزوالد سبنغلر وأرنولد توينبي، حول الإنسان والسلطة وانحدار الحضارة[14] ما أقنعه بضرورة قيام رد ثوري إسلامي، سواء أكان ضد نظام عبد الناصر أم ضد "الفجور" الأميركي و"المادية" السوفييتية. ولنذكر أخيراً أنه تأثر

---

(12) انظر مذكراته التي ترجمها وقدم لها:
William E. Shepard, *A Child from the Village* (New York: Brill, 2005).

(13) انظر في ما خص هذه المرحلة:
Lawrence Wright, *The Looming Tower: Al-Qaeda and the Road to 9/ 11* (New York: Knopf, 2006), pp. 7-31.

(14) François Burgat, *L'Islamisme en face* (Paris: La Découverte, 1996), p. 57.

بالمنشورات والكتابات المعادية للسامية، بدءاً بكتاب "**بروتوكولات حكماء صهيون**"[15].

كان سيّد قطب في البداية قريباً من عبد الناصر وقد دعاه إلى إقامة "دكتاتورية عادلة وفاضلة" لكنه رفض كل التشريفات التي قدمها له النظام الجديد وانتقل كبقية الإخوان إلى المعارضة ثم اعتقل في العام 1954، أطلق سراحه لفترة قصيرة في العام 1964، ثم سجن مجدداً في آب/ أغسطس من العام 1965 بعد وقوع محاولة اغتيال جديدة ضد عبد الناصر قام بها الإخوان المسلمون. حكم على سيّد قطب بالإعدام وقد أصغى إلى الحكم دامع العينين يشكر ربه على أنه قد أولاه أخيراً شرف الشهادة. ويذكر سورين كيركغارد (Sören Kirkegaard) أن الاستشهاد هو "النتيجة النهائية والمنطقية والنفسية" للشهادة. يقول: "يموت المستبد وينتهي عهده في حين أن الشهيد يموت ويبدأ عهده"[16]. وعلى الرغم من إلحاح نائب الرئيس أنور السادات الذي أرسل إلى زنزانة قطب، رفض هذا الأخير أن يتقدم بطلب استئناف حتى يحظى بحكم مخفّف كما وعده به الرئيس المصري نفسه، ونُفذ فيه حكم الإعدام في 29 آب/ أغسطس من العام 1966 ليبدأ مذّاك عهده.

سيكون لنا عودة إلى أهمية تجربة السجن في مسيرة المناضلين الإسلاميين وسأكتفي بالتشديد هنا على أنها مؤسِّسة للمشاعر بالمعنى

(15) David Zeidan, "The Islamist View of Life as a Perennial Battle," in: Barry Rubin and Judith Colp-Rubin, *Anti-American Terrorism and the Middle East, Understanding the Violence* (Oxford: Oxford University Press, 2002), p. 17.

(16) Sören Kirkegaard cité in: Hent de Vries, *Religion and Violence: Philosophical Perspectives from Kant to Derrida* (Baltimore: Johns Hopkins University Press, 2002), pp. 167-1699.

السارتري للكلمة[17]، لكنها مؤسّسة أيضاً للتطرّف. وكما بالنسبة إلى اليسارَيْن الإيراني والتركي، كان السجن نوعاً من جامعة للإسلاميين الذين اعتقلوا في الخمسينيات والستينيات، بدءاً بسيد قطب نفسه. ففي السجن، أي في مكان حيث يساعد تحرّر الفكر والوعي الكامل على تحمل إلغاء حرية الجسد، عبَر سيّد قطب مراحل من التطرّف لم يكن أي إسلاموي قد تجرّأ على عبورها حتى ذلك التاريخ. تشهد على تجربة السجن وعلى هذا الانعتاق الذاتي الذي حملته معها سلسلة من الكتب من بينها "**معالم في الطريق**" و"**في ظلال القرآن**".

يشير أوليفييه كاريه إلى أنه يجب ألا نرى في أعمال قطب "منشوراً إرهابياً" بل أن قطب كاتب أجمل في فكره كل التحديات الاجتماعية، بدءاً بالفرد والأسرة وصولاً إلى النظام السياسي والحرب. كان فكره موزوناً بقدر ما كان شديد التدمير لعمق التساؤلات التي حملها حول أدوات التحليل والعمل السياسية الاعتيادية. ويعتبر كاريه أن فكر قطب "يضاهي نصوص مؤسسي البعث العربي، كأرسوزي وعفلق، في الثلاثينيات والأربعينيات، اللذين سعيا إلى الاستقاء من أسطورة أصول المجموعة الأولى التي أنشأها محمد في المدينة"[18].

صحيح أن قطب، كما يؤكد عزيز العظمة، شخص انتقائي، على غرار الجزء الأكبر من مفكري الشرق الأوسط في القرن العشرين، ويستوحي الداروينية الاجتماعية أساساً، كما يشهد على هذا معجم ألفاظه؛ أضف إلى أنه لايمكن اعتبار رؤيته للإسلام رؤية رافضة للقومية

(17) Jean-Paul Sartre, *Esquisse pour une théorie des émotions* (Paris: Livre de poche, 2000).

(18) Olivier Carré, *Mystique et politique: Lecture révolutionnaire du Cor'an par Sayyid Qotb, frère musulman* (Paris: CERF-Presses de la FNSP, 1984), p. 24.

العربية[19]. لكن في ما وراء هذه المواضيع الكلاسيكية، ينبغي البحث عن الجديد في أعماله من خلال جهد إعادة التفسير وهدوء النبرة القوية التي تحدث بها[20]. وقف قطب في أعماله، ولا سيّما في كتابه **"في ظلال القرآن"**، موقف المنظِّر لثورة إسلامية هي تحوّل سياسي واجتماعي بقدر ما هي تحوّل تقني ومقاتل. وعلى غرار العديد من مناضلي اليسار في الستينيات في أميركا اللاتينية، وفي السبعينيات في تركيا وإيران، لاحظ قطب، من خلال تجربة السجن، استحالة الإصلاح كطريق لإحداث التغييرات الاجتماعية والسياسية والأخلاقية التي تصبو إليها الإسلاموية. وهكذا، أصبح استعمال العنف الوسيلة الوحيدة للبدء بآلية التغيير.

في سياق هذا الشرخ، وضع قطب في موضع إجماع أمّة المؤمنين، الذي لم يعد مطبقاً في الحقيقة منذ عهد الخلفاء الراشدين الأربعة الأوائل ولكنه بقي جزءاً لا يتجزأ من العقيدة، مبدأً لا نظير له في تاريخ الفكر الديني الإسلامي وهو: "السيادة لله وحده". وكان القصد التخلّص من تعدي الإنسان على حق الله وإعادة السيطرة كاملة إليه. وهكذا، يصبح المؤمن، الذي يطلب منه كل شيء من أجل إعادة إحلال النظام المطابق لمشيئة الخالق، فاعلاً يطيع أوامر خارجة عن إرادته. أما مفهوم السيادة المستعار كما هو واضح من الفكر السياسي الغربي، فقد تمّت أسلمته بهذه الطريقة وجرى نقله إلى أيدي سلطة فَوْاجتماعية.

يعترف قطب أن الدين بوصفه إيمان وقانون، قابل للنشر من دون قهر. بيد أنه ينبغي فرضه على غير المؤمنين عند اللزوم[21]. تتصل هذه

(19) Aziz Al-Azmeh, *Islams and Modernities* (London: Verso, 1993), pp. 66-67.

(20) Nasr Abou Zeid, *Critique du discours religieux* (Arles: Actes Sud, 1992), pp. 168-172.

(21) Sayyid Qotb, "Jihad in the Cause of God," in: Andrew G. Bostom,

الدعوة بالجدل الذي أقامه حول مفهوم الجاهلية الذي لم يعد يعني "الجهل" بالرسالة الإلهية وحسب، بل هو من الآن فصاعداً رفض مقصود ومذنب للنظام الإلهي يمارسه المسلمون أنفسهم(22). وفي حين يصير الإسلام عند قطب وأكثر من أي وقت مضى، ضرباً من إيديولوجيا ويوتوبيا، ينهل من الروحانيات حتى يكتسب قدسية مطلقة، يرفع قطب الحرم الرئيسي الذي اصطدم به الإسلامويون حتى ذلك اليوم إذ يجعل مباحاً وحتى لزاماً استعمال العنف ضد الملك الكافر. أصبح العنف في دار الإسلام الشرط المسبق لممارسته ضد دار الحرب. نادراً ما تم التخلي قبل قطب، وحتى لدى ابن تيمية (1263؟-1323) الذي يذكر كمرجع أساسي للتطرّف السني، عن نظرية طاعة الملك وحتى الملك الظالم درءاً للفتنة والفوضى(23).

أما الشرخ الجذري الثاني مع الفكر الإسلامي فكان مفهوم الجهاد الذي تعددت دلالاته بشكل كبير في خلال التاريخ الإسلامي وقد فرض نفسه عند سيد قطب بشكل شبه حصري كمرادف لحرب دفاعية و/ أو هجومية وتضحية بالنفس وصار بالتالي ركن الإسلام السادس. كما أعيد تعريف الشهادة عبر عودة إلى أصول المعنى القرآني، فلم تعد جزءاً من سجل الموت بل صارت جزءاً من الحياة وحتى شرطاً لها(24).

The Legacy of Jihad. Islamic Holy War and the Fate of Non-Muslims (New York: Prometheus Books, 2005), pp. 230-247.

(22) Zeidan, "The Islamist View of Life as a Perennial Battle," in: Rubin and Colp-Rubin, *Anti-American Terrorism and the Middle East, Understanding the Violence*, p. 20.

(23) انظر حول نظرية الطاعة في الإسلام التقليدي:
Bernard Lewis, *Le Langage politique de l'islam* (Paris: NRF, 1988), pp. 152-156.

(24) Sayyid Qotb, *L'Islam par le martyre* (Riyad: IIFSO, 1994).

مع سيد قطب، نبلغ قمة مفهوم للتاريخ وبالتالي للزمن يتسم باللازمنية بقدر ما يتسم بالآخروية. وفي حين تتحدد الذاكرة التاريخية من خلال "أصالة" المرحلة التأسيسية في الإسلام[25]، فإن المستقبل يختلط بالكامل مع الخلاص الكوني.

(25) Al-Azmeh, *Islams and Modernities*, p. 27.

الفصل السادس

1979 : الاهتزاز الكبير

شكل إعدام سيد قطب تاريخاً رمزياً في تاريخ المعارضة الإسلامية. في العقد الأول من الألفية الثالثة، أقسم أيمن الظواهري، الرجل الثاني في تنظيم القاعدة، بالانتقام له وهو لم يكن بعد قد تخطى سن المراهقة؛ كما تذكر سيرة حياة قلب الدين حكمتيار، الإسلامي وأمير الحرب الأفغاني، هذا الحدث بوصفه بداية تسييسه والتزامه[1].

في المقابل، وفي سياق التطرّف اليساري في ستينيات القرن العشرين، بدا هذا الإعدام أقرب إلى خبر في صفحة الحوادث على هامش التاريخ السياسي وسرعان ما طواه النسيان بعد حرب الأيام الستة، لينحفر في قلوب المقربين من قطب وأتباعه وحسب. لم يكن الخطاب الإسلامي قد نجح بعد في إثارة أصداء كثيفة وإيجابية في الشرق الأوسط. استمرت هذه الوضعية الهامشية حتى العام 1979، وهي السنة التي يصفها ريمي لوفو (Rémy Leveau) بالأكثر حسماً بالنسبة إلى الشرق

(1) Gilles Dorronsoro, *La Révolution afghane* (Paris: Karthala, 2000), p. 89.

الأوسط منذ العام 1948، تاريخ تأسيس دولة إسرائيل[2]. فقد تأثرت تلك السنة في الحقيقة بأربعة أحداث أساسية لاوجود لأي رابط سببي في ما بينها، كما اندرج كل واحد منها ضمن زمن خاص به، لكنها أنتجت معاً تأثيرات التقت لتفعل فعلها في مصير المنطقة بأسرها. ونقصد بهذه الأحداث الثورة الإيرانية التي سنحللها بالتفصيل في ما يلي، وانتفاضة مكة واتفاقات كمب ديفيد وغزو أفغانستان من قبل الجيش السوفييتي.

الثورة الإيرانية

في إيران، بعد احتفالات ذكرى ألفين وخمسمائة سنة على نشوء الإمبراطورية في العام 1971، نصب الشاه نفسه ملك الملوك وشمس الآريين[3]، ومنذ الإطاحة بمصدّق في العام 1953، شهدت البلاد تحوّلات جذرية وأصبحت مسرحاً لتوترات حادة. زاد عدد سكان مدينة طهران من مليون ونصف مليون نسمة في العام 1951 إلى أربعة ملايين ونصف مليون نسمة في العام 1971، علماً أن ثلثهم يبلغ أقل من ثلاثين عاماً[4]. وجاءت الطفرة النفطية في العام 1973 لتملأ خزائن الدولة وتسمح بنشوء برجوازية نفطية علماً أنها لم تحل دون تدهور الوضع الاقتصادي لدى الطبقات الشعبية الأكثر حرماناً، الريفية منها والمدينية.

(2) كان درس "مدخل إلى الشرق الأوسط" الذي كان يلقيه البروفسور ريمي لوفو (1932–2006) على مدى سنوات طويلة في معهد الدراسات السياسية، يبدأ باستمرار بتحليل هذه السنة الحاسمة.

(3) Jean-Pierre Digard, *Bernard Hourcade et Yann Richard: L'Iran au XXè siècle* (Paris: Fayard, 1996), p. 148.

(4) 80٪ من هؤلاء الشبان دخلوا المدرسة.
Marcel Ahano, "Pour une analyse politique des foules iraniennes," dans: Semih Vaner, dir., *Modernisation autoritaire en Turquie et en Iran* (Paris: L'Harmattan, 1991), p. 127.

على الرغم من الحظر الرسمي على أي معارَضة، إلا أن البلاد غصّت بالتشكيلات المعارِضة. أعلنت الجبهة الوطنية تطلعات ليبرالية وكان قد أسسها مصدّق وتسلّم زمامها في الستينيات والسبعينيات شهبور بختيار ومهدي بازركان، وهو قائد حركة التحرير الإسلامية. وانحازت أطراف فاعلة أخرى للأفكار الثورية. وإذا كان حزب توده المؤيد للاتحاد السوفييتي والداعي لبرنامج ثوري لا تمجيد للعنف فيه، قد فقد الزخم الذي عرف به في العام 1946 أو العام 1953 وهي مراحل تمكن فيها من تعبئة عدة مئات آلاف الأشخاص، إلا أنه شكّل واحدة من القوى الناشطة في المجتمع الإيراني.

نافس توده تنظيمان اثنان: أولهما "حركة مجاهدي خلق" التي تأسست في العام 1965 انطلاقاً من أوساط الحركة النضالية والاجتماعية في جامعة طهران وهي تدعو إلى ثورة إسلامية واشتراكية، علماً أنها أعلنت، بدءاً بالعام 1975، انتماءها "الماركسي" الواضح[5] قبل أن تعود إلى الإسلام الاشتراكي. كانت هذه الحركة بقياد مسعود رجوي وتأثرت بالفكر الثوري لعلي شريعتي وجلال الأحمد ولنا عودة إليهما في ما بعد. كما أعلنت مسؤوليتها عن عدد من الهجمات في العام 1971 إبان احتفالات برسيبوليس، ثم في العام 1972 بمناسبة زيارة نيكسون إلى إيران. وقد أعدم أو اغتيل العشرات من أعضائها.

التنظيم المنافس الثاني الذي يستوحي الماوية هو "منظمة فدائيي خلق" وقد تأسس في العام 1970 حول بيزن جزني (1937-1975)، وهو عضو سابق في حزب توده، ومسعود أحمد زاده منظِّره الذي أعدم في العام 1972. استوحى التنظيم التجربة الروحية في حركة جنجالي

---

(5) Richard, Ibid., p. 292.

في العشرينيات من القرن العشرين ودعا إلى ثورة من النمط "البؤري" انطلاقاً من قواعد ريفية مع إقامة خلايا في المدن كذلك. ما بين العامين 1971 و1975، أعدم واغتيل 172 عضواً من أعضاء التنظيم في ما عدا 200 منهم تقريباً قضوا في المعارك. من المناضلين الذين تمكن أرفند أبراهاميان من إحصائهم في بداية الثمانينيات، نجد 139 طالباً جامعياً و8 تلامذة مدارس ثانوية و22 عاملاً فقط. واحصي من بينهم 14 "ربة منزل"[6] وآخرون من مهن حرة.

ممّا لا شك فيه أن القمع الوحشي الذي مارسته شرطة السافاك بين العامين 1965 و1978 قد تمكن من إضعاف هاتين الحركتين بشدة من دون أن ينجح في القضاء عليهما. وعلى سبيل المثال، في خريف العام 1977، جرت مواجهة بين مناضلي اليسار المتطرّف وبين قوات الأمن من أجل الدفاع عن مناطق مبنية بشكل غير قانوني[7] كما ألقيت قنابل مولوتوف على المركز الثقافي الإسرائيلي.

اتسمت الحالة السابقة للثورة بعداء متزايد تجاه الولايات المتحدة المتهمة باستغلال الثروات الطبيعية ولاسيّما النفط والتصرّف كما لو أنها سيدة البلاد في حين أن خطابات الرئيس كارتر حول حقوق الإنسان كانت تضعف في الواقع النظام الملكي وتقوّي المعارضة. انتشرت في طول إيران وعرضها تسجيلات صوتية، ولاسيّما للإمام الخميني المنفي وتوطدت التعبئة الطلابية وتعبئة الشباب بشكل عام ذوي الميول اليسارية في أكثر الأحيان، ومعهم الطبقات المدينية الوسطى وبالأخص تجار

---

(6) Ervand Abrahamian, *Iran Between Two Revolutions* (Princeton: Princeton University Press, 1982), pp. 480-481.

(7) Henry Munson, *Islam and Revolution in the Middle East* (New Haven: Yale University Press, 1988), p. 59.

البازار من دون أن يفضي هذا الأمر إلى أي تحالف في ما بينهم[8]. آمن تجار البازار بنظم وقيم خاصة بهم مرتكزة على حماية النظام والأسرة كما آمنوا بأخلاقيات العمل وأقاموا شبكات كثيفة غطت البلاد ومكّنتهم من مقاومة أزلام النظام[9]. شكّل تجار البازار جزءاً من الطبقات التي تستفيد إلى أقصى درجة من "الرخاء" المادي مع أنهم وقفوا إلى جانب أفكار المعارضة في العامين 1978 و1979[10]. أما رجال الدين الذين لا يملكون تنظيماً سياسياً خاصاً بهم، بل شبكة كثيفة من المساجد وعلاقات مميزة مع تجار البازار، فقد انزلقوا تدريجاً نحو موقف معارض، وبالأخص أن جزءاً كبيراً منهم قد تأثر بآية الله الخميني المنفي منذ فشل انتفاضة العام 1963، إلى النجف أولاً في العراق، وبعدها إلى نوفل لو شاتو، إحدى ضواحي باريس. وتحلّت شبكات الخميني بفعالية كبيرة جداً في نشر الأفكار الثورية في قلب المقاطعات الإيرانية وفي الريف الإيراني[11].

بين العامين 1977 و1978، أصبحت إيران فجأة مسرح اللغز الثوري الذي عرفته بلدان أخرى قبلها. فمن دون أن نعرف كيف ولماذا، اضمحل الخوف الذي كانت السلطة تعتمد عليه أساساً فتعرّت نقاط ضعفها. هل هو تأثير خطابات الرئيس كارتر في العام 1977 حول

---

(8) حول دور تجار البازار، انظر:
Soussan Moubasser, "Le Bazar: Un acteur principal dans le réseau alternatif de relations et de communications sociales et politiques en Iran," dans: Semih Vaner, dir., *Modernisation autoritaire en Turquie et en Iran* (Paris: L'Harmattan, 1991), pp. 131-149.

(9) Guilain Denoeux, *Urban Unrest in the Middle East: A comparative Study of Informal Networks in Egypt, Iran and Lebanon* (Albany: State University of New York Press, 1993), pp. 141-142.

(10) Paul Vieille, "L'Urbain et le mal de modernité," *Peuples méditerranéens*, no. 37 (1986), p. 149.

(11) La section "The Khomeini Network," in: Denoeux, Ibid., pp. 180-185.

حقوق الإنسان؟ في أي حال من الأحوال "كانت هالة القوة التي لا تقهر المحيطة بالشاه والعداء ضده يرجعان في جزء كبير منهما إلى القناعة القائلة بأنه رجل واشنطن وبأن الولايات المتحدة لن تقبل أبداً بسقوطه. وعندما اهتزت هذه القناعة، اهتزت معها أسس نظام الشاه"[12].

تمّت العملية بسرعة كبيرة. في آذار/ مارس 1977، وجه الصحافي علي أقصر حاج سيد جوادي إلى الشاه كتاباً مفتوحاً، شديد الاحترام ولكنه نقدي اللهجة. وعلى عكس ما هو متوقع، لم يتم اعتقاله، لكن شرطة السافاك نكّلت بكل المفكرين الآخرين الذين يطالبون بحرية التعبير نفسها. وفي الشهر نفسه، سرّعت الأمسيات الشعرية التي نظّمها اتحاد الكتاب في معهد غوتيه حلول "ربيع طهران"[13] حين جذبت خمسة عشر ألف شخصاً. وسرعان ما وقع الانفجار: غرقت أرصفة طهران بكتب شريعتي والأحمد وآية الله مرتضى مطهري، الناقد الجذري للنظام (1920–1979) وبأدبيات اليسار. هنا، كما في وضعيات ثورية أخرى، لم يكن "الربيع" مخططاً له ولا "تحت قيادة" أي منظمة؛ اندلع وقام بوصفه عملية شكلت فرصة مناسبة للجميع ولكنها أجبرت كل طرف على أن يحدد موقعه ويعيد النظر بأهدافه بشكل مستمر.

يضاف حدث آخر إلى هذه الحرية المفاجئة و"البريئة" التي لا تسطيع حكومة أمير عباس هويدا قمعها من دون المخاطرة بقيام مواجهات تلطخ صورتها. وهذا الحدث هو وفاة مصطفى، ابن الخميني، في النجف في تشرين الأول/ أكتوبر 1977. اتهمت السافاك بقتله ما كان نتيجته قيام العديد من المظاهرات الخجولة ضد الشاه ضمّت بضع مئات

(12) Munson, *Islam and Revolution in the Middle East*, p. 127.

(13) Digard, *Bernard Hourcade et Yann Richard, L'Iran au XXè siècle*, p. 157.

الأشخاص. وإذ خشيت السلطة تكرار سيناريو مشابه لسيناريو العام 1963، حاولت أن تستبق الأمور وردّت في 7 كانون الثاني/ يناير 1978 بهجوم مباشر ضد الخميني في صحيفة "**اطلاعات**"، لكن هذا التكتيك أدى الأثر الذي أراد النظام تجنّبه بالتحديد لأن رجال الدين الشباب في قُم ردّوا بشكل فوري فنظموا مظاهرات جديدة قمعت بوحشية وسقط فيها قتيلان.

وتحوّل الاحتفال بأربعين الضحيتين الذي نظّم في تبريز إلى أعمال شغب هاجم فيها المتظاهرون قصر الشبيبة والرستخيز، وهو الحزب الواحد الذي تأسس في العام 1975، كما هاجموا محلات بيع الخمور وصالات السينما. تسبب القمع بسقوط حوالي مائة قتيل احتفل بذكراهم في 29 أيار/ مايو وكانت مناسبة لمقتل متظاهرين آخرين. وفي 19 آب/ أغسطس، في عبادان، سقطت 400 ضحية في حريق شبّ في صالة سينما لأسباب بقيت غامضة. وفي 4 أيلول/ سبتمبر، تحوّلت احتفالات عيد الفطر التي ضمّت عدة مئات آلاف الآشخاص إلى أعمال شغب أخرى انتهت بسقوط قتلى جدد. وطالت قائمة "الشهداء" مع مظاهرات 7 و 8 أيلول/ سبتمبر في مشهد وفي طهران. وفي مساء 8 أيلول/ سبتمبر وقع زلزال في طبس أودى بحياة 2700 شخص واعتبر إشارة من السماء التي تلعن السلطة المستبدة.

وصارت ذكرى الأربعين، التي تؤشر إلى نهاية فترة الحزن على كل ضحية، شعيرة سياسية تصحبها حلقة من مظاهرات شعبية جديدة وضحايا جديدة. تكاثرت "أيام الأربعين" مع اشتداد عمليات القمع وصارت بمثابة كابوس للسلطة. يشرح عالم الاجتماع منصور معدّل هذه الظاهرة قائلاً: "ما كان ثمة حاجة إلى قادة ثوريين ليُعلِموا الجمهور متى يجب أن يتظاهر ضد الشاه. فقد كانت دورات هذه الشعائر الدينية تحدد

التواريخ الدقيقة والأسباب الدافعة إلى الانخراط في نشاطات معارضة لتساهم بشكل مستقل في التعبئة ضد الدولة. واستمرت هذه الدورة إلى هذا الحد أو ذاك حتى العام"(14) 1979.

في الخامس من تشرين الثاني/ نوفمبر، وقعت أعمال تخريب إبان مظاهرة دعم للشاه، نظمتها السافاك بالطبع، على غرار المظاهرات التي تسببت بسقوط مصدّق في العام 1953. وفي اليوم نفسه، أعلن الشاه "أن خطاب الثورة قد بلغه"(15). وفي 10 و11 كانون الأول/ ديسمبر، استنفر مليون شخص في ذكرى استشهاد الحسين. ورفض الجيش الذي صار عاجزاً بالكامل، الهجوم على المتظاهرين. وفي 31 كانون الأول/ ديسمبر من العام 1978، عيّن الشاه المعارض بختيار في منصب رئيس الوزراء وغادر البلاد يوم 16 كانون الثاني/ يناير من العام 1979.

في الأول من شباط/ فبراير استقبل ملايين الأشخاص الإمام الخميني. وفي 30 و31 آذار/ مارس، إبان الاستفتاء على مستقبل الثورة، ردّ 98,2% من الإيرانيين بالإيجاب على السؤال الأساسي الذي طرح عليهم وكان: "هل ترغبون في أن تكون إيران جمهورية إسلامية؟" وعندئذ صارت ولاية الفقيه(16) هي المبدأ المسيّر للنظام الجديد.

(14) Cité in Charle Kurzman, "Une déploration pour Mustafa: Les Bases quotidiennes de l'activisme politique," dans: Mounia Benanai-Chraibi et Olivier Fillieule, dir., *Résistances et protestations dans les sociétés musulmanes* (Paris: Sciences Po, 2003), p. 189.

(15) Richard, *L'Iran: Naissance d'une république islamique*, p. 317.

(16) "في خلال غيبة صاحب العصر والزمان عليه السلام، تكون الولاية التنفيذية وإدارة شؤون أمة المؤمنين الإسلامية في الجمهورية الإسلامية الإيرانية للفقيه العادل والفاضل، مدرك مشكلات العصر، الشجاع القادر على القيادة، العاقل..."، المادة الخامسة، ذكرها في المصدر نفسه، ص 327.

كانت الثورة الإيرانية هي الثورة الوحيدة الحقيقية في الشرق الأوسط، لأنها قد ولدت من رحم مظاهرات شعبية عفوية وليس نتيجة انقلاب، ولأنها غير متوقعة بالكامل ومترافقة بأثر "التراجع الخلاّق"[17] الذي أطلقته. هل كانت الثورة دينية منذ البداية؟ ممّا لا شك فيه "وجود تيار كبير بين رجال الدين دخل في صراع مفتوح مع السلطة السياسية مصمّماً على طردها واستلام السلطة مكانها. وتعتبر هذه المحاولة، على المستوى العقائدي البحت، ليس فقط على تناقض مع تعاليم الأئمة كما أدرجت في النصوص التأسيسية، ولكنها أيضاً، على المستوى التاريخي، المرة الأولى التي تنقلب فيها العلاقات بين رجال الدين وصاحب السلطة انقلاباً كاملاً وكانت قد اتسمت على الدوام بنوع من التوازن، ولو كان توازناً هشاً"[18]. لكن، كما يذكرنا سامي زبيدة، هذه الثورة ثمرة نوع من الحداثة سواء من حيث إنها جديدة وبسيطة بالكامل ومن حيث مبدأ ولاية الفقيه نفسه وشعار الثورة واسم النظام الذي أرسته كذلك. أما "مصداقيتها و"إمكانية التفكير بقيامها" (ف)قد كانت ممكنة نظراً إلى ظروف الدولة والسياسات الحديثة"[19]. وقد كان صانعو الثورة، بمن فيهم رجال الدين، "يعملون، على المستوى الإيديولوجي،

---

(17) يعرّف ماكس باجيس (Max Pagès) هذا المفهوم المختلف تماماً عن أي عودة إلى "السمات القديمة" بقوله إن "التغيير في معتقدات وولاءات أساسية لدى الشعب لا يمكن أن يتم من دون مواجهة قلق وعنف جماعي واسع النطاق، ليس بسبب صراعات المصالح والسلطة التي ترافقه (فهي نتيجة له كما هي سببه) بقدر ما هي بسبب إعادة النظر في أسس الأمن النفسي الجماعي التي يستلزمها هذا التغيير".
Max Pagès, "La Double nature du phénomène révolutionnaire," dans: Max Pagès [et al.], *La Violence politique* (Paris: Erés, 2003), p. 36-37.

(18) Mohammad-Ali Amir-Moezzi et Christian Jambet, *Qu'est-ce que le shî'isme* ? (Paris: Fayard, 2004), pp. 204-205.

(19) Sami Zubaida, *Islam, the People and the State: Essays on Political Ideas and Movements in the Middle East* (London: I.B. Tauris, 1993), p. 18.

في إطار النماذج المعيارية السياسية للدولة-الأمّة والشعب المستوحاة من الغرب"[20].

وفي الحقيقة، تأثر عدد من رجال الدين، أمثال آية الله محمد كاظم شريعتمداري أو آية الله طالقاني[21]، بالأفكار الليبرالية، وحتى بأفكار اليسار المتطرّف. وكذلك اثنان من المفكرين اللذين أدّيا دوراً ريادياً في إيران ما قبل الثورة، وهما جلال الأحمد وعلي شريعتي، وقد كانا متعمقين في التيارات السياسية الأوروبية. قرأا بشكل انتقائي إيميه سيزير (Aimé Césaire) وفرانز فانون كما قرأا ماركس ودوركايم (Durkheim) وجورج غورفيتش (George Gurvitch) وهنري لوفيفر (Henri Lefèbvre) وعرفا تنشئة اجتماعية سياسية متصلة باليسار. وقد أقام شريعتي علاقة حب وكراهية مع الماركسية، كما يدل عنوان أحد كتبه "ما العمل؟"[22]. في حين أن الأحمد كان عضواً في حزب توده قبل أن يبحث عن "الطريق الثالث" ويفهم المخزون "الثوري والمحرّر للإسلام"، انخرط شريعتي لفترة في معسكر مصدّق وكان عضواً في منظمة لم تعش طويلاً واسمها "عباد الله الاشتراكيين"[23]. ممّا لا شك فيه أن تأثير أفكارهما، مضافاً إليه سطوة التنظيمات اليسارية، قد حمل الثورة على استعمال مصطلح "المستضعفين" كمرادف لـ"الهيئة الثالثة"

(20) Ibid., p. 33.

(21) Nikki R. Keddie, "Iranian revolutions in comparative perspectives," in: Albert Hourany, philip S. Khoury et Mary C. Wilson, dir., *The Modern Middle East* (Berkeley and Los Angeles: University of California Press, 1993), p. 616.

(22) Abrahamian, *Iran Between Two Revolutions*, p. 649.

(23) Nouchine Yavari-D'Hellencourt, "Identité et modernité: La contribution d'Al-e Ahmad, Shari'ati et Mottahari au discours révolutionnaire iranien," dans: Semih Vaner, dir., Modernisation autoritaire en Turquie et en Iran (Paris: L'Harmattan, 1991), pp. 83-105.

(tiers-état) الذي جاء به سييس (Sieyès). يحدد زبيدة قائلاً: "لا ينبع الطابع الإسلامي في الثورة الإيرانية من رؤية دينية للعالم تحملها طبقات اجتماعية محددة بل من الموقع التاريخي الخاص الذي يحتله المثقفون الدينيون"[24].

بحثت الثورة عن شرعيتها منذ البداية تحت وصاية صورة الشهيد المزدوجة، أي شهدائها هي الذين أحصوا بالآلاف عند نهاية العام 1978 وتمّ التعرّف عليهم وتسميتهم والاحتفال بذكراهم في الساحة العامة، وأيضاً الشهيد كصورة مجردة عن المسؤولية والتضحية بالذات، بمعنى آخر هو الإمام الحسين الذي كان موته "التضحية الكبرى" التي أرادها معرفة للحقيقة الإلهية الأخيرة[25]. وإذ ظهر شعار "كل يوم عاشوراء وكل ساحة كربلاء"، تحوّل الإمام الحسين من "شفيع في السماء" إلى "ثائر عادل"[26]. تجسّدت هذه الشهادة التاريخية، بقدر ما هي خارجة عن الزمن لأنها كونية، في صورة حيّة ولو أنها رقيقة هي صورة الخميني الذي أنجز التمايز عن التشيّع التقليدي حين أعلن أن كل سلطة إنسانية غير شرعية في غياب الإمام الثاني عشر (الذي "دخل في الغيبة" في العام 939) المعصوم وحده[27]، واتخذ على التوالي "لقب "مرشد" الثورة

---

(24) Zubaida, *Islam, the People and the State: Essays on Political Ideas and Movements in the Middle East*, p. 80.

(25) Amir-Moezzi et Jambet, *Qu'est-ce que le shî'isme*? pp. 52-53.

(26) Munson, *Islam and Revolution in the Middle East*, p. 23.
على الرغم من الدهشة التي قد تعترينا، فإن أحد الكتب التي تعلّم في المدارس منذ الستينيات، يقول مؤكداً: "رفض الإمام الحسين الاضطهاد والظلم. وكان استشهاد الحسين في كربلاء مثالاً على مقاومة الاستبداد"، المرجع المذكور، ص 25.

(27) Hamid Enayat, *Modern Islamic Political Thought* (London: MacMillan, 1982), p. 27.

الإسلامية في العام 1979 ثم "خليفة الإمام المغيّب" وأخيراً لقب إمام وحسب"(28).

مع "الإمام"، دخل الشرق الأوسط مرحلة جديدة من تاريخ متخيّلاته تقع على نقيض شبابية سنوات 1950-1970، فقد حلّ الشيخ الحكيم الذي يشكل ألمه ذاكرة شعب بأسره وعلامة على اصطفائه، محل الثوري الشاب والرشيق المتمثل بعبد الناصر أو ياسر عرفات. باسم هذه الآلام التجاوزية التي يحملها "هذا الجسد المسن" يطلب من الشباب القيام بالتضحية الكبرى أي الشهادة.

انتصرت الثورة لكنها أصيبت بالشلل منذ بدايتها نظراً إلى عجزها عن تصدير نفسها، على الرغم من أن الخميني يدرك تماماً أن تصديرها شرط استمراريتها: "يجب أن نحاول تصدير ثورتنا إلى العالم. يجب أن نتخلى عن الفكرة القائلة إنه يجب ألا نصدّر ثورتنا، لأن الإسلام لا يعتبر مختلف البلدان الإسلامية منفصلة الواحد عن الآخر، وهو يساند كل المستضعفين في العالم. من جانب آخر، قامت كل القوى العظمى وقام كل المستكبرين من أجل تدميرنا. وإذا ما انعزلنا في بيئة مقفلة سنمنى بالهزيمة من دون شك"(29).

كما بالنسبة إلى روسيا في الماضي، فإن فشل هذا المشروع يؤدي لا محالة إلى "تقوية الثورة في موطنها" وإلى الانتقال من العنف ضد النظام إلى إنشاء سلطة قمعية ترافقها ظاهرة تحوّل بيروقراطي. بدأت

(28) Amir-Moezzi et Jambet, *Qu'est-ce que le shî'isme*? pp. 204-205.

(29) Gustav Thaiss, "Religious symbolism and social change; the drama of Hussein," in: Nikki Keddie, *Scholars, Saints and Sufis: Muslim Religious Institutions since 1500* (Berkeley; Los Angeles; London: University of California Press, 1972), p. 349.

هذه المأسسة بإنشاء حراس الثورة (البازدران) الذين همّشوا بالكامل الجيش الرسمي. تبعه، في العام 1980، الصعود القوي لجيل جديد من التكنوقراط ما بين سن الخامسة والثلاثين والأربعين، أي أكبر سناً بكثير من الطلاب الثوريين[30]. وكان هذا الأمر، بالنسبة إلى الناشطين الأكثر حماسة كما بالنسبة إلى فئة الشباب بشكل عام، مصادرة للثورة دقّت في الحقيقة ساعتها الأخيرة. وفي العام 1980، عبّر عدد من الأطراف الفاعلين الذين شاركوا في الثورة بشكل ناشط عن فكرة "خيانة الثورة".

بيد أن المأسسة سارت بالتساوي مع عملية هروب ثلاثية إلى الأمام أصبح لا بدّ منها بسبب ديناميكيات الثورة نفسها وكان أولها "أسلمة" مجمل القوانين الاجتماعية، بدءاً بالأسرة وصولاً إلى تنظيم الحياة اليومية. في 22 نيسان/ أبريل 1980، أطلق النظام "ثورته الثقافية" من أجل إعادة قولبة المجتمع من أسفل ومن أعلى. وفي 21 حزيران/ يونيو 1981 استُبعد الرئيس أبو الحسن بني صدر، المنتخب في 25 كانون الثاني/ يناير 1980، باعتباره شديد الليبرالية. وحظرت التشكيلات السياسية باستثناء حزب الجمهورية الإسلامية، الذي أصبح هو الحزب الواحد فعلياً ولزمن طويل. ولم يُصَر إلى إعدام الوجوه الليبرالية البارزة التي حملت المقاومة طوال عشرات السنوات من حكم الشاه، بل جرى تهميشها، على غرار ما أصاب مهدي بازركان.

بموازاة ما سبق، انصرفت السلطة الجديدة إلى ممارسة قمع شديد، ليس فقط ضد مؤيدي الشاه ولكن أيضاً وأساساً ضد مناضلي اليسار

(30) بالنسبة إلى تركيبة مختلف الحكومات والمجالس، انظر:
Ahmad Ashraf, "Charisma, Theocracy, and Men in Power in Post-Revolutionnary Iran ", in: Myron Weiner and Ali Baniazizi, *The Politics of Social Transformation in Afghanistan, Iran, and Pakistan* (Syracuse: Syracuse University Press, 1994), pp. 101-151.

والوطنيين الأكراد الذين رفضوا إعلان ولائهم لها، من دون أن ننسى المعارضين الليبراليين الذين غالباً ما صدرت بحقهم أحكام مبرمة من جانب المحاكم الثورية المتحركة التي رأسها آية الله صادق خلخالي. نظم مجاهدو خلق هجمات ضد الشخصيات في صيف العام 1981 كتفجير مقر حزب الجمهورية الإسلامية في 28 حزيران/ يونيو 1981، الذي وقع ضحيته 74 قتيلاً، من بينهم آية الله محمد حسين بهشتي واغتيال الرئيس الجديد، محمد علي رجائي ورئيس وزرائه محمد جواد بهنام يور في 24 تموز 1981.

أقنعت هذه العمليات الخميني بضرورة تسريع وتيرة الرعب. وفي 30 آب/ أغسطس، بعيد انتخاب علي خامنئي، وهو أحد المقربين من الخميني، رئيساً للدولة، بدأت عمليات القمع الوحشية ضد مجاهدي خلق وأيضاً ضد "أعداء" الثورة الآخرين. ويقال إن اضطهاد المعارضين قد أوقع عشرة آلاف ضحية في غضون سنتين من الزمن[31]، من بينهم صادق قطب زادة، وزير الخارجية، المؤيد لتطبيع العلاقات مع الولايات المتحدة، وقد أعدم في 15 أيلول/ سبتمبر 1982. وفي خضم هذه المعمعة، نال حزب توده نصيبه أيضاً على الرغم من موقفه الداعم للحكم. وفي 5 شباط/ فبراير 1983، جرى اعتقال أكثر من 1500 عضو من الحزب وأعدم عشرة منهم.

وأخيراً، بدا الموقف المعادي لأميركا والذي يغذي نفسه ويعيّن العدو الأكبر بمثابة رد على مآسي الإيرانيين كما بمثابة رد على مأزق الثورة. وتدهورت العلاقات بين البلدين أكثر فأكثر بفعل وصول الشاه إلى نيويورك في تشرين الثاني/ نوفمبر. وفي الرابع من هذا الشهر من

---

(31) Digard, *Bernard Hourcade et Yann Richard, L'Iran au XX^{e} siècle*, p. 169.

العام 1979، جرى احتلال السفارة الأميركية في طهران من قبل طلاب الجامعات في العاصمة بقيادة أحد الطلبة وهو إبراهيم أصغرزاده وتحت أوامر آية الله موسوي خوئيني. واحتجز ثلاثة وستون دبلوماسياً أميركياً وثلاثة مواطنين أميركيين معهم كرهائن ولم يحرروا إلا في 20 كانون الثاني/ يناير 1981. يشهد هذا العمل الذي تسبب بأزمة دبلوماسية طويلة، على الاستقلالية المتزايدة التي تمتع بها بعض أطراف الثورة. كما استخدم هذا العمل لتوجيه تطرّف الشباب الثوري ضد كبش محرقة محدد (ويقال إن محمود أحمدي نجاد الذي أصبح رئيساً للجمهورية فيما بعد قد شارك فيه). وبعد فشل عملية كوماندوس أميركية نظمت لتحرير الرهائن في 24 نيسان/ أبريل 1980، اقتنع النظام الجديد أن "العدو" يواظب في سعيه إلى القضاء على الثورة، كما اقتنع أنه عدو ضعيف.

مكّة أو ثورة الإخوان الجدد

أما الحدث الثاني المتصل مباشرة بالمعارضة ذات اللون الديني فقد وقع في المجال السنّي ونقصد به احتلال الطلاب الإسلاميين المتطرفين الكعبة في 20 تشرين الثاني/ نوفمبر 1979[32].

يجب إعادة وضع هذا الحدث في إطار تاريخ طويل كما في سياق ظرف محدد. في ما يتعلق بالتاريخ الطويل، فهو تاريخ التوتر المزمن بين سلالة آل سعود الحاكمة والمعارضة البوريتانية والمتطرفة. منذ العام 1912، أنشأت أسرة آل سعود ميليشيا إسلامية أطلق عليها اسم

(32) "أثبتت أجهزة المخابرات السعودية أن أسرة بن لادن وحدها التي ساهمت في بناء المسجد الأكبر كانت تمتلك مخططات الموقع التي تسمح بتخطي يقظة قوى الأمن"، Jean-Charles Brisard et Guillaume Dasquié, *Ben Laden: La vérité interdite* (Paris: Denoël, 2002), p. 146.

"الإخوان"، لا علاقة لها بالإخوان المسلمين المصريين الذين نشأوا بعدها، واستخدمتها لإحلال الأمن في منطقة نجد ثم للإستيلاء على السلطة على نطاق شبه الجزيرة. بيد أن العشرينيات من القرن العشرين قد شهدت حركة مزدوجة باتجاه استقلالية وتطرف هذه الميليشيا التي اتهمت حُماتها السابقين بأنهم وقعوا في شر البدع وبأنهم التحقوا بالبريطانيين. وفي العام 1927، اغتال الإخوان رجل شرطة وعدداً من الشخصيات، وكان رد آل سعود بأن شكلوا جيشاً جديداً ضدهم. وانتهت الثورة التي دامت طوال عامي 1929 و1930 بفشل الإخوان وبتطويع ما تبقى من مقاتليهم ضمن الحرس الوطني. تقول فتيحة دازي هني إن هزيمة الإخوان كانت أيضاً مؤشراً على هزيمة البدو الذين قاوموا السلطة الحضرية[33]. وقد شكلت هذه المسألة في النهاية شرخاً أنذر بوقوع أزمات أخرى ضمن النظام السعودي بين السلالة الحاكمة والمؤسسة الدينية من دون أن يعاد النظر لمدة طويلة بتحالفهما.

شهدت عقود الثلاثينيات والخمسينيات الطويلة استيلاء آل سعود على السلطة وتوطيدها على مجمل البلاد. صحيح أن المعارضة الإسلامية لم تندثر، لكنها دُمجت في إطار الجهاز الوهابي الذي يسيطر بشكل واسع على المجال الديني. ولم تتشكل المعارضة المتطرفة الجديدة إلا بدءاً بالستينيات وكانت مستوحاة جزئياً من الإخوان، ونشأت انطلاقاً من الجامعة الإسلامية في مكة أساساً. أطلقت هذه المعارضة على نفسها اسم "الجماعة السلفية المحتسبية" (جمعية سلفية للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر). اعتنقت هذه الجماعة التقليد الوهابي وحظيت بدعم رئيس جامعة عبد العزيز بن باز وكانت الشخصية

(33) Fatiha Dazi-Heni, *Monarchies et societés d'Arabie. Le temps des confrontations* (Paris: Sciences Po, 2006), p. 46.

الرئيسة فيها جيهمان العتيبي. لم يكن جهيمان طالباً إلا أنه أقام علاقات مع الوهابيين المتطرفين ومع المثقفين ورجال الدين الحضريين[34]. وقد أدخل هؤلاء المعارضون الجدد عقيدة الخلاص، من ضمن عقائدهم، لتشكل أفقاً جديداً في عالم السعودية الديني الذي يواظب على تفسير صارم للنص المؤسِّس وللأحاديث النبوية الشريفة.

أطلقت الجماعة حملات كلامية لاذعة ضد السلطة احتلت بعدها الكعبة في 20 تشرين الثاني/ نوفمبر 1979. وتفيد بعض المعلومات أن هدف هذا العمل المسرحي كان إعلان محمد القحطاني، رفيق درب جهيمان، مهدياً[35]. قتل المحتلون أكثر من مائة شرطي سعودي قاموا بالهجوم عليهم. وفي الخامس من كانون الأول/ ديسمبر طردتهم من الحرم المكي فرقة من "مجموعة تدخل الشرطة الوطنية" الفرنسية اعتنقت الإسلام إبان عمليتها التي انتهت بعشرات القتلى. وأعدم أفراد المجموعة الثلاثة والستون المتبقون وكان من بينهم جهيمان. حافظ النظام على بقائة لا بل توطد وكان الثمن عنفاً مارسته قوة مسيحية ضد مسلمين ما دعم حجج المهزومين[36]. بعد سحق الحركة يقال إن "ألفاً وثمانمائة حكم بالإعدام قد صدر ونفِّذ"[37].

---

(34) Gilles Kepel, *Fitna: Guerre au cœur de l'Islam* (Paris: Gallimard, 2007), p. 251.

(35) في سبيل أفضل تحليل لهذا الحدث يستند، في ما يستند إليه، إلى لقاءات مع من بقيوا على قيد الحياة، انظر:
Thomas Hegg-Hammer et Stéphane Lacroix, "Rejectionist Islamism in Saudi Arabia: The Story of Juhayman al-'Utaybi revisited," *Middle East Studies*, no. 39 (2007), pp. 103-122.

(36) Wright, *The Looming Tower. Al-Qaeda and the Road to 9/ 11*, p. 90 et suivantes.

(37) Burgat, *L'Islamisme en face*, p. 122.

صحيح أن هذا الاحتلال المسلح للأماكن المقدسة الإسلامية قد قوبل بالإدانة من قبل العلماء السنة وحتى الشيعة، بدءاً بآية الله الخميني، علماً أن مؤيديه انتفضوا بعد بضعة أيام في مكة للتنديد بتحالف السعودية مع الولايات المتحدة. بيد أن الحدث قد كسر صورة الإسلام السنّي المنصاع وأظهر إمكانيات الثورة الكامنة حتى في مجتمع تبلغ السيطرة فيه ما بلغته في السعودية وذلك من أجل إضفاء قيمة متجددة على تفسير الإسلام بطريقة ثورية.

وصار كل شيء يشير بعدها إلى أن التيار الوهابي، الذي يُستخدم على حد سواء كشرطة آداب وكضمانة روحية ودينية للسلالة الحاكمة، بدأ يظهر مؤشرات ضعف وأثبت أنه عاجز عن مواجهة التطرّف الديني. وهكذا فشل خيار "الحزام الأخضر" الذي دعت إليه واشنطن في إنتاج موقف منصاع للأنظمة المؤيدة للأميركيين. والأهم كذلك أن الإسلاميين، الذين كان اليسار ينظر إليهم على أنهم عملاء الإمبريالية، سواء أكانوا سلبيين أو ناشطين في العالم الإسلامي، بدؤوا يظهرون في دور المعارضين المسلحين ضد نظام مؤيد للأميركيين.

اتفاقات كمب ديفيد واحتلال أفغانستان:

"خيانة" حركات اليسار الوطنية والأممية

شكل اتفاق سلام واشنطن في 26 آذار/ مارس 1979 بين مناحيم بيغين، رئيس الوزراء الإسرائيلي، وأنور السادات، الرئيس المصري خليفة عبد الناصر الأسطورة، والذي تلا قمة كمب ديفيد بين 5 و 17 أيلول/ سبتمبر 1978، حدثاً هزّ بعمق المنطقة في خلال ذلك العام المصيري.

ليس من الضروري أن نحلل هنا أسباب تغيير مصر وجهتها ولا أسباب انتقالها، المدهش كذلك، من المعسكر السوفييتي إلى المعسكر الأميركي. يكفي أن نذكر بأن اتفاقية السلام التي وقعت بعد سنوات قليلة على حرب رمضان (6-26 تشرين الأول/ أكتوبر 1973)، وقد شكلت "أول نصر" و"آخر هزيمة" عربية[38] في آن، قد سمحت لمصر باستعادة صحراء سيناء منزوعة السلاح في مقابل الاعتراف بإسرائيل وقد اعتبرت خيانة حقيقية للقضية الفلسطينية في أرجاء العالم العربي كافة. كما أعلنت نهاية القيادة المصرية ضمن "المعسكر الثوري العربي" الذي تشرذم إلى عدد من الأنظمة "الراديكالية" المتعادية، هي سوريا والعراق وليبيا.

لم يعنِ كمب ديفيد الصلح بين مصر وإسرائيل وحسب لأنه اندرج في سياق آلية طويلة للخروج من "الناصرية" التي انتقدها السادات بعبارات قاسية للغاية[39]. وقد انحاز "الرّيس" الجديد، إلى حد ما، إلى معارضيه التاريخيين كالإخوان المسلمين في مصر وبقية العالم العربي، من خلال هذه الهجمات اللاذعة.

ألقى خروج مصر من المعسكر الراديكالي العربي بظلاله على اليسار الوطني العربي ورد الاعتبار إلى المعارضة الإسلامية التي كانت قد تميزت بمعاداتها الناصرية. وقد استنكر الشباب بشكل خاص هذه "الخيانة" ولم تكن الوحيدة. وقف إلى جانبهم جزء من علماء الدين ممن يميلون بشكل خاص إلى الناصرية، بحسب عبارة المعارض الإسلامي التونسي، راشد الغنوشي، الذين أصبحوا بدورهم يتامى[40].

(38) Corm, *Le Proche-Orient éclaté 1956-2000*, p. 355.

(39) Bahgat Korany, "Vallée du Nil," dans: Bahgat Korany [et al.], *Les Régimes politiques arabes* (Parid: PUF, 1990), p. 259.

(40) Cité par: Burgat, *L'Islamisme en face*, p. 50.

مع العام 1979، انتقل عدد كبير من هؤلاء العلماء الشباب إلى المعارضة و"احتلوا المجال الخطابي وساهموا في تقديم خدمات اقتصادية واجتماعية ليسدّوا الثغرات التي تتركها الدولة"[41]. ظهرت صورة جديدة في الإسلام هي "شيخ الأطراف" المعارض[42]، سواء في مصر وسواها من بلدان العالم العربي. فصدمة كمب ديفيد قد تركت أثرها في ما وراء مصر، ولاسيّما في السودان حيث جرى الانقلاب على النميري في العام 1985. ودخلت البلاد في أزمة انتهت بانتصار تيار "الإخوان" ثم انتصار الإسلامي حسن الترابي.

وقع الحدث الأخير في آخر أيام هذه السنة المضطربة، حينما دخل مائة ألف جندي سوفييتي إلى أفغانستان. شهد هذا البلد الذي يقع على أطراف الشرق الأوسط عدم استقرار مزمن منذ الإطاحة بالملك زاهر شاه من قبل عسكري هو علي محمد داوود في العام 1973. وفي العام 1975، حاولت المعارضة الإسلامية القيام بانقلاب وتمرد عسكري سرعان ما سحقا، لكنها أضعفت السلطة الجديدة عند لجوئها إلى السلاح. وفي نيسان/ أبريل 1978، أطاح نور محمد طرقي بداوود خان بدوره. وطرقي هو جنرال مؤيد للسوفييت من غير أعضاء الحزب الديمقراطي للشعب الأفغاني. وجاء اغتيال طرقي في أيلول/ سبتمبر 1979 نتيجة انقلاب دامٍ جديد قامت به مجموعة "خلق" في هذا الحزب بقيادة حفيظ الله أمين.

عمّق هذا الانقلاب الأخير حالة التوتر في البلاد كما في داخل

---

(41) Malika Zeghal, *Gardiens de l'islam*: *Les oulémas d'Al-Azhar dans l'Egypte contemporaine* (Paris: Sciences Po, 1996), pp. 29-31.

(42) Ibid.

الحزب الديمقراطي للشعب الأفغاني. عانى النظام الجديد من عجز في فرض سلطته وقد استشف جيل دورونسورو (Gilles Dorronsoro) في هذا العجز نتيجة الديناميكيات الثورية التي زادت من حدة المتطرفين المستندين إلى شبكات التضامن في داخل الحزب[43]، ما أفضى إلى طريق مسدود ثم إلى الغزو السوفييتي. في 27 كانون الأول/ ديسمبر 1979، دمر الجيش الأحمر القصر الرئاسي وقتل نصيره السابق، حفيظ الله أمين. شرعنت موسكو وجودها العسكري فيما بعد بواسطة طلب التدخل الذي قدمته الحكومة الجديدة برئاسة بابراك كارمال، قائد جناح "برشام" (الراية) في الحزب الذي أسسه بنفسه بعد الاحتلال. حطم هذا التبرير المصطنع تحطيماً كاملاً الصورة التي كان الاتحاد السوفييتي يرسمها لنفسه كحليف للعالم الإسلامي.

استند النظام الجديد إلى "نخبة مؤقتة"، مؤلفة في الجزء الأساسي منها من شخصيات متعلمة. فمن أصل 841 مندوباً شاركوا في مؤتمر الحزب في العام 1982، تلقى 431 منهم تعليماً عالياً وحظيوا بخبرة عسكرية، وقد دخل 667 منهم في الحزب ما بين عامي 1966 و1978. لكنهم لم يتمتعوا بأي نفوذ في خارج نطاق بضع مدن كبرى. ولم ينجح الحزب في تنظيم انتخابات في الريف في عامي 1985-1986 إلا في 180 قرية من أصل 628 في منطقة كابل، علماً أنها الأكثر وقوعاً تحت سيطرته. كان 92% من جنود النظام من العاصمة ما يدل على محدودية تأثير الحزب في سائر أنحاء البلاد[44]. ولم تكن نتيجة الإصلاحات

(43) Dorronsoro, *La Révolution afghane*, p. 105.

(44) Anthony Arnold, "The Ephemeral Elite: The Failure of Socialist Afghanistan," in: Myron Weiner dans Ali Baniazizi, *The Politics of Social Transformation in Afghanistan, Iran, and Pakistan* (Syracuse: Syracuse =

"المضادة للاقطاع" أو المحرِّرة التي قامت بها السلطة سوى الرفض الواسع لدى سكان الريف الذين هدفت إلى تحريرهم[45].

انحنت كابل تحت وطأة نظام أمني ركيزته الخوف[46]، لكن مقاومة سكان الريف والمدن في خارج العاصمة تزايدت. صحيح أنها اتخذت اسم الجهاد، على غرار الكثير من الحروب المناهضة للاستعمار في العالم الإسلامي، إلا أنها لم تندرج، في المرحلة الأولى على الأقل، ضمن مشروع إقامة نظام إسلامي. وقد أعلنت طابعها الجهادي لأن الدعوة الدينية تعطي معنى لتعبئة مختلف العصبيات القبلية التي أخذها على عاتقهم قادة عسكريون جدد، ومنهم مسعود أحمد شاه (1953-2001) واسماعيل خان، واستاذ صبغة الله خان وجلال الدين حقاني. تشكل قادة المقاومة ضمن نخبة مضادة[47] بقدر ما كانت لهم تجاربهم السياسية والعسكرية وقدرتهم الكارزمية ومعرفتهم الدينية التي اكتسبوها في المدارس الدينية أو في حرب العصابات. كانت الغالبية بينهم من الشبان الذين ولدوا بعد العام 1948 (68 قائداً من أصل 120). حمل أربعة وستون منهم شهادة ثانوية أو جامعية وتخرّج اثنان وعشرون منهم فقط من المدارس الدينية فيما لم يحظَ سبعة قادة بأي تعليم[48]. أجبرت

University Press, 1994), pp. 35-71. =

(45) Barnett R. Rubin, "Redistribution and the State in Afghanistan. The Red Revolution Turns Green," in: Ibid., pp. 187-227.

(46) André Velter et Emmanuel Delloye, "Bazars: Etat des lieux," *Autrement*, no. 83 (1986), pp. 76-84.

(47) حول أصول القادة الاجتماعية، انظر:
Dorronsoro, *La Révolution afghane*, p. 128.

(48) Olivier Roy, "The New Political Elite in Afghanistan," in: Weiner dans Baniazizi, *The Politics of Social Transformation in Afghanistan, Iran, and Pakistan*, pp. 72-100.

المقاومة القوات السوفييتية على البقاء في المناطق الحضرية، أما في الأماكن الأخرى فقد لجأت من دون جدوى إلى "الولاءات التقليدية" لتحصل على بعض المواقع[49] أو قامت بقصف المناطق الريفية مسببة آلاماً فظيعة.

اندرج كل من الأحداث الأربعة في تاريخ خاص به. بيد أن شبه تزامن هذه الأحداث مكّنها من التأثير في الذاتيات الشرق أوسطية وفي المعالم التي اعتادت أجيال كاملة من العسكر والبيروقراطيين والطلاب والمفكرين الاستنارة بها للنظر إلى العالم وإلى أنفسهم فيه. وهكذا فإن الكثير من المقولات، التي لم يكن منها مفر في اللغة السياسية إبان سبعينيات القرن العشرين، كمقولات معاداة الإمبريالية وفكرة التقدم وتحرّر الأمة وفكرة تحرّر الجنس البشري المعايشة لها، لم تعد فجأة صالحة للعمل فأخلت المكان أمام مقولات أخرى كثنائي دار الإسلام/ دار الحرب أو الجهاد. وبعد أكثر من عشرين عاماً على إعدام سيد قطب على يد نظام خان في ما بعد العهود التي قطعها على نفسه، اكتسبت الإسلاموية المكروهة حتى ذلك الحين شرعيتها الثورية لتحل بالسلاح محل القومية العربية واليسار الوطني والأممي بوصفها القوة الأولى المناهضة للإمبريالية. وأدّت في سياقها إلى تحوّل بعض الماركسيين القدامى، أمثال عادل حسين وعبد الوهاب المسيري، نحو الإسلاموية المتطرفة ليشكلوا كوادر تنظيم الجهاد الإسلامي المصري[50].

وكذلك، في ما كانت إيران، الأرض غير العربية وغير السنية في

(49) Robert L. Canfield, "Afghanistan's Social Identities in Crisis," dans: Jean-Pierre Digard, dir., *Le Fait ethnique en Iran et en Afghanistan* (Paris: CNRS, 1988), p. 191.

(50) Olivier Roy, *L'Islam mondialisé* (Paris: Seuil, 2002), p. 30.

غالبيتها، "شرطي الإمبريالية الأميركية" مع إسرائيل وتركيا في الشرق الأوسط، تكتسب مركزية سياسية لا سابق لها في العالم الإسلامي، أكدت مشاهد الانتفاضة في مكة أن المناضلين الوهابيين السنّة باستطاعتهم أن ينجذبوا هم أيضاً نحو الخيار الثوري.

أخيراً، لم يقم غزو أفغانستان بإعادة تحديد الشرق الأوسط وحسب. فهو، إذ جمع بين المعارضات الأفغانية والآمال العربية، قد حرم "اليسار الأممي" من أي مصداقية. وإذ كان اليسار يحظى بجلال صفة المقاوم، فقد تحوّل إلى طابور خامس حقيقي في خدمة إمبراطورية ظالمة. ليس من قبيل المبالغة القول إن "اليسار الثوري" بكل تلاوينه قد انهار في الشرق الأوسط قبل عشر سنوات على انهياره في سائر أرجاء العالم.

الفصل السابع

حروب الثمانينيات
الشهيد والمجاهد والميليشيوي

إتسم العقد الذي تلى هذا العام المليء بالأحداث المهمة بحروب ثلاث طويلة: بين إيران والعراق، وفي أفغانستان وفي لبنان، لتنتج كل واحدة منها صورة رمزية جديدة. اندرجت حرب العراق في استمرارية الثورة الإيرانية وحملت إلى الواجهة صورة الشهيد بوصفها الغاية النهائية التي ينشدها كل مقاتل مسلم، في حين أن حرب أفغانستان دفعت صورة المجاهد إلى مقدمة العالم الإسلامي. أما الحرب الأهلية اللبنانية التي نعمل على تحليلها بالتفصيل هنا لشد ما هي محورية من أجل فهم النزاعات الطائفية في الشرق الأوسط، فقد أصبحت مسرح العمل الميليشيوي وبالأخص في الوسط المديني.

حرب إيران والعراق

في 17 أيلول/ سبتمبر 1980، استغل صدام حسين ضعف إيران التي دفع جيشها ثمناً باهظاً لعمليات التطهير ما بعد الثورة، ليعلن بطلان المعاهدة التي تنظم الخلافات حول الأراضي بين البلدين والتي كان قد وقعها بنفسه في العام 1975. وبعد ستة أيام على هذا الإعلان هاجم جيشه إيران.

هدفت هذه الحرب في الحقيقة إلى الاستيلاء على خوزستان وسكانها عرب في غالبيتهم، في حين أن الخلافات الحدودية ومحاولات إيران تصدير الثورة إلى جارها العراقي كانت مجرد ذريعة لشن الحرب. بررت بغداد عملها، التي أطلقت عليه اسم الجهاد واسم "قادسية صدام"[1] مستخدمة القرآن و"مبادئ حزبنا (البعث) المناضل وثورة تموز العظمى [1968]"[2]. وكذلك في إيران، اعتبر النزاع معركة وطنية وحرباً في سبيل الله. شجع النظام الإسلامي التطوع من أجل توجيه الطاقات الثورية كما من أجل تقوية سيطرته على الجيش. وفي العام 1982، بعد سريان شائعات عن حدوث انقلاب، استبعد اثني عشر ألف ضابط من الفرق التي كانوا ملتحقين بها وتم تهميش الجيش بشكل تدريجي لتحل محله قوة عسكرية أخرى هي جيش حراس الثورة الإسلامية المعروف باسم البازدران بقيادة محسن رضا.

دلت حرب الخليج الأولى هذه على أن الدول صارت تمتلك موارد اقتصادية متعددة واستقلالية عمل تحرّرها من نظام الأمن الجماعي المستند إلى قدسية الحدود والنضال المشترك ضد "تخريب" الأقليات الإثنية والمذهبية من أجل أن تطمح إلى تحقيق هيمنة إقليمية[3]. وإذ استقوت بهذا الهدف، خاطرت بتقديم مساندة عسكرية إلى الحركات المعارضة في الدولة العدوة، كحركات الأكراد الإيرانيين ومجاهدي

(1) في إشارة إلى معركة القادسية في العام 636 بعد الميلاد بين الجيوش المسلمة والإمبراطورية الساسانية.

(2) Jean-Paul Charnay, *Principes de stratégie arabe* (Paris: L'Herne, 2003), p. 270.

(3) Susanne Maloney, "Identity and Change in Iran's Foreign Policy," in: Shibley Telhami and Michael Barnett, dir., *Identity and Foreign Policy in the Middle East* (Ithaca; London: Cornell University Press, 2002), p. 107.

خلق المدعومين من العراق أو التنظيمات الكردية والشيعية العراقية التي استقبلتها طهران بذراعين مفتوحين.

دارت الحرب في الخنادق التقليدية على غرار الحرب العالمية الأولى وسجلت كذلك قطيعة مع منطق الانقسام بين "الشرق والغرب" الذي كان الشرق الأوسط سجيناً له حتى ذلك التاريخ. فحتى النزاعات التي لم تكن متصلة، مبدئياً، بالمواجهة بين الكتلتين الشرقية والغربية، كانت مرتهنة لمتطلبات وقيود الحرب الباردة. وهكذا، هجرت إيران نهائياً الحضن الأميركي من دون أن تدخل البتة في علاقة تبعية مع الاتحاد السوفييتي، في حين أن العراق الذي لم يكن تابعاً أياً من هاتين الكتلتين، لم يحظ بالدعم الغربي إلا بسبب عدائه للثورة الإسلامية.

مع كون هذا النزاع مؤشراً على اكتساب الدول قوة جديدة، فقد شكل أفضل برهان على استحالة انتهاء أي حرب تقليدية بانتصار أحد الطرفين فيها. فالهجوم الكاسح الذي قام به العراق لم يؤمن له أي انتصار دائم. وابتداءً من العام 1982، عمدت إيران إلى القيام بهجمات مضادة متوالية ولكن غير حاسمة. فلا استخدام العراق الأسلحة الكيميائية بدءاً بالعام 1983[4]، ولا الهجمات المتبادلة بالصورايخ على المدن أو "حرب الناقلات" التي استهدفت نقل النفط الخام لم تغير من توازن القوى بين البلدين. وكذلك، بقي الجمود سيد الموقف على الرغم من الدعم الأوروبي والأميركي لنظام بغداد[5] الذي وصل إلى حد

(4) Murray Waas, "What Washington Gave Saddam for Christmas," in: Micah Sifry and Christophe Cerf, dir., *The Iraq War Reader* (New York et London: Touchstone, 2003), et Joost R. Hiltermann, "The Man who Helped the Man who Gassed his Own Population," in: Ibid., pp. 30-39 et 40-44.

(5) شارك واحد وعشرون بلداً وحوالي أربع مائة وخمسون مؤسسة في تسليح العراق بالسلاح التقليدي وغير التقليدي. انظر على وجه الخصوص الكتاب الموثق بعناية لـ: =

الانخراط العسكري، كما حصل في العام 1988 في الفاو حيث أصيبت فرقاطة أميركية بأضرار نتيجة اصطدامها بلغم إيراني ما أدى إلى حدوث رد أميركي قوي دمّر العديد من السفن العسكرية.

في ما يتعدى هذه المظاهر المتصلة بالتاريخ العسكري، فإن الحرب وموكب ضحايا الثمانمائة ألف قد أثرت في النفوس ولاسيّما من خلال ظاهرة الشهيد التي ولدت آنذاك. فالشباب الإيراني المتطوّع في ميليشيا "المستضعفين" ضحى بنفسه بعشرات الآلاف وفي أحيان كثيرة بأجساد عارية في ساحات القتال. حلّ هؤلاء المراهقون محل رفاقهم أو الأكبر منهم الذين سقطوا إبان الثورة وأعلنوا نهاية تقليد الاستشهاد الشيعي المرتكز على "التباكي المستكين"[6] الذي يقبل الألم كمحنة أرادها الخالق. وقد قدم آية الله الخميني أصغرهم سناً واسمه محمد حسين فهميده، البالغ من العمر اثني عشر عاماً، بوصفه "مرشدنا". كما ضم المتحف الذي كرس لذكرى الشهداء في طهران تسع وستين امرأة أيضاً[7].

يشكل هؤلاء الشهداء بمعنى ما، تتويجاً للثورة ورداً على فشلها. هو تتويج لأن "الاستضعاف ("باسيدج") هو البؤرة التي اختلطت فيها لبضع سنوات سجل (أو سجلات) المجتمع والدولة. ولكان هذا الأمر غير معقول في الطائفة الشيعية التقليدية حيث ما يتعلق بالدولة يتطابق مع

= Kenneth R. Timmerman, *Le Lobby de la mort: Comment l'Occident a armé l'Irak* (Paris: Calmann-Lévy, 1991).

(6) Farhad Khosrokavar, *Les Nouveaux Martyrs d'Allah* (Paris: Flammarion, 2002), p. 75.

(7) Joyce M. Davis, *Martyrs: Innocence, Vengeance and Despair in the Middle East* (New York: Palgrave, 2003), pp. 48-51.

منطق العنف والخوف"[8]. قام الخميني وهو بؤرة الاندماج بين الاستشهاد والقضية، بإعادة تعريف الاثنين على أسس جديدة. احتل الشبان من سن الثانية عشرة وحتى السابعة عشرة موقعاً مركزياً بفضل بطولتهم وأثبتوا أنهم قادرون على تغيير التراتبيات حتى أصبحوا في بعض الحالات "فَوْراشدين"[9]. إلا أن هذا التتويج هو بمثابة فشل لأن هؤلاء الشهداء هم صدى متأخر للتصنيف الذي اقترحه علي شريعتي: "فلسفة المجاهد لا تتطابق مع فلسفة الشهيد (...). الشهيد بالمعنى الحصري للكلمة هو وصية (تأتي) بعد الجهاد. يتدخل حين يفشل المجاهد"[10]. إن عجز المجاهد الحقيقي عن تأمين الدفاع عن "وطن الثورة" يدفع الشبان إلى التضحية بأنفسهم باسمه من دون أن يكونوا متأكدين من النصر. وبهذا المعنى، يصير الشهيد الإيراني رمز روح التضحية الثورية، وكذلك في العالم العربي السنّي مع أن هذا الأخير ساند العراق بشدة على امتداد فترة الحرب[11].

---

(8) Khosrokavar, Ibid., p. 130

(9) Ibid., p. 132

(10) Cité in: Ibid., p. 74.

إن هذه الفقرة لعلي شريعتي تستحق أن تذكر على الرغم من حجمها:

"خرج رجل من منزل فاطمة. حمل بين ذراعيه عبء مسؤولياته الثقيل. هو وريث ألم الإنسان العظيم، ووريث آدم الوحيد، ووريث إبراهيم الوحيد، ووريث محمد الوحيد (...).

"خرج رجل من منزل فاطمة، وحيداً لا أحد معه، خالي اليدين، حاملاً سيف الثورة ضد حتمية الوحشية والجاهلية. لم يكن أمامه حل سوى الموت! لكنه ابن عائلة علّمته في مدرسة الحياة فن إتقان الموت (...).

"نهض الآن ليعلم من لا يفهمون القتال المقدس (...) ولا يفهمون أن شهادة الشهيد ليست هزيمة بل هي خيار، وخيار يصير فيه المقاتل، حين يضحي بنفسه، منتصراً على عتبة زمن الحرية وعلى مذبح الحب".

(11) Eric Butel, "Martyre et sainteté dans la littérature de guerre Iran-Irak," dans: Catherine Mayeur-Jaouen, dirs., *Saints et héros du Moyen-Orient contemporain* (Paris: Maisonneuve et Larose, 2002), pp. 301-317.

الجهاد الأفغاني ونشوء المجاهدين

دارت الحرب الثانية في أفغانستان حيث موّلت السعودية بدعم رسمي من الولايات المتحدة، الجهاد الذي أطلقه المقاومون ضد الاتحاد السوفييتي في حين أن باكستان أمنت التنسيق واللوجستية.

ابتداءً من منتصف العقد، بدا من الواضح أن سياسة الجيش الأحمر القمعية لا تستطيع كسر شوكة المقاومة الأفغانية. كما أن التحولات في الاتحاد السوفييتي، في خضم عملية البيريسترويكا، قد جعلت فك ارتباط القوات السوفييتية أمراً محتوماً. في العام 1986، ترك بابراك كارمال السلطة رسمياً لأسباب صحية وحل محله نجيب الله محمد الذي أمّن خروج الاحتلال. في العام 1989، تاريخ انسحاب الجيش الأحمر، قُدِّر عدد الضحايا بأكثر من مائة ألف، يضاف إليهم عدة مئات آلاف المهجرين الذين جمعوا في مخيمات في باكستان وإيران.

على عكس ما هو متوقع، بقي نجيب الله في السلطة بضع سنوات إضافية مستفيداً من انقسام أمراء الحرب الشديد ومن مواجهاتهم الداخلية. بيد أن حركة طالبان قد أعدمته وأخاه في العام 1996، وقد كانت قوة جديدة ناشئة في أساسها من تحوّل طلاب الدين إلى ميليشيا مسلحة. حظيت طالبان بدعم باكستان لكنها كانت حريصة على استقلاليتها واستولت بسرعة على مدن حيرات (1995) وكابل (1996) ومزار شريف (1997)، وهي المدينة ذات الغالبية الشيعية، حيث اقترفت الحركة مذابح لأيام عدة أدّت إلى وقوع حوالي خمسة آلاف ضحية. يمكن تفسير نجاح طالبان السريع من طريق عوامل عدة، من بينها شخصية مرشدها الملا عمر الكارزمية وقدرة الحركة على صياغة الجهاد بصيغة

"لاسياسية في جوهرها"[12] وبصيغة أمنية وبوريتانية كذلك، وأيضاً من طريق مهارتها في فرض نفسها بوصفها الحل الوحيد لعدم الاستقرار السائد في البلاد التي كانت واقعة فريسة مواجهات دامية بين المقاومين السابقين بين عامي 1989 و1996. على الرغم من بعض التحفظات، ساندت واشنطن الحركة ثم ساندت نظامها جزئياً لأنه يشكل البديل الوحيد: "لاخلاف لدينا مع طالبان في ما يتعلق بشرعيتها السياسية أو عدمها"[13] كما قال أحد الناطقين باسم الأميركيين في التسعينيات[14].

يعتبر النزاع الأفغاني حرب عصابات وعنفاً ميليشيوياً وعنفاً مخصخصاً يندرج في منطق الحرب الباردة المتعدد في خلال سنوات المواجهة التسع. كما يشكل معمودية النار بالنسبة إلى عشرات آلاف المناضلين العرب أو من جنسيات مختلفة (بعضها من آسيا الوسطى وتركية). في هذه الحرب، كما في الحرب بين العراق وإيران، قامت صورة المجاهد بدور مركزي كمرجعية لاكتساب الشرعية وأفق عمل المقاتلين، سواء أكانوا أفغاناً أم غير أفغان[15]. وابتداءً من العام 1989، عاد هؤلاء السعوديون والمصريون والجزائريون والأردنيون

---

(12) Gilles Dorronsoro, "Désordre et légitimité du politique en Afghanistan," *Cultures et Conflits*, no. 24/ 2 5 (1997), p. 153.

(13) نائب وزير الخارجية الأميركي، روبين رافيل، ذكره:
William Maley, *Rescuing Afghanistan* (London: Hurst & Company, 2006), p. 21.

(14) في ما خص "العلاقات السرية" بين الولايات المتحدة والأوساط الإسلاموية، انظر:
Jean-Charles Brisard et Guillaume Dasquié, *Ben Laden: La vérité interdite* (Paris: Denoël, 2002).

(15) Pierre Centlivres et Micheline Centlivres-Demont, "Les martyrs afghans par le texte et l'image (1978-1992)," dans: Catherine Mayeur-Jaouen, dir., *Saints et héros du Moyen-Orient contemporain* (Paris: Maisonneuve et Larose, 2002), pp. 319-333.

والفلسطينيون إلى بلدانهم حاملين خبرة عسكرية أكيدة وهيبة المقاتلين المنتصرين. وقد تركوا لنا أيضاً شهادات عديدة على نشوء حسهم الاجتماعي في خلال الحرب، كشهادة السوري لؤي بايزيد المهاجر إلى الولايات المتحدة. يعرِّف هذا الكادر الشاب عن نفسه بوصفه فرد من "الطبقة الوسطى الأميركية" لم يكن مؤمناً قبل سفره. يقول: "ذهبت إلى أفغانستان من دون أن يكون لدي رأي محدد بل كنت أحمل فقط استعدادات جيدة [...]. كان كل شيء غريباً للغاية. بعد هذه التجربة لم يعد من السهل المغادرة والعودة إلى الحياة العادية". حمل لؤي في الحرب لقب أبو رضى السوري(16).

أرضى "تصدير" أشكال التطرف هذه نحو جبهة بعيدة الدول العربية كما أرضى المناضلين الإسلاميين "القدماء" من جيل قطب. فقد رأت الدول في الحرب متنفساً جيداً، إذ من الأفضل ترك الشبان يستجيبون لنداءات الرومنطيقية الحربية ليحاربوا في مكان آخر بدل رؤيتهم يتحركون في الداخل. أما في ما خص الوجوه الإسلامية القديمة، فقد فكرت بالاستفادة من هذا الالتزام في البعيد وقد كانت أحياناً من منظميه الأساسيين، من أجل تأمين نوع من الحصانة إزاء السلطة لتحصد بالوكالة مجد المقاتلين.

شهدت الحقبة الأفغانية ولادة أسطورة كثيرين من العرب الذين لا يقهرون، بدءاً بأسامة بن لادن. كثيرون هم في الحقيقة الأبطال الذين ظهروا في هذا المجال غير الإقليمي، من بينهم عبد الله عزّام الذائع الصيت الذي يعتبر أن الجهاد فرض ديني يقع على الأمة كلها من أجل

(16) Lawrence Wright, *The Looming Tower: Al Qaeda and the Road to 9/ 11* (New York: Alfred A. Knopf, 2006), pp. 109-110.

تحرير الشعب وتأمين العدالة الإسلامية وحماية الدين. دعا عزّام إلى نشر الإسلام عبر العالم وشرح معنى الجهاد بقوله إنه يعني قتل الكافرين باسم الله ورفع راية اسمه. واعتبر أنه لا يريد القيام بالجهاد الأكبر من خلال كلمات تقال فقط على المنابر أو من خلال مقالات تكتب في الصحف. فالجهاد بحسب مشيئة الله يكون حصراً في محاربة الكافر بالسيف حتى يرضخ(17).

عادى الجهاد الأفغاني السوفييت من حيث الضرورة لكنه عادى كذلك الأميركيين من حيث المبدأ. يشرح سلمان العودة، أحد مرشدي بن لادن الروحيين هذا الأمر بالقول إن المضطهِدين هم سيوف الله على الأرض، فالله ينتقم في البداية من خلالهم ثم ينتقم منهم. في عيون المسلمين هو الله نفسه الذي استخدم الولايات المتحدة من أجل تدمير الإتحاد السوفييتي والآن سينتقم من الأميركيين بتدميرهم بدورهم(18).

---

(17) Peter L. Bergen, *The Osama bin Laden I Know: An Oral History of Al-Qaida's Leader* (New York: Free Press, 2006), p. 35.

يقول عزام في كتابه الدفاع عن أراضي المسلمين أهم فروض الأعيان (*La défense des territoires musulmans*):

"من استطاع من العرب أن يجاهد في فلسطين فعليه أن يبدأ بها ومن لم يستطع فعليه أن يذهب إلى أفغانستان، أما بقية المسلمين فإني أرى أن يبدؤوا جهادهم في أفغانستان (...) إن القضية في أفغانستان لا تزال بيد المجاهدين، ولا يزالون يرفضون المساعدة من الدول المشركة، بينما اعتمدت الثورة الفلسطينية كلياً على الاتحاد السوفييتي. (...) إن حدود أفغانستان مفتوحة أمام المجاهدين، فهناك أكثر من ثلاثة آلاف كلم من الحدود المفتوحة، بالإضافة إلى أن حول أفغانستان مناطق القبائل التي لا تخضع لسلطة سياسية، وهذه تشكل درعاً حصيناً للمجاهدين"

Jean-Pierre Filiu, *Les frontières du djihad* (Paris: Fayard, 2006), p. 115.

(18) Fawaz A. Gerges, *Journey of the Jihadist, Inside Muslim Militancy* (Harcourt Inc., Orlando & Austin, 2006), p. 103.

1958-1975: الأزمة اللبنانية

بدأت الحرب الأهلية اللبنانية بشكل رسمي في العام 1975، وحتى بشكل غير رسمي في العام 1958، وخلطت في غضون بضع سنوات مجمل المقولات السياسية والتحليلية التي تستخدمها الأطراف الفاعلة والمراقبون للحديث عن هذا البلد. سواء أكانت القوات المتنازعة "تقدمية" أو "رجعية"، مسيحية أو إسلامية[19] فإنها تتقولب في النهاية انطلاقاً من الرحم ذاته. تلجأ جميعها إلى تقنيات العنف نفسه، من استخدام القنّاصين ضد المدنيين والحواجز الطيارة لمنع حرية انتقال السكان والسيارات المفخخة، كل هذا في سبيل تحويل النزاع إلى حرب "ذات طابع ميليشيوي ضد سكان مدنيين من جميع الطوائف، وليست حرباً بين الطوائف، كما وصفتها وسائل الإعلام باستفاضة"[20].

اندرجت الأزمة اللبنانية في سياق تاريخ سياسي وثقافي طويل ومتناقض وهي تُفسَّر بفعل مجموعة من العوامل، بدءاً بـ"ثقافة الجبل" التي تنتج العشائر والزعماء والولاءات والعنف، وصولاً إلى المسار الخاص بهذا البلد، الأكثر تغريباً والأكثر "عثمانية" والأكثر "طائفية" في العالم العربي[21].

(19) Elizabeth Picard, *Liban Etat de discorde: Des fondations aux guerres fratricides* (Paris: Flammarion, 1988).

(20) Georges Corm, *Conflits et identités au Moyen-Orient* (*1919-1991*) (Paris: Arcantère, 1992), p. 163.

يكمل جورج قرم قائلاً: "وهكذا، فإن المسؤولين الحقيقيين عن المجازر قد كوفئوا وكُرّموا، في حين أن من يناضلون بطريقة سلمية من أجل السلام، أي الأغلبية الساحقة من اللبنانيين قد اعتبروا عنيفين من حيث تركيبتهم الوراثية وكانوا موضع تحقير ومضايقات في الدول الديمقراطية".(ص 164).

(21) Picard, *Liban Etat de discorde: Des fondations aux guerres fratricides*, pp. 22-23, 29.

أعطى التقسيم الطائفي امتيازاً واضحاً للمورانة والإسلام السنّة الذين منحهم الدستور حصة الأسد في مجلس النواب وكذلك على رأس الدولة، حيث كرسي الرئاسة ومنصب رئيس الوزراء، وهو أمر رهن الحياة السياسية اللبنانية منذ الاستقلال الذي أنجز في العام 1943. مما لاشك فيه أن القومية العربية تمتلك مؤيدين لها ضمن الطائفتين الإسلامية والمسيحية، ما يخفف عبء خطوط الانقسام الطائفي، إلا أن اغتيال الصحافي نجيب المتني في 8 أيار/ مايو 1958 أطلق موجة العنف الأولى. حاول الحزب المسيحي المستوحى من الحركة الفاشية أن يكسر بالقوة حركة الإضراب التي انتشرت بين السنّة على الأخص، رداً على هذا الاغتيال. وإذ شعر بعجزه، طلب مساندة واشنطن التي أرسلت عشرة آلاف جندي في 15 تموز/ يوليو 1958.

دلّت هذه الأحداث على أن السياسة الخارجية اللبنانية قد أصبحت مصدر نزاع على المستوى الداخلي، من حيث محاولة الرئيس كميل شمعون ضم لبنان إلى المعسكر الغربي في مقابل معارضة سنّية منحازة بغالبيتها إلى الناصرية وإلى القضية الفلسطينية[22]. على عكس ما ينص عليه الميثاق الوطني للعام 1943، أصبحت التحالفات مع القوى غير اللبنانية ورقة على الساحة السياسية مؤدية إما إلى طريق مسدود وإما إلى نزاع مسلّح لم تعد الأطراف المحلية قادرة على التحكم به من خلال ديناميكياتها الداخلية الخاصة بها.

تسبّب القمع الذي مورس في العام 1958 والمواجهات التي صحبته بسقوط حوالي أربعة آلاف قتيل قبل أن تُحل الأزمة بتعيين قائد الجيش، فؤاد شهاب، رئيساً للجمهورية. بدأت آنذاك مرحلة من

(22) Ibid., pp. 125-126.

الازدهار الاقتصادي لكنها كانت مصحوبة بعدد من المسائل الجوهرية غير المحسومة والتي شكلت أساس الأزمة. اتسم عقد الستينيات بعدم الاستقرار السياسي الذي ازدادت خطورته بسبب تأثيرات القضية الفلسطينية في الوضع اللبناني. ومع بداية العام 1966، ارتدت المواجهات بين المناضلين الفلسطينيين والجيش اللبناني شكل حرب علنية قامت بين ميليشيا الكتائب والفدائيين. وفي العامين 1968-1969، شبّت الخلافات بين الرئيس شارل حلو، الحريص على سيادة لبنان، وبين رشيد كرامي، رئيس وزرائه، والمدافع عن حق الفلسطينيين في المقاومة ضد إسرائيل، ما تسبب بهشاشة متزايدة أصابت النظام. وكانت اتفاقية القاهرة في 3 تشرين الثاني/ نوفمبر 1969، بين الطرفين وقد حظرت على الجيش اللبناني دخول المخيمات الفلسطينية، إلا أن المشاكل ظلت قائمة على أرض الواقع. حاول الجيش في أيار/ مايو من العام 1973 استعادة السيطرة على المخيمات الفلسطينية القريبة من بيروت ما أدى إلى قيام مظاهرات للسنّة في العاصمة وفي طرابلس وصيدا أيضاً وقع بنتيجتها مائة قتيل جراء القمع. وعادت المواجهات بعدها بين الكتائب والفدائيين في تموز/ يوليو 1974 ثم في نيسان/ أبريل 1975[23].

بيد أن المشكلة الفلسطينية لم تشكل عامل عدم الاستقرار الأوحد. في الساحة الداخلية أيضاً، كان التوتر على أشدّه في كثير من الأحيان، ولاسيّما ضمن الطائفة المارونية المنقسمة بين الكتائب من جهة والرئيس سليمان فرنجية من جهة ثانية، إلى درجة تسببت بوقوع انفجار داخلي في قلب الجيش اللبناني. وحين ابتعد الرئيس عن المواقف

(23) Ibid., pp. 139-141.

المؤيدة لإسرائيل، قام خصومه المسيحيون بقتل ابنه طوني وأسرته، فردت "عائلة فرنجية" في العام 1982 باغتيال ابنه بشير الجميّل.

في إطار أجواء مشحونة، تحولت مظاهرة نظمها صيادون في 27 شباط/ فبراير 1975 إلى مواجهات وقع ضحيتها عدد من المتظاهرين ومن بينهم رجل السياسة السنّي الناصري معروف سعد. ثم تعرّضت حافلة تقلّ مناضلين من منظمة التحرير الفلسطينية إلى إطلاق نار في 13 نيسان/ أبريل 1975 بالقرب من كنيسة عين الرمانة المارونية. وفي كانون الأول/ ديسمبر 1975، جاء اغتيال رولان سعادة، ابن الشخصية الكتائبية البارزة، جوزيف سعادة، ومعه العديد من الموارنة الآخرين ليؤذن ببدء المذابح المنظمة ضد المسلمين ("الجمعة السوداء" و"السبت الأسود"). خُطف مئات عدة من المدنيين المسلمين، من العمال في غالبيتهم، في الشارع، وقتلوا. ولّى زمن منطق الانتقام التقليدي، العين بالعين والسن بالسن، فجوزيف سعادة "أقسم على نعش ابنه أنه سيقتل 15 شخصاً مقابل كل شخص واحد، ثم 50 شخصاً مقابل كل شخص واحد. وسيصبح "جزّار" السبت الأسود، في 6 كانون الأول/ ديسمبر 1975، حيث قتل لوحده 75 مسلماً في بيروت الشرقية"[24].

أخيراً، ارتدى النزاع بعداً جديداً مع سوريا "التقدمية" وتدخلاتها الأكثر فأكثر قوة ضد الفلسطينيين، في حين أنه من المفترض بها أن تكون من بين حلفائهم. وفي العامين 1975-1976، سرّع حصار مخيم تل الزعتر الفلسطيني الآلية الموصلة إلى الحرب الأهلية. كان الحصار من فعل الكتائب لكن دمشق سمحت به وحتى إنها دعمته،

(24) Fawaz Traboulsi, "Société violente ou système de guerre," dans: Jean Hannoyer, dir., *Guerres civiles:Economies de la violence, dimensions de la civilité* (Paris: Karthala, 1999), p. 147.

وقد أدى إلى وقوع 4280 ضحية بين فلسطيني ولبناني[25]. وانتهى الأمر بالجيش السوري أن تدخل عسكرياً إلى جانب الموارنة ليلة 31 أيار/ مايو والأول من حزيران/ يونيو 1976، ما اعتبره اليسار اللبناني بمثابة "خيانة". وردّ حافظ الأسد على هذه الاتهامات بالقول إنه لن يتخلى أبداً عن الموارنة الذين لجؤوا للمرة الأولى في تاريخهم إلى بلد عربي من أجل إنقاذهم[26].

"كشفت الأزمة اللبنانية - الفلسطينية الخلاف الداخلي اللبناني وسّرعت به"[27] لكنها ليست الأزمة الوحيدة. ففي 16 آذار/ مارس 1977 جاء اغتيال القائد الدرزي، كمال جنبلاط، الذي نسب إلى دمشق، ليعمق هوّة الخلافات الداخلية. بيد أن النزاع لم يرتدِ حقاً حلّة الحرب الأهلية على النطاق الواسع إلا عندما قرّر الجيش الإسرائيلي غزو البلاد، في حين أنه كان في السابق قادراً على القيام بعمليات ملفتة في داخل بيروت، ضد القادة الفلسطينيين، كما في نيسان/ أبريل 1973، من دون أن يتكبد خسائر كبيرة.

جرى تبرير غزو السادس من حزيران/ يونيو 1982 من طريق الهجمات الفلسطينية على الحدود ومحاولة اغتيال السفير الإسرائيلي

---

(25) لم تجد هذه الضحايا مكاناً لها في التأريخ الرسمي الفلسطيني. وفي حين تبني منظمة التحرير الفلسطينية مدافن رمزية لمناضلي الجيش الأحمر الياباني الذين قتلوا من أجل القضية الفلسطينية، فإن التوازنات اللبنانية الداخلية تحظر عليها الاحتفال بذكرى الفلسطينيين الذين قتلتهم المنظمات اللبنانية.
Nadine Picaudou, *Territoires palestiniens de mémoire* (Paris: Karthala, 2006), pp. 191-218.

(26) Pierre Guingamp, *Hafez el Assad et le parti Ba'ath en Syrie* (Paris: L'Harmattan, 1996), p. 230.

(27) Elizabeth Picard, "A l'épreuve de la guerre du Liban," dans: Bernard Heyberger, *Chrétiens du monde arabe*: *Un archipel en terre d'islam* (Paris: Autrement, 2003), p. 151.

شلومو آرغوف في لندن من قبل مجموعة أبو نضال، هذا القائد الفلسطيني القريب من بغداد والذي حاول سابقاً قتل ياسر عرفات والمعروف عنه أنه يعمل بمعزل عن منظمة التحرير الفلسطينية. على الرغم من أن العمليات المسلحة الفلسطينية انطلاقاً من لبنان كانت متقطعة، إلا أنها أثارت بشكل واضح حفيظة الرأي العام وأصحاب القرار في إسرائيل (تسبّبت هذه العمليات بمقتل 150 شخصاً بين العامين 1960 و1990). وفي المقابل جاء الاحتلال الاسرائيلي للبنان لمدة ثلاث سنوات بعبء أكبر بكثير على البلدين: من حزيران/ يونيو 1982 إلى كانون الثاني/ يناير 1985، تاريخ انسحاب الجيش الإسرائيلي، خسر هذا الأخير 654 جندياً في حين جرح 3890 آخرون وسجل اختفاء أربعة جنود وانتحار عشرين منهم. كما كلفت الحرب الدولة العبرية 3,5 مليار دولار[28]، أما من الجانب اللبناني فقد سقط في لبنان ما لا يقل عن 29000 ضحية[29].

دلّ الغزو الإسرائيلي بوضوح على أن لبنان لم يعد يستطع الحفاظ على التوازن بين جارتيه المزعجتين بعد أن صارت المواجهة بينهما تدور على أرضه. يقول جورج قرم: "إذا كانت سوريا قد نجحت، في العام 1976، في ترهيب مجلس النواب لينتخب الياس سركيس الضعيف رئيساً للجمهورية بدل ريمون إده، فإن إسرائيل، بغزوها لبنان في العام 1982، فرضت على البلاد بواسطة القوة الأكثر وحشية (وبمباركة أميركية وصمت الأنظمة العربية المعتدلة) سلطة حزب الكتائب الطائفية عندما انتُخب الأَخوان جميّل على التوالي عنوة"[30].

(28) Picard, *Liban Etat de discorde: Des fondations aux guerres fratricides*, p. 255.

(29) Henry Laurens, "Cinquante ans de relations israélio-libanaises," dans: Franck Mermier et Elizabeth Picard, dir., *Le Liban: Une guerre de 33 jours* (Paris: La Découverte, 2006), p. 147.

(30) Corm, *Le proche-Orient éclaté 1956-2000*, pp. 76-77.

جرى اغتيال أول الأخوين، بشير، في 14 أيلول/ سبتمبر 1982، بعد ثلاثة أسابيع على انتخابه فوُضع شقيقه أمين مكانه. وكان رد الكتائب أن ارتكبت مجزرة منهجية في مخيمي صبرا وشاتيلا بعد أن كان المقاتلون الفلسطينيون قد أجبروا على إخلائهما. بين 16 و19 أيلول/ سبتمبر، أوقع العنف الكتائبي الذي تمتع بـ"حرية مطلقة" من دون معارضة ولا مقاومة "يجب الانتصار عليها"[31] أكثر من ألف ضحية. ويتهم التقرير، الذي أعده القاضي الإسرائيلي إسحق كاهان والذي نشر في ربيع العام 1983، الجيش الإسرائيلي الذي كان رابضاً على بضع خطوات، بأنه قد ترك الكتائب يتصرفون على هواهم. وقد حمّل هذا التقرير وزير الدفاع الإسرائيلي، أرييل شارون، "مسؤولية شخصية" فاضطر إلى الاستقالة من مهامه[32].

أسفر الاحتلال الإسرائيلي عن طرد منظمة التحرير الفلسطينية من بيروت، فوجدت ملجأً لها في تونس، لكنه افتتح مرحلة جديدة لبنانية- لبنانية من الحرب. في غياب الدولة التي كفّت عن الوجود في حين أن ما من قوة بدت قادرة على أن "تصبح دولة"، استولت الميليشيات على المدن وكذلك على الجبال والوديان التي تحولت إلى معسكرات تدريب. وسوّلت لكل ميليشيا طائفية نفسها أن تخلق "جمهوريتها" وتضع يدها، على النطاق المحلي، على صلاحيات الدولة من دون أن تتخلى في الأفق البعيد عن فكرة السيطرة على مجمل البلاد.

(31) Wofgang Sofsky, *Traité de la violence* (Paris: Gallimard, 1996), p. 158.

(32) في سبيل الاطلاع على حوارات مؤثرة أجريت بعد مرور عشرين عاماً على الأحداث مع مقترفي المجزرة، انظر الفيلم الوثائقي لـ:
Monika Gorgmann, *Lokman Slim et Herman Theissen, Massaker* (France; Liban; Suisse: Allemagne, 2004), 1h 39

أمكن تفسير الحرب، في الأساس، بسبب مأزق النظام الطائفي العاجز عن إصلاح نفسه من أجل أن يسمح بقيام تمثيل أفضل لمختلف الطوائف، ولاسيّما الطائفة الشيعية، وحتى أن يسمح بإلغاء حقيقي للطائفية، مثلما كان هذا النظام عاجزاً عن إعادة إنتاج نفسه من خلال التوازنات الدقيقة التي يقوم عليها[33]. إلا أن النزاع أطلق ديناميكيات أعادت تحديد المعطى السياسي بشكل جذري، لنذكر على سبيل المثال نشوء تنظيم حزب الله في العام 1985. حين أعاد هذا التنظيم تركيب الطائفة الشيعية حول طرف سياسي-عسكري، فرض نفسه مدافعاً جديداً عن البلاد "ضد الاحتلال الإسرائيلي في جنوب لبنان" وحوّل البلاد بأسرها إلى رهان إقليمي يتسع ليشمل معه إيران[34].

الحرب طائفية بقدر ما هي في داخل الطائفة الواحدة. فـ"بعد طرد الفلسطينيين واللبنانيين المسلمين إلى خارج حدود "المنطقة المسيحية"، تَحارب القادة (الموارنة) في ما بينهم بضراوة". (طردت) الجبهة اللبنانية (من بين) صفوفها موارنة الشمال وخاضت معهم حرب عصابات مستمرة ابتداءً من العام 1978. وحَّدَ بشير الجميّل الميليشيات في إطار القوات اللبنانية في العام 1980 مع استبعاد المجموعات المنافسة ونزع سلاحها؛ وتميز تاريخ القوات اللبنانية بين العامين 1983 و1988 بسلسلة من الانتفاضات (حيث إن كلمة "انتفاضة" قد استخدمت للمرة الأولى

---

(33) Elizabeth Picard, "Violence sociale et ordre étatique au Machrek," dans: Dupret, dir., *Le Phénomène de la violence politique: Perspectives comparatistes et paradigme égyptien*, p. 103.

(34) للاطلاع على برنامج العام 1985 لهذه المنظمة التي تستخدم التضحية كنمط مقاومة، انظر:
Barry Rubin et Judith Colp Rubin, *Anti-American Terrorism and the Middle East, Understanding the Violence* (Oxford: Oxford University Press, 2002), pp. 50-54.

في لبنان)، التي شكلت انقلابات قامت بها أجنحة من الميليشيات. وكانت خاتمتها حوادث العامين 1989 و1990، حين اشتبك جيش ميشال عون، وكان قائد الجيش آنذاك ورئيس الوزراء، مع القوات اللبنانية بقيادة سمير جعجع، مرتين. جرّت هذه الحرب بين الأخوة كمية من الدمار وأوقعت عدداً من الضحايا في داخل المنطقة المسيحية أكثر بكثير مما فعلته ثلاث عشرة سنة من المواجهات السابقة كما فتحت أمام السلطة السورية الباب للسيطرة على المنطقة"[35].

لوحظت الظاهرة نفسها ضمن الطائفة الشيعية التي عانت حرماناً لزمن طويل وقد عمل الفرنسيون على تأمين ولائها لهم من خلال اعترافهم بحقها في ممارسة قانونها الجعفري[36] من دون السماح باندماجها الاجتماعي. في العام 1932، بالكاد مثل الشيعة 20% من الشعب اللبناني، في مقابل 30% من الموارنة و22% من السنة، وعند نهاية الحرب صار الشيعة يشكلون حوالي 40% من عدد السكان. بين الحركات النضالية والتعبئة الدينية و"التمكين"[37] (empowerment)، تسارع تسييس الطائفة الشيعية عندما استقر موسى الصدر، مؤسس "المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى"، في صور في العام 1959، ووقع مذكرة تفاهم مع البعث السوري[38]، كما دعم التطرف الشيعي الإيراني

(35) Elizabeth Picard, "A l'épreuve de la guerre du Liban," dans: Heyberger, *Chrétiens du monde arabe: Un archipel en terre d'islam* p. 155.

(36) Sabrina Mervin, "Le Liban-Sud, des bandes armées à la guérilla," dans: Mermier et Picard, dir., *Le Liban: Une guerre de 33 jours*, p. 105.

(37) Sabrina Mervin, "Les Yeux de Musa Sadr (1928-1978)," dans: Catherine Mayeur-Jaouen, dir., *Saints et Héros du Moyen-Orient contemporain* (Paris: Maisonneuve et Larose, 2002), pp. 285-300.

(38) Henry Laurens, "Cinquante ans de relations israélo-libanaises," dans: Mermier et Picard, dir., Ibid., p. 145

قبل اختفائه إبان مهمة كان يقوم بها في ليبيا في آب/ أغسطس من العام 1978. حدد الصدر الهدف الذي يتعين على الطائفة الشيعية أن تبلغه وهو إعداد جيل قادر على حمل السلاح بيد والمنجل باليد الأخرى[39].

بيد أن حركة أمل (أفواج المقاومة اللبنانية) التي أسسها الصدر وقادها نبيه برّي ابتداءً من العام 1980، قد شهدت كذلك انشقاقاً أدى إلى ولادة حزب الله، بقيادة حسين الموسوي أولاً ثم بقيادة السيد حسن نصر الله بعدها. في غضون بضع سنوات، أصبح التنظيم الجديد "شيئاً أكبر من حزب ولكن أصغر من دولة"[40]. وتسبّبت المواجهات بين التنظيمين في العامين 1988 و1989 بوقوع ألفي قتيل[41]. ويبدو أن التناقض بينهما ناجم عن الانقسام بين ممثلي البرجوازية الشيعية من ناحية وبين محرومي الطائفة من ناحية أخرى، إذ دافع الأوائل عن استراتيجية اندماج الطائفة السياسي، ولاسيّما بعد انسحاب إسرائيل في العام 1985 (في ما عدا من الجنوب)[42]، بدل المقاومة المسلحة التي دعا إليها حزب الله.

شكل نشوء حزب الله علامة على أن الأطراف، "في منتصف الثمانينيات، قد استولت على المركز السياسي اللبناني. قام المحرومون والمهملون من قبل تركيبة المحسوبيات وأولئك الذين استبعدت

(39) Salim Nasr, "La Transition des chiites vers Beyrouth: Mutations sociales et mobilisation communautaire à la veille de 1975," CERMOC, *Mouvements communautaires et espaces urbains au Machrek* (Beyrouth: [n. p.], 1985), p. 108.

(40) Yitzhak Nakash, *Reaching for Power. The Shi'a in the Modern Arab World* (Princeton; Oxford: Princeton University Press, 2005), p. 121.

(41) Corm, *Le Proche-Orient éclaté 1956-2000*, p.574.

(42) Fawaz Traboulsi, "L'Économie politique des milices," *Naqd*, vols. 19/ 20 (2004), pp. 174-175.

المؤسسة الحاكمة اللبنانية التفكير بهم، بتأكيد وجودهم في قلب المدينة بالذات"(43). وختمت الحرب في الحقيقة "حلقة" طائفية بدأت في العام 1958، من دون أن تسمح بالخروج من الطائفية بحد ذاتها.

يفسر تفتت الأطر الطائفية، على الرغم من مركزيتها في إطار عمل النظام اللبناني حتى في خلال الحرب، إلى حد كبير نشوء العصبيات المدينية التي حملتها الدعوات الخاصة إما الطائفية وإما الدينية. وفي حالة الأحياء، العلوية في بعل محسن والسنية في باب التبانة، التي درسها ميشال سورا، تحاربت الميليشيات المتنافسة بواسطة قاذفات الصواريخ، فاندرجت "الحروب الصغيرة" على النطاق الصغير في حيّز "حروب الآخرين" الكبيرة(44). شكل النزاع "حالة عنف" حقيقية وتمثل بخطف المقيمين الأجانب (ومن بينهم الباحث الفرنسي ميشال سورا الذي توفي في الأسر في 5 أيار/ مايو 1986) أو شكل مواجهات دائمة بين أطراف غير مقدّر لها أن تتواجه، كما حصل حينما حاصر مقاتلو حركة أمل المخيمات الفلسطينية من حزيران/ يونيو 1985 حتى كانون الثاني/ يناير 1988 مع وقوع ألفي قتيل(45).

الشهيد والميليشيوي

لاحظ جاد تابت أن الحدود التي تفصل المدينة عن اللامدينة اضمحلت على امتداد هذه الحرب الأهلية الطويلة، وصارت لبيروت

---

(43) Guilain Denoeux, *Urban Unrest in the Middle East. A comparative Study of Informal Networks in Egypt, Iran and Lebanon* (Albany: State University of New York Press, 1993), p. 118.

(44) Michel Seurat, "Le Quartier de Bâb Tebbâné à Tripoli (Liban): Etude d'une 'asabiyya urbaine," dans: CERMOC, *Mouvements communautaires et espaces urbains au Machrek* (Beyrouth: [n. p.], 1985), pp. 46-86.

(45) Picard, *Liban Etat de discorde: Des fondations aux guerres fratricides*, pp. 201-213.

أبواب جديدة بحسب تنقلات الجبهات المتعددة[46]. لم تغير الحرب الطوبوغرافيا المدينية وحسب، بل غيّرت أيضاً أشكال العنف. وظهرت حينذاك صورة "الشهيد" الذي يضحي بنفسه في عملية انتحارية علامة على "رفض استسلام الأمة العربية"[47].

على الرغم من أن حزب الله قد أعلن في كثير من الأحيان مسؤوليته عن هذا النوع من العمليات، إلا أن من قاموا بها لم يأتوا على الدوام من أوساط شيعية. صحيح أن أول عمل "استشهادي" في 11 تشرين الثاني/ نوفمبر 1982 في صور ضد القوات الإسرائيلية (47 قتيلاً) كان من فعل حسن قصير، اللبناني الجنوبي البالغ من العمر خمسة عشر عاماً فقط والمنتمي إلى "مجموعة شهداء ومقاتلي موسى الصدر في سبيل الحرب المقدسة". وكذلك، في 18 نيسان/ أبريل 1983، وقعت عملية انتحارية ضد السفارة الأميركية (39 قتيلاً) ثم العملية المزدوجة التي قتلت 58 جندياً فرنسياً و239 جندياً أميركياً من القوات الفرنسية والأميركية التي كانت موجودة في بيروت يوم 13 تشرين الثاني/ نوفمبر 1983، وأخيراً وقعت عملية رابعة ضد السفارة الأميركية من جديد في 20 أيلول/ سبتمبر 1984 (23 قتيلاً)، وكانت كل هذه العمليات تحمل توقيع مجموعات شيعية.

بيد أنه ينبغي أن نذكر حالات أخرى، كـ"عروس الجنوب" التي قامت بعملية انتحارية ضد دورية إسرائيلية، وهي تقدم نفسها في وصيتها على الشكل الآتي: "أنا الشهيدة سناء محيدلي، عمري ثمانية عشرة عاماً،

(46) Jade Tabet, "Beyrouth et la guerre urbaine: La ville et le vide," *Peuples méditerranéens*, no. 37 (1986), pp. 33-40, et Roger Naba'a, "De l'utilité de certaines rumeurs en temps de guerre. Adieu Beyrouth," Ibid., pp. 41-50.

(47) تكريم الرئيس السوري حافظ الأسد مذكور في:
Joseph Croitoru, *Der Märtyrer als Waffe*: *Die Historischen Wurzeln des Selbstmordattentats* (Munich: Carl Hanser, 2003), p. 139 et pp. 150-164.

أنا من جنوب لبنان. لا تبكوني، لا تحزنوا عليّ بل افرحوا واضحكوا للدنيا كما لو أن يوم موتي هو يوم زفافي. أتمنى أن تتعانق روحي مع أرواح الشهداء الذين سبقوني وتتشكل معهم مجدداً متفجرة تنفجر زلزالاً على رؤوس جيش العدو (...) أنا لم أمت، ما زلت حية بينكم: أغني وأرقص وأحقق كل طموحاتي، أنا في قمة السعادة لأني أجسد البطولة والشهادة. (...) أنا الآن مزروعة في تراب الجنوب أسقيه من دمي وحبي له (...) أنا ذاهبة إلى الموت حتى لا أنتظره (...) وصيتي هي تسميتي عروس الجنوب"[48].

شهيدة أخرى مسيحية هي لولا عبود، شيوعية ومؤمنة، المسؤولة المحلية عن المقاومة ضد الاحتلال، فجرت نفسها في العام 1982. كان عملها انتقاماً شخصياً أيضاً. في العام 1973، غضب ابن عمها بسبب مبلغ قيمته عشرة ملايين دولار منح إلى إسرائيل، فهاجم مصرفاً أميركياً مع بعض من رفاقه وطالب المصرف بمنح مبلغٍ موازٍ إلى الدول العربية. تحولت العملية إلى عملية اختطاف رهائن وانتهت باعتقاله ثم بإعدامه. وكان للولا عبود قريبة أخرى، هي سهى بشارة، ستحل محلها وتطلق النار على جنود إسرائيليين وتصاب بجرح فتمضي عشر سنوات في السجن في إسرائيل[49][50].

---

(48) ذكر الكاتب أن لقب الشهيدة سناء محيدلي هو "زهرة البقاع" في حين أن كل الوثائق التي تمت العودة إليها تذكرها بلقب "عروس الجنوب" نزولاً عند طلبها، هذا علماً أن نص الوصية الوارد في الكتاب بين أيدينا هو مزيج من الوصية المسجلة على الفيديو والوصية المكتوبة التي تركتها الشهيدة محيدلي إلى أهلها. (المترجمة).
Khosrokavar, *Les nouveaux Martyrs d'Allah*, pp. 230-231.

(49) سهى فواز بشارة، وُلدت في 1967 / 6 / 15، قامت في عمر العشرين بمُحاولة اغتيال الجنرال أنطوان لحد قائد جيش لبنان الجنوبي، نجا لحد من محاولة الاغتيال وتم اعتقال سهى بشارة بسرعة وحبسها في معتقل الخيام الشهير. أطلق سراح سهى في الثالث من أيلول/ سبتمبر عام 1998م بعد تنظيم حملات لبنانية وأوروبية وإسرائيلية مكثفة لصالحها. (المترجمة).

(50) Joyce M. Davis, *Martyrs: Innocence, Vengeance and Despair in the Middle East* (New York: Palgrave, 2003), pp. 67-84.

الميليشيوي هو الصورة المركزية الأخرى لهذه الحرب بحيث إنه "فاعل من دون ماضٍ، سواء أكان بطولياً أم لا"، حوَّل الالتزام العسكري إلى "شكل اجتماعي مسيطر"[51] وأنتج خطاباً سياسياً يحدد من ينتمي إلى الميليشيات بوصفهم طبقة مسحوقة من قبل الطوائف "الأخرى" التي نزع عنها إنسانيتها[52].

الميليشيوي ليس "محارباً" وحسب، هو فاعل مركزي في اقتصاد افتراسي. فكلفة الحرب باهظة بالفعل: كان على القوات اللبنانية وحدها أن تكرس 40 مليون دولار سنوياً لرواتب مقاتليها وسلاحهم. وحتى لو كان اقتصاد البلاد ينهار بسرعة، أو ربما لهذا السبب، صارت الحرب منتجة للمداخيل. فقد كان نهب مرفأ بيروت يقدم ما بين مليار وملياري دولار تضاف إليها مداخيل التهريب وتجارة المخدرات والمضاربات المالية. تقول إليزابيث بيكار، التي جاءت بهذه التقديرات، إن لبنان قد أصبح "مختبراً مثيراً بسبب تنوع الردود التي ابتكرتها مختلف التنظيمات الميليشيوية، سواء في نمط سيطرتها على المجتمع واستخراج موارده أو في اتصالها بأقطاب داعمة خارجية، من دول أو أطراف عابرة للدول، وبالأخص في علاقاتها مع الدولة ونمط وصولها إلى الموارد المادية والرمزية المتصلة بمؤسساتها"[53].

---

(51) Nabil Beyhoum, "Beyrouth, histoire de deux villes où tuer est une compulsion qui se répète," dans: Jean Hannoyer, dir., *Guerres civiles. Economies de la violence, dimensions de la civilité* (Paris: Karthala, 1999), p. 131 et p. 136.

(52) Bachar Chbarou et Waddah Charara, "Une mosquée de Beyrouth aujourd'hui, unité de la communauté et diversité des croyants," dans: CERMOC, *Mouvements communautaires et espaces urbains au Machrek*, pp. 21-43.

(53) Elizabeth Picard, "Liban, la matrice historique," dans: François Jean et Jean-Christophe Ruffin, dir., *Economies des guerres civiles* (Paris: Hachette, 1996), p. 64.

على الرغم من استمرار المواجهات بين أفراد الميليشيات، إلا أنهم يكوّنون في كثير من الأحيان كارتيلاً متى وجب تأمين استمرارية موارد تمويلهم. وبحسب فواز طرابلسي، انقسم لبنان في خلال الحرب إلى ما لا يقل عن عشرة مساحات معزولة ومعسكرة، بيد أن قادة الميليشيات كانوا يلتقون حول بعض الأهداف الاقتصادية. ففي مجلس إدارة شركة طيران الشرق الأوسط، على سبيل المثال، "جلس ممثلان عن كل من الميليشيات الرئيسة: ميليشيا الحزب التقدمي الاشتراكي التابع لجنبلاط، ميليشيا حركة أمل التابعة لنبيه بري، ميليشيا القوات اللبنانية التابعة لجعجع وميليشيا حزب الوطنيين الأحرار التابع لداني شمعون"[(54)].

شكّل النزاع الأهلي اللبناني حرباً شرسة أدخلت العنف في "رابط الالتزام"[(55)] وخلفت وراءها مائة وخمسين ألف قتيل وثلاثمائة ألف جريح وسبعمائة وخمسين ألف مهجّر[(56)]. أما ذاكرتها ومسؤولياتها التي لم يتحملها أطرافها كما ينبغي ولا المجتمع بشكل عام، فلا نجدها بكليتها وبضخامتها إلا في الأدب[(57)].

وكما أي حرب أخرى، انتهت هذه الحرب على مقولة هوبسية وهي: مع انعدام وجود طاغوت داخلي، جاء الطاغوت في العام 1989 من الخارج، من سوريا. أما آخر محاولة لإنتاج زعيم داخلي فقد كانت

---

(54) Traboulsi, "L'Economie politique des milices," *Naqd*, p. 192.

(55) Jean-Richard Freyman, "Frères humains qui...", *Essai sur la férocité*, (Paris: Erès, 2003), p. 14 et 16.

(56) Marie-Joëlle Sahar, "Peace by unconventional means: Lebanon's Ta'if agreement," in: Stephan John Stedman, Donald Rotchild and Elizabeth M. Coussens, *Ending Civil Wars: The Implementation of Peace Agreementes* (Boulder, (London: Lynne Rienner, 2002), p. 572.

(57) Gilles Ladkany, dir., *Alger-Beyrouth-Méditerrannée: Littérature de crise et cheminements méditerranéens* (Alger: Libre Poche, 2006).

"الهرب المدوي إلى الأمام" الذي قام به ميشال عون المستقوي بدعم العراق الذي يخوض حرباً خفية ضد سوريا. حاول عون أن يفرض نفسه رئيساً جديداً على مجمل البلاد لكن الولايات المتحدة تخلّت عنه كما تخلّت عنه فرنسا لمصلحة حرب الخليج في العام 1990-1991. منذ ذلك الحين، قبل اللبنانيون "أن يكونوا مجرد بيادق في الحسابات التكتيكية السورية بعد أن كانوا فاعلين في التاريخ ضد الاحتلال الإسرائيلي"[58].

---

(58) Samir Kassir, *Considérations sur le malheur arabe* (Paris: Actes Sud, 2003), p. 22.

الفصل الثامن

القوة وحدود الإسلاموية الثورية في خلال عقد الثمانينيات

عملت حروب الثمانينيات على إعادة تعريف مفهومي الجهاد والاستشهاد، أقلّه بالطريقة التي تم إدراكها وعيشها فيها، فقدمت إلى الإسلاموية رموزاً للتضحية حملتها وجوه حارسة. كما أنها حوّلت المناضلين الإسلامويين وعدداً من المتدينين المتطرفين إلى دعاة لمسرح معارضة جديد على غرار "أبو ميغافون" اللبناني[1].

من اغتيال السادات إلى تدمير حماة

هزّت أحداث أخرى العالم الإسلامي في الثمانينيات. على امتداد هذا العقد، كان الخطاب الإسلاموي مصدر تركيبة سياسية ذات معنى وشرعية بالنسبة إلى المعارضة المدنية والسياسية التي تغذّت من ألف قضية وقضية وازدادت قوة في العالم الإسلامي. عمل الإخوان المسلمون بشكل علني على انتقاد طروحات قطب وطروحات مرشدهم حسن الحديبي الذي توفي في العام 1973 ، من أجل تقديم تفسير لعقيدتهم

(1) Jonathan Randal, *Oussama: La Fabrication d'un terroriste* (Paris: Albin Michel, 2004), p. 53.

أكثر انسجاماً مع تعاليم حسن البنا[2]، في حين أن مجموعات أخرى، ومن بينها "جماعة المسلمين" بقيادة شكري مصطفى، عضو الإخوان السابق الذي سجن لفترة في معتقلات عبد الناصر، نشرت تفسيراً ثورياً للإسلاموية.

تغير مسرح المعارضة الإسلاموية تغييراً كبيراً منذ إعدام سيّد قطب ليغتني بوجوه جديدة تدعو إلى تطبيق استراتيجية العنف. في نيسان/ أبريل 1974، على سبيل المثال، تمرّد الضابط صالح عبد الله سيريا ومعه عسكر من أنصار حزب التحرير الإسلامي، فأعدم سيريا مع خمسة من رفاقه. وفي السنة نفسها، أطلقت محاولة أولى لاغتيال السادات موجة من القمع في الأوساط الإسلاموية[3]. وفي 3 تموز/ يوليو 1977، خطف أفراد من منظمة "التكفير والهجرة" وزيراً سابقاً للأوقاف يدعى محمد الذهبي ثم قتلوه. عبّر هذا الاغتيال عن "تناقض بين العلماء الرسميين والشبان المنتمين إلى الإسلام السياسي"[4] الذين لم تحظ غالبيتهم بإعداد ديني.

شكّل كل ما سبق علامات تنذر بضيق خفي تتزايد حدته بعد اتفاقات كمب ديفيد لتفضي في 6 تشرين الأول/ أكتوبر 1981 إلى اغتيال الرئيس السادات في هجوم عسكر إسلامويين تسبب كذلك بوفاة سبعة أشخاص آخرين من بينهم السفير الكوبي وأحد قادة الكنيسة القبطية. في الوقت

(2) Olivier Carré, *Mystique et politique: Lecture révolutionnaire du Cor'an par Sayyid Qotb, frère musulman* (Paris: CERF-Presses de la FNSP, 1984), p. 15.

(3) Reinhard Schulze, *A Modern History of Islamic World* (New York: New York University Press, 2002), p. 206.

(4) Malika Zeghal, *Gardiens de l'islam: Les oulémas d'Al-Azhar dans l'Egypte contemporaine* (Paris: Sciences Po, 1996), p. 233.

نفسه، انتهت انتفاضة مسلحة في مصر العليا بمقتل 68 جندياً وشرطياً.

كان "الريّس"، الذي يصفه كاتبو سيرته كشخص "مؤمن"، داعياً إلى "العلم والإيمان" مدافعاً عن إسلام "محافظ اجتماعياً"(5)، وكان محبوباً لابتعاده عن الناصرية، مثلما كان مكروهاً لأنه زار القدس وأعطى شرعية للاحتلال الإسرائيلي. رد السادات على الانتقادات التي طالته باعتقال مثقفين معارضين، ولاسيّما اليساريين منهم، وكالعديد من الأمراء من قبله الذين اتهموا بالخيانة والتواطؤ مع أعداء الإسلام، عمل على إعادة أسلمة المجتمع من أعلى. في ذاك اليوم من تشرين الأول/ أكتوبر، توفي كبطل-خائن، وسط احتفال بذكرى حرب تشرين التي أرادها نصراً وقدمها على هذه الصورة.

تأثرت مجموعة العسكر المسؤولة عن الحادثة بكتيّب ناري العبارة لعبد السلام فرج (أعدم في العام 1982) وعنوانه "الفريضة الغائبة" فرض فيه تعريفاً عسكرياً بشكل حصري للجهاد(6). قام هذا المهندس الشاب بـ"تبرير إيديولوجي" لعملية قتل المستبد وقد "حضّر لها تقنياً الضابط عبود الزمر" وقدم لها "عمر عبد الرحمن تغطية دينية(7)". وبعد مرور

(5) Gille Kepel, *Jihad. Expansion et déclin de l'islamisme* (Paris: Gallimard, 2001), pp. 117-118.

(6) لتحليل هذا الكتيّب وسياق تحريره، انظر:
Gilles Kepel, *Le Prophète et Pharaon: Les mouvements islamistes dans l'Egypte contemporaine* (Paris: La Découverte, 1984), et Rudolph Peters, *Jihad in Classical and Modern Islam* (Princeton: Markus Wiener, 2005), pp. 149-169.

(7) François Burgat, "Islam, opposition politique et modernisation sociale," *Les Cahiers de l'Orient*, no. 45 (1997), p. 75.
حظي عبد الرحمن، بفضل لقبه كشيخ أزهري، بموقع "بين الأمير والمفتي". وسيحكم في ما بعد بالسجن المؤبد في الولايات المتحدة بسبب تورطه في أول اعتداء على مركز التجارة العالمي في العام 1993. =

أكثر من عقد من الزمن، أدين هذا الأخير في الولايات المتحدة لتورّطه في أولى الهجمات ضد برجي التجارة العالمية في العام 1993. استمد العمل رموزه من العهد القديم في الكتاب المقدس كما من القرآن إذ اعتبر السادات فرعوناً وحاكماً ظالماً وشريراً من عصر الجاهلية[8]. أما رد حسني مبارك، خليفة السادات، فسيكون منسجماً مع هذه الشحنة الرمزية مع إعدام خمسة إسلاميين وتعذيب أو سجن أكثر من ثلاثمائة آخرين لسنوات طويلة.

كان هذا الاغتيال عبارة عن مؤامرة تقتصر على بعض الإسلامويين العسكر أو المدنيين، وهو لا يعكس البتة تطور الحركة الإسلامية بمجملها، بل هو مؤشر واضح على تطرّف دوائر جديدة من التنشئة الاجتماعية المستقلة عن الأوساط الإسلامية التقليدية، ولاسيّما الأخوان المسلمين، وانتقالها إلى الجهاد في دار الإسلام.

سوريا هي البلد الثاني الذي هزّته المعارضة الإسلامية في الثمانينيات[9]. من العام 1949 وحتى العام 1961، تقدم الإخوان المسلمون، وهم في الأساس امتداد للمنظمة الأم في مصر، من نسبة 3% في الانتخابات إلى 6%، ما جعلهم يحتلون موقع طرف ثانوي في المجال السياسي السوري. بيد أن معارضتهم في الستينيات لحزب البعث جعلتهم يبدون تدريجاً بمثابة خيار سياسي مفتوح وصاحب

= Zeghal, *Gardiens de l'islam: Les Oulémas d'Al-Azhar dans l'Egypte contemporaine*, pp. 337-345.

(8) Bernard Lewis, *Le Langage politique de l'islam* (Paris: NRF, 1988), p. 147.

(9) Olivier Carré et Gérard Michaux, *Les Frères musulmans: Egypte et Syrie, 1928-1982* (Paris: Gallimard, 1993).

مصداقية، ولاسيّما في بعض المناطق السنّية حيث الديناميكيات المحلية مهمة بقدر أهمية المعطى السياسي في العاصمة.

في العام 1964، انتهت مظاهرات ضد البطالة وخفض أجور الموظفين مشت تحت شعار "الإسلام أو البعث"، بسقوط 12 قتيلاً. شهد العامان 1965 و1966 مظاهرات شعبية جديدة برز فيها أيضاً قادة عسكر متطرفون، من بينهم مروان حديد في حماة، كما نشأت "كتائب محمد". ابتداءً من العام 1970، أثارت سياسة التأميم التي اتبعها البعث شعوراً بالحذر، وحتى حركات مقاومة في قلب أسواق المدن الكبرى التي صارت تتطلع إلى الإخوان بتعاطف. في العام 1973، استقوى الإخوان بدعم المفكر الإسلامي سعيد حوى فطالبوا باعتبار الإسلام دين سوريا الرسمي. أجبرت السلطة على القيام ببعض التنازلات الرمزية. فصار على الرئيس أن يكون مسلماً بحسب الدستور وصار الأسد، الذي بدأ بارتياد المساجد، يدعى بـ"المجاهد".

لولا التوتر الطائفي، لبقيت معارضة الإخوان على هذا المستوى. بيد أن رد الفعل السنّي تعاظم في السبعينيات ضد الأقلية العلوية التي اتهمت باحتكار السلطة في دمشق والاستيلاء على المناصب المهمة في المناطق السنّية. وفي مواجهة السلطة القائمة، أشاح عدد من السنّة ببصرهم ناحية بغداد وبدا كأن الإسلامويين السوريين يجدون فيها قواعدهم الخلفية[10].

في العام 1979، اتحد الإخوان مع منظمات أخرى ضمن جبهة

(10) Elizabeth Picard, "Violence sociale et ordre étatique au Machrek," dans: Baudoin Dupret, dir., *Le Phénomène de la violence politique: Perspectives comparatistes et paradigme égyptien* (Le Caire: CEDEJ, 1994), pp. 102-103.

إسلامية موحدة، ونظموا عدداً كبيراً من الهجمات ضد الشرطة والجيش والشخصيات العلوية. وقام الجناح العسكري في الجبهة، بقيادة المجاهد عدنان عقلة الذي دعا إلى حرب شاملة ضد النظام، بالهجوم على أكاديمية حلب العسكرية حيث قتل بدم بارد 83 تلميذاً ضابطاً[11]. وفي العام 1980، بينما عمّت حركة إضراب ضد السلطة، قتل المجاهدون الإسلاميون عقيداً سوفييتياً. بين العامين 1979 و1981، وقعت حوالي ثلاثمائة عملية اغتيال سياسي جرى تبريرها بواسطة منشورات تندد بـ"استبداد أقلية في السلطة تحكم البلاد"[12]. ازداد رد السلطة شراسة على هذا العنف وارتدى شكل عمليات انتقامية ضد المنظمة الإسلامية وحتى ضد السكان السنّة، كدخول الجيش مدينة جاسي الصغر بالقرب من حلب مع مقتل مائتين من سكانها. بيد أن أشرس رد أتى في 26 حزيران/ يونيو من العام 1980 بعد محاولة اغتيال طالت الرئيس الأسد،

(11) "اعتبرنا أنه قد آن الأوان حتى نخرج إلى الملأ وبشكل صارخ. لذا، كانت مدرسة حلب العسكرية التي تضم 265 علوياً من أصل 300 تلميذ ضابط، هدفاً مثالياً. جهزنا العملية طيلة ثمانية أشهر. كان يوسف، المسؤول عن الأمن في المدرسة، من المجاهدين، ما سهّل كثيراً مهمتنا. في 15 حزيران/ يونيو، عشية الهجوم، تمكنا من وضع قوارير غاز في مقصف قاعة الاحتفالات. وفي اليوم التالي، جمع إبراهيم يوسف التلامذة الضباط فيها، ثم أخرج السنة والمسيحيين بشكل إفرادي. حينذاك، قام تسعة مجاهدين متنكرين بزي العسكر بفتح النار بوساطة بنادقهم الرشاشة كما رموا قنابل يدوية. انفجرت قوارير الغاز، كانت القاعة جهنماً حقيقياً ومن تمكن من الخروج منها كان يحصد برصاصنا. [...]. قبل أن يهربوا، تركوا منشورات في المكان. كانت هذه المرة الأولى التي نوقع فيها واحدة من عملياتنا". هذه شهادة مقاتل مغفل الاسم في مقابلة أجراها معه فيليب كازيه (Philippe Cazed, Le Matin, 7 septembre 1982) وذكرتها.
Nora Ben Kourich, Le Régime ba'athiste et l'opposition des Frères musulmans en Syrie, 1963-2000 (mémoire de master de l'EHESS, 2007).

(12) لقراءة القصة، انظر المرجع السابق.

حين أعدمت السلطة من دون محاكمة حوالي خمسمائة سجين غالبيتهم من الإخوان المسلمين، في سجن تدمر[13].

ثم في العام 1981، وكردٍّ انتقامي على هجوم ضد قرية علوية، قامت السلطة بإعدام أربعمائة من سكان حماة[14]. رد الإخوان بسلسلة من الهجمات أودت بحياة المئات في خريف العام 1981. وفي ربيع العام 1982، اجتاح الجيش ومعه قوات رفعت الأسد مدينة حماة. في البداية، تشكلت قوة مسلحة قوامها مائة وخمسون إلى مائتي شخص لمواجهة القمع وقادها شخص يدعى "أبو بكر" وهو اسم يذكّر باسم أول الخلفاء الراشدين، الذي تعتبره بعض الطوائف غير السنية، ومن بينها العلويون، مغتصباً لسلطة تعود إلى علي بن أبي طالب. كُلِّف أبو بكر من قبل الإخوان باغتيال المسؤولين السياسيين في حماة التي أعلنت "مدينة حرة ومحررة"[15]. بيد أن الثورة قد سُحقت في حمام من الدم ودُمِّرت أحياء كاملة في المدينة وقتل ما بين عشرة آلاف وخمسة وعشرين ألف شخص. وتفيد بعض المعلومات غير المؤكدة عن استخدام غازات كيميائية. كان رفعت الأسد آنذاك في قمة مجده وقد ذكر ميشال سورا أنه قد قال في تموز/ يوليو 1980، أنه مستعد للتضحية بعشر السكان في

---

(13) انظر نداء منظمة العفو الدولية للعام 2000:
"Syria: Amnesty International calls for release or fair retrial of all political detainees," gttp:/ / web.amnesty.org.

(14) Henry Laurens, *Paix et guerre au Moyen-Orient: L'Orient arabe et le monde de 1945 à nos jours* (Paris: Armand Colin, 2005), p. 346.

(15) يشكل العلويون حوالي 12٪ من مجموع السكان وهم فعلياً في وضعية الجماعة المسيطرة منذ انقلاب حافظ الأسد في العام 1970 في سوريا. انظر أساساً مقالات مهمة لميشال سورا مجموعة في كتاب:
Michel Seurat, *L'Etat de barbarie* (Paris: Seuil, 1989).

بلاده "من أجل إنقاذ "الثورة". كتب ميشال سورا قائلاً: "مليون قتيل على ما مجموعه عشرة ملايين نسمة. خمسة وعشرون ألف قتيل من أصل مائتين وخمسين ألف مواطن في حماة. الحساب صحيح"[16].

تمكن بعض الثوار الذين بقيوا على قيد الحياة من الهرب للالتحاق بصفوف المجاهدين في أفغانستان في حين أن آخرين رزحوا لفترة طويلة تحت الاعتقال والتعذيب. تركت عملية "عودة النظام الداخلي" بقيادة حافظ الأسد ورفعت الأسد ومصطفى طلاس، وزير الدفاع، أثراً دامغاً في ذاكرة المدينة الجماعية.

الإسلاموية: "تركيبة هيمنة"[17] جديدة وانشقاق

في مكان آخر من الشرق الأوسط، من تونس إلى تركيا، مارست الحركة الإسلاموية تأثيراً متزايداً في الشباب وفي الإنتلجنسيا، كما في سكان المدن على نحو متعاظم. في الثمانينيات، وبقدر ما كانت ملفتة حركات "نزع الحجاب" في العشرينيات والثلاثينيات، تضاعفت حركات "التحجُّب" الملفتة بين الشابات المتعلمات[18] في عدد من جامعات العالم الإسلامي حيث اختفى اليسار فعلياً. الخلاصة واضحة: في مواجهة السلطات القمعية التي تزداد فساداً وتبعية إزاء الغرب الذي يؤمن بقاءها، لا يمكن بلوغ التغيير السياسي والاجتماعي إلا بواسطة العنف. أما الشعار، فهو يدل على باب الخروج من الأزمة وهو: الإسلام هو الحل. نتعرف هنا بسهولة على إرث الخطاب الثوري اليساري

---

(16) Ibid., p. 39.

(17) للاطلاع على هذا المفهوم، انظر:
Michael Billig, *Banal Nationalism* (London: Sage, 1995).

(18) François Burgat, *L'Islamisme à l'heure d'Al-Qaida, réislamisation, modernisation, radicalisation* (Paris: La Découverte, 2005), p. 48.

الذي هزّ العالم في الستينيات. وليس من دواعي الدهشة أن نرى، في سائر أنحاء العالم الإسلامي، مناضلين يساريين سابقين "يعيدون تدوير أنفسهم" ليصيروا إسلامويين، فيغيروا إيمانهم من دون تغيير طريقتهم في ممارسة هذا الإيمان.

كيف نفسر هذه المعارضة التي عمّت سائر أنحاء الشرق الأوسط فعلياً من دون أن تعيقها أي حدود؟ دعونا نقول بادئ ذي بدء، إنها ليست "عودة الدين الإسلامي" الذي لم يختفِ يوماً على الرغم من العلمنة العامة التي شهدتها المجتمعات، بما فيها اللباس. كان الإسلام حياً يرزق على شكل مؤسسات وطرائق عيش وقيم. واستمر، حتى بشكله المستبطن من قبل "الكائنات الجماعية" الشرق أوسطية، بفضل تأريخية طويلة ووجوده السابق على وجود "الأمة" و"التقدم".

يجب البحث عن التغيير في موقع آخر: عند منعطف الثمانينيات، صار الكثيرون يعتبرون ماضي الإسلام المجيد "ككيان متميز عن الحاضر ومنافس له"[19]، هذا الحاضر الملوّث بالعلمانية المعتبرة من حيث النظرية والممارسة والأفق مرادفاً لعملية غربية، إن لم يكن مرادفاً لـ"مؤامرة"[20]. وفيما السبعينيات كانت لا تزال تشهد تقارباً نزاعياً ذا معنى بين "الشعوب المضطهَدة" في "العالم الثالث" وبين "الطبقات المسحوقة" في "الغرب الإمبريالي"، فإن الدين صار يقدم وحده مضموناً للغيرية في مقابل الغرب فيعرّفها على أنها عداء كامل. بعد فترات التيه التي مرّت بها المجتمعات الإسلامية، أصبح الدين القاعدة الجديدة

(19) Fouad Zakaria, *Laïcité ou islamisme: Les Arabes à l'heure du choix* (Paris: La Découverte, 1991), p. 48.

(20) Ibid., p. 27-30.

التي يجب أن تنطلق منها عملية إعادة بناء الأصالة المفقودة. الدين مرآة فشل الماضي كان أيضاً وعداً بالخلاص الثقافي والسياسي والاقتصادي والاجتماعي الذي تأجل لفترة طويلة.

يضع دانييل ريفيه (Daniel Rivet) هذا التطور في موازاة شرخ ثمانينيات القرن التاسع عشر، الذي اتسم بإحساس بفشل عملية التغريب الأولى التي طالت العالم الإسلامي والتي سعت إلى "تغيير الحضارة" فيه. جاءت نتيجة هذه "الخيبة" ولادة حركة سلفية ساعية إلى الأصالة. وبعد مرور قرن من الزمن، جاء عقد ثمانينيات القرن العشرين ليدق المسمار الأخير في نعش عملية التغريب الثانية المشبعة بمشروع أخوّة "المضطهدين" المسلمين والغربيين، وليخرج من الماضي القريب فيستقي قوته من "أصالته"[21] الخاصة.

في موازاة هذه الحلقات الطويلة، من المهم التقاط السياق الخاص بالسبعينيات والثمانينيات في الشرق الأوسط حيث فرضت الإسلاموية نفسها بشكل مهيمن. تأثرت دول الشرق الأوسط بشكل غير مباشر بموجة الليبرالية الأولى على النطاق العالمي، فتخلّت تدريجاً عن سياسة إعادة توزيع الموارد وضُربت "دولة الرعاية ما قبل الصناعية"[22] من دون الانتقال إلى نظام اقتصادي حر حقاً. في كل المنطقة، على وجه التقريب، من تركيا إلى الجزائر، مروراً بالأردن ومصر، مثّل الانفتاح،

(21) Daniel Rivet, "Regard sur le XX[ème] siècle," (tenue à l'IISMM Paris le 27 février 2007).

(22) Lisa Anderson, "Prospects for liberalism in North Africa: Identities and interests in preindustrial welfare state," in: John P. Entelis, *Islam, Democracy and the State in North Africa* (Bloomington; Indianapolis: Indiana University Press, 1997), pp. 127-140.

بمختلف أشكاله المحلية، انتهاء نماذج دولة الحماية وعجز الدول عن الحفاظ على سياسة اجتماعية ولو بحدّها الأدنى.

بيد أن الانفتاح ليس مجرد نظام اقتصادي جديد، بل هو عبارة عن **إعادة تمركز الدولة. انطوت الدولة بشكل شبه حصري على المجال الأمني بعد عجزها عن الاستجابة للمطالبة الاجتماعية بإعادة توزيع الثروة، وعجزها الأكبر عن مواصلة المسعى الوطني، أي الصراع "ضد الامبريالية" وضد العدو الإسرائيلي. في هذا السياق غير المسبوق، اتسع بشكل كبير مجال يمكن وصفه بأنه مجال "الالتفاف على الدولة".**

أدى هذا التوسع إلى تدهور واضح جداً في مستوى معيشة الفئات الأكثر حرماناً. كان "الفقر" موجوداً بالطبع في ما سبق، لكنه كان يُدار بواسطة آليات دمج، فارتدى بعدها شكل البؤس. في السابق، كان ينظر إلى الدولة بوصفها عادلة ومصدر رزق وبقاءٍ يومي، مثلما اعتبرت مصدر عدالة حتى في مقابل الاستبداد والاعتباطية. وعلى الرغم من طبيعتها القمعية، كان من حقها أن تطالب بالولاء. وحين رمت مسؤولية كل الآفات على "الشعب"، من نقص الموارد إلى التخلف الاقتصادي، ومن خراب القطاع التربوي إلى انعدام الظروف الصحية في المساحات المدينية، لم تعد جديرة بطلب الولاء. وكان مؤشر الظلم شرعنة الانتقال من الخضوع إلى التمرد، من "المخزن" إلى "السيبة" أو على الأقل "السيبة الداخلية"[23].

في الثمانينيات، شكل الالتزام الإسلاموي رداً على ما أسماه المفكر

---

(23) للاطلاع على هذا المفهوم، انظر:
Mounia Bennani-Chraïbi, *Soumis et rebelles: Les Jeunes au Maroc* (Paris: CNRS, [s. d.]), pp. 190-191.

الجزائري مالك بن نبي "تفكيك المجتمع من أعلى وإفقاره من أسفل"[24] قبل أن يصبح مبدأ الانتقال من الولاء إلى التمرد. قامت الإسلاموية على قطيعة مع نظام بدا "غير قابل للتصديق وعارٍ من المعنى"[25] بدرجة متزايدة، وقدمت بحد ذاتها سجلاً جديداً للمعنى. تأتّى نجاحها من حلولها مكان اليسار المحلّي كما اليسار الأممي، مستعيدة مجمل مواردهما، ومن تقديمها ضمانات نابعة من "أصالتها". شكلت الإسلاموية إيديولوجيا شاملة واقترحت الحل النهائي لكل شيء، من اقتصاد إعادة توزيع الثروة إلى مشكلات المسكن والأخلاق والأبعاد الجمالية. وبفضل مرجعيتها الدينية استطاعت تقديس السياسي ومعه الالتزام وخلق حالة "افتتان" جديدة. وفي مقابل فشل وخيانات اليسار، بما فيه اليسار الفلسطيني، قدمت الإسلاموية ملحمة حربية غذّتها تضحيات كبيرة، كانت معاشة بالوكالة في كثير من الأحيان، ولكنها كانت منتصرة، عنينا بها الجهاد الأفغاني.

التحوّل إلى المدن: تهديد جديد أمام الأنظمة

على عتبة الثمانينيات، وفي كامل بلدان المنطقة تقريباً، شكّل سكان المدن نصف عدد السكان في البلاد أو أكثر[26]. أصبحت المدن مدناً عملاقة، فالقاهرة التي كانت تعدّ ثلاثة ملايين نسمة في العام 1949، صارت تعدّ في الثمانينيات أكثر من خمسة عشر مليون نسمة. صحيح أن هذه الحركة، كما نعلم الآن، كانت ستتباطأ تدريجاً وسيقوم السكان الجدد باحتلال المساحة المدينية ليرسموا فيها معالمهم الخاصة ويقيموا

(24) Burgat, *L'Islamisme à l'heure d'Al-Qaida, réislamisation, modernisation, radicalisation*, p. 16.

(25) Michel de Certeau, *La Culture au pluriel* (Paris: Seuil, 1993), p. 26.

(26) http:/ / devdata.worldbank.org/ wdipdfs/ table3_10.pdf.

شبكات حياة اجتماعية واسعة[27]؛ بيد أنه في غياب أي أفق اجتماعي أو سياسي أو أي رؤية للـ"خلاص" آنذاك، اعتُبرت الأسرة والحي مساحات مشبعة بمعالم عاطفية تؤمن الحماية، فأدّت، بما لامفر منه، إلى خنق الشباب، متسببة بهشاشته وفرقته.

كيف نظرت الدول إلى هذه التحولات الحضرية الجديدة؟ كانت السلطات في الشرق الأوسط تخشى تقليدياً الأرياف وتلجأ إلى إدارة من النمط الخلدوني استعادتها السلطات الانتدابية أو الاستعمارية لمواجهة انعدام الأمن الصادر منها. أما المبدأ الأساسي الذي تستند إليه هذه الإدارة فهو بسيط: تتألف البلاد من منطقة مفيدة مجهزة بطرق إمداد ينبغي السيطرة عليها بأي ثمن، كما تتألف من مساحات لا فائدة منها حيث "يتفوق رجال العصابات على العسكر كما يتفوق المهربون على رجال الجمارك وقطاع الطرق المسيّسون إلى هذا الحد أو ذاك على رجال الشرطة"[28]، من دون أن يهدد كل هذا استمرارية النظام. وباختصار يمكن اعتبار المدن هي المناطق المفيدة في حين أن الأرياف هي المناطق التي لا فائدة منها.

وما حدث هو أنه في السبعينيات والثمانينيات، لم تعد السلطة تخشى الأرياف إلا في حالات الأزمة، ليس لأنها تمارس فيها سيطرة أكثر فعالية ممّا كانت في الماضي، بل لأن الأرياف فقدت الكثير من استقلاليتها وقدرتها على المقاومة. استُنفذت فلم تعد تملأ المدن عسكرياً ولم تعد تعيق استمرارية الدولة على الأرض. لكن، إذا كانت

(27) Philippe Fargues, *Générations arabes: L'alchimie du nombre* (Paris: Fayard, 2000).

(28) Ghassan Salamé, *Appels d'empire: Ingérences et résistances à l'âge de la mondialisation* (Paris: Fayard, 1996), p. 76.

الأرياف لم تعد مصدر قلق أساسي بالنسبة إلى الدولة، في ما عدا هجرة الريف إلى المدينة، فإن "المنطقة المفيدة"، أي المدينة التي كانت متحدة في السابق مع فكرة السلطة المركزية، قد بدأت بتهديد الحصن من الداخل.

صارت أعمال الشغب في المدن هي وسيلة ظهور "السيبة" الجديدة التي تضع في مواجهة سكان مدن الصفيح جيشاً تم تجنيده أساساً من بين سكان الأرياف الذين انتقلوا ليعيشوا في بيئة مغلقة ضمن المدينة(29). وهكذا، استيقظت مصر، في 18 و19 كانون الثاني/ يناير من العام 1977، تحت صدمة رفع كبير ومفاجئ لأسعار الغاز والمواد الغذائية الأساسية، فشهدت "أسوأ أعمال شغب فيها في خلال الربع الأخير من القرن. إذ لا ننسى أنه قبل خمسة وعشرين عاماً بالضبط تقريباً، أحرقت أعمال الشغب القاهرة، وشكلت خطوة حاسمة نحو الإطاحة بنظام الملك فاروق. دار الحديث عن إحراق ثانٍ للقاهرة، وعلى الرغم من أن ما قيل ضرب من المبالغة، إلا أن أعمال الشغب كانت عنيفة جداً. وبحسب التقارير الرسمية التي اعتبرها كل المراقبين أنها أقل بكثير من الواقع، سجل سقوط 80 قتيلاً و560 جريحاً بالإضافة إلى 1200 عملية اعتقال"(30).

في حزيران/ يونيو 1981، انفجرت أعمال شغب مماثلة في الدار البيضاء تسبّب قمعها بسقوط حوالي مائة قتيل. حملت هذه الحوادث بعض أوجه شبه مع الحوادث التي وقعت في العام 1965 والتي قمعت

(29) Rémy Leveau, "L'Armée dans la ville," *Maghreb-Machrek*, no. 143 (1994), pp. 75-77.

(30) M. Cooper cité dans: Bahgat Korany "La vallée du Nil," dans: Bahgat Korany [et al.], *Les Régimes politiques arabes* (Paris: PUF, 1990), p. 282.

بقسوة مع سقوط ألف قتيل، لكنها انطلقت هذه المرة من أطراف المدينة وليس من المسجد المركزي[31]. وفي حزيران/ يونيو 1984، كان عدد من المدن المغربية، من بينها مراكش وأغادير وقصبة تادلة وأيضاً الرباط، مسرحاً لأعمال شغب جديدة ونهب للمباني الرسمية، وبلغت تكلفة "العودة إلى الهدوء" سقوط ما بين 150 إلى 200 قتيل. وفي كانون الثاني/ يناير 1984، جاء دور تونس، ولاسيّما مدينتي تونس وصفاقس، اللتين هزّتهما مشاهد انتفاضة كلفت حوالي 150 قتيلاً. وفي 1985، سرت شائعة مفادها أن المنازل التي بنيت من أجل الأكثر فقراً ستعطى إلى بيروقراطيي النظام ما تسبب بحدوث انتفاضات في الجزائر تبعتها أخرى في العام 1986، متسببة بسقوط 4 قتلى، ثم موجة أخيرة في العام 1988 مع سقوط حوالي 500 قتيل.

إن البحث الذي قام به مارك تيسييه (Mark Tessier) حول هذه الحركات التي تتبع النموذج نفسه، من هجمات ضد مواقع السلطة وحرائق سيارات ووسائل نقل، من دون أن يقوم بينها أي تنسيق على مستوى البلاد أو تنسيق عابر للحدود، ومن دون أن تنقل أي إرث إلى الانتفاضات التالية، يدل كم أن وعي التباين بين الطبقات يظل قوياً في العالم العربي وكم أن السلطة تبدو في كامل عريها، بوصفها سيطرة بيروقراطية ومدنية[32].

---

(31) Raffael Cattedra et M'hommaed Idrissi Janati, "Espace du religieux, espace de citadinité, espace de mouvement: Les territoires des mosquées au Maroc, " dans: Mounia Bennani-Chraïbi et Olivier Fillieule, dir., *Résistances et protestations dans les sociétés musulmanes* (Paris: Sciences Po, 2003), p. 198.

(32) Mark Tessier, "The Origins of Popular Support For Islamist Movements: A Political Economy Analysis," in: John P. Entelis, *Islam, Democracy and the State in North Africa* (Bloomington et Indianapolis: Indiana University Press, 1997), pp. 93-126.

يشهد مصير "انتفاضات الجوع" على أن أي ثورة مدينية تتبلور فيها مختلف أنواع الاستياء، عاجزة عن تركيب بنية لها وعن تمكين نفسها بالموارد الضرورية من أجل استمراريتها. لكن يبقى أن حدوث الانتفاضة بحد ذاته، حتى لو كان متقطعاً، يحوّل المدينة إلى مساحة تهديد كامن ضد السلطة. وفي خلال فترة الانتفاضة القصيرة، تمّحي علاقات المحسوبيات، التي تساهم في تهدئة النزاعات في مجتمعات الشرق الأوسط، أمام قوى جديدة تجعل من العصيان نمط التعبير الأساسي(33).

في حين أن الانقسام بين "المخزن والسيبة" صار مزدهراً في المدينة نفسها، نشأ انقسام بين "المنطقة المفيدة" و"المنطقة غير المفيدة" على نطاق المدينة كذلك. لم تسيطر الدولة على بعض الأحياء الخطرة بل حاصرتها، مثل إمبابة في القاهرة وغازي في إسطنبول وباب الواد في الجزائر، في سعي منها إلى تشكيل فئة من "أكثر اللوردات حظوة" (most favored lords) تستطيع من خلالها "تحييد" التمرد. كما لجأت الدولة في أحيان أخرى إلى التدخل البوليسي العنيف ولكن المحدود زمنياً. بيد أن هذا الحل أو ذاك قد يذهبان سدى ويفشلان في وقف قيام "أحياء محرَّرة"، كما في كجك أرمتلو في إسطنبول، تنتصب جزر "مقاومة للنظام المديني المسيطر ومجتمعات في حالة تعبئة ويقظة دائمتين"(34).

---

(33) Guilain Denoeux, *Urban Unrest in the Middle East: A Comparative Study of Informal Networks in Egypt, Iran and Lebanon* (Albany: State University of New York Press, 1993).

(34) في كل بلدان الشرق الأوسط تقريباً، قامت الأحياء الثرية، على غرار "دريم سيتي" و"غاردن سيتي" أو "نيو كايرو" في خارج المدن التقليدية على شكل "مجتمعات مقفلة" أقل تأثراً بالتمدن الذي يحمل معه تأثيرات اجتماعية وسياسية "مخلّة بالاستقرار".

مصدر آخر يغذي السيبة المدينية: إذا كانت الدولة، المستنفرة على الدوام، قد تعلمت كيف تعزل الأحياء وتسحقها عند الحاجة، إلا أنها تجد صعوبة أكبر في التعامل مع حالات الاستياء الواردة من الأحياء الثرية[35] التي يمكنها أن تتأثر بدورها بحالات التطرف. في الواقع، ومع مرور الثمانينيات، نرى ظهور تطرف لدى الأثرياء يتعايش مع تطرف الفقراء وأحياناً يزايد عليه. وسأناقش في ما بعد هذا الموضوع، لكنني أشير منذ الآن إلى أن المصري، أيمن الظواهري، الذي اشتهر عالمياً في العقد الأول من الألفية الثالثة، لم يأتِ مع غالبية رفاقه من المناطق المدينية "الخطرة" بل من الأحياء الراقية في العالم العربي.

شكل المعارضة الإسلاموية

صار تحليل المظهر الاجتماعي للحركات التي تقدم نفسها على أنها إسلاموية أكثر تعقيداً بكثير نظراً إلى هذه الطفرات التي أصابت المدن الشرق أوسطية. إن هشاشة المثل النموذجية البالغة التي أوحي بها تدعونا، في مسار تحليلنا، إلى التقدم ببعض التحصينات المنهجية.

في البداية، يهمنا تأكيد وجود مسافة كبيرة بين شعبية خطاب سياسي يحتمل صفة الثورية وبين قدرته الفعلية على التعبئة. من المؤكد أن الإسلاموية، باندفاعتها القومية، "مناهضة للرأسمالية وتعتبر متمايزة عن العالم الغربي"، كما تعتبر دولانية ساعية إلى المساواة وطوباوية مركبة على الملحاحية[36]، وقد شكلت في الثمانينيات الجملة السياسية

(35) Jean-François Pérouse, "Les Compétences des acteurs dans les micro-mobilisations habitant à Istanbul," dans: Gilles Dorronsoro, *La Turquie conteste*: *Mobilisations sociales et régime sécuritaire* (Paris: CNRS, 2005), notamment pp. 142-143.

(36) Abdallah Laroui, "Islam et marxisme dans les pays arabes," =

المسيطرة في العالم العربي، كما في العالم الإسلامي. هي أكثر "أصالة" من اليسار الذي حلت محله وكررت جملة القيم لديه، وهي تتحدث إلى القلب كما إلى العقل وصارت مرادفاً لـ"فعل الإيمان" و"العلم" لتقود أجواء النقاشات العامة وتفرض نفسها لغة "تعبّر الكثير من المجموعات الاجتماعية بواسطتها عن هويتها وتطلعاتها وإحباطاتها"[37].

في الثمانينيات، لم تعبّر هذه السيطرة عن نفسها على شكل تعبئة جماهيرية ولا على شكل قيام تنظيمات متينة؛ ومن الصعب الحديث عن حركات إسلاموية قوية في بلاد المغرب. ممّا لا شك فيه أن الإسلاموية مسيطرة في مصر حيث همّشت السلطة الأطراف السياسية الأخرى بسرعة، بينما أفقد اليسار نفسه كل مصداقية، لكن شتّان ما بينها وبين احتكارها من جانب طرف سياسي محدد. كما سُحقت في حمّام من الدم في العراق وسوريا حتى قبل أن تتمكن من أن تسجل أي استمرار لها. وعلى الرغم من نموها السريع، ظلت هامشية في فلسطين. وفي تركيا، حيث عاودت الصعود ببطء بعد انقلاب العام 1980 الذي علق كل نشاط سياسي، لم تتمكن آنذاك من تخطي عتبة الـ 10% من الأصوات الانتخابية، حتى لو أنها قد مارست جاذبية حقيقية ضمن فئة الشباب وفي ضواحي المدن الكبرى. وأخيراً، في كل هذه البلدان، بما فيها تركيا، أتبعت الدول في معرض الرد الوقائي، سياسة الأسلمة من أعلى التي أتت ثمارها. إن السلطات، التي رفعت عالياً الأمر القرآني القائل "يا أيها

dans: Joseph Gabel, Bernard Rousset et Trinh Van Thao, dir., *L'Aliénation = aujourd'hui* (Paris: Anthropos, 1974), p. 275.

(37) Sami Zubaida, *Islam, the People and the State: Essays on Political Ideas and Movements in the Middle East* (London: I. B. Tauris, 1993).

الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم"[38]، تمكنت من إبعاد شبح الحالة الثورية. وعلى الرغم من الشعبية التي حظيت بها التيارات الإسلامية، فهي لا تشكل "تهديداً استراتيجياً" وشيكاً.

في المرتبة الثانية، نقول إن الإسلاموية في الثمانينيات لا يمكن أن تُحصر بواحد من المظاهر السياسية والاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية التي تعتبرها مصدر شرعيتها. مما لا شك فيه أن البؤس الاقتصادي يشكل أرضية لازدهارها، لكنه لا يفسر بالضرورة الانتقال الملموس إلى الالتزام الجهادي. فالكثير من "جهاديي" ذلك العقد، كما يقول فواز جرجس، "قد حذروني من الميول الغربية التي تدفع إلى تفسير نشأة الإسلاموية بواسطة الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية البحتة. اعتبروا أن هذا النمط من التفسيرات يشوّه دلالة حركتهم ويهملها" وهي دلالة "روحية وأخلاقية": "نحن لم نضحِّ بزهرة شبابنا وبأجمل سنوات عمرنا في السجون من أجل أن نحصل على عمل وعلى مكافآت دنيوية. هدفنا إرضاء الله. وطالما ظل الغرب معمي البصيرة بماديته فهو لا يستطيع أن يرى روحانيتن"[39].

كثيراً ما تؤدي الأهداف السياسية والرمزية دوراً حاسماً في الانتقال إلى العمل. فقد خلص كمال السعيد حبيب، أحد إسلاميي جيل الثمانينيات، على سبيل المثال، إلى القبول بحق إسرائيل في الوجود بعد مرور ثلاثة عقود تقريباً على اتفاقات كمب ديفيد. لكن، "في حين أن رأيه بما خص إسرائيل قد تغير، فإنه قد احتفظ برأيه حول السادات. آنذاك

(38) Le Coran, verset 4/ 59, Traduction de Denise Masson (Paris: La Pleiade, 1967).

(39) Fawaz A. Gerges, *Journey of the Jihadist, Inside Muslim Militancy* (Harcourt Inc., Orlando & Austin, 2006), p. 34.

كما الآن، كان يعتبر السادات شخصاً لا يمكن أن يقبل به. فخياناته لا تعد ولاتحصى، من ملاحقة الحركات الإسلامية إلى معانقته الكفار، إضافة إلى تحالفه مع الولايات المتحدة وقبوله بفساد المجتمع المصري من طريق المركنتيلية"[40].

وهكذا، فإن "النزاهة" السياسية والأخلاقية التي تحلّت بها مقاومة نظام اعتبر فاسداً وقمعياً وظالماً هي التي كانت سبب نجاح المناضلين الإسلامويين وليس "أصوليتهم". وهنا أيضاً، دعونا نترك الكلام لكمال السعيد حبيب الذي قال: "حينما كنت في السجن، كنت أعلم أن ناساً كثيرين لم ألتقِ بهم يوماً، كانوا يعرفون تاريخي وينظرون إلي كرمز للمقاومة والريبة. كنت، في نظرهم، مثالاً يحذون حذوه. واعتبر الكثيرون، ولاسيّما الشبان منهم، أن الجهاد هو التعبير المرئي عن حنقهم ضد الاضطهاد والظلم"[41].

لايمكن للأشكال المثالية النموذجية التي قد تسوّل لنا أنفسنا أن نرسمها أن تترجم هذه الظاهرة المركبة. بحسب تحليلات هنري مونسن جونيور (Henry Munson Jr.) الذي يستند جزئياً إلى تحليلات عالم الاجتماع المصري سعد الدين إبراهيم، كانت غالبية الإسلامويين المتطرفين في الثمانينيات من أبناء موظفي الدولة والطبقات الوسطى الحديثة أو من الجيل الأول للهجرة الريفية. لم يكن علماء الدين ممثلين فعلياً، على غرار الوجوه الكارزمية والمتمردة كالشيخ حبنّكة في سوريا وحافظ سلامة في مصر، التي لم ترتدِ صفة تمثيلية من الناحية العددية[42].

(40) Ibid., p. 49.

(41) Ibid., p. 40.

(42) Henry Munson, Jr., *Islam and revolution in the Middle East* (New Haven: Yale University Press, 1988), pp. 96-99.

في المرتبة الثالثة، يحدد مصطلح "إسلاموية" مساحة للمعارضة تحتمل أطرافاً متعددة. تميزت الحركات والدوائر التي تعتبر نفسها منتمية إلى هذا التيار بلغة سياسية ذات بنية متماسكة، من ذكر الله والمرجعيات والشعارات والرموز المشتركة، ما مكنها من التموضع رمزياً ولغوياً في مقابل السلطة والقوى السياسية الأخرى. بيد أنه في قلب "الحقل الإسلاموي" في الثمانينيات، تعايشت لغات سياسية متعددة، سواء أكانت رمزية أو جسدية، ترجمت تعددية الأطراف المتواجدة. في ما وراء التنظيمات التي تعطي معنى هذه الحركة وتركيبتها، كالإخوان المسلمين في مصر أو حركة الاتجاه الإسلامي التونسية أو حزب الرفاه التركي، جمعت الحركة أيضاً أجيالاً عديدة. في مصر، على سبيل المثال، ضِمن المجال الاحتجاجي نفسه، وحتى ضمن التنظيم الواحد، جاور مناضلون ومثقفون من جيل سيد قطب، تخلوا عن الأفكار الثورية التي حملها مثلهم الأعلى، آخرين أكثر تطرفاً بكثير ولدوا في الفترة التي أعدم فيها هذا المفكر الإسلامي. انتقالات وشروخ بَيْجيلية ترافقت بالضرورة لتدرج الاحتجاج في زمنية طويلة ولتعطيه بالتالي شرعية تاريخية. أحياناً وليس دائماً، تمكنت المعارضة الإسلاموية، بفضل استذكار هذه البنوة، من إقامة آليات رقابة داخلية، ولاسيّما تحت سيطرة "القدماء" أو "الأعيان" حتى تحول دون إمكانيات الشطط وتؤجل خيار التغيير بواسطة السلاح الذي شكل نقطة جذب بالنسبة إلى الأجيال الجديدة.

لوحظت هذه التعددية كذلك في حيز الطبقات. من المؤكد أن شباب الأحياء المحرومة الذين انغرسوا في الوسط المديني منذ فترة وجيزة، قد ترددوا إلى المدارس ولكنهم ظلوا محرومين من أي أفق تَرَقٍ اجتماعي وأي استقلالية منذ بلوغهم سن الخامسة عشرة أو السادسة عشرة وهم يشكلون الجزء الأكبر من جحافل المعارضة. كما أنه يصعب

اعتبار إسلاموية عقد الثمانينيات مجرد تيار شبابي سوقي، لأن جزءاً من البرجوازية ومن الطبقات الوسطى تماهى معه بكثافة. ففي الثمانينيات، سار في خط قطب عدد من الأدباء والعلماء وأصحاب المهن الحرة ملتزمين بالإسلاموية. صحيح أن أقلية ضئيلة من هؤلاء الأثرياء، من بينهم الدكتور أيمن الظواهري الشهير، ستختار العنف، بيد أن المشاركة الواسعة من جانب التكنوقراط والمهندسين والأطباء والمحامين وسواهم كانت تضفي على المعارضة الإسلاموية مصداقية اجتماعية كبيرة. كيف يمكن الشك بصحة تيار يضم الجزء الأكبر من نخبة البلاد وبحس المسؤوليات لديه؟

تلفتنا وجوه الشبه بين مناضلي اليسار السابقين وبين المناضلين الإسلامويين في الثمانينيات. بيد أننا لا نعني بهذا إعادة إنتاج الظاهرة نفسها، أقله لأن الاحتجاج الإسلاموي يتزايد ضاغطاً الزمن. وعلى عكس يسار الخمسينيات وصولاً إلى السبعينيات الذي كان ثمرة آلية طويلة لاستبدال تعبئات العشرينيات وحتى الخمسينيات، فإن الإسلاموية قد حققت شعبية كاسحة في غضون بضع سنوات لتقوم بتعبئة "أجيال عفوية".

في سياق تعددية الحقل الاحتجاجي بمعنى تعددية الأجيال والطبقات، أدى انتشار الإسلاموية المفاجئ إلى نتائج متناقضة. فقد أمّن، من ناحية، وفي كثير من الأحيان سيطرة اجتماعية داخلية على المجال الاحتجاجي من قبل عقلاء الأحياء و"قدامى الإسلامويين"، ما أفضى إلى نوع من "ضبط" حمل معه، في اندفاعة واحدة، تطرفاً اجتماعياً وخطابياً في المجال الإسلاموي. حتى يكون الوكلاء المكلفون بـ"الرقابة الاجتماعية" أصحاب مصداقية وفعالية، عليهم أن يقبلوا بـ"أسلمة"

المجال المرئي في أحيائهم وتوحيد مواردهم الثقافية. نتج عن هذا الأمر تسارع في آلية تطرّف الشباب الشاملة على حساب عملية تمكينهم.

بيد أنه، ومن ناحية أخرى، لم تكن "الرقابة الاجتماعية" الداخلية منيعة حيال التطرف، فالانتقال إلى العنف قد وقع في بعض الحالات، في مصر وأيضاً في تركيا حيث تنظيم جبهة المقاتلين الإسلاميين في المشرق الكبير وقّعت عدداً من الهجمات ضد مثقفين كماليين، وحيث تنظيم حزب الله الكردي عمد إلى إعدام مثقفين وطنيين أكراد. في تونس، قام شبان إسلامويون بهجمات كثيرة في العام 1987، من دون أن تتورط فيها حركة الاتجاه الإسلامي وهي أهم منظمة إسلاموية في البلاد. لم يتمكّن الشباب، بواسطة الانخراط في العنف، من السير بتطرفهم إلى نهايته وحسب، بل تمكنوا كذلك من رفض التراتبيات الخانقة التي فرضها عليهم "القدماء" ليحرزوا شرعية بواسطة السلاح. وإذ واجه "الشيوخ العقلاء" هذا الانزلاق، لم يسعهم في كثير من الأحيان إلا الاعتراف بـ"تأخر نفس-اجتماعي"[43].

(43) للاطلاع على هذا المفهوم، انظر: Erik H. Erikson, *Adolescence et crise: La Quête de l'identité* (Paris: Flammarion, 1990).

الفصل التاسع

مسائل الأقليات والطوائف

لا تشكل الحروب الثلاث الكبرى وصعود التطرف الإسلاموي عوامل العنف الوحيدة التي مهرت بخاتمها عقد الثمانينيات؛ فثمة احتجاج خفي يسري في مختلف مجالات الأقليات، سواء الطائفية أو اللغوية. ولا نقصد بـ"أقليات" المجموعات الضئيلة عددياً، بل "قانونياً واجتماعياً" والتي تعيش "واقعاً نوعياً ومختلفاً وحالة تبعية أو معتبرة على أنها كذلك[1]". وهكذا، حتى من دون الحديث عن المجموعات المسيحية، ثمة طوائف تُعد منتمية رسمياً إلى الدين الإسلامي، على غرار علويي تركيا وعلويي سوريا قبل العام 1970 والشيعة في عدد من البلدان العربية، يمكن اعتبارها من الأقليات على أرض الواقع.

مسارات علويي تركيا وعلويي سوريا والشيعة

يتحدّر علويو تركيا من انتفاضات شيعية الوحي يرجع تاريخها إلى القرن السادس عشر. كانت معارضة فلاحية بقدر ما كانت حركة خلاصية واتخذت شكل مقاومة عرفت باسم علويي تركيا بعد مرور

(1) Pierre George, *Géopolitique des minorités* (Paris: PUF, 1984).

قرون عدة، وجرى قمعها بشكل دموي[2]. بعد قرون من الانطواء إلى مناطق وعرة في أغلب الأحيان، تأقلمت هذه المجموعات مع النظام العثماني ما ساهم في تمثيلها بواسطة "محاورين خصوصيين" وحصلت في مقابل خضوعها على اعتراف بها كواقع على الأرض. لكن، في القرن العشرين، سُحقت ثورات الأكراد العلويين في منطقة درسيم (1921،1937،1938) بوحشية. وإذ كان أكثر تموضع العلويين ضمن اليسار المتطرف إبان نزاعات السبعينيّات، وقعوا ضحية مذابح منظمة، نذكر منها مذبحة ماراش في العام 1979 التي وقع ضحيتها أكثر من مائة قتيل. وفي التسعينيات، أشعلت مجموعة من اليمين المتطرف الإسلاموي حريقاً في أحد فنادق سيواس قتل فيه 34 مثقفاً، من العلويين في غالبيتهم. ثم في العام 1994، قام العلويون بأعمال شغب في إسطنبول نتيجة إطلاق الرصاص على أحد مقاهيهم فقمعوا بشكل دموي وقتل منهم خمسة وعشرين شخصاً[3].

وإذا ما اتجهنا جنوباً، وجدنا العلويين الذين يقدّرون بحوالي 10% من سكان سوريا، في وضعية أقلية طيلة القرون العثمانية ثم في خلال الانتداب والسنوات الأولى التي تلت الاستقلال. وقد وصل بهم الأمر إلى تفضيل الخيار الانفصالي في العشرينيات. أما استحالة إقامة دولتهم الخاصة بهم فلم تترك أمامهم خياراً آخر سوى الانشقاق الطائفي أو التقية. وهكذا، كما يقول ميشال سورا: "في العشرينيات، كانت ملحمة سلمان المرشد الذي تحول من راعٍ شاب في قرية جوبة برغال إلى وجه

(2) Benjamin Lellouch, "Puissance et justice retenue du sultan ottoman: les massacres sur les fronts iranien et égyptien (1514-1517)," dans: David El-Kenz, *Le Massacre, objet d'histoire* (Paris: Gallimard, 2005), p. 180.

(3) Elise Massicard, *L'Autre Turquie: Le Mouvement aléviste et ses territoires* (Paris: PUF, 2005).

محلي بارز جمع حول دعوته أتباعاً كثيرين (أربعين ألفاً) قبل أن يصبح نائباً في مجلس دمشق (1937)". وفي النهاية صدر حكم بإعدامه شنقاً، إلا أن المقاومة العلوية التي أعادت إنتاج نفسها من خلال ابنه ساجي اختارت التقية بدل الثورة.

ويقول ألكسندر كويري (Alexandre Koyré) "إذا تحوّلت الحرب من حالة استثنائية وعرضية ومؤقتة إلى حالة دائمة وعادية (...) فإن الكذب يمكن أن يتحوّل بدوره من حالة استثنائية إلى حالة عادية (...). إن أي مجموعة اجتماعية تجد نفسها وتشعر نفسها أنها محاطة بالأعداء لن تتردد أبداً في استخدام الكذب ضدهم. الحقيقة مع الجماعة والكذب مع الآخرين يصبحان قاعدة السلوك ليصيرا جزءاً من تقاليد الجماعة المعنية"[4]. "إخفاء ما أنت عليه، والتظاهر بالتالي بما لست عليه: إنه نمط الحياة الذي تفرضه بالضرورة كل جماعة على أفرادها"[5]. لم تشذ الطائفة العلوية عن هذه القاعدة بين العشرينيات والستينيات.

في خلال هذه الفترة، إذ لم يتمكن العلويون من دخول التعليم العالي الذي كان حكراً على الأوساط الميسورة، أرسلوا أبناءهم إلى المدرسة العسكرية التي جذبت الطبقات الفقيرة المعتبرة غير جديرة بدخول الإدارات المدنية والقضائية. شجعت هذه الاستراتيجية الجديدة، بوعي منها أو بدون وعي، استراتيجية "السياسات الإثنية بالوسائط العسكرية"[6].

(4) Alexandre Koyré, *Réflexions sur le mensonge* (Paris: Alia, 1998), p. 22.

(5) Ibid. p. 32.

(6) Donald L. Horowitz, *Ethnic Groups in Conflict* (Berkeley; Los Angeles: University of California Press, 1985), p. 471.

الدولة، هذا "الطير الذي يحمل البشائر"، حملت معها إلى السلطة الجنرال العلوي حافظ الأسد، بعد سلسلة من الانقلابات، ما مكّن الطائفة من التحوّل إلى أغلبية سياسية على الرغم من حجمها العددي والاقتصادي الضئيل، من دون أن يؤثر هذا الأمر في تنظيمها المستقل على هامش المجتمع السوري. وبحسب القالب التاريخي، حفظت تراتبيتها الحصة الأكبر لزعماء العشائر ورجال الدين من دون أن يحول هذا الأمر أمام قيام شبكات سائلة ذات هندسة متغيرة. وهكذا، سُمِّي الرئيس حافظ الأسد رئيساً لمجلس الطائفة العلوية غير الرسمي الذي ضمّ ثمانية عشر عضواً. لم يكن العلويون حاضرين بقوة في القطاع الخاص وقد بقيت حالتهم الاقتصادية متواضعة نسبياً، إلا أنهم دخلوا بكثافة الوظيفة الرسمية[7]. يشير ميشال سورا إلى أن التوظيف قد أتى ثماره: كان الرجال الأكثر سطوة في فترة ما بعد العام 1963 من العلويين، أمثال محمد عمران، صلاح جواد وحافظ الحسيني، كما استبدل أكثر من نصف الضباط السبعمائة المطرودين آنذاك بآخرين علويين. وابتداءً من العام 1966، صارت وزارة الدفاع التي كان وزيرها حافظ الأسد، مسرحاً كاملاً لـ "الاستعمار" العلوي[8]. وفي حين أن الجيش والبعث شكلا القاعدة التي بنيت عليها العصبية العلوية، قام القطاع العام بـ"مهمة دمج سياسي واجتماعي" للطائفة المذكورة التي ظلت مع هذا في حالة تبعية إزاء السلطة[9].

(7) Fabrice Balanche, "Alaouites: Une secte au pouvoir," *Outre-Terre*, no. 14 (2006), pp. 97-96, et Michael A. Davie, "Cellule familiale versus appartenance sectaire," Ibid., pp. 93-104.

(8) Michel Seurat, "Les Populations, l'Etat et la Société," dans: André Raymond, *La Syrie d'aujourd'hui* (Paris: CNRS, 1980), pp. 91-93.

(9) Fabrice Balanche, *La Région alaouite et le pouvoir syrien* (Paris: Karthala, 2006), notamment, p. 126 et p. 149.

صحيح أن السلطة لا تكتفي بعصبية بدائية منغلقة على نفسها وتحاول توسيع قواعدها بمضاعفة الزيجات بين الطوائف لدى النخبة، كزواج بشرى الأسد، ابنة حافظ الأسد من مسيحي وآخرين من أولاد شخصيات سنية[10]. أصبح الزواج في القمة أداة يبني فيها الحكم السوري هوية جديدة له، علماً أنه يظل متجسداً في أسرة عميقة الجذور في السلسلة العلوية ليشكل نواة صلبة تدور حولها الأغلبية السياسية.

يمكن وصف الطائفة الشيعية بأنها أقلية سياسية في عدد من البلدان العربية ولاسيّما في عراق السبعينيات حتى التسعينيات على الرغم من أن الشيعة مثلوا فيه حوالي 65% من السكان. في خلال هذه العقود، وفي كل أنحاء العالم العربي تقريباً، نما خطاب مناهض للشيعة أنتجته، في بعض الحالات، أعلى مواقع الإسلام السني. كانت الطوائف الشيعية في السابق متعاطفة في أغلب الأحيان مع الناصرية أو مع الأفكار اليسارية، ولكنها سارت في خط الثورة الإيرانية فتحولت إلى التطرف في غالبية شبه الجزيرة العربية لتكون احتفالات ذكرى عاشوراء مناسبات لأعمال شغب سياسي تم قمعها بقسوة. وشهدت السعودية كما البحرين في الثمانينيات والتسعينيات حملات اعتقال مكثفة[11].

بيد أن القمع في العراق أساساً كان هو الأقسى. إذا كان الوجود الشيعي في هذا الجزء من العالم قديماً، فإن تشيّع السنة الكثيف في جنوب العراق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر هو الذي دعّم بشكل أساسي صفوف الشيعة. راوح وضع الشيعة بين المعارضة والولاء في

(10) Yahya Sadowski, "The Evolution of Political Identity in Syria," in: Shibley Telhami et Michael Barnett, dir., *Identity and Foreign Policy in the Middle East* (Ithaca; London: Cornell University Press, 2002), pp. 145-146.

(11) Yitzhak Nakash, *Reaching for Power*: *The Shi'a in the Modern Arab World* (Princeton; Oxford: Princeton University Press, 2005).

خلال الحكم العثماني، و"تم تحويلهم إلى أقلية" على أرض الواقع عند تأسيس العراق الذي اعتنق "منذ نشأته إيديولوجية القومية العربية. وهكذا تم التغاضي عن خيانة مشروع الشريف حسين في إقامة مملكة عربية موحدة بالعودة إلى الأمة العربية أو إلى الهلال الخصيب"(12). خلال ثورة العام 1920، ونذكر أنها حملت طابعاً طائفياً مزدوجاً أو كانت فوق الطوائف، حاول الشيعة أن يفرضوا أنفسهم بوصفهم طائفة عراقية بالكامل مطالبين بحقهم في حكم البلاد(13). كما قدموا تعريفهم الخاص للهوية العربية والهوية العراقية: "بيّنوا أن الحكومات العراقية قد أفرغت مصطلح "عربي" من معناه، المرتبط بالأصل وبالهوية القبلية، وزيّنت مصطلح "عروبة" بالمعنى الغربي"(14).

شهد العراق كدولة في عقود نشأتها الأولى ثورات شيعية جديدة، من بينها ثورة العام 1927، وكذلك ثورة أيار/ مايو 1935، بعد الاستقلال، الذي فشل في منح الشيعة حق المساواة. رداً على اعتقال أحد العلماء واسمه أحمد أسد الله ورداً على قصف عدد من القرى في الديوانية، "دلت ثورة العام 1935، كم أن العنف قد أصبح جزءاً من اللعبة السياسية في العراق في أواسط الثلاثينيات. لم يتحول العنف إلى أداة بين أيدي حكومة تمارس السيطرة السياسية وحسب، بل أصبح وسيلة

---

(12) Pierre-Jean Luizard, "Le Mandat britannique en Irak: Une Rencontre entre plusieurs projets politiques," dans: Nadine Méouchy et Perter Sluglett, dir., *The British and French Mandates in Comparative Perspectives/ Les Mandats français et anglais dans une perspective comparative* (Leiden: Brill, 2004), p. 378

(13) Yitzhak Nakash, *The Chi'is of Iraq* (Princeton: Princeton University Press, 1994), p. 74.

(14) Ibid., p. 85.

حاولت الطائفة (الشيعية) أن تؤثر بها في السياسة"[15].

من العشرينيات وحتى التسعينيات، اشتد تهميش الشيعة سياسياً واجتماعياً. منذ البداية، جرّم قانون الجنسية امتلاك الجنسية المزدوجة، العراقية والإيرانية، معتبراً الأمر بمثابة ولاءٍ مزدوج، فحرم عدداً من أفراد هذه الطائفة من أي وضعية قانونية. في العام 1930، كان الأكراد يشكلون 17% من السكان، وقد احتلوا 22% من الوظائف المهمة في الدولة بينما لم يتمثل الشيعة سوى بنسبة 15%[16]. وفي الستينيات، شكل الشيعة حوالي 70% من الجنود في حين أن صفوف الضباط لم تضم سوى 20% من الشيعة. أما الضباط الذين تسلموا السلطة في العام 1958، فهم في غالبيتهم "عرب سنّة من حيث أصولهم وعروبيو الميول"[17]. وأيضا، "في حين أن الشيعة هم من مؤسسي البعث العراقي في العام 1952، كان قادة الحزب في العام 1968، من السنّة بشكل شبه حصري"[18]. وإذا كان الشيعة، بين العامين 1952 و 1963، يمثلون أكثر من 60% من قادة البعث الإقليميين (53,8% من الشيعة العرب و7,7% من الشيعة الأكراد)، فإنهم صاروا في العام 1970 أقل من 15% في المواقع المهمة (5,7% من الشيعة العرب و7,5% من الشيعة الأكراد)[19].

شهد العام 1979، تاريخ تسلّم صدام حسين الرئاسة بشكل رسمي،

---

(15) Ibid., p. 124.

(16) Ibid.

(17) Hanna Batatu, *The Old Social Classes and the Revolutionary Movements of Iraq: A Study of Iraq's Old Landed and Commercial Classes and of its Communists, Ba'thists and Free Officers* (Princeton: Princeton University Press, 1978), p. 832.

(18) Nakash, *Reaching for Power: The Shi'a in the Modern Arab World*, pp. 82-83.

(19) Batatu, Ibid., pp. 82-83.

بداية مرحلة قمع شديد ضد الشيعة. في تلك السنة، وبعد رفض آية الله محسن الحكيم إدانة إيران، اعتقل ابنه واتهم بالتجسس لمصلحة إسرائيل. ورداً على عمليات نظّمها حزب الدعوة، ولاسيّما ضد طارق عزيز، تم اعتقال أكثر من خمسة آلاف شيعي وأعدم عدة مئات منهم، من بينهم آية الله محمد باقر الصدر وشقيقته أمينة بنت الهدى[20]. في 2 تموز/ يوليو 1982، وقعت محاولة اغتيال ضد صدام حسين في مدينة دجيل حيث يتمتع حزب الدعوة بقوة كبيرة، وانتهى الأمر برد انتقامي أعدم فيه 148 رجلاً بشكل فوري مع اعتقال وتعذيب أكثر من 1500 شخص.

فلسطين والانتفاضة

إذا كانت الثمانينيات قد شهدت حالات علويي تركيا وعلويي سوريا والشيعة التي دلت كم أن الطوائف يمكن أن تتصلب في وضعية الأزمة فيؤدي الأمر إما إلى استراتيجية غزو دموية من قبل السلطة وإما إلى معارضة عنيفة، فإن ثمة نزاعين آخرين، الفلسطيني والكردي، قد أثبتا إلى أي حد يمكن للمسائل الوطنية غير المحلولة أن تشكل مواطن عدم استقرار.

لم تتسم المسألة الفلسطينية بعد العام 1967 "بعلاقات استغلال بقدر ما اتسمت بعلاقات سيطرة"[21] سواء في الأراضي المحتلة أو في إسرائيل نفسها. مما لاشك فيه أن "تعزيز إسرائيل من الداخل" يعتمد بشكل وثيق، وبالأخص في السبعينيات والثمانينيات، على التعبئة الأمنية

(20) Faleh A. Jabar, *The Shi'ite Movement in Iraq* (London: Al-Saqi, 2003), p. 237.

(21) Maxime Rodinson, *Peuple juif ou problème juif* (Paris: Maspero, 1981), p. 229.

وحتى على الحرب كنشاط وممارسة وإيديولوجيا[22]. لكن الإيديولوجيا الوطنية وثقافة الحرب لا يمكن أن تزدهرا إلا على حساب الصهيونية اليسارية لدى الآباء المؤسسين. ابتداءً من السبعينيات، وبالأخص ابتداءً من حرب تشرين، اشتد عود حزب الليكود اليميني حول برنامج جديد يدعو إلى "أرض إسرائيل" التي كانت أصلاً "الأرض الموعودة" نتيجة تحالف يهوه واليهود. دشّن انتصار الليكود، بقيادة مناحيم بيغين في انتخابات العام 1977، مرحلة تاريخية جديدة. فقد انخرط رئيس الوزراء ومعه آرييل شارون، وزير الزراعة ثم وزير الدفاع، ضمن رؤية مزدوجة، تستبعد الواحدة الأخرى حيناً وتتكامل معها حيناً. وهذه الرؤية هي عبارة عن برغماتية تدعو إلى تطوير سياسة انفتاح نحو العالم العربي، ولاسيّما مصر، في حين أن الرؤية المُناقضة تعتبر أن الأراضي الفلسطينية المحتلة جزءٌ من أرض إسرائيل، هذا الكيان غير الموجود قانونياً والذي ارتدى طابعاً مقدساً يحول دون القيام بأي تنازل إزاءه. وفي المقابل، فاقم العنف الفلسطيني من إغراق الرأي العام الإسرائيلي في الخوف مسبباً انطواءً على النفس وقراءة حربية للتاريخ تهمِّش بشكل مستدام المعسكر الإسرائيلي الداعي إلى السلام.

في السبعينيات والثمانينيات، شهدت منظمة التحرير الفلسطينية تحولات داخلية مهمة وأعطت المؤشرات الأولى على تقاربها مع المواقف المصرية المتصلة بالاعتراف بدولة إسرائيل، هذا على الرغم من اللغة المتطرفة التي استخدمتها ولجوئها إلى العنف. كما اكتسبت المنظمة وضعية دولة، بما أن الأمم المتحدة اعترفت بها ممثلاً شرعياً للشعب الفلسطيني. لكن، على الرغم من وجود المنظمة الدائم وحتى

(22) Dietrich Jung, *State Formation and War: The Case of Palestine* (Florence: EUI Working Papers, 2000).

هيمنتها، إلا أنها كانت مهمّشة على الساحة الداخلية لأن السكان الفلسطينيين الذين اعتبروا أنها ناطقة باسمهم في الستينيات، استنفروا من أجل تأمين تمثيلهم السياسي وتسلّم زمام قدرهم بأنفسهم.

قامت الانتفاضة الأولى من كانون الأول/ ديسمبر 1987 وحتى أيلول/ سبتمبر 1993، وعملت على تسريع استقلالية فلسطين من الداخل. بدأت الانتفاضة حينما صدمت مدرعة إسرائيلية مزارعين فلسطينيين في غزة وقتلت أربعة منهم في الثامن من كانون الأول/ ديسمبر 1987. وقعت الحادثة بعد يومين فقط على اغتيال رجل أعمال إسرائيلي من قبل فلسطينيين، فاعتبرها الرأي العام الفلسطيني رداً غير معلن عنه ونزل الناس فوراً إلى الشارع.

في ما وراء هذه الحادثة، يجدر بنا إيلاء عامل آخر أهمية إذ يفسر الإدراك المفاجئ لدى الفلسطينيين بأن المقاومة ضد المحتل ممكنة مجدداً. بحسب غلين بومان (Glenn Bowman)، "في نهاية العام1987، نظمت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين هجوماً ناجحاً على الحدود مع إسرائيل تسبب بمقتل ستة جنود إسرائيليين. كان هذا الهجوم، وهو الوحيد فعلياً الذي تكلّل بالنجاح على الحدود الإسرائيلية اللبنانية منذ الاحتلال الإسرائيلي للبنان، إثباتاً وقل مؤشراً على أن السلطة الإسرائيلية ليست سلطة لا تقهر". يضاف إلى هذه "العملية من الخارج" هرب مناضلين من الجهاد الإسلامي من سجنهم في غزة خلال عملية اغتيل فيها ضابط من الشرطة العسكرية. فشكلت هذه الحادثة الأخيرة مؤشراً إضافياً على "ضعف العدو"[23].

---

(23) Glenn Bowman, "A Country of Words: Conceiving the Palestinian Nation from the position of exile," in: Ernesto Laclau, dir., *The Making of Political Identities* (London: Verso, 1994), pp. 161-162.

كانت التكلفة الإنسانية في الانتفاضة الأولى كبيرة، فالجيش الإسرائيلي استخدم رصاصاً حقيقياً في مواجهة الحجارة. قُتل 1160 فلسطينياً من بينهم 241 طفلاً، واتُهم 500 آخرون بالتعاون مع إسرائيل فأعدموا من قبل الفلسطينيين أنفسهم. وجُرح 18000 شخص كما اعتقل 175000 آخرون. أحصيت 23000 حالة تعذيب دلّت على أن سوء المعاملة أصبح "نمطاً من أنماط العلاقة بين المحتلين والرازحين تحت الاحتلال"[24]. دمّرت القوات الإسرائيلية ألفي منزلٍ[25] ومنعت العلم الفلسطيني وصور عرفات. وقتل الفلسطينيون من ناحيتهم 140 إسرائيلياً من بينهم خمسة أطفال.

فاجأت الانتفاضة منظمة التحرير الفلسطينية ذاتها التي كانت معتبرة هي المرجعية الأخيرة، لكنها لن تتمكن أبداً من السيطرة على آلية التمرّد العفوية بالفعل. وبدل أن تكون الانتفاضة "تحت قيادة" حزب أو طرف منظّم، ولّدت ممثليها وتمثيلاتها الخاصة بها، وضاعفت التعبئة الثلاثية التي حملتها، بدءاً بالحركة العمالية الفلسطينية المولودة في العشرينيات (أسست جمعية العمال العرب في العام 1925)، وقد تطورت أولاً تحت السيطرة الأردنية التي لم تكن مساعدة لها أبداً ثم تحت الاحتلال الإسرائيلي الذي مارس إزاءها في كثير من الأحيان قمعاً شديداً.

تأتي الحركة النسائية، وحتى النسوية، في المرتبة الثانية، ويرجع تاريخها إلى العشرينيات وقد احتلت، كما لم تفعل أبداً من قبل، مقدمة مسرح الأحداث. تنقسم الحركة النسائية بين عدد من التنظيمات التي

(24) Franz Fanon, *Pour la révolution africaine: Ecrits politiques* (Paris: La Découverte, 2006), p. 73.

(25) James L. Gelvin, *The Israel-Palestine Conflict: One Hundred Years of War* (Cambridge: Cambridge University Press, 2005), p. 220.

تأسست في بدايات الثمانينيات وكانت ذات ميول مختلفة وأسماء متشابهة: اتحاد لجان العاملات الفلسطينيات، لجان العمل الاجتماعي النسائية... إلخ. انتمت هذه التنظيمات إلى تيارات سياسية فلسطينية مختلفة، ولكن مهما كان من ولاءاتها للتشكيلات السياسية إلا أنها شكلت عموماً مساحة تحرّر للمناضلات اللواتي سارعن إلى التقاط فرص العمل والإبداع الجديدة المتاحة أمامهن.

وأخيراً، توطدت مبادرات سياسية لفلسطين الداخل التي سهلت ولادتها توجهات منظمة التحرير الفلسطينية الجديدة. ففي السبعينيات والثمانينيات، أجرت القيادة المركزية الفلسطينية تحولاً استرتيجياً بطيئاً، وفي حين لم تغير (بعد) هدفها النهائي، وهو "تحرير كافة التراب الفلسطيني"، إلا أنها "قبلت فكرة "السلطة الوطنية" على أي جزء من أرض مستعادة، كمرحلة انتقالية في مشروع التحرير الذي سرعان ما تطور باتجاه برنامج دولة فلسطينية مستقلة في الضفة الغربية وغزة"[26]. وإذ قبلت مجموعات تقدمية عديدة بأن "تُكلّف" منظمة التحرير الفلسطينية بالتمثيل الدولي، إلا أنها أسّست في العام 1973 بنية شبه سرية هي الجبهة الوطنية الفلسطينية. في العام 1978، نشأت لجنة التوجيه الوطني وقد ضمّت رؤساء بلديات وممثلين عن غزّة وأطرافاً محافظة، كالإخوان المسلمين، وأخرى شيوعية، من أجل المطالبة علناً بقيام دولة فلسطينية. وفي الثمانينيات، نشطت أربعة تنظيمات على الأقل، ولدت من حركات

(26) Nadine Picaudou, "Introduction," dans: Nadine Picaudou et Isabelle Rivoal, dir., *Retours en Palestine: Trajectoires, rôle et expériences des returnees dans la société palestinienne après Oslo* (Paris: Karthala, 2006), p. 9 et p. 11.

شعبية هي: حركة الشبيبة، كتلة الوحدة، الكتلة التقدمية، جبهة العمل[27]. كانت فلسطين الثمانينيات الأرض العربية الرئيسة التي عرفت تعددية سياسية حقيقية.

أصبحت اللجان الشعبية قنوات التعبير عن الانتفاضة التي لم تنشأ عن الحركات المذكورة لكنها استفادت من أرض قد تسيّست بعمق. كانت الانتفاضة مرادفاً لعمليات شغب يومية وقد وجدت قادتها وارتسمت ضمن نظام ذاتي يمكن وصفه بالإيجابي لأنه كان محرِّراً من المخاوف. وقد أطلقت كذلك ديناميكيات أخرى حين رفضت قوى جديدة ناشئة، ضمّت النساء والمثقفين والشباب، الحماية الأبوية الخانقة من جانب الأردن ومعها سيطرة الحمولة، أي العشائر، ضمن شبكة البلديات[28]. أضف إلى ما سبق أن الانتفاضة "أعادت مركزة" الصراع العربي الإسرائيلي، فبعد أن كان هذا الأخير قائماً بين دولة وأخرى، انزلق نحو صراع "بين طائفة وأخرى"، ولاسيّما مع معارضة الفلسطينيين وجود المستعمرين اليهود[29].

وليس ثمة من مفاجأة في أن تترافق "إعادة المركزة" هذه مع إدراك التمييز بين فلسطين "الموجودة"، وهي إطار الدولة المستقبلية، وفلسطين التاريخية، وهي الإطار المرجعي للذاكرة الوطنية. لم يكن من الممكن

---

(27) للاطلاع على تحليل جدير بالاهتمام حول الحركات العمالية والنسوية والسياسية، انظر:
Joost R. Hiltermann, *Beyond the Intifada, Labor and Women Movements, in the Occupied Territories* (Princeton: Princeton University Press, 1991).

(28) انظر في هذا الصدد مقالات صونيا دايان هرزبرون المجموعة ضمن كتاب:
Sonia Dayan-Herzbrun, *Femmes et politique au Moyen-Orient* (Paris: L'Harmattan, 2005).

(29) Alain Dieckhoff, *Les Espaces d'Israël* (Paris: Presses de FNSP, 1989), p. 209.

تحديد فلسطين الجديدة والقبول بها وشرعنتها إلا بشرط التخلي فعلياً عن فلسطين التاريخية. وقد كشفت رسالة عرفات إلى رابين، التي يعترف فيها رسمياً بحق إسرائيل في الوجود ضمن حدود آمنة كما يعترف بحقها في السلام والأمن[30]، كما كشفت اتفاقات أوسلو في العام 1993 إعادة تحديد المعالم على هذه الشاكلة.

الأنفال في العراق وتطور كردستان إيران وكردستان تركيا

المسألة الكردية هي المسألة الوطنية الثانية التي هزّت الشرق الأدنى في الثمانينيات، علماً أن "تجدّد" الحركة الكردية يقع في الحقيقة قبل هذا العقد من القرن العشرين. بدأت "فترة الصمت" في المجال الكردي بعد سقوط جمهورية مهاباد المستقلة سقوطاً دموياً في إيران في العام 1946، وانتهت مع ثورة الحزب الديمقراطي في كردستان التي انطلقت في العراق في العام 1961. يصف جيرار شاليان هذه الانتفاضة التي دامت حتى العام 1975، بأنها "الكفاح المسلح الأهم عسكرياً في العقدين الأخيرين في الشرق الأدنى"[31].

عُرفت الثورة باسم قائدها، مصطفى البرزاني، ورزحت تحت قمع شديد تدعمه على وجه الخصوص، سياسة تعريب قوية ولاسيّما في كركوك. بدءاً بالعام 1963، وفي حين أن بعض الشخصيات الكردية قد مُنعت من احتلال مناصب في المدينة كما نقل الموظفون المحليون إلى الجنوب ليحل محلهم زملاؤهم العرب[32]، عمد النظام البعثي الأول،

(30) Gelvin, *The Israel-Palestine Conflict: One Hundred Years of War,* p. 232.

(31) Gérard Chaliand, *Stratégies de la guérilla: Anthologie historique de la longue marche à nos jours* (Paris: Gallimard, 1984), p. 56.

(32) Nouri Talabani, "1920-1988: La Société kurde du Kurdistan irakien," *Monde arabe Maghreb- Machrek*, numéro spécial de la revue, =

في العام 1963، إلى طرد أربعين ألف كردي[33]. على الرغم من معارضة بعض وجوه النظام البارزة، على غرار عبد الرحمن البزّاز، واصل نظام الأخوين عارف سياسة القمع. من العام 1974 وحتى العام 1975، دُمِّر عدد من المدن الكردية، من بينها مدينتي زاخو (25000 نسمة) وقلعة دزة (20000 نسمة) وأعدم بالرصاص حوالي ألف من مقاتلي البشمركة الذين "استقبلوا الموت"، في حين قتل خمسة آلاف مدني[34]. وأخيراً، من صبيحة سقوط حركة البرزاني في العام 1975 وحتى العام 1979، هُجِّر 250000 شخص من قراهم ليعاد إسكانهم في "مدن جديدة"[35]. وهكذا، فإن تدمير الريف قد بدأ قبل مدة طويلة من تسلم صدام حسين السلطة في العام 1979.

بيد أن عهد رئاسة صدام حسين تميّز في مجال القمع بقفزة نوعية بقدر ما هي كمية. وهكذا، فقد اغتيل عدد كبير من السياسيين والمثقفين، بمن فيهم من كانوا "أتباع" النظام أو كانوا قد انسحبوا من الحياة السياسية، على غرار صلاح اليوسفي، في 25 حزيران/ يونيو 1981. وجرى تسريع سياسة ترحيل الأكراد الشيعة أو الأكراد الفَيلية عندما أصدر مجلس قيادة الثورة مرسوم 7 أيار/ مايو 1980، وقد نص على أن "يُجرّد من جنسيته 'أي عراقي من أصول أجنبية لا يظهر "ولاءً للوطن والشعب والأهداف الوطنية والاجتماعية الكبرى التي تحملها الثورة'"[36]. وإذا كان 40000

= pp.168-174.

(33) Gérard Chaliand, *Le Malheur kurde* (Paris: Seuil, 1992), p. 110.

(34) Samir Al-Khalil, *Irak: La Machine infernale* (Paris: JC. Lattès, 1991), p. 52.

(35) انظر تقرير:
Middle East Watch, *Génocide en Irak. La campagne d'Anfal contre les Kurdes* (Paris: Karthala, 2003).

(36) Jens-Uwe Rahe, "La Déportation des chiites en Iran," dans: Chris =

من الفَيليين قد جُرِّدوا من جنسيتهم العراقية في العامين 1971 و1972 و"طُردوا" باتجاه إيران التي "ينتمون إليها" بحسب السلطة، فإن نهاية العام 1980 قد شهدت "تجريد" حوالي 215000 شخص من جنسيتهم. يذكر صدام حسين، في صدد حديثه عنهم، صورة "الطابور الخامس" ويقول لهم علناً: "خذ حاجاتك وارحل، جئتنا حافي القدمين وبعد أن حوّلناك إلى إنسان بدأت تبحث عن أعمامٍ وأولاد عم، هيا ارحل إذاً عند أعمامك"[37]. كما وعد "الأطفال العراقيين" الذين باحوا له بكراهيتهم لهولاء الأكراد المعتبرين "فرساً" قائلاً "إنه لن يبقى أي أعجمي على أرض الحزب والثورة ابتداءً من اليوم"[38].

في موازاة ما سبق، اشتدت سياسة تعريب مدينة كركوك. ففي الثمانينيات، منحت الأسر العربية العراقية التي تسكن كركوك عشرة آلاف دينار، أي ما يوازي 35000 دولار. أضف إلى أن تغيير الهوية هو أيضاً سياسة شجعت عليها الدولة إذ منحت النساء الكرديات اللواتي يقبلن بالزواج من رجال عرب مكافأة مالية[39]؛ وعلى العكس من هذا، إذا ما قبل الزوج العربي العسكري أن يطلّق "زوجته ذات الأصول

= Kutschera dir., *Le Livre noir de Saddam Hussein* (Paris: Oh ! Editions, 2005), p. 261.

(37) Ali Babakhan, *Les Kurdes irakiens: Leur histoire et leur déportation par le régime de Saddam Hussein* (Beyrouth: [s. n.], 1994).
(استحالت العودة إلى الأصل العربي فتمت ترجمة الفقرة – المترجمة–)

(38) Ibid., p. 189,
كانت المكتبات العراقية تتحضر لاستقبال كتاب خير الله طلفاح، عم صدام حسن ومعلمه ، تحت عنوان: "مسألة الأجناس الثلاثة التي لا يفهم أحد لماذا خلقها الله: "الفرس، اليهود والذبان"، انظر: Al-Khalil, *Irak: La machine infernale*, p. 335.

(39) Mohammed M. A. Ahmad, "The Chronicle Problems of Kurdish Refugees and Internally Displaced Kurds in Southern Kurdistan-Iraq," *M.M.A. Ahmad Foundation for Kurdish Studies, Sharaon* (2001), p. 32.

الإيرانية" (أي "الكردية الشيعية")، فسيتلقى "مكافأة قدرها 4000 دينار"، في حين خفضت هذه المكافأة للرجل المدني إلى 2500 دينار[40]. وأخيراً، مورست سياسة التعريب بالقوة العسكرية من طريق "إعادة إسكان" في مدن أخرى غير كركوك. وفي الثمانينيات، استخدمت حجة "خفض البطالة" من أجل تنظيم موجات من الترحيل الإلزامي في منطقة السليمانية[41].

الأخطر من هذا التغيير في المعطى الديمغرافي، هي أن سياسة البعث الجديدة ستعطي بعداً "بيولوجياً" للخيانة. فصارت المعركة ضد "الخونة" تستهدف تدمير السلف والخلف في المجموعة التي ينتمون إليها. في 30 حزيران/ يونيو 1983، "هجم" الجيش العراقي على مخيمات آل برزاني في مناطق كوشتابا وديالا، واصطحب ثمانية آلاف شخص من آل برزاني وأتباعهم، من الذكور البالغين اثني عشر عاماً وحتى الثمانين عاماً، وقد اعتبروا مفقودين منذ ذلك التاريخ[42]. أما النساء والأطفال فقد تركوا لـ"يعاد إسكانهم" في "مجمعات" بدائية. وقد حدد سن الأطفال الذكور المختطفين بحسب ضرورة قصوى وهي حرمان المجموعة التي تحمل صلة قربى مع أحمد ومصطفى البرزاني، وهما الوجهان البارزان وقائدا ثورتي 1930 و1960، من الخلف لمدة

(40) في ما خص المرسوم رقم 464 الصادر بتارخي 15 نيسان/ أبريل 1981 والموقع من قبل صدام حسين، انظر:
Babakhan, *Les Kurdes irakiens: Leur histoire et leur déportation par le régime de Saddam Hussein*, p. 195.

(41) للحصول على نسخة من المرسوم الموقع بيد صدام حسين، انظر:
Ismet Ch. Banly, *Kurdistan und die Kurden* (Göttingen: Pogrom Teihe bedrohte Völker, 1986), vol. 2, pp. 163-165.

(42) R. Fatah, "Kurdish Genocide: The Sole Aim of the Game," http:/ / www.kurdmedia.com/ reports.asp.

عقد من الزمن. أما الصبية الأصغر سناً، فلم يقتلوا إما لأنه يفترض بهم ألا يحتفظوا بذكرى المأساة التي عاشوها، وإما لأنهم على العكس من هذا، سيحملون دمغتها طيلة حياتهم فـ"لا يعيدون الكرة".

وفي المقابل، لم تخضع الحرب الكيميائية، التي بدأت بعدها ببضع سنوات، لهذه المعايير. فهي لم تستهدف أسرة أو قبيلة بعينها، بل الشعب الكردي في منطقة بهدينان برمته[43]. استخدمت الأسلحة الكيميائية للمرة الأولى ضد مخيم لاجئين أكراد في إيران في 18 حزيران/ يونيو 1986، وتسببت بمقتل 132 شخصاً ثم زاد عدد الضحايا بكثافة بين نيسان/ أبريل وتموز/ يوليو 1987، حين استخدمت هذه الأسلحة ضد قرى كردية كثيرة في العراق نفسه، كقرية شيخ وه سان وقرية سركلو... إلخ. شكلت هذه العمليات في الواقع مجرد تمهيد لاستخدام منهجي للأسلحة الكيميائية التي انتشر خبر استعمالها عالمياً في 16 آذار/ مارس 1988[44] في حَلَبْجة حيث سقط ضحيتها خمسة آلاف قتيل، واستمرت تحت اسم "عمليات الأنفال[45] البطولية" حتى السادس من

---

(43) من المراجع الكثيرة:
C. Randal, *After such Knowledge what Forgiveness? My Encounters with Kurdistan* (New York: Farrar, Straus & Giroux, 1997).

(44) صبيحة الهجوم، شرح طه ياسين رمضان على القنوات التلفزيونية التركية قائلاً إن المدينة بعد تعاونها مع العدو، قد لاقت المعاملة ذاتها التي لقيها العدو.
Ali Tartanoglu, *Irak, Saddam, Körfez* ([n. p.]: çark Kitabevi, 1991), p. 70.

في موقع المدينة ذاتها، أقيمت "مدينة صدام الجديدة". وفي صبيحة حرب الخليج، توجه عزت إبراهيم إلى الأكراد قائلاً إن كنتم قد نسيتم حلبجة، فإني أذكركم أننا مستعدون لتكرار هذه العملية"، في:
Michael M. Günter, *The Iraqi Kurds and the 1991 Gulf War*, manuscrit, p. 34.

(45) "أنفال" تعني "الغنيمة" أو "الأسلاب الحربية" وهو عنوان واحدة من السور القرآنية.

أيلول/ سبتمبر 1988[46]. وقع ضحية هذه العمليات، بحسب "مرصد الشرق الأوسط" حوالي 180000 قتيل وأثارت موجات كثيفة من النزوح بين من بقي على قيد الحياة، ولاسيّما نحو تركيا (60000 نازح) وإيران (15000 نازح). كانت "الأنفال" تطبيقاً حقيقياً للقوة البيولوجية على شكل إبادة[47]، واستمر تدمير حوالي 4000 قرية وكفر مع القضاء على كل شكل من أشكال الحياة النباتية والحيوانية في منطقة بهدينان. اعتبر "مرصد الشرق الأوسط" "غزو كردستان" هذا بمثابة إبادة جماعية.

صبيحة حرب العراق الأولى، تم وضع اليد على آلاف الأطنان من الوثائق الرسمية في كردستان ، المكتوبة منها أو المصورة، ما سمح بالتأكد كم كانت "عمليات الأنفال" محضّرة بدقة. حرص الجيش وأجهزة المخابرات على الاحتفاظ بتوثيق كامل، فأحصوا وسجلوا وصوروا كل شيء، سواء أكان من أجل الاحتفاظ داخلياً بذكرى هذا العمل الفظيع أو من أجل تقديم الإثبات إلى "الرؤساء" على حسن القيام بالمهمة. إليكم ما يمكن قراءته في هذا الصدد: "أيها الرفاق الأعزاء، (مرفق طيه) أمر من قيادة حزب البعث الشعبي في زاخو، بتاريخ 14 حزيران/ يونيو 1987: يمنع منعاً باتاً دخول أي آلية لنقل البشر والغذاء والآلات الميكانيكية

(46) بالنسبة إلى "الأنفال التسعة" التي استمرت بين 23 شباط/ فبراير و6 أيلول/ سبتمبر، انظر:
Middle East Watch, *Génocide en Irak: La Campagne d'Anfal contre les Kurdes*.

(47) للاطلاع على هذا الشكل من "السلطة البيولوجية" التي ذكرها ميشال فوكو في الجزء الأول من كتابه:
Michel Foucault, *Histoire de la sexualité* (Paris: NRF, 1997),
انظر: Mitchell Denn, "Demonic Societies: Liberalism, Biopolitics and Sovereignty," in: Thomas Blom Hansen and Finn Stepputat, dir., *States of Imagination: Ethnographic Explorations of the Post-Colonial State* (Durham:Duke University Press, 2001), pp. 41-64.

إلى القرى التي أعلن الحظر عليها لأسباب أمنية في خلال المرحلة الثانية (من العمليات). يتعين على أفراد القوات العسكرية قتل أي إنسان أو حيوان موجود في هذه المناطق"[48].

تضم الوثائق كذلك جزءاً كبيراً من خطابات علي حسن المجيد، صهر الرئيس صدام حسين[49] وحاكم "المنطقة الشمالية" في خلال فترة القصف بالقنابل الكيميائية. لن نذكر منها سوى خطاب 26 كانون الثاني/ يناير 1989 الذي قال فيه الجمل الآتية: "العناية (بالفلاحين المأسورين) تعني دفنهم بالجرافات. هذا هو معنى العناية بهم. هؤلاء الناس يستسلمون. هل هذا يعني أني سأتركهم أحياء؟ أين سأضع كل هؤلاء الناس؟ لذا وزّعتهم على المناطق وأعملت الجرافات"[50].

تدل الحرب بين العراق وإيران، التي لم تكن فيها كردستان تحت سيطرة بغداد، وبعدها عمليات الأنفال، إلى أي حد كان صدام حسين قادراً، عند الضرورة، على التخلي عن أراضٍ ذات أهمية استراتيجية قليلة من أجل أن يوطد مركز حكمه، ليستعيد الزمام بعدها ويقضي على الجماعة المنشقة. بعد مرور بضع سنوات، في العام 1991، وبضغط من المجتمع الدولي، أجبر نظامه على التخلي عن جزء كبير من كردستان.

(48) Judith Miller, "Iraq Accused: A Case of Genocide," *New York Times Magazine* (3 janvier 1993).

انظر أيضاً تحقيق جي. غولدبرغ حول الضحايا المتبقية على قيد الحياة:
J. Goldberg, "The Great Terror," *The New Yorker* (25 mars 2002), pp. 52-75.

(49) بعد حرب العام 1991، منح علي حسن المجيد ميدالية "بطل الأنفال".

(50) The Executive Council of the INC, *Crimes Against Humanity and the Transition From Dictatorship to Democracy* (London: INC, Salahaddin, 1993), p. 14.

لكن هنا أيضاً، كانت مسألة "إعادة نشر" قواته وأوراقه الرابحة[51]، بانتظار أن يستعيد المناطق الكردية التي خسر السيطرة عليها. أما في حال كانت خسارته لهذه المناطق نهائية، كان عليه أن "يوطد مناعة" ما تبقى منها من خلال "القضاء على كردية" السكان، لذا سرّع في عملية تعريب مدن كركوك وخناقين ومندلي وسنجار[52]. أفاد أحد المراقبين أمام لجنة حقوق الإنسان في الأمم المتحدة في العام 2000 قائلاً: "في مدينة كركوك وحدها، جرى تهجير 108000 كردي منذ العام 1992"[53].

منذ نهاية السبعينيات وحتى بداية التسعينيات، شهدت كردستان العراق وكردستان تركيا بدورهما موجة احتجاجات وعنف وقمع. دلت الحقبة الثورية في إيران على أن الحركة الكردية التي ضربت في العام 1946 وأجبرت على المنفى، احتفظت مع هذا بقاعدة شعبية حقيقية. ففي خلال فترة قصيرة، وقعت المدن الكردية الأساسية، بدءاً بأمرية ومهاباد، تحت سيطرة تنظيمات كردية، وأهمها الحزب الديمقراطي الكردستاني الإيراني وحزب كومالا. كان الأول بقيادة عبد الرحمن قاسملو (المولود في العام 1930) الذي انتقل من "الماركسية اللينينية" إلى الاشتراكية الديمقراطية في خلال الفترة التي قضاها في أوروبا الغربية، ولاسيّما في فرنسا. تجذّر التنظيم بقوة في قلب الطبقات الوسطى والمثقفين لكنه استقطب أيضاً قطاعات من سكان المدن والريف بفضل إرث جمهورية

(51) Françoise Rigaud, "Irak: Le Temps suspendu de l'embargo," *Critique internationale* (11 avril 2001), pp. 15-24.

(52) S. Graham-Brown, *Sanctioning Saddam: The Politics of Intervention in Iraq* (London, New York: I. B. Tauris, 1999), pp. 201-202, 211.

(53) شهادة غيوم بوندي امام لجنة حقوق الإنسان في الأمم المتحدة:
Témoignage de Guillaume Bondi devant la Commission des droits de l'homme de l'ONU, 12 avril 2001 (*Presse Release of the Commission on Human Rights,* du même jour)

1946 المستقلة والقاضي محمد، رئيسها الذي أعدم. أما حزب كومالا، فقد أسّسته في العام 1967 مجموعة من الطلاب الذين التقوا ضمن قيادة جماعية. وهو حزب يحمل أوجه شبه كثيرة مع التنظيمات اليسارية المتطرفة الإيرانية: ماوي الاتجاه، وصاحب قواعد صلبة بين الشباب. أدت العلاقات الصدامية بين التنظيمين إلى مواجهات عنيفة ذات طابع متقطع.

عمدت طهران إلى قمع حركة المعارضة هذه بقسوة ابتداءً من ربيع العام 1979، فاستخدمت الطيران العسكري لقصف المدن والمحاكم الثورية بقيادة آية الله خلخالي التي كانت نتيجتها تنفيذاً فورياً لمئات الأحكام بالإعدام. من العام 1979 وحتى العام 1984، وقع ضحية القمع حوالي 45000 شخص، بحسب تقديرات كردية، من بينهم 5000 مقاتل فقط[54]. غادر التنظيمان المدن لينصرف إلى خوض حرب عصابات في الريف استمرّت على امتداد الحرب بين إيران والعراق.

بعيد انتهاء عهد النظام العسكري الذي دام من العام 1971 وحتى العام 1973، صارت السجون في كردستان التركية "جامعات سياسية"، ونشأ عدد من التنظيمات السياسية ذات الميول اليسارية المتنوعة. وإذ بقيت الحركات الكردية سلمية في البداية، إلا أن العنف الذي استباح البلاد بمجملها، وبالأخص الأثر الذي تركه فشل ثورة البرزاني، قد ولّدا إحساساً بالملحاحية دفع الشبان الأكراد إلى تحضير أنفسهم لمواجهة سيناريو الصدام القوي المعلن مع اليمين المتطرف التركي، فتزعموا حركة احتجاج جديدة "لاسترجاع الكرامة" على نطاق كردستان. ورفض المراهقون على وجه الخصوص خيار العمل السلمي الذي دافع عنه كبارهم.

(54) PDK-Iran, *Documents du IX^{ème} Congrès: 21-28 décembre 1991, dédié à la mémoire du Dr Abdul Rahman Ghassimlou* (Paris: [s. n.],1991).

بين العامين 1977 و1978، نشأ تنظيمان يشتركان إلى هذا الحد أو ذاك في الصفات ذاتها ويضعان نصب أعينهم تحرير كردستان كشرط للثورة الاشتراكية التي يجب أن تمتد لتشمل الشرق الأوسط. نتجت منظمة "محررو كردستان الوطنيون" (كوك) عن انشقاق ضمن الحزب الديمقراطي الكردستاني في تركيا والحزب العمالي الكردستاني الذي أسسه عبد الله أوجلان. سعى التشكيلان المتنافسان إلى السيطرة على القاعدة الاجتماعية ذاتها المؤلفة من الشبان المدينيين والريفيين، فقامت بينهما حرب لا تعرف الرحمة سقط فيها حوالي 400 قتيل من العام 1978 وحتى العام 1980، هذا إضافة إلى المواجهة مع القبائل حلفاء أنقرة والتي اعتبرت "إقطاعية". ووقع انقلاب جديد بقيادة الجنرال كنعان إيفرين في 12 أيلول/ سبتمبر 1980 ضرب الحركة فأضعفها، فحظر التحدث بالكردية كما مات عشرات المناضلين في السجون بعد أن أحرق بعضهم نفسه حتى لا يضطر للخضوع.

في العام 1984، "عاد" رئيس الحزب العمالي الكردستاني، عبد الله أوجلان إلى تركيا من أجل إطلاق حرب العصابات، بعد أن كان قد غادرها قبيل الانقلاب، منطوياً بمساعدة سوريا إلى لبنان مع من بقي حياً من مسلحيه. كان مناضلوه قد اكتسبوا خبرة في الحرب اللبنانية حيث قاتلوا ضد القوات الإسرائيلية بين العامين 1982 و1985 وتكبدوا عشرات الخسائر، كما كان باستطاعتهم الاعتماد على دعم الشباب الذين شبّوا على اللحمة التي أنشأها بينهم العمل السرّي. وفي 15 آب/ أغسطس 1984، كانت الطلقات النارية، التي قتلت عدداً من الجنود الأتراك ودشنت بداية حرب العصابات، تمثل في عيون الشباب استعادة كرامة كل الأكراد وخلاصهم كأفراد بواسطة العنف. بني الحزب العمالي الكردستاني حول عبادة شخصية القائد، المعروف باحتقار "الأكراد

المستعبدين" وبأسطورة "الإنسان الكردي الجديد" على صورة القائد أو "السيروك"، وتمكّن، في غضون بضع سنوات، من فرض نفسه بوصفه واحداً من تنظيمات حرب العصابات الأفضل بنياناً عالمياً في حقبة الثمانينيات. أما القمع المستمر الذي اعتمدته الدولة فسيُنسي بسرعة الممارسات القاسية التي مارسها الحزب ولاسيّما قتل عشرات المدنيين في القرى "المتعاونة"، حتى إنه أصبح الطرف المرجعي في المجال الكردي في تركيا.

الجزء الثالث

من حركات الجهاد في أرض الإسلام

إلى حروب العقد الأول من الألفية الثالثة

الفصل العاشر

حرب الخليج وحروب العصابات الإسلامية في الجزائر ومصر

تلازمت أواخر الثمانينيات مع انتهاء الحروب الثلاث التي استنزفت العالم الإسلامي على امتداد عقد من الزمن تقريباً. في نيسان/ أبريل 1989، لم يجد الاتحاد السوفييتي المنهك والذي كان في خضم حقبة البيريسترويكا، مخرجاً آخر لحرب أفغانستان سوى الانسحاب الكامل. وفي 20 آب/ أغسطس 1988، بعد أن راوحت حرب الخنادق مكانها بين العراق وإيران، وقّع البلدان وقف إطلاق النار أعاد الأمور إلى ما كانت عليه. بدت إيران وكأنها تعود إلى حالتها الطبيعية، على الرغم من فتوى الخميني بإهدار دم سلمان رشدي في 14 شباط/ فبراير 1989، وهو إجراء كان بمثابة الهرب الأخير إلى الأمام من قبل الثورة، مع وفاة "المرشد" بعيدها، وبالأخص على الرغم من إعدام المعارضين في الخارج[1]. وجاء حل الحزب التابع للسلطة، أي حزب الجمهورية الإسلامية، في حزيران/ يونيو من العام 1987 وانتخاب علي أكبر رفسنجاني في العام 1989 رئيساً للجمهورية، ليدشنا منطق البرغماتية

(1) للاطلاع على القائمة، انظر: Jean-Pierre Digard, *Bernard Hourcade et Yann Richard: L'Iran au XX^{e} siècle* (Paris: Fayard, 1996), p. 214.

البيروقراطية التكنوقراطية ويخلقا الأمل بخروج الثورة من باب ثرميدور إيراني[2].

لوحظت حالة المراوحة نفسها في لبنان حيث قبلت مختلف الميليشيات بالوجود العسكري السوري كقوة احتلال وكحكم في آن ووقعت اتفاق سلام في 22 تشرين الأول/ أكتوبر 1989، في الطائف بالمملكة العربية السعودية. فُسِّرت اتفاقات الطائف تفسيراً اعتباطياً بعض الشيء، ولكن مع موافقة البلدان العربية الضمنية، فسمحت لسوريا بفرض إرادتها على السياستين الداخلية والخارجية في لبنان. وفي تشرين الأول/ أكتوبر 1990، تخلّت باريس وواشنطن عن قوات الجنرال عون الذي كان قد دخل في مواجهة مع القوات اللبنانية بقيادة سمير جعجع وقد كان العراق يرى فيه حليفاً مهماً ضد سوريا. وكانت مساهمة سوريا في عملية "عاصفة الصحراء" العسكرية (انظر أدناه) بمثابة الضوء الأخضر لها حتى تتصرف على هواها. ففُكِّكت الميليشيات بشكل تدريجي، في بيروت أولاً ثم في سائر أنحاء البلاد (آذار/ مارس 1991) ودُمِجت في الجيش الوطني، علماً أن القوات اللبنانية قد أُجبرت على الدخول فيه. كما كُسرت شوكة المعارضة الفلسطينية المسلحة في السنة ذاتها، ولاسيّما في صيدا وصور مع سقوط حوالي ثمانين قتيلاً. وحده حزب الله، المكلّف جماعياً بـ"تحرير" أراضي الجنوب التي احتلتها إسرائيل قد سمح له بالاحتفاظ بسلاحه.

(2) Farida Adelkah, *Jean-François Bayard, Olivier Roy, Thermidor en Iran* (Bruxelles: Complexe, 1993).

قابلية الانظمة المستبدة على الاستمرار

والسياق الدولي في التسعينيات

فتحت نهاية هذه الحروب الثلاث مضافاً إليها أفق الحل السلمي للمسألة الفلسطينية، بشكل مؤقت، باب الأمل في حدوث تحوّل سلمي في الشرق الأوسط. وتنبأ آنذاك عدد من المراقبين بـ"موجة من التحوّل الديمقراطي" الجديدة التي ستأتي أخيراً على الأنظمة الاستبدادية في العالم الإسلامي مثلما حدث في أميركا اللاتينية وأوروبا الشرقية. واعتُقد أن هذه الموجة ستسرّع عملية دمج الإسلامويين الذين لن يجدوا خياراً آخر سوى الدخول في لعبة الانتخابات وسيادة القانون الوضعي، أي أن يتحولوا بدورهم إلى الديمقراطية، إلا إذا أرادوا أن يصبحوا مغالطين للتاريخ اجتماعياً وسياسياً.

بيد أن الأنظمة الاستبدادية صمدت. صحيح أنها لم تزدد هيبة، بل على العكس صارت معتبرة بمثابة سلطة خارجة عن المجتمع[3] على نقيض صورتها الإيجابية في الستينيات، إلا أنها كسبت في خانة الفعالية ما خسرته في خانة الشرعية، حتى إنها طوّرت "شرعية شاذة"[4] من أجل البقاء، فأجبرت كل فئات الشعب على اتباع قواعد الإلحاق والطاعة التي فرضت عليها لئلا تتعرض للقمع.

---

(3) يقول رونيه غاليسو: "في المغرب العربي اليوم، يحكى أيضاً عن "مخزن" للإشارة إلى جهاز الدولة، وعن "البيليك" في الجزائر العاصمة للحديث عن الوضعية الخارجية التي تتسم بها الدولة ورجالها وأماكن إظهار قوتهم".
René Gallissot, "Les Purificateurs communautaires," *Les Temps modernes*, no. 580 (1995), p. 104.

(4) John Waterburry, cité par: Michael C. Hudson, *Arab Politics: The Search for Legitimacy* (New Haven; London: Yale University Press, 1977), p. 16.

في التسعينيات، شكلت الجيوش حجر القبة في المجال السياسي لدى عدد كبير من بلدان الشرق الأوسط حيث احتفظت بموقع الحَكَم المطلق. ولكن، إبان هذه العملية، اتبع العسكر نموذج الجيش الذي يحافظ على النظام في الداخل، كما كانت إلى جانبهم في هذا الدور الجديد، أجهزة أخرى للأمن الداخلي. ومع مرّ السنين، شهدنا انتقال صلاحيات الدولة، ولاسيّما في ما خص القمع، من الجيش إلى أجهزة الأمن أو المخابرات. ندرج هنا رقماً على سبيل المثال: تفيد التقديرات بأن 65,4% من "الجسم السياسي" في عهد عبد الناصر كان من أصول عسكرية، وهبطت هذه النسبة لتصبح 13% في عهد السادات و10% في عهد مبارك[5]. أقام مهران كامرافا (Mehran Kamrava)، في حديثه عن الدولة، تمييزاً بين دولة العسكر ودولة المخابرات، فقال: "في حين أن دول المخابرات تهدف إلى منع تسييس أتباعها بكسر روحهم السياسية، تسعى دول العسكر ناشطة إلى العثور على أعدائها المسلحين والقضاء عليهم"[6]. أما على أرض الواقع، فقد تمكنت كل أنظمة المنطقة تقريباً في التسعينيات من تحقيق توليفة بين الدولتين.

وقد تبيّن أن "التحوّل الديمقراطي" في الحركات الإسلاموية مجرد وهم بسبب استمرارية الأنظمة الاستبدادية وكنتيجة لهذه الاستمرارية، أو أنه لم يطل سوى بضع حالات نادرة من بينها الأردن وتركيا. وكلما أصبحت الأنظمة قمعية وانطوت على بناها الاستبدادية أو استندت إلى دعم "المجتمع الدولي"، أصبحت الحركات الإسلاموية أكثر تصلباً وتجذّراً في منطق المواجهة العنيفة. وفي المقابل، شدّد هذا التجذّر في

(5) Mehran Kamrava, *The Modern Middle East: A Political History since the First World War* (Berkeley: University of California Press, 2005), p. 269.

(6) Ibid., p. 291.

العنف عزلة هذه الحركات في مجتمعاتها ووطّد الأنظمة الاستبدادية في مسعاها إلى إسكات أي نوع من أنواع المعارضة، حتى لو كانت قانونية وغير إسلاموية، من خلال الحفاظ على حالة الطوارئ سواء أكان بوجه حق أو كأمر واقع[7].

وإذا كان منعطف عقد التسعينيات قد شهد حقاً نهاية الحروب الثلاث المذكورة، فهو كذلك بداية نزاع آخر ساهم في تعتيم الأفق وجعل سيناريو التحوّل الديمقراطي مجرّد وهم. فقد أفضى غزو العراق للكويت في 2 آب/ أغسطس 1990 إلى تدخلٍ كثيفٍ من جانب قوى متعددة الجنسيات بقيادة واشنطن انتهى في 3 آذار/ مارس 1991. جرى إنقاذ النظام العراقي في اللحظة الأخيرة من قبل أولئك الذين أعلنوا الحرب عليه. فقد خشي الرئيس بوش خطر تفتت البلاد واشتداد ساعد إيران بواسطة الشيعة العراقيين، ما جعله يقرر إيقاف الحرب. بقي النظام على قيد الحياة، من دون إيديولوجية ولا برنامج، ومن دون غاية أخرى سوى المحافظة على بقائه.

تولدت عن الحرب نتيجة أخرى على تناقض تام مع برنامج اللحظة الهادف إلى رسم شرق أوسط جديد ونظام عالمي مرتكز على حقوق الإنسان، إذ أعلنت الولايات المتحدة بوضوح دعمها الأنظمة الاستبدادية الحليفة، مثل مصر أو السعودية، وحتى غير الحليفة منها

---

(7) على سبيل المثال، أمضت مصر أربع سنوات فقط، منذ العام 1952، من دون أن تكون خاضعة لحالة الطوارئ.

Bernard Botiveau, "La Justice égyptienne dans la vie politique," dans: Elisabetta Bartuli, *Eggito oggi* (Venise: Merifor, 2005), p. 66.

حول أنظمة الأزمة في العالم العربي، انظر:

Baudoin Dupret, "Violence politique, violence juridique et dualité normative," dans: Baudoin Dupret, dir., *Le Phénomène de la violence politique: Perspectives comparatistes et paradigme égyptien* (Le Caire: CEDEJ, 1994), pp. 71-72.

كسوريا. وفي حين أن دعمها غير المشروط لإسرائيل يبدو غير متلائم مع العدالة الدولية التي تنادي بها رسمياً، إلا أن المساعدة التي قدمتها إلى الأنظمة الاستبدادية شكلت الإثبات الدامغ على قلة صدق خطابها حول الديمقراطية.

أطلقت حرب الخليج الثانية موجة أخرى من التطرّف في أنحاء المنطقة كافة. كسب صدام حسين التعاطف لدى مجموعات من الرأي العام لم تكن تسانده في السابق، كما أثار الوجود الدائم للقوات الأميركية في "الأرض المقدسة" ردود فعل عنيفة لكونه يثبت سيطرة الغرب "الكافر" على العالم الإسلامي. جعلت الحرب الإسلامويين أكثر تطرّفاً ومنحتهم قدراً أكبر من المصداقية لدى الرأي العام الشرق أوسطي، كما دلّ على هذا نجاح جبهة الإنقاذ الإسلامية في الانتخابات الجزائرية في العامين 1991 و1992[8]. فقد كان التواطؤ الناشط الذي مارسته الدول المسلمة، ولاسيّما في الشرق الأوسط، مع الولايات المتحدة وأوروبا إبان هذه الحرب إثباتاً على صحة الخطاب الإسلاموي المندّد بتحالف الأمراء المسلمين مع دار الحرب.

كما جاءت حروب يوغوسلافيا السابقة، ولاسيّما في البوسنة (1992-1995) ومعها نزاعان آخران في الاتحاد السوفييتي السابق (الحرب الأهلية في طاجكستان من أيار/ مايو إلى كانون الأول/ ديسمبر 1992، وحرب الشيشان الأولى من كانون الأول/ ديسمبر 1994 إلى آب/ أغسطس 1996) لتوطد قناعة الرأي العام الإسلامي عبر العالم بوجود اعتداء شامل ضد الإسلام[9]. وصارت "نزاعات هي في الأصل

---

(8) Rémy Leveau, "Influences extérieures et identités au Maghreb: Le Jeu du transnational," *Cultures et Conflits*, no. 8 (1992), pp. 116-128.

(9) على سبيل تكذيب هذه الفكرة المسبقة، وحده التدخل الأميركي قد تمكن في العام =

حصيلة نموذجية للإمبريالية (في الشيشان) أو تفكك الإمبراطوريات (في البلقان) تخضع لتحليل ديني في حين أنها إثنية أو قومية"[10]. ويعتبر أوليفييه روا (Olivier Roy) أن التطرّف الديني "المتصل بالاقتلاع والغزو الثقافي وإعادة تركيب الهوية" سيترافق بعدها مع التطرّف السياسي "الذي يخلط الوطنية الحديثة الملوّنة بالقومية العربية مع عودة معاداة الإمبريالية ومناصرة العالم الثالث"[11].

وأخيراً، إذا كانت اتفاقات أوسلو الموقّعة بين إسرائيل والسلطة الفلسطينية في 13 أيلول/ سبتمبر 1993 قد ولدت لفترة الأمل بحل سريع لهذا النزاع الطويل، إلا أنها سرعان ما أخلت المكان أمام حال انتظار محبط أفضى في العام 2000 إلى الانتفاضة الثانية. على امتداد السنوات الطويلة التي مرّت بها "آلية أوسلو" تجذّر التطرّف الإسلاموي الفلسطيني في قطاع غزّة وفي الأراضي الفلسطينية في الضفة الغربية بعد أن كان قد تعزّز إلى حد أنه أصبح يشكل تحدّياً لمنظمة التحرير الفلسطينية بفضل "ثورة الحجارة".

العنصر الآخر الذي تجدر ملاحظته في هذا العقد هو عودة "العرب

= 1995 من إنهاء حصار سارايفو الذي دام ثلاث سنوات. وكذلك، في العام 1999، أوقف تدخل آخر، أميركي أساساً، سياسة التنظيف العرقي التي اتبعتها حكومة بلغراد في كوسوفو، الأرض البلقانية ذات الأكثرية الإسلامية. وقد سألت فرهد خسروخفار مناضلاً إسلامياً ساهم في حرب البوسنة فأجاب معترفاً بما سبق بشكل واضح، إذ قال: "حتى لو كنت أكره الأميركيين، لا بد لي أن أعترف بأن وجود الأميركيين في البوسنة قد أنقذ البوسنيين. وطالما بقي الأميركيون في البوسنة يمكن للأمور أن تستتب. لكنهم جاؤوا متأخرين كثيراً بعد أن وقع الأسوأ"، Farhad Khosrokhavar, *Quand Al Qaida parle: Témoignages derrière les barreaux* (Paris: Grasset, 2006), p. 118.

(10) Olivier Roy, *L'Islam mondialisé* (Paris: Seuil, 2002), p. 21.

(11) Ibid. p. 27.

الأفغان" إلى بلدانهم، وأشهرهم أسامة بن لادن الذي كان تركي الفيصل، رئيس جهاز الأمن السعودي السابق، "يقدّر عمله" ويستحلفه "بصرامة" أن يقف عند هذا الحد"(12). بيد أن أسامة بن لادن لم يكن وحده، فمناضلو جبهة الإنقاذ الإسلامية، أمثال سعيد مخلوفي وقمر الدين خربان وعبد الله أنس وبوجمعة بونوار، صهر عبد الله عزّام، الشهيد البطل في الحرب، هم بدورهم من المجاهدين السابقين في أفغانستان، على غرار بعض قادة الجماعة الإسلامية المسلحة في الجزائر بعدها، ومن بينهم الطيب الأفغاني (قتل في العام 1992) وجعفر الأفغاني (قتل في العام 1994)(13) وشريف بقسمي (قتل هو أيضاً في العام 1994). يضاف إليهم أبو مصعب السوري الجنسية وأبو حمزة المصري الجنسية، وكلاهما من محرّري صحيفة **الأنصار** الناطقة باسم الجماعة الإسلامية المسلحة، وقد مرّوا جميعهم بأفغانستان(14). وقد تنصل الرئيس المصري حسني مبارك من مسؤوليته عند حديثه عن هذا الجيل علماً أنه ساهم في تكوينه، وقال إنه عندما دعمت واشنطن المتطرفين في معركتها لطرد السوفييت من أفغانستان، ساهمت في إقامة شبكة إرهابية مؤكداً أن الإرهابيين أنفسهم الذين أُحسن تدريبهم هم أصل كل الاضطرابات في الشرق الأوسط(15).

---

(12) Jonathan Randal, *Oussama: La Fabrication d'un terroriste* (Paris: Albin Michel, 2004), p. 123.

(13) أمضى جعفر الأفغاني عامين في مخيمات حزب الإسلام التابع لقلب الدين حكمتيار. بعد دراسات ابتدائية، انخرط في حال من الانحراف قبل أن يصبح في الثلاثين من عمره قائد التنظيم. للاطلاع على وصف له وعلى علم اجتماع أمراء الجماعات المسلحة الإسلامية عموماً، انظر:
Gilles Kepel, *Jihad: Expansion et déclin de l'islamisme* (Paris: Gallimard, 2001), pp. 401-408.

(14) Roy, *L'Islam mondialisé*, p. 188.

(15) Tawfiq Ibrahim Hasaneyn, "La Violence politique en Egypte," =

وكما تقول ميريام ر. لوي (Miriam R. Lowi): "جذبت المقاومة الأفغانية عدداً من العاطلين عن العمل في حين أن الجزائريين قد شبّوا على فكرة أن مقاومة قوة محتلة، سواء أكانت فرنسا، أو الاتحاد السوفييتي في هذه الحالة، تمنح موقعاً وامتيازات وحتى أرباحاً مادية"(16). شكلت عودة "الأفغان" واحداً من العوامل الأساسية لا الحصرية البتة، في نوعين من المعارضات المسلحة ذات البعد الدولي الضئيل وهما الحرب الأهلية الجزائرية (حوالي 200000 قتيل) وحرب العصابات الإسلاموية المصرية (حوالي 2500 قتيل).

حرب أهلية وحرب عصابات في الجزائر ومصر

قُدِّمت قراءات عدة لفهم هذين النزاعين. شدّد بعض الباحثين على أهمية عوامل التحليل النفسي(17)، في حين ركز بعضهم الآخر على دور العنف في التعليم وعلى فشل النظام التربوي(18). كما جرى التركيز أيضاً على تعددية أشكال العنف في النزاع الجزائري، كالعنف اللغوي ضد الناطقين باللغة البربرية أو باللغة الفرنسية والعنف ضد النساء(19). وجاء

dans: Dupret, dir., *Le Phénomène de la violence politique: Perspectives comparatistes et paradigme égyptien*, pp. 245-279.

(16) Miriam R. Lowi, "Algérie 1992-2002: Une nouvelle économie politique de la violence," *Maghreb-Machrek*, no. 175(2003), p. 60.

(17) Anonyme, "De la violence: Notes de lecture," *Insaniyat*, no. 10 (2000), pp. 101-116.

(18) "لا يمكننا أن نعلّم أن العنف مركزي في بناء الأمة ثم لا نتوقع العواقب، لندهش بعدها من تطبيق العنف على أرض الواقع"، في:
Benjamin Stora, "Absence et surabondance de mémoire," *Esprit*, no. 1(1995), p. 62.

(19) وهكذا، "فاقم تحلّل السلطة في السنوات الأخيرة وغياب القانون معها من أوضاع المرأة. فأصبحت موضع رغبة وعنف. هذا العنف الذي يشكل انعكاساً لإحباط الرجل العظيم، إحباط في رغبته يدفعه إلى اللذة القاسية، إحباط في شرفه يجعله ينقل إلى المرأة =

بعض المراقبين أخيراً على ذكر فشل مناصرة العالم الثالث والخروج من الثورة ما بعد الاستعمارية من طريق العنف الشديد[20].

لا بد من الاعتراف بما تقدمه هذه المساهمات، إلا أنه ينبغي الاعتراف كذلك أن المعارضة في الحالتين كانت تتغذى رمزياً من الصراعات الكبرى التي أدمت العالم الإسلامي بمجمله علماً أن تفسيرها الأساسي يكمن في القطيعة البنيوية بين كلٍ من الدولتين ومجتمعاتها.

في الجزائر، ومع نهاية الثمانينيات، لم تعد جبهة التحرير الوطني قادرة على التحكم بـ"تناقضات المجتمع (الوحدة/ التعددية)" و"المحافظة على صورة الوحدة السياسية والدينية"[21] ضمن أمة المؤمنين. بدا فشل الحزب الواحد واضحاً إبان أعمال الشغب في المدن في تشرين الأول/ أكتوبر 1988 مع سقوط 500 قتيل[22]، ما وضع الجبهة أمام خيار واحد ذي مصداقية.

صحيح أن جبهة الإنقاذ الإسلامية لم تُعرف سياسياً خارج الجزائر إلا في العام 1989، بيد أنها تمتلك تاريخاً طويلاً يرجع من ناحية إلى مصطفى بويعلى، الذي قتل في العام 1987، وكان مجاهداً سابقاً في حرب التحرير انتقل فيما بعد إلى المعارضة ليؤسس في العام 1979

= عنف الاحتقار الذي يمارس عليه كمواطن وكعامل"،
Gilbert Grandguillaume, "Comment a-t-on pu en arriver là ?" ibid., p. 28.

(20) Robert Malley, *The Call from Algeria: Third Worldism, Revolution and the Turn to Islam* (Berkeley: University of California Press, 1998).

(21) Omar Carlier, *Entre Nation et Jihad: Histoire sociale des radicalismes algériens* (Paris: Sciences Po, 1995), p. 21.

(22) Meriem Verges, "Genesis of a Mobilization: The Young Activists of Algeria's Islamic Salvation Front," in: Joel Beinin and Joe Stork, *Political Islam* (Berkeley: University of California Press, 1997), pp. 292-305.

"الحركة الإسلامية المسلحة"، كما يرجع من ناحية أخرى إلى عباسي مدني، وهو تلميذ ثانوي شاب في جمعية العلماء، انضم إلى جبهة التحرير الوطني قبل اعتقاله (1954-1962). أسس مدني جبهة الإنقاذ الإسلامية في العام 1982 في مسجد السنّة في حي باب الواد في الجزائر بمساعدة نواة صلبة من خمسين شخصاً، ليتضخم التنظيم فيما بعد بفضل ممثلين عن الولايات وخمسة عشر عضواً في المكتب التنفيذي. قبل أن يكتسب التنظيم وجوداً شرعياً في 15 أيلول/ سبتمبر 1989، عمل تحت اسم "رابطة الرسالة الإسلامية" وضمّ اتجاهات عدة (اتجاه جزائري مع محمد السعيد، وسلفي مع علي بن حاج وإخواني مع محفوظ نحناح الذي تركه في تاريخ لاحق).

في سياق ما بعد تشرين الأول/ أكتوبر 1988، تبنّت جبهة الإنقاذ الإسلامية شعارات بسيطة لم تكن على وجه التأكيد بمستوى تعقيدات الوضع القائم، لكنها اختزنت شحنة رمزية قوية (الشورى والتوبة والجهاد) بالإضافة إلى برنامج شبيه ببرنامج جبهة التحرير الوطني، بما فيها الأسلوب اللغوي المتبع. كانت الجبهة "المرشح الأوفر حظاً (لـ) خلافة جبهة التحرير الوطني لأنها وريثها الأقرب"[23]. وبعد أن أشار عمر كارلييه (Omar Carlier) إلى أثَر المواجهات الأولى بين المناضلين الإسلامويين وقوات الأمن، تحدث عن الشباب قائلاً "إن القضية [بالنسبة إليهم] أضحت [...] محسومة، ثمة قوة باستطاعتها الإطاحة بجبهة التحرير الوطني لتقيم النظام الاجتماعي والأخلاقي من جديد"[24].

(23) Carlier, Ibid., p. 369.

(24) Ibid., p. 350.

انظر أيضاً: =

هل يمكن لما سبق أن يقيم صلة بين جبهة الإنقاذ الإسلامية وبين العنف؟ الجواب ليس سهلاً: على الرغم من قلة عدد مناضلي الجبهة، إلا أنهم قاموا فعلياً بأعمال عنف وهجمات ضد أقسام الشرطة في شباط/ فبراير 1990 أو ضد نساء غير محجبات[25]. وكذلك، فإن "النماذج المعيارية للكونية الإسلامية" على غرار الجهاد الذي يلجأ إليه الحزب الإسلامي أو الظروف "الخاصة بالتاريخ الوطني، ولاسيّما حرب التحرير" التي يذكرها[26]، تعطي بشكل كامن شرعية للانتقال إلى العنف باسم الأمة والوطن. بيد أن المعارضة الإسلاموية، قبل العام 1992، لم تكن عنيفة إلا في هوامشها. تأسست هذه المعارضة على تعبئة شعبية وكانت نتاج أزمة وعاملاً مسرّعاً لها، وقد اعتبرتها جبهة الانقاذ أزمة "الإيديولوجيات الحديثة". فرضت جبهة الإنقاذ نفسها كبديل سياسي أوحد صاحب مصداقية في بلد أفلست فيه جبهة التحرير الوطني. وأعادت جبهة الإنقاذ تعريف الإسلام انطلاقاً من عناصر متناقضة بدت منسجمة حينما جمعت مع بعضها بعضاً. وإذ كان الإسلام غير قابل للانفصال عن الوطن معطياً إياه بعده التاريخي، أصبح في وقت واحد "ديناً وإدراكاً وعلماً"[27] بالإضافة إلى كونه مذهباً ونقاءً عضوياً ومعيار اندماج وإقصاء.

= Lahouri Addi, "Violence et système politique en Algérie," *Les Temps modernes*, no. 580 (1995), pp. 46-70.

(25) Abderrahmane Moussaoui, *De la violence en Algérie: Les Lois du chaos* (Arles: Actes Sud, 2006), pp. 95-113.

(26) Ibid., p. 14.

(27) Nivine Mos'ad, "Violence politique et mouvements socio-religieux: Le Front islamique du salut en Algérie," dans: Dupret, dir., *Le Phénomène de la violence politique: Perspectives comparatistes et paradigme égyptien*, pp. 155-165.

يمكن تفسير صعود جبهة الإنقاذ الإسلامية بهذه السرعة الهائلة من خلال قدرتها على التوجه بشكل خاص إلى كل فئة من فئات المجتمع بفضل معجمها المتعدد الدلالات. وفي حين تمكّن مدني في العام 1982، وفي ظل نظام الحزب الواحد، من تعبئة بضع مئات الأشخاص، وهذا بحد ذاته مأثرة، إلا أن مائة ألف شخص تجاوبوا مع ندائه في العام 1989. وفي 20 نيسان/ أبريل 1990 بلغ عددهم ثلاثة ملايين شخص. وكانت النتيجة الفورية انتصاره الساحق في الانتخابات البلدية والولائية في 12 حزيران/ يونيو من السنة ذاتها. حاز 54% من الأصوات، 46% منها في المجالس البلدية و55% منها في مجالس الولايات. واحتفل مدني بهذا النجاح معتبراً إياه بمثابة الخلاص الحقيقي من الاستعمار وهو خلاص قد تم تأجيله على امتداد عقود طويلة: "إخراج الفرنسيين الحقيقي من البلاد قد بدأ بالفعل في 13 حزيران/ يونيو 1990، تاريخ إعلان نتائج الانتخابات البلدية والولائية وليس في 3 تموز/ يوليو 1962"[28].

في 26 كانون الأول/ ديسمبر 1991، بينما كان النظام القديم في حالة تحلّل متقدم، ظهر صعود جبهة الإنقاذ الإسلامية عبر انتصار انتخابي جديد وواضح ولكن على طريقة "بيروس". سجلت الجبهة في الجولة الأولى من الانتخابات النيابية نجاحاً كبيراً بما أنها حصلت على 222 260 3 صوتاً، أي 24,54% من المسجلين و47,27% من الناخبين الفعليين، متقدمة على منافسيها المباشرين، من جبهة التحرير الوطني وجبهة القوات الاشتراكية وقد حصلت الأولى على 23,38% من الأصوات في حين حصلت الثانية على 7,40% منها. حصدت جبهة الإنقاذ 188 مقعداً من أصل 222 مقعداً في الجولة الأولى وكان بوسعها

(28) Ibid.

الاعتماد على أصوات حماس ذات التوجه الإسلامي والتي تحظى بثقة 5,35% من الناخبين[29]. بيد أن المعدل القياسي الذي سجله الامتناع عن التصويت (48%) أزال بريق الانتصار وطرح سؤالاً حول "شرعية الجبهة السياسية"[30] التي لا يمكن أن تقتصر على عدد الأصوات الانتخابية.

تعيّن إذاك على الجبهة أن تواجه عدداً من التحديات لم تتمكن من الانتصار عليها وهي: الظهور بمظهر الطرف الذي وصل إلى السلطة عبر انتخابات شرعية، وهو أمر عارضته بعض قطاعات الشعب نظراً إلى نسبة المشاركة الضئيلة، أو فرض انتصارها على "النظام"، بدءاً بالجيش الذي أصبح على أرض الممارسة المكوِّن الوحيد لهذا النظام، في حين أنه لا يأبه إلا قليلاً للشرعية الديمقراطية.

في 11 كانون الثاني/ يناير، تسلّم العسكر السلطة وقرروا وقف العملية الانتخابية قبل الجولة الثانية. وفي 9 شباط/ فبراير، أعلنوا حالة الطوارئ وفي 4 آذار/ مارس أصدروا قراراً بحل جبهة الإنقاذ الإسلامية. انطلق قمع الإسلامويين مع الانقلاب وتسبّب في الأسابيع الأولى بوفاة 103 أشخاص ووقوع مئات الجرحى. وغرقت البلاد في حالة من البلبلة الكاملة بعد اغتيال الرئيس بوضياف، الذي "ألحقه" النظام بسرعة ومن المرجح أنه هو الذي اغتاله في 29 حزيران/ يونيو 1992[31]. أما الهجوم

(29) Ahmed Rouajïa, "L'Armée et les islamistes: Le Compromis impossible," *Esprit*, no. 1 (1995), pp. 105-118.

(30) Gilbert Grandguillaume, "Comment a-t-on pu en arriver là ?" Ibid., p. 26

(31) بالإضافة إلى بوضياف، اغتيلت شخصيات أخرى ومثقفون من الصف الأول نذكر منهم كردي مرهاب، رئيس وزراء سابق، مصطفى عبادة، مدير التلفزيون الرسمي، يوسف فتح الله، رئيس لجنة حقوق الإنسان، محمد عبد الرحمن، مدير صحيفة "المجاهد"، عبد الحق بوحمودة، الأمين العام لاتحاد العمال الجزائريين.

الذي وقع ضد مطار الجزائر العاصمة في آب/ أغسطس 1992، متسبباً بسقوط تسعة قتلى، فهو يذكّر بأن بعض الإسلامويين سيردّون بعنف أعمى على القمع الأعمى الذي تمارسه الدولة. وسيعتبر الهجوم بداية الحرب الأهلية، هذه الدوامة القاتلة حيث أصبحت كل أشكال العنف ممكنة(32).

قبل العودة إلى هذه النقطة، دعونا نقول سلفاً أنه إذا كان جيش الإنقاذ الإسلامي التابع لجبهة الإنقاذ الإسلامية ولاسيّما المجموعات التي تدعى "الجماعة الإسلامية المسلحة" والتي لا نمتلك حولها اليوم سوى معلومات قليلة، قد أدّت دوراً حاسماً في تصعيد العنف، إلا أنها ليست وحدها في الساحة. فالجيش وأجهزة الأمن الشديدة التشرذم والتي لا تتفق إلا حول عزمها على متابعة سياسة الأرض المحروقة في مناطق لا تسيطر عليها، قد شكلت هي أيضاً الخصم الحربي الذي لابّد منه. وكذلك، فإن إنشاء قوة ميليشيوية "للدفاع الذاتي" قوامها حوالي 250 ألف شخص كان يدفع لهم أضعاف الحد الأدنى للأجور(33)، يسمح بتركيب العنف السياسي والأهلي على النزاعات الداخلية في الأوساط الريفية(34)، ما حال لفترة طويلة دون قيام أي سيناريو للخروج من الحرب الأهلية.

كانت المعارضة المسلحة في مصر أقل صلابة بكثير وقد اندرجت ضمن تأريخية معينة لكنها سارت بحسب تسلسل زمني مشابه لحرب

---

(32) للاطلاع على الوثائق الأكثر أهمية، انظر: Bernard Botiveau [et al.], *L'Algérie par ses islamistes* (Paris: Karthala, 1991).

(33) 15 000 dinars (1 500 francs), Djallal Malti, *La nouvelle Guerre d'Algérie* (Paris: La Découverte, 1999), p. 69.

(34) Moussaoui, *De la violence en Algérie: Les lois du chaos*, p. 78.

العصابات الإسلامية الجزائرية. قبل حرب الخليج، شكلت الإسلاموية التيار المسيطر في الأوساط الثقافية وبين أصحاب المهن الحرة في مصر. ففي استقصاء أجري في العام 1988، دان ثلاثة أرباع طلاب الجامعة بشدة أوامر الإخوان، لكنهم وافقوا على برامج التنظيمات الإسلامية. وقد طالب 82% من الطلاب شرعنة هذه التنظيمات(35). كانت حرب الخليج قد نزعت غطاء الشرعية عن نظام "حليف للغرب ضد دولة عربية" في نظر الرأي العام، وما كان بوسعها إلا أن تعزّز في أوساط الشباب هيبة الإخوان المسلمين وبالأخص مناضلي "الجماعة الإسلامية" وهو تنظيم إسلامي تأسس في العام 1973.

كان شعار الجماعة السيف المرفوع والقرآن المفتوح، كمؤشر على القطيعة مع الإخوان المسلمين الذين يحملون شعار "سيفين غير مرفوعين وقرآناً مقفلاً"(36). قامت الجماعة بالدور الرئيس في تصعيد العنف على امتداد الثمانينيات والتسعينيات. وإذ لم تسجل أي أعمال عنف في العامين 1982 و1983، إلا أنه قد أحصي منها 8 في العام 1984 و7 في العام 1985 ثم 22 في العام 1988 و194 في العام 1989، من بينها مواجهات دامية مع الشرطة في مدينة أسيوط، و124 في العام 1990 و162 في العام 1991 و124 في العام 1992 و123 أخيراً في العام 1993(37).

(35) Dale F. Eickelman, *James Piscatori, Muslim Politics* (Princeton: Princeton University Press, 1996), p. 112-113.

(36) François Burgat, "Islam, opposition politique et modernisation sociale," *Les Cahiers de l'Orient*, no. 45 (1997), p. 73.

(37) Philippe Fargue, "Violence politique et démographie en Egypte," dans: Dupret, dir., *Le Phénomène de la violence politique: Perspectives comparatistes et paradigme égyptien*, p. 226.

للاطلاع على شرعنة الهجمات ضد السواح الذين يساوى بينهم وبين البغاء والإيدز، انظر: حوار هشام مبارك مع طلعت فؤاد قاسم من الجهاد الإسلامي:

= "What does Gama'a Islamiyya Want? " in: Beinin and Joe Stork, *Political*

فمع العام 1986، "ظهرت الجماعة بشكل عنيف على الساحة السياسية [...] وتدخلت بوجه خاص في مصر العليا، في النزاعات الطائفية أو في محاولة منها للسيطرة على مساجد تحت وصاية الأوقاف. وهكذا، في أيار/ مايو 1986، قامت مواجهات عنيفة بين قوات الأمن وأعضاء الجماعة الإسلامية الذين حاولوا السيطرة على مسجد في أسوان"[38]. من بين الأعمال التي وسمت هذه المرحلة، هجومان، الأول في شباط/ فبراير 1993 والثاني في آذار/ مارس 1993، سقط بنتيجتهما ستة قتلى وحوالي عشرين جريحاً في مقهى ساحة طاهر وفي ساحة العتبة في القاهرة.

استقوت الجماعة عموماً بصمت السلطة وانخرطت في "ممارسة الفتنة الطائفية" ونظّمت "عمليات استفزاز ضد المسيحيين"[39]. كان العنف ضد الأقباط أمراً شائعاً[40] فقد كانوا بلا حماية إلى حد كبير وشكلوا هدفاً سهلاً بالنسبة إلى بعض الإخوان المسلمين أو أنصارهم. وقد اعتبر

= *Islam*, pp. 341-326.

(38) Malika Zeghal, *Gardiens de l'Islam: Les Oulémas d'Al-Azhar dans l'Egypte contemporaine* (Paris: Sciences Po, 1996), p. 347.

(39) Alain Roussillon, "Changer la société par le Jihad: "Sédition confessionnelle " et attentats contre le tourisme: Rhétoriques de la violence qualifiée d'islamique en Egypte," dans: Dupret, dir., *Le Phénomène de la violence politique: Perspectives comparatistes et paradigme égyptien*, p. 297.

(40) كان الشيخ عمر عبد الرحمن يفتي بأعمال العنف هذه معتبراً أن بعض الأفعال المرتكبة من قبل المسيحيين هي خرق لمعاهدة الذمة ما يؤدي بالتالي إلى وضع حد للحماية الممنوحة لهم.
Rudolph Peters, *Jihad in Classical and Modern Islam* (Princeton: Markus Wiener, 2005), p. 172.
وضعية أهل الذمة تؤمن للمسيحيين واليهود حماية الدولة الإسلامية في مقابل الطاعة ودفع الجزية.

آلان روسيون أن "مهاجمة المسيحيين تعني أيضاً الإشارة، على سبيل الاستعارة، إلى عدم شرعية السلطة من دون الاضطرار إلى مهاجمتها. فالأقباط هنا [...] يمثلون التجسيد الرمزي للسلطة الكافرة"[41].

في مصر كما في جزائر العامين 1990-1991، لزمت السلطة موقفاً سلبياً عموماً إزاء هذه الهجمات التي لا تشكل إعادة نظر في أسسها بل تسيء إلى سمعة الإسلامويين أمام الرأي العام وبالأخص أمام الإنتلجنسيا والطبقات الوسطى.

عمليات قمع جزائرية ومصرية

في الجزائر كما في مصر، كان العنف موجوداً على أرض الممارسة وشكل إمكانية وأفق عمل قبل العام 1992 بكثير. بيد أنه لم يكتسب حجماً حقيقياً إلا بعد البدء بممارسة سياسة قمعية للغاية، ليس ضد الأطراف الأكثر تطرفاً وحسب، بل أيضاً ضد الحركات الإسلامية بمعناها الأوسع والأكثر اعتباطية، بمن فيهم "دعاة المنابر"[42] الذين منعوا حتى ذلك الحين الشباب من الانتقال إلى العنف.

في الجزائر، على سبيل المثال، ومنذ الأسابيع الأولى بعد وقف العملية الانتخابية، جرى توقيف 30 ألف شخص واعتقالهم في معسكرات أنشئت على وجه السرعة. أما في مصر، وفي حين أن السلطة قد لجأت إلى الإعدام رداً على اغتيال عملائها، اعتُقِل حوالي 9500 شخص في العام 1992. وفي العام 1994، قُدِّر عدد المعتقلين "الإسلامويين" بـ24000 معتقل. وبالإجمال، اعتُقِل أكثر من 46000

(41) François Burgat, *L'Islamisme en Face* (Paris: La Découverte, 1996), p. 131.

(42) Rémy Leveau, "Vers une fonction tribunicienne," dans: Serge Cordelier, dir., *L'Islamisme* (Paris: La Découverte, 1994), pp. 57-65.

شخص في التسعينيات، من بينهم 933 ينتمون إلى الإخوان المسلمين علماً أن هؤلاء يعارضون استخدام العنف[43]. وما ساهم في مفاقمة الوضع أكثر فأكثر هو أن السلطات الجزائرية والمصرية شملت بسياستها القمعية أسر المناضلين وأصدقاءهم ما دفع أنصارهم، لاسيّما الشباب منهم الذين كانوا يحجمون عن أي التزام ناشط في ما عدا المشاركة في التظاهرات، إلى الانخراط في أعمال عنف. وانتقل الشباب حينئذ من إطار "مندمج" اجتماعياً إلى آخر "غير مندمج"[44] كانت نتيجته الفورية اكتسابهم استقلالاً ذاتياً وتفكك آليات الرقابة الاجتماعية التي كانت لاتزال تحتويهم.

حين استهدفت السلطات الجزائرية والمصرية مساحة المعارضة بمجملها، وليس فقط هوامشها المتطرفة، قضت على أي إمكانية تفاعل بنّاء بين الإسلامويين والأطراف الاجتماعية أو السياسية الأخرى. استوحت الأطراف الإسلاموية المواضيع الجهادية الرائجة فطوّرت في الماضي ثلاثة مستويات خطابية وسياسية ورمزية: المستوى الأول متزمّت وموجه إلى أعضائها حصراً والمستوى الثاني أكثر تواصلاً يخاطب مجال المعارضة الإسلاموية بكليته والمستوى الثالث مرن ومفتوح على الحلول الوسط مع الأطراف غير الإسلاموية. لم يكن بوسع القمع المجرّد إلا أن يقضي على المستويين الثاني والثالث لمصلحة الأول مع تصليبه وخلق إحساس ذاتي بالحالة الطارئة التي لا تحمل أي مجال للتفاوض.

(43) Mohammed M. Hafez, *Why Muslims Rebel? Repression and Resistance in the Islamic World* (Boulder: Lynne Rienner, 2003), pp. 80-85, and Burgat, *Islamisme en Face*, pp. 149-152.

(44) Sophie Body-Gendrot, *Ville et violence: L'Irruption de nouveaux acteurs* (Paris: PUF, 1993), pp. 170-172.

وكذلك، حين مورس القمع على القادة والمناضلين غير الخارجين عن السلطة أو على شخصيات المعارضة الساعية إلى الصعود السياسي والاجتماعي عبر تطوير استراتيجية سلطة مستندة إلى اللعبة الانتخابية، ارتدى الخيار الأكثر تطرفاً شرعية لا مفرّ منها. أمام فشل استراتيجية الاندماج، صار الانشقاق المسلّح الخيار الوحيد الموثوق وحتى المتاح. لم يحرم القمع الحركات الإسلامية من أي سبيل آخر سوى العنف وحسب، بل شكل إثباتاً بديهياً على تبصّر الإسلامويين الأكثر تطرفاً ممن رفضوا المشاركة في الانتخابات[45]. وعلى غرار اليسار المتطرّف الذي توصل، في الستينيات والسبعينيات وفي عدد من البلدان، إلى الخلاصة القائلة إن الانتخابات هي فخ تنصبه دكتاتورية البرجوازية، اعتبرت الحركات الإسلامية أن التمثيل بواسطة الاقتراع العام أشبه برداء يزين "الديمقراطية المزيّفة"[46].

وكما يلاحظ محمد حافظ[47]، امتلكت الحركات الإسلامية قبل قمعها، سواء في الجزائر أو في مصر، قاعدة سياسية واجتماعية متينة وشبكة جمعيات خيرية، مثل "الجمعية الخيرية الإسلامية في مصر"[48]. أما المعارضة الإسلامية الجزائرية التي كانت هامشية إلى حين قيام انتفاضات الشباب في العام 1988، فقد أصبحت القوة الأساسية في البلاد وحلّت محل أجهزة الدولة الرسمية في توزيع الموارد وذلك

(45) Hafez, Ibid., p. 43.

(46) Ibid., p. 55.

(47) Ibid.

(48) Guilain Denoeux, *Urban Unrest in the Middle East: A Comparative Study of Informal Neworks in Egypt, Iran and Lebanon* (Albany: State University of New York Press, 1993), p. 154.

بفضل الأزمة الاقتصادية وسوء سمعة الحزب الواحد المرتبط بالفساد واهتراء السلطة ونتائج حرب الخليج الثانية.

نجح الإخوان المسلمون في مصر وجبهة الإنقاذ الإسلامية في الجزائر في تشكيل تكتلات مختلطة ذات آليات توازن ورقابة لم تكن تحول بالطبع دون وقوع أعمال عنف، لكنها كانت تعطي التطرف الذي نشأت عنه دلالة وتنظِّمه وتعمل بالتالي على احتوائه. وهكذا أجبر عدد من الأطراف على التموضع في مقابل مواضع الضبط هذه، من "العقلاء" إلى المثقفين دعاة المنابر، ومن الاتجاهات التي اعتبرت نفسها سلفية إلى "الأفغان". فقد كان "الأفغان" أمثال سعيد مخلوفي وخربان قمر الدين، ومعهم جماعات معارضة للانتخابات، مقصيين من جبهة الإنقاذ الإسلامية التي دانت بشدة الهجمات ضد دوائر الشرطة، ومن بينها الهجوم الذي أدى إلى سقوط ثلاثة قتلى في الجزائر العاصمة في تشرين الثاني/ نوفمبر 1991[49]. وفي مصر، حيث التمثيل الانتخابي لم يكن ممكناً وحيث توجه 14% من الناخبين فقط إلى صناديق الاقتراع في بعض الحالات[50]، احتل الإخوان المسلمون أعلى المواقع السياسية، وقاموا على أرض الواقع بدور الوساطة بين السلطة والمعارضة المتطرفة والجماعة الإسلامية. وقد تمتعوا بمساندة حقيقية من جانب الشباب الجامعي وفي مصر العليا.

أصاب المعارضة تشرذم شديد حين قطعت عمليات القمع رأس جبهة الإنقاذ الإسلامية وحكمت على الإخوان المسلمين بالعمل السري

---

(49) Hafez, Ibid., p. 41.

(50) Denoeux, *Urban Unrest in the Middle East: A comparative Study of Informal Neworks in Egypt, Iran and Lebanon*, p. 95.

فأضحى الهم اليومي الأوحد لدى كل خلية إسلاموية المحافظة على بقائها المعنوي والجسدي أيضاً. ممّا لاشك فيه أن انفجار المعارضة الإسلامية من الداخل قدم مكسباً كبيراً إلى السلطات الجزائرية والمصرية التي صارت تواجه جماعات متصارعة في ما بينها، تعتبر كل واحدة منها أنها وحدها حاملة الدعوة الحقيقية، وبالتالي الأمة الوحيدة الحقيقية، على حساب كل الجماعات الأخرى. بيد أن هذا الانفجار حمل معه نتيجة سلبية بالنسبة إلى السلطات التي لم تعد تجد أمامها محاورين قادرين على ضبط مساحة المعارضة وتحديد أهداف قابلة للتحقيق، أي رسم حدود لها. وكانت النتيجة، هنا كما هناك، ولاسيّما كما تركيا في السبعينيات، ثمالة في التطرّف ضمن سياق لا يساعد عليه البتة. فتحوّلت آنذاك كل "خلية مقاتلة" إلى حصن محاصر ومتشنّج في رؤيته لأفق المعنى والخلاص.

موارد الحرب، ظاهرة جيلية ورقابة اجتماعية

أياً كان سياق اندلاع العنف، فهو يدل، ولاسيّما في الجزائر، على "سقوط مفاجئ للمعنى"[51]. فالآليات التي يطلقها العنف متعددة وتتضمن تارة "محاكاة إسقاطية وانتقامية من جانب الأبناء لمصلحة الآباء وضدهم"[52]، وتارة فقدان كامل معالم القرابة والصلة العائلية. وقد ظهر مؤشر آخر على ضعف المعالم الاجتماعية والأخلاقية في عمليات الاغتصاب المتكررة، حتى ضمن العائلة الواحدة، وفي العنف الذي مورِس بكثافة على أجساد النساء.

(51) Moussaoui, *De la Violence en Algérie: Les Lois du chaos*, p. 12.

(52) Omar Carlier, "Guerre civile, violence intime et socialisation culturelle: La violence politique en Algérie (1954-1998)," dans: Jean Hannoyer, dir., *Guerres civiles: Economies de la violence, dimensions de la civilité* (Paris: Karthala, 1999), p. 73.

بيد أنه يجب الاعتراف بأن "سقوط المعنى" هذا لا ينجم عن الإيديولوجيا التي ينطق باسمها الإسلامويون. والسؤال هو معرفة السبب الذي جعل "الحيّز الاجتماعي" الذي كان ينجح عادة في إنتاج ردود قانونية، سواء أكانت رسمية أم لا، من أجل الوقاية من العنف أو ضبطه، يتوقف فجأة عن كونه مكان احتواء[53]. لانزال بعيدين حتى الآن من تقديم إجابات مقنعة عن هذا السؤال، ولكن ثمة فرضيات قد طرحت، بدءاً بفرضية لويس مارتينيز الذي لاحظ أن العنف في الجزائر قد عنى لمن هم في "أسفل السلم" فرصة للصعود الاجتماعي، كما عنى لمن هم في "أعلى السلم" مناسبة لاستعادة بعض الامتيازات وتحقيق الثروة. "إذا كان الجهاد قد مكّن بعض الشبان المعدمين من امتلاك الموارد، إلا أن النخب من جانبها قد أنشأت "اقتصاد النهب" بفضل التحرير الاقتصادي"[54]. "يمكن بالطبع الاعتقاد أن الصعود الاجتماعي العابر للشباب والذي قدم لهم طريق الوصول إلى بعض الموارد، بما فيها تلك المحظورة قانونياً وأخلاقياً، كالجنس بواسطة الاغتصاب، يقابله توطيد سلطة "النخب" العسكرية والأمنية التي لم تستغل سياسات الخصخصة وحسب، بل أيضاً الريع الرمزي أو المالي الذي وفرته الحرب من دون أي ضابط. وتدل ثلاثية الروائي ياسمينة خضرا[55] (*Morituri, Double Blanc, L'Automne des chimères*) بقسوة كيف أن "أسياد" الحرب والاقتصاد السرّي هؤلاء كانوا أول من تحدّى المحرَّمات القانونية والأخلاقية ليحوّلوا المخدرات ومعها جسد المرأة إلى "سلع" يمكن

---

(53) Alain Mahé, "Guerre et paix dans la théorie de la segmentarité. Lectures philosophiques d'une théorie anthropologique," dans: ibid., pp. 47-67.

(54) Luis Martinez, *La Guerre civile en Algérie: 1990-1998* (Paris: Karhtala, 1998), p. 371.

(55) Editions de la Baleine, Paris, 1996-1997.

الحصول عليها بواسطة العنف، وأحياناً بالقضاء على الخصوم الأقرب، وحتى على أفراد آخرين من أجهزة الأمن.

ثمة فرضية ثانية في شأن العنف متصلة بالعامل الجيلي. يشدّد فيليب فارغ على عجز مؤشرات الاحباط الاقتصادي، كالفقر والبطالة، عن تفسير أسباب العنف ويلفت الانتباه إلى أن طول عمر الآباء ولّد "منافسة غير مسبوقة بين الأجيال"، "كانت نتيجة انخفاض الوفيات أن حلّت علاقة عامودية دائمة بين الأبناء وبين الأب محل العلاقات الأفقية السابقة بين الإخوة المتضامنين في وراثة الأب". ولّد هذا التنافس كذلك وضعاً غير متماثل حين صار الشباب ممسكاً بزمام المعرفة في حين أن الأجيال القديمة ممسكة بزمام السلطة[56]. يمكن أن يفهم العنف حينئذ كوسيلة لفرض أولوية المعرفة على السلطة أو بالأحرى كاستيلاء على السلطة بواسطة أولوية العلم.

قليلة هي الدراسات المتوافرة حول الظاهرة الجيلية في الشرق الأوسط. وعلى الرغم من غياب التحقيقات المنهجية، يمكننا الظن أن الانتقال والشرخ بين الأجيال لا يتعارضان بل يترافقان. فالصراع مع جيل الآباء لا يُصاغ بشكل حصري ولا بشكل دائم، بواسطة عبارة الشرخ، كما أن "الشرخ" لا ينبع على الدوام عن "صراع". ففي كثير من الأحيان، يكون من المهم بالنسبة إلى الشباب الدفاع عن الأهل المعتبرين "لا أفراداً" أو ضحايا "النظام" فيجدر رد الاعتبار إليهم. لا يترك الأولاد "أهلهم" لأنهم في حالة مواجهة معهم ولكن من أجل الدفاع عنهم بشكل أفضل بواسطة النضال الملتزم وحتى الحربي منه. لاشيء يشير، من وجهة

---

(56) Fargue, "Violence politique et démographie en Egypte," dans: Dupret, dir., *Le Phénomène de la violence politique: Perspectives comparatistes et paradigme égyptien*, p. 238.

النظر هذه، إلى أن الجيل الإسلاموي في التسعينيات مختلف عن الجيل "اليساروي" في السبعينيات. ويمكن في المقابل ملاحظة شرخ أكبر بين جيلين من الإخوة. في العام 1978، على سبيل المثال، نشأ حزب العمال الكردستاني في تركيا عن ثورة المراهقين ضد إخوانهم الذين يكبرونهم ببضع سنوات فقط والذين ساهموا بسبب سياستهم السلمية في إطالة عمر نظام ظالم أي في إطالة أمد "عبودية" أهلهم. أما مشاركة صغار الشبان، في سن الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة، في العنف الجزائري فيجعلنا نفكر في أن سيناريواً مماثلاً قد وقع كذلك هناك.

الأهم أيضاً هو أن الظاهرة الجيلية تردّنا أحياناً إلى سجل التعبئة المستمرة. في مصر، حيث استمرّ التقليد المعارض لدى الشباب، حتى في عهد عبد الناصر(57)، ارتدى تطرّف العامين 1989 و1990 طابع الانتقال من المطالب الطلابية إلى الالتزام السياسي الدائم لدى جيل معين. فالشبان "الجدد"، الذين لا يقتصرون على الطلاب وحدهم، قد نشؤوا اجتماعياً في التطرف وبواسطته، وقد دام تضامنهم الداخلي والتزامهم إلى ما بعد فترة الشباب بكثير. إن هذا التجذر في زمن طويل نسبياً يفسر "توسّع المعارضة "توسعاً جغرافياً أكبر" وصولاً إلى أسوان(58)، ثم إلى السودان أو أفغانستان من طريق الهجرة الأممية. في الجزائر كذلك، يمكننا ملاحظة الظاهرة نفسها. صحيح أن المعارضة بدأت مع جيل من الشباب يشرف عليه "القدماء"، بيد أن الفئات العمرية التي انتقلت إلى

(57) Dina El-Khawaga, "La Génération seventies en Egypte: La Société civile comme répertoire d'action alternatif, " dans: Mounia Bennani-Chraïbi et Olivier Fillieule, dir., *Résistances et protestations dans les sociétés musulmanes* (Paris: Sciences Po, 2003), pp. 277-278.

(58) Hasaneyn, "La Violence politique en Egypte," dans: Dupret, dir., *Le Phénomène de la violence politique: Perspectives comparatistes et paradigme égyptien.*

حيز الانشقاق المسلّح، والتي لا نملك حولها أي معطيات متسلسلة، ظلت ملتزمة لفترة طويلة غطت فعلياً عقد التسعينيات بأكمله، وتمكنت تشعباتها الأكثر فأكثر ضعفاً من تغطية السنوات الأولى من الألفية الثالثة.

فرضية أخيرة: في الحالة الجزائرية، تراجعت البنى العائلية أمام ديناميكيات العنف وتضاعفت "حالات القتل البيْعائلية المتطرفة" بعد العام 1994، ما كشف "ضياع وعجز" النسيج الاجتماعي المستضعف(59). إذا ما صيغت هذه الفرضية انطلاقاً من القمع الذي مارسته السلطة، صار بإمكانها أن تقدم مفتاحاً جديداً حيث إن الكثير من الشبّان، في الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من عمرهم أحياناً(60)، لجؤوا إلى حرب العصابات لأنه لم يعد بوسعهم الاعتماد على إطار اجتماعي وعائلي آمن، بما أن العائلات نفسها صارت مستهدفة بالقمع الذي مارسته الدولة.

وفي بعض الأحيان، تسلّم الشبان زمام أحياء بأكملها حيث رسم أمراؤهم وقضاتهم حدود الأرض التي يحكمونها بواسطة عرض رؤوس "الأعداء" و"الخونة" أو المنافسين كذلك. وفي كل مرة استطاعت الجماعات المسلحة أن تعلن عن وجودها، حتى ولو لمدة قصيرة جداً، وأحياناً بواسطة التفظيع، كانت تفعل ذلك. وأصبح الإكراه وسيلة للوجود الدائم في حيّ ما، حتى لو لم يتواجد فيه المقاتلون سوى لفترات متقطعة.

مما لا شك فيه أن التوظيف الحَضَري المفرط، وغالباً ما كان في الأطراف، ينبع من القمع الذي دفع هؤلاء الشبان إلى مغادرة أماكن

(59) Alain Mahé, "Violence et médiation: Théorie de la segmentarité et pratiques juridiques en Kabylie," *Genèse*, no. 32 (1988), pp. 51-65.

(60) للاطلاع على التوصيف الاجتماعي لهؤلاء الشباب، انظر:
Martinez, *La Guerre civile en Algérie: 1990-1998.*

سكنهم للجوء إلى الهجرة حيث شكلوا مجتمعاً موازياً خارج أي صلة اجتماعية قائمة. على الرغم من اكتساب الشباب "استقلاليته" بهذه الطريقة، إلا أن هذا لا يعني بالضرورة أنه قادر على المقاومة في البيئة الحضرية. ولا بد للعنف الذي يحمله الشباب أن يهاجر نحو السيبة، حيث الدولة كما المجتمع يمتلكان تراكيب بنيوية هشة. فالدولة "خارجية" و"بعيدة" ومقتصرة على بعض المواقع الآمنة. أما المجتمع، فإذا كان قادراً على ضبط وإدارة العنف الذي ينتجه في الأزمنة العادية، إلا أنه لا يملك شيئاً أمام عنف يأتيه من الخارج ولا يخضع لآليات الرقابة والتحكيم الاعتيادية لديه. إن القمع الذي يدفع العنف إلى ما وراء أماكن اندلاعه يوفر الأمن للـ"مركز"، ولكن الثمن هو "عالم جديد" خلدوني حيث ترجع "الأرياف" مرادفاً للتهديد. هذه هي أنواع الهجرة التي يبني فيها أمير الجماعة مملكته المصغّرة.

عنف داخلي وعنف ضد المدنيين

يبين فرانسوا بورغا كيف أن القمع الشديد الذي مارسته الدولة قد أدى دوراً مركزياً في تحطيم عملية تحوّل القوى الإسلاموية إلى الديمقراطية[61]. إن إجراء مقارنة سريعة بين الحالتين الجزائرية والمصرية من ناحية والحالة التركية من ناحية أخرى، يبين أثر القمع من دون تمييز في دفع الإسلامويين نحو التطرف.

بعد انتخابات 24 كانون الأول/ ديسمبر 1995، تمكن حزب الرفاه بقيادة نجم الدين أربكان من فرض نفسه بوصفه التشكيلة السياسية الأهم على الساحة التركية مع أنه لم يحز سوى 20% ونيف من الأصوات. وعلى الرغم من معارضة العسكر، أصبح الشريك الأساسي في التكتل

(61) Burgat, *L'Islamisme en Face.*

الحكومي. كذلك، على الرغم من حملات التشويه والتدخل العسكري التي أجبرت الحزب على ترك السلطة في حزيران/ يونيو 1997، إلا أنه لم يتطرّف، كما أن رديفه، أي حزب العدالة والتنمية بقيادة رجب طيب أردوغان، قد تحوّل مع الزمن إلى تشكيل يميني تقليدي. أما السبب فهو بسيط: لم يطل القمع الذي عانت منه الحركات الإسلامية سوى "القمة"، وحتى بعد سجن بعض من كوادر الحزب العليا، بدءاً بنجم الدين أربكان، قائده، ورجب طيب أردوغان، وكان آنذاك رئيس بلدية إسطنبول، فقد احتفظ بمجالات عمل واسعة، في النيابة والبلديات، ولاسيّما في إسطنبول وأنقرة، وفي الصحافة وشبكات التضامن... إلخ. يمر القمع، بالنسبة إلى العسكر، عبر استراتيجية "احتواء" الإسلامويين، وليس عبر القضاء عليهم. لكن هذه الاستراتيجية شديدة الوطأة بما فيه الكفاية حتى يفكر القادة الإسلامويون في اللجوء إلى فترة "انكماش" من أجل أن يحافظوا على القلاع المكتسبة، ولاسيّما البلديات ويقتنعوا في النهاية، وأحياناً رغماً عنهم، أن مصلحتهم تكمن في الحفاظ على "مسرحية الديمقراطية الهزلية" بدل إلغائها وتحمّل المخاطر الناجمة عن هذا الإلغاء.

في الجزائر كما في مصر، في المقابل، أدت استراتيجية القضاء على جبهة الإنقاذ الإسلامية وعلى الإخوان المسلمين المعروفين بـ"اعتدالهم" إلى إصابتهم بهشاشة غير قابلة للعلاج. فقد الطرفان قدرتهما على ضبط المجال الإسلاموي واحتوائه من الداخل. وكما رأينا سابقاً، بدل أن تواجه الدولتان حركة حسنة البنيان، واضحة المعالم وعلنية، ذات مواقع قرار ورقابة، أي بدل أن تواجها محاورين مضطرّين إلى الانخراط في لعبة البرغماتية والمحاسبة، صار عليهما مواجهة باقة منوعة من الجماعات التي لا تتحلّى بأي إحساس بالمسؤولية الجماعية.

فَقَدَ هؤلاء القادمون الجدد، الناشئون عن انشقاقات جبهة الإنقاذ والإخوان المسلمين أو عن تشرذم الجماعة الإسلامية على أرض الواقع، أي آلية رقابة قادرة على أن تحدد أي هدف للعنف الذي يمارسونه. فهم ينظرون إلى أي آخرٍ كان، بمعنى آخر، وإلى أي صيغة سياسية واجتماعية ودينية تخالف صيغتهم، بوصفها مؤشر على عداوة مستشرية. ومع انخراط المعارضة الإسلاموية المسلحة في صراع لا يرحم مع السلطة، تراها أصبحت كذلك حلبة عنف داخلي. مارست كل خلية عنفاً ذاتياً هداماً بالنسبة إلى المعارضة المسلحة بمجملها، على اعتبار أن المجموعات الأخرى التي تحمل الأفكار والقيم ذاتها هي مجموعات فاسدة إن لم تكن خائنة ربما، كل هذا في جو من الخوف قد يتكشّف فيه أيٌّ كان أنه من "المندسين".

لجأت مجموعات المقاتلين التي تمارس كفاية ذاتية شبه كاملة، إلى ممارسة سياسة عنف ضد المدنيين. ينظر بضع مقاتلين في حي ما أو في حرب العصابات، إلى ما هو خارج عن دوائرهم التي تنصاع كل واحدة منها لأمير معين[62]، والتي يعتبرونها الأمة الإسلامية الحقيقية الوحيدة بنظرهم، على أنه أرض الجاهلية. شهدت جبهة الإنقاذ الجزائرية، المؤلفة في الحقيقة من جبهات متعددة، ومعها الجماعة الإسلامية تجربة "انعكاس". أصبح "مبدأ الهوية" لديها "نداءً إلى كائن وجوهر وصورة مجردة أو أسطورية"؛ وتحوّل "مبدأ المعارضة" عندها "إلى صورة عن الحرب" بدل أن ينجح في تعيين الخصم؛ أما "مبدأ

(62) ولاسيّما قسمي شريف (قتل في العام 1994) وجمال زيتوني (أفغاني سابق، قتل في العام 1996 من قبل مجموعة إسلاموية هي "الرابطة الإسلامية للدعوة والجهاد والتي ستتخلى في ما بعد عن الجهاد" أو أحمد زبي (قتل في العام 1997).

الشمولية" فبلغ سيطرة "النداء إلى المطلق، كل شيء أو لاشيء، وضرورة ملحة لكسر النظام القائم"[63].

والأخطر من هذا، "التشظي الجذري" للإسلامويين في البلدين الذي يؤدي إلى "انسحابهم من الالتزام الأخلاقي"[64] بمعنى أنهم جعلوا الدولة المسؤولة الوحيدة عن الوضع القائم بما فيه العنف الذي يمارسونه بأنفسهم. وهكذا، بتنا نرى في خلال ردح قصير جداً من الزمن، وأحياناً في خلال بضعة أشهر فقط، آلاف الشبان يبلغون الخلاصة المزدوجة المتناقضة وهي أن الوطن قد أصبح في الوقت نفسه "الديار الإسلامية الجزائرية"[65] و"ديار الجاهلية" وأسوأ منها ديار الثورة ضد الله.

لم تشكل هاتان المعارضتان المظهرين الوحيدين العنيفين في التيارات الإسلاموية في الشرق الأوسط، لكنهما اختلفتا عن سواهما باتساعهما وقدرتهما على خوض حرب عصابات طويلة النفس ضد السلطات القائمة، حتى من دون دعم خارجي كبير. في مصر، وأساساً في الجزائر، انقلب العنف المولود في المجتمع ضد هذا الأخير. حين قسم العنف العائلات إلى قسمين، حال دون تعيين "العدو" الممكن في قوة محددة، فحال بالتالي دون إعطاء معنى للنزاع القائم. وفي استعادة لجملة قالها الأب العجوز في فيلم "بركات"[66] الجزائري، لم يعد أحد يعلم إن كان أولاده قد قُتِلوا أو كانوا يَقْتِلون. شكلت العصابتان المسلحتان معمودية النار بالنسبة إلى آلاف المقاتلين الذين لا يملكون

(63) Michel Wieviorka, *Sociétés et terrorisme* ([s. l.]: [s. n.], [s. d.]), pp. 18-19.

(64) Hafez, *Why Muslims Rebel? Repression and Resistance in the Islamic World*, p. 131 et 155.

(65) Moussaoui, *De la violence en Algérie: Les Lois du chaos*, p. 318.

(66) فيلم من العام 2006، إخراج جميلة شروي وسيسيل فارغافتيغ.

أي خبرة عسكرية، ومثّلتا نماذج جهادية في دار الإسلام، فصار مصيرهما بمثابة اختبار لمجمل حركات الإسلام الثوري.

لماذا فشلت الاحتجاجات؟ يجدر بنا البحث عن الجواب انطلاقاً من تحليل الديناميكيات التي ولّدها العنف بحد ذاته.

يكمن السبب الأساسي، بالطبع، في ضخامة وسائل القمع التى مارستها الدول. لا تعني كلمة "وسائل" التجهيزات العسكرية والتكنولوجيا عالية الدقة أو عدد الرجال المجنّدين للحرب وحسب، بل تعني أساساً تركيز قوى القمع في مكان وزمان محصورين. على سبيل المثال، جرى تعبئة 14 000 شرطي من أجل "استعادة" حي إمبابة، وهو أحد أحياء القاهرة حيث أسس شخص مدعو الشيخ جابر "جمهورية إسلامية"[67] على مرأى ومسمع من السلطة. وفي أماكن أخرى من مصر، كما الصعيد أو الفيوم، حوصرت أحياء بأكملها وتم اجتياحها كما لو أنها أرض الأعداء. وفي الجزائر، ارتدت السياسة القمعية شكل فرق الموت والإعدامات غير القضائية والقصف الجوي على مناطق مأهولة[68]. وأخيراً، مدّ القمع فعاليته ليصير مرئياً. فجرى في القاهرة استعراض المناضلين الإسلامويين المكدّسين في شاحنات للجيش وهذا أمر لا يمكنه إلا أن يهزّ مشاعر المارّة ويعظّم الشائعات والتفسيرات في المدينة بأسرها.

أصبح القمع الذي مارسته الدول في التسعينيات أكثر انتقائية وتفنّناً مع تفضيل بعض التقنيات من ناحية، كما تصرّف بعمى مقصود من ناحية أخرى. صار انتقائياً ومتفنّناً لأن الدول، بدل أن تمارسه في كل

---

(67) Patrick Haenni, *L'Ordre des caïds: Conjurer la dissidence urbaine au Caire* (Paris: Karthala, 2005).

(68) Malti, *La Nouvelle Guerre d'Algérie.*

المجالات وتسعى إلى ضرب أي نوع من أنواع التمايز، انسحبت من عدد من الأماكن، بدءاً بالجامعات التي غالباً ما اكتفت بمحاصرتها إلى درجة جعلها معدومة النفاذ، تاركة مجالات حرية للكلمات التي لم تعد تخيفها. وفي المقابل مارست هذه الدول قمعاً اعتباطياً، بوسعه أن يطال أياً كان فيصير محركاً للمتخيّلات. كما كان القمع أعمى ؛ صحيح أن أياً من الدولتين لم يبلغ بها الأمر تدمير مدينة بكلّيتها، مثلما حصل لحماة في سوريا في العام 1982، إلا أن أحياء بأكملها في السيبة قد عانت من قمع لا تمييز فيه. وفي الجزائر، حامت حول قوات الأمن شكوك قوية بتورطها في مجازر جماعية في الأوساط الريفية. يجمع كتاب حبيب سعيدية كل الممارسات الفظيعة التي قامت بها الدولة الجزائرية[69]، ويبيّن كيف أن سياسة الأرض المحروقة قد اتبعت بشكل منهجي بدعم علني من قبل المجتمع الدولي. تدل كل المؤشرات على أن جزءاً من المجازر الست وسبعين التي وقعت بين العامين 1996 و2001 في الجزائر، ومنها 46 مجزرة في العام 1997 وحده، كانت صنيعة العسكر أو بالتواطؤ معهم، هذا لأن قوى الأمن قد رفضت أن تتدخل لحماية المدنيين[70].

تشهد الروايات التي تدور أحداثها في الثمانينيات والتسعينيات[71]، على أن التعذيب الذي يشكل جزءاً لا يتجزأ من الدولة الحديثة[72]، هو عمل محدّد الهدف ولا تمييز فيه في آن، وهو مستخدم بكثافة ضد المناضلين

(69) Habib Souaïdia, *La Sale guerre* (Paris: La Découverte, 2001).

(70) Hafez, *Why Muslims Rebel? Repression and Resistance in the Islamic World*, p. 168.

(71) يمكن أن نذكر في هذا المجال رواية شرف لصنع الله ابراهيم ورواية بناية يعقوبيان لعلاء الأسواني.

(72) Darius Rejali, *Torture and Modernity. Self, Society, and the State in Modern Iran* (Westwiev: Boulder, 1994).

الإسلامويين أو الشبان الذين يظن أنهم كذلك[73]. وفي أغلب الحالات، كذّبت الأنظمة المعلومات حول التعذيب التي قدمتها المنظمات الدولية من دون أن تحظر نشرها بالضرورة، بل استخدمتها لمصلحتها. أصبح التعذيب أداة بيد السلطة "على أجساد الآخرين"[74] من خلال الشائعات التي بثّها. يكفي في الحقيقة وجود "القليل من الأمثلة" عن أجساد معذبة أو فاقدة الحياة حتى تصير قسوة السلطة "موثوقة"[75] بين الناس.

تخطت ممارسة التعذيب بالطبع الحالتين الجزائرية أو المصرية. ففي سوريا، على سبيل المثال، وكما يقول المناضل اليساري ياسين الحاج صالح الذي أمضى سنوات طويلة في السجن، مات عدد من الشيوعيين بفعل التعذيب، أما الاغتيال فهو يطال السجناء الإسلامويين كعمل انتقامي[76]. لا يسعى التعذيب إلى الحصول على معلومة ذات طابع أمني بل إلى تدمير جسد السجين "الرهينة" وإشاعة جو من الرعب بين الأهالي[77].

---

(73) انظر من بين المصادر الكثيرة:
Amnesty International, *Egypte: Il est temps de mettre en œuvre les recommandations du comite des nations unies contre la torture* (London: [s. d.], 20 novembre 2003), et Mahmoud Khelili, *La Torture en Algérie* (*1991-2001*) (Algeria: Algeria-Watch, octobre 2001).

(74) Allen Feldman, "Ethnographic states of emergency," dans: Carolyne Nordmann, Antonius C. G. M. Robben, dir., *Fieldwork under Fire: Contemporary Studies of Violence and Survival* (Berkeley: University of California Press, 1995), p. 234.

(75) Véronique Nahoum-Grappe, "L'Usage politique de la cruauté: L'Epuration ethnique (ex-Yougoslavie, 1991-1995)," dans: Françoise Héritier, dir., *De la violence* (Paris: Odile Jacob, 1996), p. 269.

(76) Yassin Al-Haj-Saleh, "L'Univers des anciens prisonniers politiques en Syrie," *REMMM*, no. 115-116 (2007), pp. 249-265.

(77) David Le Breton, "Expériences de la douleur, experiences de la violence," dans: Françoise Héritier, dir., *De la violence II* (Paris: Odile Jacob, 1999), p. 122.

يهدف التعذيب، من خلال اغتصاب الصبية، إلى كسر رجولتهم وإلى تحطيم كل الحواجز الذهنية القادرة على حمايتهم. في مجتمع حيث متطلبات الرجولة تبلغ مستويات عالية تقليدياً وحيث الوسائل التي يمتلكها الصبية لبلوغها تتضاءل أكثر من أي وقت مضى، أو تعتمد على الموقع الطبقي، يخلط الاغتصاب كل أنواع الحدود. يصير الرجل، الذي تصفه ناديا تازي بالمسيطر في المجتمع، شخصاً "مسيطَراً عليه" بواسطة الاغتصاب ولا يعود يعتبر السلطة "سيداً" له أو "حليفه" بل يكرهها بوصفها "عدوّه الحميم"[78].

مثّل السجن بواسطة التعذيب الذي مورس فيه "قطيعة حقيقية في السيرة الذاتية"[79] لدى المناضلين. كما بيّن حدود عمل الفرد المحتج والذي انتهى انشقاقه بالهزيمة وبامّحاء الذات المستدام. وإذا كان بعضهم، على غرار الظواهري أو الزرقاوي اللذين سيكون لنا عودة إليهما، تمكن في أفضل الحالات أو في أسوئها على الغالب، من تحويل تجربة التعذيب إلى عنصر مركزي في اقتصاد "الأهواء"[80] الجديد وفي برنامج موجه نحو الانتقام البارد والبعيد، فإن بعضهم الآخر قد فقد في هذه التجربة "كيانه المقاوم".

تطرّف الإسلامويين بسبب القمع

في خلال فترات العنف الجزائرية والمصرية، قدمت الدول نفسها

(78) Nadia Tazi, "Le Désert perpétuel: Visages de la virilité au Maghreb," dans: Fethi Benslama, Nadia Tazi, dir., *La Virilité en Islam* (La Tour d'Aigues: L'Aube, 2004), p. 61 .

(79) Vincent Geisser, Karam Karam et Frédéric Vairel, "Espaces du politique: Mobilisations et protestations," dans: Elizabeth Picard, dir., *La Politique dans le monde arabe* (Paris: Armand Colin, 2006), p. 198.

(80) Philippe Braud, L'Émotion *en politique* (Paris: Sciences Po, 1996), p. 43.

كضحية إلا أنها بذلت كل ما في وسعها لتحوّل الاحتجاج الإسلاموي إلى عدو قوي ولكن من دون وجه ومن أجل دفعه إلى معاقله الأخيرة نحو ممارسات تتسم بوحشية بالغة. يشرح محمد سمراوي، وهو أحد الوجوه البارزة في أجهزة الأمن الجزائرية، الأمر بقوله إنهم قد وضعوا قائمة بالأشخاص الأكثر خطورة وطالبوا باعتقالهم، وفي الواقع، كانوا بحاجة إليهم لتشكيل مجموعات إرهابية، واعتقلوا بدلاً منهم أشخاصاً من اليمين واليسار والوسط لأنهم أرادوا دفع الحركة نحو التطرّف[81].

ومن المعروف أن معسكر "المتشدّدين" الجزائريين، الذي تشكل حول جنرالات "جماعة جانفييه" الذين أوقفوا العملية الانتخابية، ومن بينهم محمد العماري ومحمد تواتي وخالد نزّار ومعهم "سديم من السلطة"[82]، اعتبر أن "المجتمع مصاب بالغنغرينا وينبغي بالتالي القيام بعمليات بتر". وقد أكد هؤلاء الجنرالات كذلك أنه بما أن "الإسلامويين يريدون الذهاب إلى الجنة، فليرسلوا إليها وبسرعة. لا أريد سجناء، بل أمواتاً"[83].

ساهمت الدول إلى حد كبير في تغذية حركات الاحتجاج المسلحة حين أمسكت بورقة القمع وحدها واستخدمتها بمعزل عن أي مفاوضات[84]، وحين اعتبرت أن أي انشقاق يوازي "الإرهاب"،

(81) Jonathan Randal, *Oussama: La Fabrication d'un terroriste* (Paris: Albin Michel, 2004), p. 209.

(82) Mireille Duteil, "La Nébuleuse du pouvoir," *Esprit*, no. 1 (1995), pp. 96-104.

(83) انظر ذكريات الضابط الجزائري السابق حبيب سعيدية:
Souaïdia, *La Sale guerre*, p. 77, et 159.

(84) انظر حول هذه الإشكالية:
Olivier Fillieule et Mounia Bennani-Chraibi, "Exit, Voice, Loyalty et bien d'autres choses encore," dans: Bennani-Chraïbi et Fillieule, dir., *Résistances* =

وحين شددت على "مبدأ ضرورة حدوث مواجهة حاسمة" كشرط "لبقاء المجتمع"، وحين أنكرت على الأشخاص الذين حاربتهم أي وضعية لهم كفاعلين ، وحين جرّمت أخيراً الفئات الاجتماعية الحاملة للعنف[85]. وفي كثير من الأحيان، أنتجت الإجراءات القمعية آثاراً عكسية بما أن عدد المتمرّدين في الجزائر انتقل من ألفي متمرد في العام 1992 إلى 4000 في العام 1993 ثم إلى 000 27 في العام 1995. في بعض المناطق، كما في سهل المتيجة، حلّ المتمرّدون محل الدولة في مجال تقديم الخدمات الاجتماعية[86]. في مصر، يفسر القمع البوليسي "أحداث إدكو في العام 1992 حيث جرى تدمير كل رموز الدولة. وتكرر هذا الوضع في السنة ذاتها في أبو حماد، محافظة الشرقية، وفي مناطق أخرى. لم يكن كل هذا سوى التعبير عن إحساس عميق بالتمرّد ضد الشرطة"[87].

لماذا انخرطت الدول في مزايدة دموية علماً أن هذه المزايدة تضعفها؟ قدمت مريام ر. لوي، انطلاقاً من الحالة الجزائرية، أول عنصر من عناصر الإجابة عن هذا السؤال قائلة: "عند تعيين الإسلامويين واعتبارهم إرهابيين، كسب نظام العسكر دعم الأنظمة الغربية والمؤسسات الدولية". ولم يكن هذا الكسب رمزياً فحسب، فقد استفادت الجزائر التي كانت في حالة إفلاس في العامين 1991 و1992،

et protestations dans les sociétés musulmanes, pp. 75-90. =

(85) Hasaneyn, "La Violence politique en Egypte," dans: Dupret, dir., *Le phénomène de la violence politique: Perspectives comparatistes et paradigme égyptien*, p. 245-279.

(86) Lowi, "Algérie 1992-2002: Une nouvelle économie politique de la violence," *Maghreb-Machrek*, pp. 63-65.

(87) Hasaneyn, Ibid., p. 272.

من قروض ومن مساعدات مباشرة بلغت أكثر من عشرين مليار دولار في خلال الحرب الأهلية[88].

في مصر، وفي الجزائر على وجه الخصوص، كانت الحرب ضد الإسلامويين من النوع "التيلي"[89] بحق، بمعنى أنها استخدمت كأداة للبناء، إن لم يكن لبناء الدولة، فلبناء كتل من السلطة في داخلها. تنازع الجيش ومختلف الأطراف الأمنية في ما بينها في خلال الحرب لكنها أعادت إنتاج أنفسها من خلالها كذلك. صنعت عالماً من المعنى بلجوئها إلى القمع الشديد فقسمت المجتمع إلى أصدقاء وأعداء في سياق مسرحية حربية متأثرة بمتخيّل النينجا الذين اشتهروا آنذاك من خلال نشر الرسوم المتحركة اليابانية.

صحيح أن هذه الأطراف لم تتمكن من زيادة شرعيتها أو مصداقيتها في مجتمعاتها، ولا ضمن أجهزتها كذلك، كما لم تنجح في تدمير الإسلاموية كقوة معارضة أساسية؛ لكنها أثبتت عن قدرة على خلق هندسة سياسية جديدة وتمكنت من إقناع جزء من الطبقات الوسطى، على وجه الخصوص، على غرار الإنتلجنسيا مثلاً، حتى تغلّب الاستقرار والنظام على الفوضى وانعدام الأمن الذي كان يتهددها.

لم يتردد بعض الإسلامويين في أداء الدور الذي أرادته السلطات منهم. لنذكر هنا الصدمة التي تسبّب بها اغتيال المثقف المصري فرج فوده، وقد كان صاحب ثقافة دينية عميقة مكّنته من التنديد بـ"استغلال

(88) Lowi, Ibid., pp. 64-65

(89) يشرح عالم الاجتماع تشارلز تيللي (Charles Tilly) الحرب بوصفها جزء لا يتجزأ من تشكيل الدولة ذاتها، انظر:
Charles Tilly "War Making and State Making as Organized Crime," in: P. B. Evans, D. Rueschemeyer, *Bringing the State Back* (Cambridge: Cambridge University Press, 1985), pp. 169-191.

الدين" من جانب الإسلامويين. وكان دفاع محمد الغزالي المنتمي إلى حركة الإخوان المسلمين، عن القتلة عملاً يضاهي بخطورته عملية الاغتيال نفسها، كما كان من شأنه أن يضاعف خوف المثقفين المعتبرين علمانيين من الإسلامويين عموماً[90]. إن استهداف المثقفين بالاغتيال في الجزائر وشرعنة هذه العمليات من قبل بعض الإسلامويين قد أثار صدمة مماثلة ومستدامة[91].

وفي سياق بالغ التحدي، أعلن علي بنحاج، الشخصية الثانية في جبهة الإنقاذ الإسلامية، أنه لم يجد أثراً لكلمة ديمقراطية لا في قاموس اللغة العربية ولا في كتاب الله ولا عند أي من المفكرين المسلمين الكبار. وبعد سنوات قليلة، في العام 1998، قال حسن حطاب، أمير الجماعات الإسلامية المسلحة، إنه لا يقاتل من أجل العودة إلى الديمقراطية الكافرة ومن أجل كسب مقاعد في البرلمان، بل من أجل إعلاء كلمة الله، قبل أن يرفض أي فكرة حوار أو تنازل أو هدنة[92]. وهكذا كانت الممارسات الدموية لدى عدد من المجموعات الإسلاموية وفرضها الاعتناق المطلق لإجماع معاكس أكثر تصلباً من الإجماع الذي تفرضه الدولة المعتبرة "طاغوتية" من العوامل التي أضفت على السلطة القائمة شرعية من النوع الهوبسي (نسبة إلى توماس هوبس). أضف إلى هذا أن الطبقات الوسطى قد اعتبرت العصابات المقاتلة التي اقتصرت على

---

(90) أعلن الغزالي في العام 1993 أن المسلم الذي يعمل ضد الشريعة، كما كان حال فودة، هو مرتد ومهدور دمه، وفي غياب دولة إسلامية تنفذ فيه الحكم لا يمكن لوم من يكلفون أنفسهم بهذه المهمة. انظر:
Kepel, *Jihad: Expansion et déclin de l'islamisme*, p. 427.

(91) Lahouri Addi, "Les Intellectuels qu'on tue, " *Esprit*, no. 1 (1995), pp. 130-135.

(92) Zidane Meriboute, *La Fracture islamique: Demain, le soufisme*? (Paris: Fayard, 2004), p. 113, 121.

مجموعات من المراهقين في الجزائر[93] وعلى مقاتلين إسلامويين من بعض الجامعات المصرية، بمثابة تهديد للنظام الاجتماعي ولمصالحها الخاصة وقيمها، فصار القضاء عليها من قبل السلطات ضرباً من الدفاع المشروع عن النفس.

"ألف عامٍ من الاستبداد..."

في الجزائر وفي مصر، كما في غالبية مناطق النزاع، عجزت الحركات الإسلاموية عن المحافظة على الاشتباك العسكري لفترة طويلة، على الرغم من أن تجدد الأجيال والحفاظ على قوة التعبئة التي تتميز بها الرومنطيقية المسلحة شكلت شرط استدامتها. كان لا بد لمأسسة العنف الحقيقية في البلدين أن تفضي إلى جعله روتينياً وإلى خصخصته، على مثال عدد من رجال العصابات الذين أصبحوا "أمراء حرب" حقيقيين أو "رجال أعمال" يصارعون من أجل الموارد التي تؤمنها "أسواق العنف"[94] أي ما يحصلون عليه بواسطة الأتاوات والسلب وفرض الضرائب.

إزاء تطور المجموعات المشرذمة والخارجة عن السيطرة، قبلت التيارات الإسلاموية الأساسية في النهاية صيغة السلطة الهوبسية. وحتى لو أن الإخوان المسلمين وجبهة الإنقاذ الإسلامية قد حمّلت الدولة المسؤولية الأخيرة عن العنف وعبرت عن بعض تعاطف إزاء هؤلاء الأصوليين الشباب الذين "عادو إلى الدين وإلى الجذور"، فإنهم في النهاية قد دانوا العنف الذي مارسه مجاهدو الجماعة الإسلامية

---

(93) Martinez, *La Guerre civile en Algérie: 1990-1998.*

(94) للاطلاع على هذا المفهوم، انظر:
Erhard Eppler, *Vom Gewaltmonopol zum Gewaltmarkt*? (Frankfurt: Suhrkamp, 2002).

والجماعات الإسلامية المسلحة. وفي سياق حكمة سياسية راسخة فإن "ألف عام من الاستبداد خير من دقيقة فوضى[95]"، لذا فضل التنظيمان الخضوع للسلطة على السيبة أو الخروج عليها. وكان الخضوع الذي لا سبيل سواه هو بالضبط ما سعت إليه الدول من أجل تأمين استدامتها، ما ذكر براهنية تشارلز تيللي القاسية حين يقول إن الدولة تُصنع بواسطة العنف والحرب والحماية وفي قلبها. وبدل فرض الضرائب، يعتبر تيللي أن الطاعة هي المعيار الأخير لتأمين الحماية وضمان بناء الدولة.

أخيراً، عرفت الدول كيف تقنع سكان المدن، ولاسيّما الطبقات الوسطى، بضرورة الطاعة. تمكنت مقولة "الإرهاب والإرهابيين" الدلالية والمرادفة لعدو الداخل المختبئ "بيننا" ولكن المختلف جداً "عنّا" والذي يهدد "المجتمع المدني الذي بنته مصر طيلة قرن ونصف القرن"[96] من التسلّل لتفرض نفسها كمقولة عملانية. قُدِّم العنف بوصفه "غريباً" عن المجتمع وعن الثقافة فصار يُفسّر على أنه مؤامرة تحاك من جسم "غريب عنّا" أو ببساطة من الخارج. ولكن، هنا كما في أي مكان آخر، فـ"إن اللغة التي تركّب مشكلة وتعطيها أصولاً، تدعو كذلك إلى الاعتراف بسلطة من يدّعون امتلاك هذا النوع من الكفايات أو ذاك،

---

(95) يشرح برنارد لويس هذا الشعار على الطريقة الآتية: "يجب طاعة حكم قمعي [...] لأن البديل أسوأ ولأن هذه هي الطريقة الوحيدة للحفاظ على الفرائض الدينية والشرعية الأساسية في الإسلام"،
B. Lewis, *Le Langage politique de l'islam* (Paris: Gallimard, 1988), p. 153.

(96) للاطلاع على بعض العرائض والتصريحات، انظر:
Iman Faragh, "La Violence comme analyseur, le consensus national en question," dans: Baudoin Dupret, dir., *Le Phénomène de la violence politique: perspectives comparatistes et paradigme égyptien* (Le Caire: CEDEJ, 1994), pp. 197-198.

فيصير الفهم وتعليق الحكم النقدي لمصلحة شخصية يفترض بها التمكّن من حل صعوبة ما يساوي خلق مرجع سلطوي"[97].

يحمل فشل الجهاديين تفسيراً آخر أيضاً: عرفت الدول، في مصر وفي الجزائر، وفي أماكن أخرى كذلك من الشرق الأوسط، كيف تشجع على إعادة الأسلمة الأخلاقية بشكل يرضي الطبقات الوسطى[98]. وفي كل مكان، تحول كبار المفتين إلى أدوات هذه الشرعنة المتجدّدة، ومكّنت الأسلمة من فوق الدول من دمج مواضيع كاملة خاصة بالمعارضة الإسلاموية، ولاسيّما تلك المتصلة بـ"الأخلاقيات" العامة وإدارة المجال المرئي، ما حرم الإسلامويين من احتكار الشرعية الدينية.

ومن ناحية أخرى، استفاد عدد من الإسلامويين، ممن قبلوا التخلي عن أي وظيفة سياسية، من لعبة الإلحاق التي سمحت بها الدول أحياناً[99]. وفي الوقائع الجزائرية، لم يكن بوسع "سياسات المحو"، مهما بلغت حدتها، ضد الإسلامويين بكل تشعباتهم، السلمية منها على وجه الخصوص، أن تدوم على امتداد عقد كامل من الزمن. فبدءاً بالعامين

(97) Murray Edelman, *Pièces et règles du jeu politique* (Paris: Seuil, 1991), p. 50.

(98) على سبيل إعطاء مثال واحد نقول أنه حتى في سوريا التسعينيات كثرت "مراكز حافظ الأسد لتحفيظ القرآن الكريم".
Bernard Rougier, "L'Islamisme face au retour de l'Islam," *Vingtième siècle*, no. 82 (2004), p. 107.

(99) لم يكن الأمر بسيطاً على الدوام، لأنه، كما يبين ألان روسيون، لا يمكن للإلحاق أن ينجح إلا بشرط ترك بديل إسلاموي. انظر:
Alain Roussillon, "Changer la société par le Jihad: "Sédition confessionnelle " et attentats contre le tourisme: Rhétoriques de la violence qualifiée d'islamique en Egypte," dans: Dupret, dir., *Le Phénomène de la violence politique: Perspectives comparatistes et paradigme égyptien*, pp. 257-260.

1996-1997، نجح مجاهدو جبهة الإنقاذ الإسلامية، وقد ذعروا لممارسات الجماعات الإسلامية المسلحة، في تدبير بضعة ملاجئ لهم في مقابل التخلي عن أي نشاط سياسي. أما الحكومة المصرية، وعلى عكس رديفتها الجزائرية، فقد قبلت، في فترة مبكّرة جداً، أن تترك بعض المساحات للمجاهدين المستعدّين للتخلي عن العنف وبالأخص عن أي مطالبة سياسية. وهكذا، حافظ الإخوان المسلمون على الجزء الأساسي من شبكات التضامن الاجتماعي، من مستوصفات وحضانات أطفال ومدارس وأطعمة شعبية... إلخ، ولابد أن نشير بسرعة أنها شبكات تعوّض غياب الإدارة الرسمية للفقر. وقد تمكنت السلطة بفضل مهارتها أيام حسني مبارك الذي تسلّم السلطة بعد اغتيال السادات في العام 1981، من أن تنتشر بشكل أفضل في المجال الأمني بالمعنى الضيق للكلمة.

أخيراً، يجب أن نأخذ بالاعتبار التعب الاجتماعي، وهي ظاهرة نلاحظها في سائر أرجاء الشرق الأوسط، من دون أن نتمكن من تحويلها إلى إشكالية في الوقت الراهن. لايفسَّر التعب الاجتماعي حصراً بنتائج ضعف اندماج الاقتصادات في النظام العالمي ما يترك سيطرة كبيرة على الموارد وإعادة توزيعها بين أيدي السلطة[100]، كما لا يفسَّر بواسطة القمع الكثيف الذي تمارسه الدولة. ولا يعني كذلك "انطواءً مؤقتاً" مع تأجيل "حلقة النشاط الجديدة"[101]. ينجم التعب الاجتماعي من ناحية

(100) "الانشقاق نادر بسبب الخوف من معارضة الدولة أو تضاؤل قدرتها على توفير المكاسب".

Robert L. Rothstien, "Democracy in the Thirld World: Definitional Dilemmas," in: David Garnham and Mark Tessler, dir., *Democracy, War and Peace in the Middle East* (Bloomington & Indianapolis: Indiana University Press, 1995), p. 77.

(101) للاطلاع على هذا المفهوم، انظر:

عن "زمنية الكلل والبقاء اليومي من دون أمل بتحسّن ممكن في المصير الفردي"[102]، كما ينجم من ناحية أخرى عن ترهّل الصيغ السياسية المختبرة منذ الخمسينيات وحتى أيامنا هذه، والتي جرّت وراءها تعبئات جماعية واسعة جداً على امتداد أجيال كاملة. وإذا كان هذا التعب قد أفرغ المجتمعات الجزائرية والمصرية من أي ديناميكية فيها، إلا أنه كان مفيداً جداً لبقاء الأنظمة.

كانت "العقلانية المرجعية"[103] في حرب عصابات الجزائر ومصر بسيطة ووجدت في داخلها فرضياتها كما خلاصاتها: انطلقت من عدم شرعية السلطة الطاغوتية ومن التعاطف الثابت حتى اليوم من قبل الأهالي مع القضية الإسلاموية. اعتبر أطراف العنف الإسلاموي، على غرار المدافعين عن نظرية البؤر الثورية في أميركا اللاتينية وتركيا وإيران في السبعينيات من قبلهم، أن السلطة تستند إلى زيف وتعيد إنتاج نفسها بفعل الوهم. لذا من المفترض بالعنف أن يكشف الخدعة أمام الجماهير وأن يضع لها حداً.

على غرار مناضلي اليسار في الماضي، أسس الإسلامويون هذا الحساب العقلاني على توازن القوى على الأرض، علماً أنهم لم يكونوا في وضعية تمكنهم من تقديره بدقة. لم يخيّل لهم أن الدولة قادرة على ممارسة قمع مطّرد وعلى التأقلم وتطوير مجموعات جديدة من القيود،

Sydney Tarrow, *Power in Movement: Social Movements, Collective Action and Politics* (Cambridge: Cambridge University Press, 1994).

(102) Georges Corm, *Le Proche-Orient éclaté 1956-2000* (Paris: Gallimard, 1999), p. 139.

(103) للاطلاع على هذا المفهوم، انظر:
Christian Morel, *Les Décisions absurdes: Sociologie des erreurs radicales et persistantes* (Paris: Gallimard, 2002).

سواء أكانت قانونية أم غير قانونية، وعلى تصفية معارضيها بكثافة وعلى صناعة الطاعة من دون الاهتمام بالمبادئ الفلسفية والأخلاقية الموجودة في المراجع الجهادية. وهكذا، بعد حرب طويلة كان ثمنها، بحسب التقديرات الأخيرة، مائتي ألف ضحية[104]، نجحت الدولة الجزائرية في العودة وفي القضاء على المجموعات الإسلاموية الرئيسة. وكذلك في مصر، على الرغم من أن هذه الأخيرة دفعت ثمناً أقل بكثير ممّا دفعته الجزائر.

(104) "في مؤتمر صحافي عقده رئيس الوزراء أحمد أويحي في آذار/ مارس 2006، أعلن أن العدد الإجمالي للضحايا يبلغ مائتي ألف قتيل، من بينهم سبعة عشر ألف إرهابي ومائة وثمانون ألفاً آخرين غير محددين. كما تعتبر السلطات رسمياً أن ثمانية آلاف شخص هم في عداد المخفيين قسراً".
Rasmus Alenius Boserup, *Contentious Politics in Post-Colonial Algeria* (Paris: Copenhague, thèse de doctorat de l'EHESSS et KU, 2007), p. 109.

الفصل الحادي عشر

هندسيّات جديدة للسلطة في العراق وتركيا وايران

يقترح مهران كمرافا تصنيفاً ينقسم إلى خمس فئات لتحليل تطور دول الشرق الأوسط في منعطف الألفية الثالثة: الدول العسكرية (السودان والجزائر)، أنظمة الأمن الداخلي أو المخابرات (ولا سيّما في مصر وسوريا وتونس واليمن) الأنظمة السلطانية من النمط الريعي (البحرين والكويت وعمان وقطر والسعودية والإمارات العربية المتحدة)، أو من النمط المدني (الأردن والمغرب)، الأنظمة "الاستيعابية" التي تفرض التحاق سكانها بها (إيران والعراق وليبيا في مختلف الحقبات) وأخيراً أربعة أنظمة نصف ديمقراطية (إسرائيل، لبنان، تركيا، السلطة الفلسطينية)[1].

صحيح أن هذا النموذج مفيد من الناحية التحليلية، إلا أن غالبية الدول، في خلال التسعينيات، وفي ما عدا إسرائيل، تكتسب طابعاً هجيناً يدمج الطبيعة العسكرية مع سمات الأنظمة الأمنية لتعمل كأنظمة سلطانية على الرغم من أنها تترك بعض مساحات لدمج الأطراف الخارجة عنها.

(1) Mehran Kamrava, *The Modern Middle East: A Political History since the First World War* (Berkeley: University of California Press, 2005), p. 294.

وأيضاً في ما عدا إسرائيل التي تشهد أزمات داخلية وخارجية ذات طبيعة مختلفة، تواجه هذه الأنظمة عدم استقرار يمكن تفسيره من طريق ظاهرة مزدوجة هي إنهاك الأنظمة المتسلطة وازدياد قوتها[(2)].

البقاء من دون الشرعية

يطال الإنهاك أولاً القومية العربية؛ هي لا تفقد من قوة جذبها ضمن الرأي العام العربي، على الأقل لأن التيارات الإسلاموية ذاتها تعيد إنتاج إيديولوجيا إسلامية قومية في الواقع. لكن، منذ عقود طويلة، أفرغت الأنظمة "القضية العربية" من قدرتها التعبوية التي تضمن لها مزيداً من الهيبة. لم يكن المؤرخ ألبرت حوراني على خطأ حينما أشار، في بداية التسعينيات، قائلاً "إن الأفكار السياسية واجهت خطراً كبيراً هو خطر فقدان معناها حينما تبنتها الدول. أصبحت شعارات صدئة لكثرة ما كُرِّرت ولم تعد قادرة على بلورة أفكار أخرى حولها ضمن كوكبة قوية من الأفكار، ولا على تحريك قوى اجتماعية، ولا على إضفاء الشرعية إلى الأنظمة القائمة"[(3)]. أضف إلى هذا أنه، على اختلاف الأوضاع من بلد إلى آخر، ما من أحد قد أبقى على أي وهم متعلق بشرعية الأنظمة التي ساءت أوضاعها بشدة منذ السبعينيات[(4)]. وفي ما عدا بضعة استثناءات

(2) Philippe Droz-Vincent, *Moyen-Orient: pouvoirs autoritaires, sociétés bloquées* (Paris: PUF, 2005), et Béatrice Hibou, *La Force de l'obéissance: Economie politique de la répression en Tunisie* (Paris: La Découverte, 2006).

(3) Albert Hourani, *Histoire des peuples arabes* (Paris: Seuil, 1993) (édition anglaise 1991), p. 594.

(4) Michael C. Hudson, *Arab Politics: The Search for Legitimacy* (New Haven: Yale University Press, 1977).

نادرة ومحدودة زمنياً[5]، فإن خطابها بدا فارغاً ولم تعد رموزها تثير أي انفعال.

ترافق فقدان الشرعية والمعنى مع زيادة قوة الدول كأنظمة أمنية. وهنا أيضاً، لفت ألبرت حوراني الانتباه في العام 1991 إلى قدرة الدول على خلق وسائل للرقابة والضغط ولاسيّما من خلال "أنظمة الاستخبارات والأمن والجيوش ومن خلال القوات المرتزقة في بعض الأماكن والتي جرى تجنيدها في الخارج". وأضاف قائلاً إن هذه الدول كانت قادرة على "تحطيم أي حركة تمرّد [شرط] ألا تتحطم أدوات القمع بين أيديها"[6].

أما الانتخابات، الحرة إلى هذا الحد أو ذاك، كما في الأردن في العامين 1989 و1993 وفي المغرب في العام 1999، أو الخاضعة تماماً لسيطرة السلطة، كما في الجزائر ومصر، فلم تؤثر في هذه القوة القمعية المفرطة. كانت على العكس "مصمَّمة بالأحرى كوسيلة بين أيدي الحكّام لإعادة شرعنة هيمنتهم في المجال السياسي بتحويل اللعبة الانتخابية إلى مجرد تقنية دمج وتجدّد"[7]، علماً أن "الدمج" و"التجدّد" يقعان في كثير من الأحيان ضمن الحزب الواحد. في مصر، على سبيل المثال، كانت نسبة أعضاء الحزب الديمقراطي الوطني في مجلس

---

(5) للاطلاع على "المسيرة الخضراء" في المغرب، انظر:
Khadija Mohsen-Finan, *Sahara occidental: Les Enjeux d'un conflit régional* (Paris: CNRS, 1997).

(6) Hourani, *Histoire des peuples arabes*, p. 586.

(7) Jean-Claude Santucci, "La Place et le rôle des systèmes partisans dans les évolutions du champ politique," dans: Elizabeth Picard, dir., *La Politique dans le monde arabe* (Paris: Armand Colin, 2006), p. 159.

النواب تبلغ 79 بالمائة في العام 1990، فارتفعت إلى 94 بالمائة في العام 1995 ولم تتدنَّ عن 81 بالمائة في العام 2000[8].

في المجتمعات المنهكة والتي لا تملك حافز مقاومة قوياً، عرفت الدول كيف تنسحب من مجالات عديدة من أجل أن تنتشر بشكل أفضل في المجالات التي تعتبرها حيوية من الناحية الأمنية وأيضاً من أجل أن تكتسب فعالية روتينية أكبر وتوسع استقلالية حركتها. فسمحت بإنشاء جمعيات أهلية عديدة، وصحافة حرّة أحياناً إلى هذا الحد أو ذاك، لكن الهدف كان في أغلب الأحيان التمكّن من تهميشها بشكل أفضل. عديدة هي الأمثلة على ما نقول: في مصر ثم في الجزائر، لم يشكل قيام تنظيمات للدفاع عن حقوق الإنسان كما لم يشكل وجود صحافة أكثر حرية أي عائق أمام حرية حركة السلطة. في سوريا، فاوضت السلطة في الواقع اتفاق عدم اعتداء مع شعبها قضى بالامتناع عن استعمال القمع الشديد والمُمَأسس، كالذي وقع على حماة في العام 1982، في مقابل الطاعة واحترام شعائر السلطة. عرف القصر الرئاسي والمجتمع معه أن عصبية الطائفة العلوية هي المسيطرة والدعوة إلى القومية العربية لم تعد تملك قدرة تعبوية. بيد أن الاتفاق الضمني المتفاوض حوله بين الطرفين يفرض على الجميع ألا يفضحوا عري السلطة.

ثورات في العراق بعد حرب الخليج

لم يكن الوضع مماثلاً في أماكن أخرى، ولاسيّما في العراق، حيث انتهت "حرب الخليج الثانية" في العام 1991 ببقاء نظام صدام حسين. فإدارة بوش التي تخشى نشوء سلطة شيعية، رفضت مواصلة

---

(8) Eberhard Kienle, "Réformes tronquées et réformes évitées: Continuités économiques et politiques sous Moubarak," dans: Elisabetta Bartuli, *Eggito oggi* (Venise: Merifor, 2005), p. 44.

الحرب حتى سقوط النظام[9]. وعلى الرغم من أن صدام حسين لم يعد يملك جيشاً قادراً على جعله يمارس سياسة عدوانية في المنطقة، إلا أنه بقي قوياً بما فيه الكفاية حتى يطبق سياسة الأرض المحروقة في داخل حدوده.

تلت هزيمة حرب الخليج انتفاضتان، الأولى في كردستان والثانية في الجنوب الشيعي وكذلك في أحياء بغداد الشيعية. وفي حين ردّد الأهالي شعار "ماكو خوف" في بغداد، فإن 14 مقاطعة من أصل 19 لم تعد تحت سيطرة الحكم المركزي لمدة أسبوعين[10].

بدأت سلسلة الانتفاضات في مدينتين سنّيتين في الجنوب هما أبو الكاسب والزبير، في أواخر أيام شباط/ فبراير 1991؛ من أول آذار/ مارس إلى العشرين منه، انضمت كل المدن تقريباً، في ما عدا المركز السنّي، إلى الثورة. جاءت الانتفاضة من عمل "الأشخاص العاديين الذين تتجاهلهم في أغلب الأحيان صحافة المعارضة". في المرحلة الثانية فقط، تبنّتها التنظيمات السياسية، كجبهة كردستان الشديدة الانقسام والمجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق بقيادة محمد باقر الحكيم والدعوة[11]. كانت تحركات عفوية لا برنامج لها سوى الإطاحة بالنظام قبل أي شيء آخر. وكانت ثورات أمل لا برامج ثورية حقيقية.

(9) Andrew Cockburn et Patrick Cockburn, *L'Enigme Saddam: Enquête explosive au coeur du système irakien* (Paris: First Editions, 1999), pp. 62-63.

(10) Françoise Rigaud, "Irak: L'Impossible mouvement de l'intérieur?" dans: Mounia Bennani-Chraibi, Olivier Fillieule, dir., *Résistances et protestations dans les sociétés musulmanes* (Paris: Sciences Po, 2003), p. 199.

(11) Faleh A. Jaber, "Why the Uprisings Failed," in: Micah Sifry and Christophe Cerf, *The Iraq War Reader: History, Documents, Opinions* (New York: Touchstone, 2003), pp. 103-113.

نجح الثوار الأكراد في طرد القوات العراقية واحتلوا مدينة كركوك. وبينما أُحرقت صور صدام حسين في بغداد، انشق الجنوب مع قتل عدد كبير من البعثيين. هل هي عملية انتقامية؟ يمكن اعتبار هذه الفرضية شرط إعطاء كلمة انتقام معناها السياسي الكامل. فالنظام كان قد ألغى أي إمكانية للرد على القمع الذي مارسه حائلاً دون ممارسة أي "قانون" لضبط الخلافات[12]. فكان لابد ببساطة أن يتحوّل أعضاء البعث والقوى الأمنية العاملة باسم مستبدٍ شديد البأس وفَواجتماعي، إلى أعداء الجماعة التي عملوا على قمعها طيلة عهد صدام حسين الطويل. لا نملك تقديرات عن عدد ضحايا البعث، إلا أن كل شيء يشير إلى أنها وقعت بعشرات الآلاف. وبحسب أحد المصادر في جنوب البلاد فإن "40% من جهاز البعث قد هوى مع الانتفاضة"[13].

بيد أن الانتفاضتين الكردية والشيعية، اللتين لا ترتبطان بأي صلات عضوية كما هو واضح، وتتسمان بالعفوية على نطاق واسع، قد سحقتا بسرعة تحت أعين الإدارة الأميركية التي لم تحرك ساكناً. كانت بغداد "المدينة الحديثة والقبلية، مقر الحكومات المحاصرة"[14] هي المكان الأول حيث مارست السلطة ردها وأعادت لحمتها قبل أن تنتشر في الشمال والجنوب. خشي الأكراد حرباً كيميائية جديدة فسلكوا طريق الجبل. وسرعان ما تقاطر حوالي مليوني شخص على الحدودين التركية

(12) للاطلاع على هذا التعريف، انظر:
Pamela J. Stewart, *Andrew Strathern, Violence: Theory and Ethnography* (London: Continuum, 2002), p. 108.

(13) Pierre Martin, "Les Chiites d'Irak ou le retour de la question irakienne," *Peuples méditerranéens*, no. 58-59 (1992), p. 92.

(14) Pierre-Jean Luizard, "Bagdad: Une Métropole moderne et tribale, siège de gouvernements assiégés," *Monde arabe Maghreb-Machrek*, no. 143 (1994), pp. 225-242.

والإيرانية. وقد دفع وجود كاميرات التصوير رافقتها الضغوط التي مارسها فرانسوا ميتران والرئيس التركي توركوت أوزال، مجلس الأمن في الأمم المتحدة إلى تحويل شمال العراق إلى منطقة حماية بواسطة القرار 688 الصادر في 5 نيسان/ أبريل 1991. وأدت عودة الأكراد إلى مغادرة الجيش والإدارة العراقية وتوسيع منطقة الحماية إلى مناطق كردية أخرى، في ما عدا كركوك.

لم يعرف الشيعة المصير نفسه. فبعيداً من أعين الكاميرات، سحق الحرس الجمهوري التابع لصدام حسين، تدعمه الطوفات العسكرية، الانتفاضة بشكل دموي وقصف عدداً كبيراً من المزارات، وبالأخص في النجف، قصفاً عنيفاً. تواصل القمع حتى العام 1993 مع عمليات إعدام واسعة لقادة الانتفاضة المفترضين فقدّر عدد الضحايا ما بين مائة ألف وثلاثمائة ألف ضحية[15]. ثم ابتداء بالعام 1994، جرى تجفيف المستنقعات، وهي أماكن سكن القبائل الشيعية العربية. احتفظ شيعي واحد فقط في بغداد، هو مزبان خضر هادي، بموقعه في مراكز قرار البعث في حين أن الآخرين أقيلوا من مناصبهم إبان المؤتمر العاشر المنعقد في أيلول/ سبتمبر 1991[16].

وجاء الحظر الذي ضرب البلاد بين حربي العامين 1991 و2003، على الرغم من تلطيفه مع سياسة "النفط مقابل الغذاء" في العام 1996، ليتسبب بعذابات كبيرة للشعب العراقي، في حين أنه مكّن النظام، وهو

(15) Pierre-Jean Luizard, "La Communauté chiite: Première victime de l'implosion de la société irakienne," *Hérodote,* no. 124 (2007), pp. 118-154, et Sinja Caren Stoyke, "Les Champs de la mort de Saddam Hussein," dans: Chris Kutschera dir., *Le Livre noir de Saddam Hussein* (Paris: Oh ! Editions, 2005), pp. 651-667.

(16) Pierre Martin, "Les Chiites d'Irak ou le retour de la question irakienne," *Peuples méditerranéens*, no. 58-59 (1992), p. 99.

الهدف الرسمي الأساسي لهذا الحظر، من تجميع إمكانيات مالية هائلة، قُدرت بعدة مليارات الدولارات[17]من طريق التهريب، ولاسيّما تهريب البترول.

وإذ أعلن النظام قيام "جهاد البناء"[18] صار قمعه يمارس بشكل موضعي ولكن بشكل أكثر عشوائية على وجه الخصوص. "لقد تغيّر شكل القسوة"[19]. أعدم اثنان وأربعون تاجراً اتهموا بالمضاربة في 26 تموز/ يوليو 1992 لتذكير الأهالي أن النظام قد عاد بحق[20]. أعدم ألف وخمسمائة شخص لأسباب سياسية. في العامين 1994 و1996، أعدم ضباط، قاموا بمشاريع انقلابية فاشلة، حقيقية أو منسوبة إليهم، ومن بينهم العقيد محمد مدهون وأبناء محمد عبد الله الشواني وعدة مئات من المعارضين، أو قتلوا خلال نزول الجيش العراقي في أربيل، عاصمة كردستان في آب/ أغسطس من العام 1996[21]. بيد أن العقيد الشواني تمكن من اللجوء إلى الأردن.

---

(17) للاطلاع على هذه الحادثة، انظر:
Sarah Graham Brown, *Sanctioning Saddam: The Politics of Intervention in Iraq* (London: I. B. Tauris, 1999).

(18) Peter Harling, "Saddam Hussein et la débâcle triomphante. Les Ressources insoupçonnées de Umm al-Ma'arik, " *REMMM*, no. 117-118 (200), pp. 157-178.

(19) Kanan Makiya, "How Saddam held on the power," in: Micah Sifry et Christophe Cerf, *The Iraq War Reader: History, Documents, Opinions* (Now York: Touchstone, 2003), pp. 114-175, and David Baran, *Vivre la tyrannie et lui survivre: L'Irak en transition* (Paris: Mille et Une Nuits, 2004).

(20) متوافر على موقع: amnesty.org

(21) Cockburn et Patrick Cockburn, *L'Enigme Saddam: Enquête explosive au coeur du système irakien*, pp. 149-275, and David Ignatius, "The CIA and the coup that wasn't," *The Washington Post* (16 mai 2003).

هدفت السياسة القمعية الجديدة إلى القول إنها مصنوعة على قياس الفرد ويمكنها أن تطال أي كان. على سبيل المثال، أقرّ المرسوم 115 الصادر عن مجلس قيادة الثورة في 25 آب/ أغسطس 1994، بتر اليد اليمنى للسارق وبتر أذن الفار من الجندية. وفي حين طردت كل السكرتيرات من العمل وصدر مرسوم عفو عن الرجال المتهمين بجرائم الشرف، أعدم "فدائيو صدام" وهم ميليشيا النظام الجديدة، كل النساء المتهمات بممارسة البغاء وعرضت رؤوسهن أمام منازلهن[22]. برّر النظام هذه الممارسات من خلال سياسة إعادة الأسلمة التي حملت اسم "حملة الإيمان" في العام 1999[23].

اندرجت هذه السياسة الجديدة ضمن هندسية أكثر تعقيداً تقضي من ناحية بالسيطرة على كل سكان المدن تقريباً، بفضل توزيع موارد صارت نادرة بسبب الحظر، كما تقضي من ناحية أخرى بتشجيع عودة القبلية. تمت السيطرة على العائلات من خلال توزيع مرقمن للسلع الضرورية ما خلق انطباعاً بوجود رقابة دائمة لم يكن النظام يملك في الواقع أي وسيلة

(22) Patrick Baudoin, "Tortures, génocides, crimes contre l'humanité, crimes de guerre ", p. 47, et Sami Zubaida, "Une société traumatisée, une société civile anéantie, une économie en ruine," dans: Kutschera dir., *Le Livre noir de Saddam Hussei,* pp. 621-623.

(23) كانت السلطة تنوي كذلك إنشاء جامعة صدام حسين للدراسات الإسلامية وأكبر مسجد في العالم الإسلامي ويدعى "مسجد صدام"، انظر:
Ahmed S. Hashim, *Insurgency and counter-Insurgency in Iraq* (Ithaca: Cornell University Press, 2006), pp. 110-114,
انظر كذلك التقرير المؤثر جداً الذي كتبه الكابتين ترافيس باتريكين:
Travis Patriquin, "Using Occam's Razor to connect the dots: the Ba'ath Party and the Insurgency in Tel Afar," *Military Review* (janvier-février 2007), pp. 16-25.
توفي الكاتب في العراق قبل نشر مقالته.

لتأمينها[24]. أما عودة القبلية إلى المجتمع عبر منح امتيازات كبيرة سواء مادية أو رمزية إلى شيوخ القبائل في مقابل سيطرتهم على جماعاتهم، فقد حوّل القبيلة إلى مركب أساسي في المجتمع العراقي. كما أن توزيع الموارد العسكرية على القبائل قد جعل البلاد "حقلاً مفتوحاً أمام العنف"[25]، وأمّن للدولة حلفاء على الرغم من أنهم يهددون وضعيتها بوصفها الأولى بين متساويين.

تركيا فريسة العصابات

شهدت السياسات القمعية تحوّلات أساسية في أماكن أخرى من المنطقة كذلك، ولاسيّما في تركيا، حيث أضعف النظام العسكري، ما بين العامين 1980 و1983، اليسار المتطرف لفترة طويلة، إذ أعدم حوالي خمسين مناضلاً من اليسار في غالبيتهم، وقتل أو عذّب حتى الموت أو أخفى أكثر من 400 منهم. في السنوات ما بين 1980 و1990، وفي حين تسبّبت المواجهات المتقطعة بوقوع عشرات القتلى بين التنظيمات اليسارية المتطرفة التي انكسرت شوكتها وأعادت تركيب نفسها، كما توسعت حرب العصابات التي شنّها حزب العمال الكردستاني، استخدمت الدولة بكثافة متزايدة مناضلي اليمين المتطرف السابقين ونظمتهم ضمن فرق الموت.

في العامين 1995 و1996، تمخضت الحرب بين "العصابات"

(24) Pierre Darle, *Saddam Hussein, Maître des mots: Du langage de la tyrannie à la tyrannie du langage* (Paris: L'Harmattan, 2003).

(25) للاطلاع على هذا المفهوم، انظر:
George Elwert, "Markets of violence," in: George Elwert, Stephan Feuchtwang and Dieter Neubert, dir., *Dynamics of Violence. Processes of Escalation and De-Escalation in Violent Conflicts* (Berlin: Duncker, 1999), p. 86.

العشر التي تشكلت من مزيج من أجهزة المخابرات وأطراف في الاقتصاد السري وأوساط اليمين المتطرف وأزلام السلطة عن عمليات خطف وجلسات تعذيب وعشر عمليات قتل.

في تشرين الثاني/ نوفمبر 1996، توفي ثلاثة أشخاص في حادث سيارة بالقرب من مدينة سوسورلوك هم عبد الله جاتلي، من اليمين المتطرف وقد تورط منذ منتصف السبعينيات في حوالي عشر عمليات قتل كما تورط في محاولة قتل البابا يوحنا بولس الثاني في العام 1981، وعشيقته غونكا أوس وحسين كوجاداك وكان ضابطاً كبيراً في شرطة إسطنبول. وكان الناجي الوحيد هو سادات بوجاق، وهو نائب في واحد من أحزاب الكتلة الحكومية وصديق رئيس الجمهورية. كان جواز سفر جاتلي صادراً مباشرة عن وزارة الداخلية، أما بوجاق، وهو زعيم قبيلة كردية، فهو يموّل جيشاً خاصاً قوامه عشرة آلاف رجل[26].

كان جاتلي وكوجاداك وبوجاق، الذين سيعرفون باسم "عصابة سوسورلوك"، متورطين ليس فقط في قمع المثقفين الأكراد الذين لا علاقة لهم في أغلب الأحيان برجال العصابات، ولكن متورطين أيضاً في الصراع الداخلي في قمة الدولة من أجل تقاسم الريع الأمني الذي تنتجه الحرب في كردستان وريع تجارة المخدرات.

لم يحمل حادث سوسورلوك في حد ذاته طابعاً سياسياً، لكنه كشف "الوجه القاتم" لعلاقات السلطة في تركيا. وأظهر كذلك حدود النموذج الفيبيري للدولة، فالسلطة لم تكن تشكل "جهازاً" أو "طرفاً فاعلاً" بل تندرج ضمن "دول متنافسة ضمن الدولة" تتواجه ضمن

(26) Hamit Bozarslan, *Network-Building: Ethnicity and Violence in Turkey* (Abu Dhabi: ECSSR, 1999).

"نطاق استراتيجي مركّب[27]". فالحرب غير المحتدمة التي تم اتباعها بين العامين 1991 و1992 ضد حزب العمال الكردستاني لم تقتصر فقط على تدمير آلاف القرى وبضع مدن صغيرة في كردستان، بل شملت أيضاً استقلالية لا سابق لها تمتعت بها "الأطراف الأمنية" التي ضمت من بين مناضلي اليمين المتطرف فرق الموت الخاصة، بها كما شملت خصخصة العنف الذي موّلته الدولة ونظّمته. وإذ ارتدت تركيا طابع النظام الأكثر ديمقراطية في تاريخها، لم تعد الدولة جهازاً بل تحولت إلى "استبداد مشظّى"[28]. وكلما فرضت نفسها بوصفها "دولة قوية" قادرة على تعبئة موارد اقتصادية وعسكرية كبيرة، اعتمد بقاؤها على تخليها عن احتكار أدوات العنف وعلى قدرتها على إلحاق أطراف قمعية أخرى تمتلك حقل مناورة واسع.

لم تكن ظاهرة "العصابات" التي ظلت ترتهن مستقبل تركيا، الإثبات الوحيد على هذا التطور. ففي التسعينيات، وبفضل ديناميكيات عابرة للحدود وإعادة أقلمة الاقتصاد مع الوضع الإقليمي (من حرب العصابات التي شنها حزب العمال الكردستاني، والحرب الأهلية في كردستان العراق والحظر ضد العراق والتهريب المشرعن على الحدود السورية اللبنانية)، بتنا نشهد خصخصة كثيفة للعنف في جزء واسع من الشرق الأوسط مع وجود دولة في كل مرة تؤدي الدور الأول بين أطراف العنف المتساوية. وقد سبق لي وشددت على أهمية إعادة التركيبة القبلية إلى العراق في هذا العقد. وفي تركيا أيضاً، تمكن عدد كبير من القبائل، بفضل وضع اليد على الريع الأمني والاقتصادي وعلى موارد القمع،

(27) Bov Jesspo, *State Theory: Putting Capitalist States in their Place* (Pennsylvania: University of Pennsylvania Press, 1990), p. 9.

(28) Charles Tilly, *The Politics of Collective Violence* (Cambridge: Cambridge University Press, 2003), p. 42.

من أن "ينشط مجدداً" وأن يعيد تركيب نفسه بواسطة السلاح وعلاقات السيطرة على النطاق المحلي. على سبيل المثال، جاء تشكيل جيش من "حماة القرى" تعداده مائة ألف رجل تسلموا أسلحة وقبضوا رواتب بلغت حتى ثلاثة أضعاف الحد الأدنى للأجور، فأحيا قبائل دفعت إلى مقدمة مسرح الأحداث وخلق الظروف المؤاتية لأعمال عنف غير مسبوقة. وتقدر المصادر الرسمية التركية أن مئات من "الحماة" قاموا ببيع أسلحتهم إلى مقاتلي حزب العمل الكردستاني كما مارسوا عمليات ثأر وتهريب.

ثرميدور المستحيل في إيران

في سياق مختلف، شهدت إيران تطوراً مشابهاً للذي شهدته تركيا: فإذا كان رجال الدين، بدءاً بمرشد الثورة الإسلامية، آية الله سيد علي الحسيني الخامنئي، يجسدون الدور ذاته الذي قام به الجيش التركي، فإن وجود الاقتراع العام قد سمح بقيام عملية تحوّل ديمقراطي شكلية في المؤسسات. وعلى عكس كل ما هو منتظر، تمتعت الصحافة والجامعات بحرية كبيرة. وكذلك، من عهد الرئيس علي أكبر رفسنجاني (1989-1997) وصولاً إلى عهد الرئيس محمد خاتمي (1997-2005)، ازدادت المشاركة السياسية وأعيد رسم خطوط الانقسام بين اليمين واليسار وبين الليبراليين والمحافظين، كما اكتسبت المحافظات استقلالية أكبر وامتلك الأكراد بعض الحقوق الثقافية. وحاولت فئة الشباب الثائرة بشكل علني أن تصير قوة المقاومة الأساسية إما ببقائها في النظام وإما بالعمل من خارجه[29].

(29) Mahnaz Shirali, *La Jeunesse iranienne: Une génération en crise* (Paris: PUF, 2000).

ولكن، كما في تركيا، قلّصت ثنائية السلطة فرص التحوّل الديمقراطي إلى درجة كبيرة وقدمت استقلالية شبه ناجزة إلى "الدولة الأخرى" وإلى القوى القمعية المرئية (البزدران) أو الخفية (أجهزة الاستخبارات) التي لم تتردد في التحوّل إلى فرق موت. تواصلت الهجمات والاغتيالات، ما أودى بحياة ما لا يقل عن ستة مثقفين في العام 1998 مع إصدار حكم بالسجن على ناصر زرافشان، محامي الدفاع عن المقربين منهم، مدته خمس سنوات. أضف إلى ما سبق أن السياسة القمعية ضد الأقليات اللغوية أو المذهبية، ولاسيّما السنية منها[30]، كان يعاد تنشيطها بحسب رغبة أصحاب القرار.

بسبب هذه الثنائية لم يتمكن أنصار التيار الإصلاحي من إزاحة الخمينية من موقعها كعقيدة الرسمية والتخلص من سيطرة الفقهاء على النظام السياسي، على الرغم من أنه حمل محمد خاتمي إلى السلطة مرتين بأصوات فاقت 70% من أصوات الناخبين ما جعل بعضهم يتوقع الخروج من "الثورة الدينية"[31]. بين السلطة والديمقراطية، اختار الرئيس الإيراني الإصلاحي السلطة بشكل منهجي ولم يدعم الحركات الطالبية المتعددة علماً أنها رغبت في أن تلتحق به. وفي العام 2004، لم يحرّك ساكناً حينما أبطل "الخبراء" ترشيح 2500 شخص من بينهم 80 عضواً في البرلمان، ما حرم الإصلاحيين أي فرصة للانتصار في الانتخابات التشريعية[32]. وكذلك الأمر في العام 2005، خلال الانتخابات الرئاسية

(30) Amnesty International, *Iran: Le Nouveau gouvernement se désintéresse de la question des droits de l'homme* (Paris: Amnesty International, 16 février 2006).

(31) Farhad Khosrokhavar et Olivier Roy, *Iran: Comment sortir d'une revolution religieuse* ([s. l.]: [s. n.], [s. d.]).

(32) "L'UE dénonce les élections truquées en Iran" www.eupolitix.com/

حين سمح لثلاثة مرشحين بالمشاركة وحسب. أوصل هذا الانقلاب "القانوني" أو "الدستوري" الثاني محمود أحمدي نجاد إلى كرسي رئاسة الدولة مستبعداً أي أفق لعملية التحوّل الديمقراطي.

كتب أحد المراقبين يقول: "خلافاً للخميني الذي حمل برنامجه العمل على تقريب الشيعة والسنة، رغب هؤلاء القادة المحافظون، أحمدي نجاد والمقربون منه، في أن تقوّي الثورة النزعة الشيعية وتزيد من حدة هويتها"[33]. تجذرت الرئاسة الجديدة في منطق بيروقراطي بارد كما في نفَس خلاصي مقابل، ودشنت حقبة قمعية ومتطرفة جديدة في تاريخ نظام اتسم بالسلطوية قبل أي شيء آخر.

---

(33) Vali Nasr, *The Shia Revival. How Conflicts Within Islam Will Shape the Future* (New York: Norton, 2006), p. 275.

الفصل الثاني عشر

عنف التضحية بالذات في كردستان وفي فلسطين

(2000-1990)

في خلال الثمانينيات، تحوّلت بعض المساحات إلى مسرح للانتفاضات أو حروب العصابات وشهدت تحوّلاً حقيقياً في السنوات ما بين 1990 و2000 لتنتج أنواعاً من العنف القائم على التضحية بالذات. ينطبق هذا الأمر على النزاع الكردي ولكن أيضاً وعلى وجه الخصوص على فلسطين.

في التسعينيات، تواصل النزاع الكردي بأشكال عدة: في كردستان الإيرانية، قطع رأس العصابات المسلحة باغتيال الدكتور عبد الرحمن قاسملو في العام 1989 في فيينا، وكان زعيم الحزب الديمقراطي الكردستاني جاء ليتفاوض حول حل سلمي مع المبعوثين الإيرانيين، ثم قتل بعده الدكتور صادق شرفقندي في العام 1992 في برلين من قبل عملاء طهران. في كردستان العراق، الذي أصبح مستقلاً إلى حد بعيد عن السلطة المركزية، شهدنا مواجهات متقطعة بين الأكراد العراقيين وحزب العمال الكردستاني بين عامي 1994 و1996 حين حاول الحزب الانتشار هناك على حساب التشكيلين المحليين مستفيداً من النزاع الداخلي بين الاتحاد الوطني الكردستاني والحزب الديمقراطي

الكردستاني. تجد هذه "الحرب الأهلية" التي حصدت حوالي 4000 قتيل سبباً لها في تاريخ الحركة الكردية نفسها منذ نهاية ثورة البرزاني في العام 1975 كما في الصراع الشديد لوضع اليد على الموارد الاقتصادية التي ندرت نتيجة الحظر المزدوج من الأمم المتحدة على العراق ومن العراق على كردستان. وشكلت عودة قوات صدام حسين بشكل مؤقت إلى أربيل في العام 1996، بدعوة من الحزب الديمقراطي الكردستاني المهدد من طرف خصمه، فترة مريرة من "الحرب الأهلية" ولّدت صدمة طويلة المدى عند السكان الأكراد.

بيد أن مركز ثقل الحركة الكردية في التسعينيات، بدا وكأنه ينتقل نحو تركيا مع حرب العصابات التي شنّها حزب العمال الكردستاني وقد فرض نفسه كطرف مرجعي في المجال السياسي الكردي على الرغم من ممارساته الوحشية ومنها عمليات التطهير الداخلية الدموية، وعلى الرغم من سياسة الأرض المحروقة التي طبقها الجيش التركي مع تدمير حوالي ثلاثة آلاف قرية وعدد من المدن وتنفيذ حوالي 2000 عملية إعدام من دون أحكام قضائية[1]. تجدّد التنظيم الذي قبلت به دمشق وحتى إنها ساندته كما ساندته طهران بشكل هامشي، وذلك بفضل التحاق الشباب الكردي الكثيف به. وفي التسعينيات، حصد النزاع أكثر من 000 32 ضحية من بينها أكثر من 000 20 مقاتل كردي. وفي عدد من المدن والقرى حل حزب العمال الكردستاني محل الدولة في جباية الضرائب وفرض العدالة.

بيد أن حزب العمال الكردستاني قد عانى في أواخر العقد، أزمة داخلية حقيقية مع ملاحقة قائده عبد الله أوجلان عبر العالم. وكان قد

(1) Joost Jongerden, *The Settlement Issue in Turkey and the Kurds: An Analysis of Spatial Policies, Modernity and War* (Leiden: Brill, 2007).

طرد من سوريا التي لجأ إليها وتم اعتقاله في كينيا في العام 1999[(2)].

على الرغم من أن قيادة حزب العمال الجماعية التي خلفت أوجلان بعد توقيفه، امتلكت الوسائل الكافية لمواصلة حرب العصابات، التي استعادتها بنجاح بدءاً بالعام 2005، إلا أنها قررت أن تضع حداً للقتال المسلح خشية الردود الانتقامية المكثفة على الأهالي، ولكن أيضاً على أمل التوصل إلى حل تفاوضي. كما أمل بيروقراطيو حزب العمال الذي بلغوا الأربعين أو حتى الخمسين من عمرهم، في رسملة نضالهم السابق من أجل تحسين موقعهم التفاوضي ليخوِّلهم التحوُّل إلى وجوه سياسية بارزة تعترف بها تركيا والمجتمع الدولي. قبل المقاتلون الذين احتفظوا بسلاحهم بقرار وقف القتال المسلح عموماً وكذلك الشعب الكردي بشكل واسع، وهو قرار يذكّر بشكل غريب بالعام 1975 حين وضع مصطفى البرزاني حداً لثورته.

إلا أن الأزمة لا تجد تفسيراً لها في هذا التحوّل وحده. فالثقافة السياسية للتنظيم المستندة إلى تقديس القائد الذي يحمل لقب "الشمس الكردية" ويعتبر الوريث الوحيد للـ"شهداء" الذين يشكل معهم موقع القيادة، تحرم المناضلين من أي معلم يرتكزون عليه سواه. وتبيِّن أحداث العامين 1998 و1999 كم أن هذه الشخصية المحوّلة إلى أسطورة هي شخصية هشّة في "جسدها المزدوج": ففي حين أن جسدها المادي مهدد فإن جسدها المعنوي الذي يجسد الأمة يمرّ بمحنة الأسر. وهكذا فإن عدداً من المناضلين والمناصرين يشعرون بأنهم قد فقدوا ليس فقط ماضياً قومياً، ألغي أو تحوّل إلى سجل الفساد لأنه صار مرادفاً للسيطرة القومية، بل فقدوا أيضاً مستقبلاً جسده هذا الزعيم بشكل حصري. إن

---

(2) للاطلاع على تطور هذا التنظيم في التسعينيات، انظر:
Martin Van Bruinessen, *Kurdish Ethno-Nationalism versus Nation-Building Sates* (Istanbul: ISIS, 2000).

إمكانية اختفاء الجسد المادي للـ"شمس الكردية" أو استسلام جسده المعنوي تحظر على الأعضاء والمناصرين اليتامى أي إمكانية تأجيل في زمن الخلاص وإعادة تقييم تجاربهم بوصفها مجرد معلم في تاريخ لم يكتمل بعد.

وكانت النتيجة الانتقال، في منعطف عام 1999، إلى أشكال من التضحية بالذات معروفة بالطبع في تاريخ حزب العمال الكردستاني[3] ولكن بشكل متقطع. لجأ حوالي اثني عشر مناضلاً إلى الهجمات الانتحارية وحاول أكثر من ستين منهم إحراق أنفسهم وتوفي عشرون منهم. وحدها استعادة زمام الأمور من جانب قيادة حزب العمال الكردستاني وطمأنة المناضلين على بقاء زعيمهم الجسدي والمعنوي سمحت بوضع حد لحلقة التدمير الذاتي هذه[4].

من الاستيطان إلى الانتفاضة

في فلسطين، صدمت الانتفاضة الثانية العقول بعملياتها الانتحارية وأرسى القمع الإسرائيلي الذي توخى تدمير المنازل والحملات العسكرية والاغتيالات الهادفة، "شعائر عنف" جديدة وأعاد تعريف هويات الطرفين بطريقة "غير اعتيادية من حيث حدّتها"[5].

---

(3) في خلال هذه الفترة، انخرط 17 شخصاً في غالبيتهم من النسوة، في أعمال تضحية بالذات، انظر: Olivier Grojean, "Investissement militant et violence contre soi au sein du Parti des travailleurs du Kurdistan," *Cultures et Conflits*, no. 8 (1992), pp. 101-112.

(4) Olivier Grojean, "Les Répertoires du conflit Kurde," dans: Gilles Dorronsoro, *La Turquie conteste: Mobilisations sociales et régime sécuritaire* (Paris: CNRS, 2005), pp. 167-182.

(5) Charles Tilly, *The Politics of Collective Violence* (Cambridge: Cambridge University Press, 2003), p. 84.

لا يمكن أن نفهم هذه "الانتفاضة الفلسطينية الثانية" من دون أن نأخذ في الحسبان فشل آلية أوسلو التي زرعت آمالاً كبيرة في العامين 1993 و1994. كانت السلطة الفلسطينية، التي تشكلت حول ياسر عرفات ورفاقه وفي غالبيتهم من فلسطينيي المهجر، والتي أعطت أحياناً انطباعاً بأنها مجرد ملحق لقوات الأمن الإسرائيلية، الضحية الأولى لغرق اتفاقات أوسلو. وفي حين استمرّت إسرائيل على الأرض في ممارسة سيطرة مباشرة على 60% من الأراضي الفلسطينية وفي إدارة 23% منها "بشكل مشترك" مع السلطة الفلسطينية، ارتفع عدد المستوطنين بين عامي 1993 و2001 من 110 000 إلى 213 000 مستوطن ما هدد كل يوم أكثر فأكثر أي أفق لمنع تشرذم الأراضي الفلسطينية.

حرم الاستيطان، أي الاستيلاء على أراضٍ جديدة متصلة في ما بينها بواسطة شبكة من الطرق، الفلسطينيين من أراضيهم، ولم يكن تقطيع الأراضي المتزايد ليبدو في عيون الأهالي إلا عمل عنف مُمَأسس(6). كما أن دولة إسرائيل تكفلت مباشرة بعمليات الاستيطان فـ"مارست بشكل ملموس سياسة واستراتيجية ترتكزان على إيديولوجية خلاصية تجعل من أرض إسرائيل أرضاً مقدسة وحقاً لا جدال فيه يجد جذوره في موافقة إلهية"(7). وكان هذا بمثابة فرصة لا تعوّض بالنسبة إلى الحركات اليهودية

---

(6) Pénélope Larzillière, "La Nouvelle configuration israélo-palestinienne," dans: Alain Dieckhoff et Rémy Leveau, *Israéliens et Palestiniens: La Guerre en partage* (Paris: Balland, 2003), p. 27 et suivantes.

للاطلاع على الظروف المعيشية الكارثية لدى الفلسطينيين التي لم تذكر في هذا العمل، انظر:

R. Bocco [et al.], "Les Conditions de vie de la population civile dans les Territoires palestiniens occupés: de mal en pis," dans: ibid., pp. 205-223.

(7) Avraham Sela et Elhanan Yakira, "La Religion dans le conflit israélo-palestinien," *Cités*, no. 14 (2003), notamment, p. 17 et 19.

الأصولية التي عارضت في البداية الدولة العبرية ثم، مع مناصرتها للتيوقراطية، تحولت جزئياً بعد أوسلو إلى حركات قومية متطرفة.

لم تغير آلية أوسلو شيئاً في الاستراتيجية الأمنية الإسرائيلية التي ظلّت قمعية في خطوطها العريضة. والأهم أيضاً، كما يشير أوري بن اليعازر، تشكُّل "مجتمع عسكري" بموازاة "مجتمع مدني" في إسرائيل. وفي حين كان الثاني ينتقد الدولة لأنها لم تكن ديمقراطية بما فيه الكفاية، هاجمها الأول لأنها شديدة الديمقراطية وغير أمنية بما فيه الكفاية. وإذا كان "المجتمع" الثاني يتميز بقراءة نقدية للتاريخ الإسرائيلي وبرؤية مستقبلية غير نزاعية، إلا أن الأول يقترح قراءة حربية للماضي ورؤية قتالية للمستقبل بوصفها أفق البقاء الوحيد. وشدّد الثاني، الذي لم يكن يتضمن "مدنيين" وحسب، على ضرورة قيام دولة فلسطينية؛ في حين أن الأول، الذي لم يكن يتضمن عسكريين وحسب، مع أنه مركب حول الجيش، التقى مع أحزاب اليمين من أجل أن يمارس تأثيراً أكبر فيها ويحدد سياسات الهوية المرتكزة أساساً على القومية وعلى الخوف[8].

وتوالت انتصارات "المجتمع العسكري" على "المجتمع المدني" من اغتيال إسحق رابين في 4 تشرين الثاني/ نوفمبر 1995 على يد يهودي متطرّف يدعى إيغال عامير، والتحوّل إلى "السياسة الأمنية الكاملة" لدى خلفه شمعون بيريز رداً على العمليات الانتحارية الفلسطينية، إلى انتخابات العام 1996 التي حملت الليكود بقيادة بنيامين نتنياهو إلى

(8) Uri Ben Elizer, "Tshahl et l'Intifada al-Aqsa: Une armée postmoderne dans une guerre postmoderne, " dans: Dieckhoff et Leveau, *Israéliens et Palestiniens: La Guerre en partage*, pp. 55-58, and Michael Barnett, "The Israeli Identity and the Peace Process: Re/ creating the un/ Thinkable," in: Shibley Telhami and Michael Barnett, dir., *Identity and Foreign Policy in the Middle East* (Ithaca: Cornell University Press, 2002), pp. 58-79.

السلطة. أما النجاح الانتخابي الذي سجله حزب العمال بقيادة إيهود باراك في أيار/ مايو من العام 1999، فقد جاء ولا بد متأخراً ليتمكن من قلب هذه الآلية، ولاسيّما أن الإلحاح الفلسطيني، في خلال مؤتمرات كمب ديفيد الثانية وطابا عام 2000، على حق العودة للاجئي العام 1948، لم يترك للحكومة الإسرائيلية سوى هامش ضيق خاصة وأنها لم تكن تحظى برضى شعبها.

على عتبة العام 2001، كان الرأي العام الإسرائيلي قد أصبح "موحّداً ومضطرباً" يدعم 60% منه مبدأ المفاوضات ولكنه يقترع بشكل مكثّف لمصلحة اليمين تحت وطأة المخاوف الجماعية ويعجز عن الخروج من منطق "كسر عظام الإرهابيين"[9]. تحوّل هذا الرأي العام إلى رهينة لحرب تشويه إعلامية مكثفة[10] وأوصل في شباط/ فبراير 2001 إلى انتصار اليمين بقيادة أرييل شارون.

بدأت الانتفاضة بعد زيارة قام بها شارون برفقة 1500 من رجال الحرس والشرطة إلى ساحة المساجد في 28 أيلول/ سبتمبر 2000. كان رد الفعل فورياً، سواء في القدس أم في الأراضي المحتلة وغزّة. وفي اليوم التالي، سقط سبعة قتلى بنتيجة قمع التظاهرات الفلسطينية في القدس وكان هذا هو الحدث الذي أطلق شرارة انتفاضة جديدة بعد مرور سبع سنوات فقط على انتهاء الانتفاضة الأولى.

كانت السمة البارزة لهذه الانتفاضة الثانية عنف التضحية بالذات،

(9) Alain Dickhoff, "Israël: Le Retour du complexe de Massada," dans: Dieckhoff et Leveau, Ibid., pp. 123-152.

(10) Joss Dray et Denis Sieffert, *La Guerre israélienne de l'information. Désinformation et fausses symétries dans le conflit israélo-palestinien* (Paris: La Découverte, 2002).

علماً أن كل شيء كان يشير في المرحلة الأولى إلى أن الانتفاضة الجديدة ستتبع الخط الذي رسمته الانتفاضة الأولى بتظاهراتها الشعبية. بيد أن حصيلة القتلى كانت كبيرة منذ البداية مع سقوط 136 فلسطينياً في أقل من شهر، ما دفع الفلسطينيين إلى الرد على العنف بالعنف: "إذا كنت سأموت، فليكن وبندقيتي في يدي"[11]. شهدت المرحلة الثانية الاضمحلال السريع لأي أفق أمل واستحالة العمل الشعبي في سياق القمع[12]. ومع غياب سجلات مقاومة أخرى اغتنى المعجم السياسي بفعل جديد هو "الاستشهاد" أي أن "تصبح شهيداً" أو بحسب تعريف عبد العزيز الرنتيسي، الزعيم الثاني لحركة حماس، "أن تختار الشهادة"[13].

إن تحليل هذا النمط من العنف يتسم بتعقيد شديد على الدوام. قبل أن نحاول الخوض فيه، يجدر القول إن العملية الانتحارية هي أولاً سلاح لئيم وعملاني، غالباً، وليس دائماً، "مأخوذ على عاتق" تنظيم. يشرح قائد حماس، الشيخ ياسين، قائلاً إن القنابل البشرية هي أفضل سلاح يمتلكه الفلسطينيون[14]. وفي الطرف الثاني، يتم تمجيد العمل بواسطة "إنتاج متعدد الوسائط" يتوخى كل أشكال التعبير السياسي والفني، من شعر

---

(11) Larzillière, "La Nouvelle configuration israélo-palestinienne," dans: Dieckhoff et Leveau, *Israéliens et Palestiniens: La Guerre en partage*, p. 36.

(12) يشرح الدكتور إياد سراج الذي يدير برنامجاً للصحة العقلية في غزة قائلاً إن الهدف الأساسي بالنسبة إلى الفلسطينيين هو معرفة كيف يتجنبون التحول إلى قنبلة [بشرية]. الشيء المذهل ليس وتيرة الهجمات الانتحارية ولكن بالأحرى ندرتها. ذكره:
Joyce M. Davis, *Martyrs: Innocence, Vengeance and Despair in the Middle East* (New York: Palgrave, 2003), p. 105.

(13) Mark Juergensmeyer, *Terror in the Mind of God: The Global Rise of Religious Violence* (Berkeley: University of California Press, 2001), p. 72.

(14) Davis, Ibid., p. 108.

وأناشيد ورسوم جدارية وتسجيل فيديو لـ"شهداء" قبل القيام بأعمالهم، ويتسم بلغة تنزع الصفة الإنسانية عن اليهود[15].

يجدر التمييز بين الهجمات الانتحارية والعمليات الانتحارية التي يعود تقليدها في المجال الفلسطيني إلى السبعينيات: فالهجوم الذي نظمه الجيش الأحمر الياباني والذي اتخذ أفراده أسماءً عربية وحملت مجموعتهم اسم "الجيش الأحمر العربي" في مطار تل أبيب في 30 أيار/ مايو 1972 يمكن اعتباره بكل المقاييس عملية انتحارية. تلتها عمليات أخرى، ولاسيّما الهجوم على مستوطنة كريات شمونة حين تسلّل كوماندوس فلسطيني من الحدود اللبنانية وقتل 18 مدنياً، من بينهم 9 أطفال، قبل أن يقتل أفراده في مواجهة مع القوات الإسرائيلية في 11 نيسان/ أبريل 1974. وفي 13 حزيران/ يونيو 1974، قتل أربعة فدائيين أنفسهم حتى لا يُلقى القبض عليهم بعد أن قتلوا ثلاث نساء في خلال الهجوم على مستوطنة شامير. في تلك الفترة ولدت عبارة "مجموعة انتحارية"[16].

حدث الانتقال من عنف نهايته الموت إلى الهجوم الانتحاري المبرمج لقتل الذات كشرط لممارسة العنف في الفترة الممتدة بين العام 1993 والعام 1998. اهتزت إسرائيل آنذاك على وقع 37 هجوماً انتحارياً أفضت إلى سقوط 120 قتيلاً. قامت حركة حماس بأربعة وعشرين منها

---

(15) للاطلاع على الوسائل العديدة المكتوبة والمرئية، انظر:
Anne-Marie Oliver and Paul Steinberg, *The Road to Martyrs'Square: A journey into the World of the Suicide Bomber* (Oxford: Oxford University Press, 2005).

(16) Joseph Croitoru, *Der Märtyrer als Waffe, Die Historischen Wurzeln des Selbstmordattentats* (Munich: Carl Hanser, 2003), pp. 73-93.

في حين قام الجهاد الإسلامي بثلاث عشرة عملية، زرعت الرعب في البلاد وأثارت السخط لدى السكان الفلسطينيين كذلك[17].

الشهداء: الالتزام والزمن والجسد

يصعب رسم "الشكل النموذجي" لهؤلاء "الشهداء" الذين يختلفون عن الكائن الراضخ[18] أو الذين يقبلون بملء إرادتهم الرضوخ لقضية جماعية. بيد أننا نملك معطيات عديدة. في العام 2001، يعتبر المهاجم الانتحاري شخصاً حظي بمستوى جيد من التعليم (47% منهم دخلوا الجامعة و29% دخلوا الثانويات)، عازب (بنسبة 83%) يتراوح عمره ما بين الثمانية عشرة والثالثة والعشرين عاماً (64%) غزاوي الأصل (68%)[19].

بعد مرور أربع سنوات، وفي حين تتسع عينة الأموات (من أيلول/ سبتمبر 2000 وحتى آب/ أغسطس 2004، أحصي 112 هجوماً انتحارياً أودى بحياة 479 شخصاً وجرح 3000 شخص)[20]، صارت الصورة أقل

---

(17) بيّنت بينيلوب لارزيليير كيف أن دعم الهجمات الانتحارية الذي بلغ نسبة 32% في العام 1995 هبط إلى 20% في العام 1996 ليترفع مجدداً في حزيران/ يونيو 2001 إلى 78% ويهبط إلى 70% في شباط/ فبراير 2002. بيد أنه ينبغي القول أن غالبية الفلسطينيين قد أعلنوا في الوقت نفسه أنهم ضد العنف.
Pénélope Larzillière, "Le 'Martyr' palestinien: Une nouvelle figure d'un nationalisme en échec," dans: Dieckhoff et Leveau, *Israéliens et Palestiniens: La guerre en partage*, pp. 93-95.

(18) John Keane, *Violence and Democracy* (Cambridge: Cambridge University Press, 2004), p. 141.

(19) انظر: israelinsider.com.

(20) من العام 1993 وحتى العام 2004، ارتكبت حماس 46% من الهجمات وارتكب الجهاد 29% منها وألوية شهداء الأقصى 22% منها (أما العمليات الأخرى فهي من فعل أفراد معزولين أو تنظيمات أخرى).

دقة: فـ"الشهيد" قد أصبح بعمر السابعة عشرة حتى الثالثة والخمسين، مع معدل يبلغ اثنين وعشرين عاماً، دخل 38% من مرتكبي الهجمات الجامعة أو كانوا من حملة الشهادات، فقط 28% منهم لم ينهوا دراستهم الثانوية[21]؛ نجح كثيرون منهم في تحقيق مشروع شخصي، كالحصول على وظيفة ثابتة وأفق دراسة في الخارج والزواج[22]؛ تحدّر 81% منهم من أسرة كبيرة (8 أفراد). يبقى "الفاعل النموذجي" رجلاً عازباً ولكن بوشر بإحصاء النساء أيضاً من صاحبات الموقع الاجتماعي الرفيع، على عكس ما كان يظن في مرحلة ما، على أن من يضحون بأنفسهم يعانون عموماً من وضع اقتصادي متدهور يؤثر تأثيراً مباشراً في بيئتهم وفيهم. وأخيراً عاش ربع أصحاب الهجمات تجربة مأساوية مع قوات الأمن الإسرائيلية أو رأى أحد أقاربه مقتولاً[23].

مما لا شك فيه أن الشهيد الذي يتميز بوصيته التي تذاع بعد موته وبالصور التي تطبع تخليداً لذكراه، في حين أنه يضحي بنفسه ليكون جزءاً من جماعة مجهولة الهوية، هو الصورة الرمزية الأساسية للانتفاضة الثانية. أثار استخدام مصطلح "شهيد" ردود فعل كثيرة بين علماء الدين

(21) وهذا أمر يؤكده كذلك تحقيق آخر. من أصل 250 "مرشح" للقيام بعمليات انتحارية قابلتهم في غزة نصرة حسن، مسؤولة في إحدى المنظمات غير الحكومية، "لا أحد بينهم كان من دون تعليم أو في حالة فقر مدقع أو معاقاً عقلياً أو مكتئباً"
Riaz Hassan, "Suicide attacks: Life as a weapon," *ISIM Newsletter*, no. 14 (2004), p. 9.

(22) تشرح بينيلوب لارزيلير هذا الأمر بوصفه الوسيلة الوحيدة للتغلب على التوتر القائم بين المسؤولية السياسية والشعور بالنجاح الشخصي: "أصبحت الشهادة الطريقة الوحيدة لتحقيق اندماج ولتدمير مأزق تحقيق الذات مقابل ما هو معاش على أنه خيانة"،
Larzillière, "Le 'Martyr' palestinien: Une nouvelle figure d'un nationalisme en échec," dans: Dieckhoff et Leveau, *Israéliens et Palestiniens: La guerre en partage*, pp. 103-197.

(23) Voir ecaar.org

الذي يعتبرون أن الهجوم الانتحاري هو انتحار أولاً، وبهذا المعنى فإن الشهيد مدانٌ من قبل كل علماء الدين في العالم الإسلامي تقريباً[24]، باستثناء الشيخ محمد سيد طنطاوي رئيس جامعة الأزهر[25] وبضعة علماء آخرين[26].

أما في ما يتعلق بالرأي العام الإسرائيلي والغربي، فقد فسر هذا المصطلح على أنه إشارة تعاطف أو على الأقل تفهّم إزاء "الإرهابيين". وفي ما وراء هذا السخط، لا يسعنا هنا أن نندد بالأمر، بل علينا أن نعترف أن عنف التضحية بالذات، مهما كان شكله، يوازي تأثيلياً في الواقع مصطلح شهيد، كـ"نتيجة متطرفة ومنطقية ونفسية للـ"شهادة[27]" على قضية مقدسة.

تحقق هذه "الشهادة" القاتلة من خلال الموت اتحاداً مستحيلاً في الحياة. تربط ضحايا المذبحة بعذابات مرتكبها والعكس حين تفسح له

(24) Joyce M. Davis, *Martyrs: Innocence, Vengeance and Despair in the Middle East* (New York: Palgrave, 2003), pp. 112-115, and Sohail H. Hashimi, dir., *Islamic Political Ethics: Civil Society, Pluralism and Conflict* (Princeton: Princeton University Press, 2002).

(25) "Suicide operations are legitimate defence," in: Barry Rubin and Judith Colp Rubin, *Anti-American Terrorism and the Middle East: Understanding the Violence* (Oxford: Oxford University Press, 2002), p. 20.

(26) انظر، على سبيل المثال، يوسف القرضاوي، أحد أهم الفقهاء الأحياء في الاسلام الذي أعلن أن من يعارضون العمليات الاستشهادية ويظنون أنها انتحارية يقترفون خطأ جسيماً، ذكره:
Andrew G. Bostom, *The Legacy of Jihad: Islamic Holy War and the Fate of Non-Muslims* (New York: Prometheus Books, 2005), p. 249.

(27) Hent De Vries, Religion and Violence. Philosophical Perspectives from Kant to Derrida (Baltimore: Johns Hopkins University Press, 2002), p. 167.

مكاناً بينهم[28]. وإذ يجعل الاستشهاد أي مفهوم للعقاب أو الانتقام عارياً من المعنى[29]، يطرح مرتكبَ العنف بوصفه المضحّى به ويلغي المسافة أو الزيف بين الشعيرة والاستبدال والفعل بحد ذاته. يحمِّل التضحية، على الرغم من أنها متصلة بالموت وقاتلة للسياسي، معنى سياسياً[30] يعجز أي نمط عمل عنيف آخر عن حمله.

ذكّر عدد من المراقبين بعدم وجود "تفرّد" فلسطيني في مجال عنف التضحية بالنفس. فالانتحار سلاح معروف جيداً في الأدب السياسي وقد نظّر له عسكر فرنسيون قبل الحرب العالمية الأولى ومارسته مجموعات متنوعة بعد مرور عقود، من جماعات السيخ في خالستان إلى نمور التاميل، فكان أن ضحى 315 شخصاً بنفسه بين عامي 1993 و2000 على الأقل[31].

على الرغم من الاختلافات التاريخية والسياسية والثقافية، فإن أوجه الشبه مدهشة بين مرتكبي الهجمات الانتحارية في فلسطين وفي أماكن أخرى[32]. كبعض الكاميكازي الذي يذكرنا جوزيف كرواتورو أن جزءاً منهم على الأقل كانوا من المتطوعين[33]، أو المقاتلين الوطنيين في

(28) Gerhard Scheit, *Suicide Attack, Zur Kritik der politischen Gewalt* (Freiburg: Catra, 2004), pp. 254-256.

(29) René Girard, *La violence et le sacré* (Paris: Hachette, 1990), p. 26.

(30) Bernard Lempert, *Critique de la pensée sacrificielle* (Paris: Seuil, 2000).

(31) انظر العدد الخاص المهم لمجلة: *Cultures et Conflits*, no. 63، المعنون: "Mort volontaire combattante: Sacrifices et Stratégies," dirigé par Louis-Jean Duclos et Daniel Hermant.

(32) Arturo Marzano, "Kamikaze," dans: Michelle Marzano, dir., *Dictionnaire du corps* (Paris: PUF, 2007), pp. 519-523.

(33) في ما خص هذه الحالات وكذلك حالات Selbstofer Plan، انظر: =

كشمير وهي أرض أخرى تختلط فيها الوطنية مع الجهاد. تم ارتكاب لا أقل من 292 هجوماً انتحارياً في العام 2002 في هذه الأرض المقسومة بين باكستان والهند. وبحسب مريم أبو الذهب، التي درست حوالي مائة وصية، كانت غالبية مرتكبي هذه الهجمات الانتحارية من الكشميريين المتزوجين والذين أنجبوا أطفالاً ومارسوا وظيفة وحظيوا بالتالي براتب ثابت. وكما في فلسطين، يرتبط الاستشهاد بزواج روحي مع "القضية" إلى درجة أن كل مرحلة من العمل (التدريب، الانطلاق إلى كشمير، الاستشهاد والجنازة) يترجم باستعارة خاصة بشعائر الزواج (الخطوبة، النكاح، إتمام الزواج، الاستقبال الاحتفالي). شرف المرأة - الأمة والعاطفة للمرأة - الأم التي يعِدُها مرتكب العملية بأن يشفع لها في الحياة الأخرى تشكل مواضيع تتكرر في الوصية التي يتركها الشهيد[34].

على الرغم من أن القضاء على الذات كشرط لممارسة العنف على الآخرين يرتدي طابعاً كونياً، إلا أنه لا يكون ممكناً إلا بشرط أن يبرره "قانون محلي" يعطيه معنى ويدرجه في سياق يجعله قابلاً بأن يفكر فيه. وكما يشير أحمد بيضون إلى "أن اعتناق الإيمان الإسلامي، كشمولية عملية، هو في الحقيقية وبشكل واضح جداً، ترتيباً ثنائياً للعالم حول جسد المؤمن نفسه، يحمل في طياته إمكانية اليقظة التي لا غنى عنها من أجل الحفاظ على حالة النقاوة وإمكانية التخليات المختلفة التي قد تحمل معها الدناسة. فالجسد الإنساني هو المكان المركزي والأداة

= Croitoru, *Der Märtyrer als Waffe, Die Historischen Wurzeln des Selbstmordattentats*.

(34) Myriam Abou-Zahab, ""Je vous attends à la porte du Paradis": Les martyrs du Lackhar-I Tayyiba au Cachemire," dans: Aminah Mohammed-Aref et Jean Schmitz, *Figures de l'islam après le 11 Septembre. Disciples et martyrs, réfugiés et migrants* (Paris: Karthala, 2006), pp. 91-122.

الإلزامية لهذا الاعتناق"[35]. وحتى عندما لا يتماهى الشهيد مع أي شكل من أشكال المعتقدات الدينية، كما هي حال بعض أفراد "لواء شهداء الأقصى"[36]، فهو من "ألغى نفسه كفرد إلى حد أنه اعتبر مروره على الأرض غير ذي فائدة"[37] وقدم جسده كشهادة اعتناقه قضية ما.

عوامل عدة تؤدي دوراً في الانتقال من عنف يمكن وصفه بالإيجابي، كما مارسه فدائيو الأعوام 1960 و1970 وشبان الانتفاضة الأولى، إلى شكل يمكن تعريفه بالسلبي. تجشم الفدائيون المخاطر وواجهوا الموت ولكنهم مارسوا إسقاطاً في الأمل بالنصر وبالتغيير السياسي والاجتماعي. كذلك الانتفاضة في أواخر الثمانينيات كان يرعاها الأمل بمستقبل إيجابي يحمل معه دولة فلسطينية. وظفت الانتفاضة نفسها في الحاضر كشرط للخروج من الماضي وبناء المستقبل. استتبعت مشاركة شعبية واسعة، ولاسيّما بين الشبان والنساء، الذين نجحوا في فرض أنفسهم كأطراف سياسية واجتماعية وفي هزّ التراتبيات القائمة[38].

(35) Ahmad Beydoun, "Image du corps, esprit de corps et démocratie (sur deux formations résistantes au travail d'abstraction politique," *Cahiers du CERMOC*, no. 8 (1994), p. 150.

(36) Victor A. Faessel, "The tyranny of the horizon: Giant myths and the tenacity of the apocalyptic imagination," *CISMOR*, no. 2 (2006), pp. 17-36.

(37) Bruno Etienne, "Essai sur une thanatocratie islamique: Le cas des combattants suicidaires arabo-musulmans," *Cultures et Conflits*, no. 8 (1992), p. 52.

(38) كما سمحت أيضاً بإحداث تغيير في مفهوم الشرف نفسه. لم يعد "شرف" الرجل يمر عبر سيطرته على المرأة بل عبر قبوله التزام المرأة في القتال من أجل شرف الأمة. انظر بهذا الصدد:
Stéphanie Latte-Abdellah, "Transmission et honneur dans les camps de réfugiés palestiniens de Jordanie: La mémoire des pères," dans: Nadine Picaudou, *Territoires palestiniens de mémoire* (Paris: Karthala, 2006), pp. 275-292.

وأخيراً، حين استخدمت الانتفاضة الحجارة أساساً من دون البحث عن وضع نفسها موضع الضحية، كانت تستخدم عنفاً احتجاجياً أساساً.

سواء أكان استشهاديو الانتفاضة الثانية إسلامويين أم غير إسلامويين، فقد أرسوا عنفاً مرتكزاً على تدمير مبرمج للذات كشرط ممارسته على الآخرين. في سياق هذه الصورة، لم نعد أمام فاعلين "هم في الواقع أطراف يفعلون ويعرفون ويتمتعون بحس عملي [...] وببنى إدراكية ذات ديمومة، إلى هذا الحد أو ذاك (مع كونهم أساساً نتاج استيعاب البنى الإيجابية) وبخطط عمل توجه إدراك الوضع والرد المتبع"[39] بل أمام "فاعلين سلبيين" لا يخرجون كـ"فاعلين" إلا مقابل دمارهم.

واحد من العوامل التي تفسر هذا الانتقال هو العلاقة بالزمن. ليس الزمن "التمثل الرمزي لشبكة واسعة من العلاقات التي تجمع مختلف مقطوعات ذات طابع فردي أو اجتماعي أو حتى مادي صرف" وحسب وليس الإطار المنظم للقيود وحسب[40]. إنه كذلك السياق الذي تنشأ فيه صور وتفسيرات حول الآخرين. فما من زمن سوى "زمن الهوية"[41]. وهو يُفَسَّر لا محال انطلاقاً من "الحاضر"، من "النواة الصلبة" لإدراك الذات كفرد وكجماعة. بيد أن الحاضر يتعايش مع "وعي موسع [حيث] يتم الشعور بالماضي والمستقبل المستَشَف بالتلازم مع المكان الراهن والزمن الحاضر، ضمن رؤيا بانورامية يبلغ جزء منها حجم رواية

(39) Pierre Bourdieu, *Raison pratique: Sur la théorie de l'action* (Paris: Seuil, 1994), p. 45.

(40) Norbert Elias, *Du temps* (Paris: Pocket, 1999), p. 20, 34.

(41) Cornelius Castoriadis, *L'Institution imaginaire de la société* (Paris: Seuil, 1975), p. 287 et 299.

ملحمية"[42]. في المرتبة الأولى، يردنا إلغاء الحاضر الناجم عن الوعي الحاد للطرق المسدودة على الأرض أو عن الإفراط في البحث عن الهوية، إلى تدمير الماضي والمستقبل المستشف واللذين لا يمكن النظر إليهما من دون القبول المسبق والمستشف للمصاعب والغيريات. كما ينجم هذا الإلغاء عن نقص المعالم الإيجابية من الفخر أو الثقة بالماضي وغياب مقلق كذلك لأي وعد بالتغيير في مستقبل منظور. إن استحالة القبول بالماضي، المعتبر زمن الخيانة والفساد ومكانهما، وانسداد أفق المستقبل الذي لا يمكن أن يكون نسخة عن الماضي ينجحان في "إزالة" الزمن الأرضي ليحل محله انتظار "الأبدية الناجزة"[43].

عنف التضحية بالنفس هو في النهاية نتاج نشوء عالم المعنى الشامل والمقدس وإدراك الجسد كموقع "نزاعات رمزية"[44]. أصبح الجسد، المحمّل بالمعنى تاريخياً وثقافياً[45]، مسرح توترات لم يعد قادراً على حملها. كما يُنظر إليه بوصفه المُلكية الأخيرة التي يتم إنقاذها من فساد العالم، إذ أنه لا يزال جديراً بأن يضحى به من أجل الشهادة بقدسية القضية الوحيدة التي يمكن أنْ تقيم العدالة. يتسلم الجسد الفردي الزمام حيث الجسد الوطني القائم يغيب أو يفقد قدرته على تحمل مسؤولياته.

(42) Antonio R. Damasio, *Le Sentiment même de soi: Corps, émotions, conscience* (Paris: Odile Jacob, 2002), pp. 30-31.

(43) Günther Horst, *Le Temps de l'histoire: Expérience du monde et catégories temporelles en philosophie de l'histoire de saint Augustin à Pétrarque, de Dante à Rousseau* (Paris: MSH, 1995), p. 27 et 24.

(44) Philippe Braud, *L'Emotion en politique* (Paris: Sciences Po, 1996), p. 130.

(45) Le dossier spécial, "Le Corps et le sacré en Orient musulman," *REMMM*, no. 113-114 (2006) (dirigé par Catherine Mayeur-Jaouant et Bernard Heyberger).

وجد المجتمع الفلسطيني نفسه إزاء الهجمات الانتحارية في وضعية ارتباك مماثلة لتلك التي عاينها المجتمع الإسرائيلي. فالطبقات الوسطى الفلسطينية، التي ازدادت تبعيتها تجاه المساعدات الخارجية وأجندة المنظمات الدولية والتي عجزت عن أن تحتل دور طرف سياسي واقتصادي واجتماعي مستقل، دانت الهجمات لكنها لم تنجح في القضاء عليها، لشدة ما أن الديناميكيات القائمة، من انشقاقات ضمن التنظيمات الفلسطينية وصولاً إلى غضب الشباب المغذّى بالقمع، سارت باتجاه شلل آليات الرقابة الاجتماعية الكلاسيكية. يبين روجر هيكوك كيف أن دعم هذا النمط من العنف قد زاد في المجتمع الفلسطيني: 20% فقط في بداية الحكم الذاتي (1993 و1994) ثم 52% قبل مفاوضات كمب ديفيد المجهَضة (2000) وأخيراً 86% في العام 2001. وعلى العكس، فإن شعبية ياسر عرفات التي لا تنزل أبداً إلى ما دون 60%، قد هبطت على امتداد آلية أوسلو لتبلغ 21% بعد العام 2001[46].

أما منظمة التحرير الفلسطينية، وهي تنظيم مقاوم صار في السلطة لكنه لا يملك لا أرضاً ولا دولة، هو كذلك الطرف الفلسطيني الأكثر هشاشة إزاء هذا التطور. فإذا كان عرفات لا يزال مقبولاً، على الرغم من كل شيء، كحَكَم شرعي في المجال السياسي الفلسطيني، وليس كقائد بدون منازع، فإن الأمر نفسه لا ينطبق على بيروقراطيته المعتبرة فاسدة وعاجزة عن مقاومة الإسرائيليين، هذا إن لم تُتهم بأنها شريكة معهم. في التسعينيات، حملت أوامر إسرائيل ومعها المجتمع الدولي

(46) Roger Heacock, "Saisir l'initiative, retrouver sa voix: L'Intifada d'al-Aqsa ou la révolte des marginalisés," *Etudes Rurales*, no. 173-174 (2005), pp. 55-57.

القاضية بقمع النشاط الإسلاموي وحركة حماس بعض الثمار لكنها أضعفت أكثر فأكثر السلطة الفلسطينية وخلقت ضمن الرأي العام شعوراً بالضيق. على سبيل المثال، أساء قمع مناضلي حركة حماس وسقوط تسعة شهداء منهم في العام 1994، إلى سمعة السلطة بشكل دائم ووسّع هوة الشقاق في المجتمع الفلسطيني.

كما دلت الانتفاضة الثانية أن مناضلي فتح الذين قطعوا مع قادتهم دخلوا هم أيضاً في حالة انشقاق. عملت السلطة الفلسطينية على ممارسة القمع ضمن المجتمع الفلسطيني بقدر ما عملت على ممارسة العنف ضد القوات الإسرائيلية، ولم يعد أمامها خيار آخر سوى العودة إلى منطق المقاومة الوطنية والسماح بتشكيل كتائب شهداء الأقصى حول مراون البرغوثي، الوجه الأكثر بروزاً بينهم، ونايف أبو شرف وسرحان سرحان وزكريا زبيدي. وسرعان ما اكتسبت الكتائب استقلالية ذاتية وأعلنت مسؤوليتها عن 22% من الهجمات الانتحارية.

كانت حركة الجهاد الإسلامي الطرف الفاعل الآخر في هذه الانتفاضة مع تفضيل عنف التضحية بالنفس سبيلاً وقيامها بـ 29% من الهجمات الانتحارية. وفي سياق "الجهاد حتى يوم القيامة"[47] جاء مناضلوها من فئات شعبية متواضعة في غزّة أساساً ولكنهم لم يمتلكوا بالضرورة قواعد اجتماعية في تلك الأرض التي تسيطر عليها حماس. أضعف شعار "الانتفاضة جهاد" التنظيم مع قيامه بهجمات ملفتة متوالية وتعرّضه أكثر فأكثر للهجمات الإسرائيلية[48].

(47) Joyce M. Davis, *Martyrs: Innocence, Vengeance and Despair in the Middle East* (New York: Palgrave, 2003), p. 140.

(48) Mehran Kamrava, *The Modern Middle East: A Political History since the First World War* (Berkeley: University of California Press, 2005), p. 231.

بيد أن الجهاد الإسلامي بقي قابعاً في ظل حماس، هذا التنظيم الذي لا يمكن حصره بدوره كمهندس لغالبية الهجمات الانتحارية. ترجع جذوره البعيدة إلى نشوء حركة الإخوان المسلمين في الثلاثينيات في فلسطين. وبين العامين 1948 و1967، نشط حوالي 25 فرعاً من فروع الإخوان في المنطقة التي تسيطر عليها مصر والأردن. عملت جميعها في المجال الاجتماعي حصراً ما أسبغ عليها صورة الطرف الذي يكره النشاط السياسي فجرى تهميشها نوعاً ما. شهد الإخوان حركات انشقاقية عديدة، في خلال نشوئهم أولاً ثم في العام 1983 مع الجهاد الإسلامي، وبعدها في العام 1987 عندما أسس الشيخ أحمد ياسين حركة حماس كحركة مقاومة إسلامية. رسخ الميثاق السياسي للتنظيم الجديد في العام 1988[49] الحركة في موقف رافض لدولة إسرائيل من ناحية وفي تأريخية طويلة من ناحية أخرى بواسطة مرجعية عزالدين القسّام، المناضل في حركة الإخوان والذي قتل إبان الثورة الكبرى في الثلاثينيات. يحدد الميثاق حركة حماس بكونها حركة نضالية شعبية تسعى إلى تحرير كامل تراب فلسطين من البحر المتوسط حتى نهر الأردن ويشدّد على أن بناء مجتمع إسلامي أمر ضروري من أجل خوض المعركة الوطنية[50].

أنشأت الحركة كتائب القسّام في العام 1992، أي قبل عام على توقيع اتفاقات أوسلو التي رفضتها. شكّل الهجوم بالقنابل ضد باص في العام 1993 العمل الأول الذي قامت به هذه الكتائب ثم طورت مع العام 1996 استرتيجية هجمات انتحارية برّرها الشيخ ياسين بقوله إن الله هو

---

(49) Rubin and Rubin, *Anti-American Terrorism and the Middle East: Understanding the Violence*, pp. 54-60.

(50) للاطلاع على التنظيم ومقتطفات ميثاق العام 1988 المذكورة هنا، انظر:
Aude Signles, *Le Hamas au pouvoir et après*? (Toulouse: Milan, 2006).

من يختار الشهداء[51]. كان الشيخ ياسين، المصاب بالشلل منذ طفولته، موضع إجلال كبير ضمن الحركة، و"في غالبية وسائل الإعلام المخلصة له، يظهر الشيخ ابتداءً من الخصر على شكل وجه من دون جسد، على عكس الذين يعملون باسمه، أي المجاهدين، مقاتلو الإسلام المقدسين الذين يظهرون في كثير من الأحيان على شكل أجساد من دون وجوه"[52].

يؤشر هذا الإجلال الكبير الذي يكنّه المناضلون للشيخ ياسين إلى تغيير جماعي في تمثّلات الجسد السياسي عند الفلسطينيين. من جسد عرفات الشاب والذكوري في الستينيات والسبعينيات والذي يمثل صورة عن المستقبل، ننتقل في التسعينيات إلى جسد ياسين شبه الجامد الذي يجسد العذابات والمقاومة والمثابرة لدى الأمة. وفي حين أن جسد عرفات الهرم يشهد في التسعينيات على فشل أول كفاح فلسطيني، بما فيه الانتفاضة وآلية أوسلو، فإن جسد الشيخ ياسين الجامد، رمز الكفاح الثاني، صار موقعاً مقدساً حياً. صار الشيخ الضحية، والفاعل بالرغم من كل شيء لأنه مقاوم، نداءً للشباب الذين يُقسمون على حمايته وتكريمه ولو مقابل حياتهم. وفي موازاة جسد عرفات الذي تسخر منه ألف نكتة ونكتة ألّفها المقربون منه، نرى جسداً بريئاً لعجوز آخر يتّحد اتحاداً عضوياً مع الأمة.

قاد الحركة عبد العزيز الرنتيسي بعد اغتيال ياسين في 22 آذار/ مارس 2004، وسيقتل الرنتيسي بعده في 17 نيسان/ أبريل 2004 ليتسلّم القيادة خالد مشعل الساكن في دمشق لأسباب أمنية. تمتعت الحركة

(51) Riaz Hassan, "Suicide attacks. Life as a Weapon," *ISIM Newsletter*, no. 14 (2004), p. 9.

(52) Anne-Marie Oliver and Paul Steinberg, *The Road to Martys 'Square. A Journey into the World of the Suicide Bomber* (Oxford: Oxford University Press, 2005), p. 34.

بقاعدة اجتماعية ونقابية حقيقية تأسّست على تكتّل طبقات وأجيال وأجناس وضمّت محرومين بقدر ما ضمّت تجاراً، كما ضمّت شباناً بقدر ما ضمّت نساءً. ومن منطق انتحاري لا أفق له[53]، انتقلت في العام 2005 إلى مخطط برلماني وضعها ضمن تناقض صعب وهو العمل بحسب خط أوسلو، الذي يلفظ في الواقع أنفاسه الأخيرة ولكن يطلب منه تأمين إرث له، وممارسة القمع كسلطة دولة والعنف كمنظمة مقاومة.

بلغت الانتفاضة الثانية كذلك مرحلة العنف بين الفلسطينيين بسبب قمع المنشقين و"الخونة" الحقيقيين أو المزعومين وقد منع الاحتفال بذكراهم[54]. لم تكن الظاهرة جديدة. فقد لاحظت أود سينيول في نابلس ابتداءً من العام 1987، أن "عنف جماعات المناضلين [قد ظهر فيها] أكثر من أي مكان آخر، ضد المجتمع المحلي. وفي بعض الأحياء، عملت عصابات مسلحة بحثاً عن متعاونين مزعومين وأفراد "منحرفين". وقد اشتهرت عصابة أحمد طابوق بين التجار على سبيل المثال، وبين الأعيان في نابلس، إذ زرعت الرعب في المدينة القديمة. وظلت تفرض على الأهالي نظامها الأخلاقي بالبندقية إلى أن استقرت الشرطة الفلسطينية في المدينة في كانون الأول/ ديسمبر 1995. كما تشهد وقائع أخرى على استمرارية العنف بين الطبقات في نابلس"[55].

(53) Nadine Picaudou, "L'Ordre politique palestinien au miroir du soulèvement," dans: Dieckhoff et Leveau, *Israéliens et Palestiniens: La Guerre en partage*, pp. 181-203.

(54) للاطلاع على بعض الأمثلة، انظر: Laleh Dhalili, "Lieux de mémoire et de deuil: La Commémoration palestinienne dans les camps de réfugiés au Liban," dans: Picaudou, *Territoires palestiniens de mémoire*, pp. 191-218.

(55) Aude Signole, "Le Pouvoir local, une affaire de familles," dans: Nadine Picaudou et Isabelle Rivoal, dir., *Retours en Palestine:Trajectoires, rôle et expériences des returnees dans la société palestinienne après Oslo* (Paris: Karthala, 2006), pp. 125-126.

كما هو متوقع، طال العنف الداخلي أساساً الفئات الأكثر ضعفاً في المجتمع الفلسطيني[56]. اتصل العنف بين الفلسطينين بنزاعات على مستويات مختلفة، بين العشائر ولكن أيضاً بين القرى، كما اتصل بأهداف فلسطينية داخلية أو غير فلسطينية من أجل إعادة رسمها سياسياً وزيادة حدتها، فاتسع بشكل لا مثيل له في العامين 2006 و2007 حاصداً معه أكثر من مائة قتيل ومؤدياً إلى وضع يد حماس على قطاع غزة[57]. وإذا كان هذا الحدث بالنسبة إلى إسرائيل، ومعها عدد من السياسيين في أوروبا والولايات المتحدة، مؤشراً على عدم النضج لدى الفلسطينيين، فإن الباحث يعتبر أنه قد كشف أساساً استحالة العمل السياسي في ظل قيود شديدة وفي غياب دولة ونظام اجتماعي فعالين، وهما أمران يعتبران ناجمين عن التدمير المنهجي للبنى التحتية الفلسطينية في خلال العقد الأول من الألفية الثانية[58].

لا حاجة بنا هنا إلى التذكير بنتائج الانتفاضة الثانية التي باتت معروفة بما فيه الكفاية: أكثر من 900 4 قتيل، من بينهم 1057 إسرائيلياً، عشرات الإعدامات خارج النظام القضائي ("اغتيالات هادفة") أوقعت العديد من الضحايا المدنيين، تدمير المنازل، إقامة 500 حاجز تفتيش، بناء جدار[59]، وهي نتائج بمجملها "تستملك المكان" الفلسطيني وتخلق

(56) Heacock, "Saisir l'initiative, retrouver sa voix: L'Intifada d'al-Aqsa ou la révolte des marginalisés," *Etudes Rurales*, p. 61.

(57) Dominique Thomas, *Crises politiques en Palestine 1997-2007* (Paris: Michalon, 2007).

(58) من العام 2000 وحتى العام 2003، جرى تدمير 6001 منزل وألحق الضرر بـ000 14 منزل آخر. قدرت كلفة الخسائر الناجمة عن تدمير البنى التحتية بـ650 مليون دولار. انظر: ecaar.org

(59) للاطلاع على هذه المواضيع راجع مقال هيكوك الملفت والمذكور سابقاً وبالأخص في الصفحات 55 إلى 57.

شعوراً بالانكشاف أمام الرؤية[60]. يضاف إلى هذه الوقائع الفجّة نشر خطاب بطريقة خفية ينكر إنسانية الفلسطينيين بالكامل والعرب معهم ويشدد على ضرورة مواصلة "حرب الاستقلال" ضدهم من أجل التوصل إلى إقامة أرض إسرائيل[61].

(60) Vincent Romani, "Quelques réflexions à propos des processus coercitifs dans les terrtoires occupés," *Etudes rurales*, no. 173-174 (2005), pp. 259-260.

(61) ذكرت لاتيسيا بوكاي ما قاله آرييل شارون في:
Laetitia Bucaille, "Israël face aux attentats suicides: Le Nouvel ethos de la violence," *Cultures et Conflits*, no. 63 (2006), pp. 83-100, et Ilan Pappe, "The visible and invisible in the Israeli Palestinian conflict," *CISMOR International Workshop, War and Violence in Religion* (Kyoto: Doshisha University, 2004), pp. 91-99.

الفصل الثالث عشر

انحدار الإسلام السياسي أو نشوء هوامش الانشقاق؟

اتسم منعطف عقد الثمانينيات بانحدار اليسار الوطني والأممي، واتسم منعطف عقد التسعينيات بالانتقال إلى الجهاد الداخلي في مصر والجزائر، أما العقد الأول من الألفية الثالثة فقد اتسم بهزيمتيهما.

شاءت صدف الرزنامة أن تتطابق بداية كل عقد مع نهاية حلقة تطرّف خاصة به. ومن يقول حلقة، يقول كذلك حلقة معنى "[أعطاه] المعنيون أنفسهم لأفعالهم وحركاتهم [...] بالإضافة إلى الدوافع التي [تحفزهم] على العمل"[1]، وهي أيضاً حلقة ذاتياتهم وأنماط عملهم. مما لاشك فيه أن كل حلقة تختم تجربة نضالية عنيفة أحياناً. وإذا ما نظرنا إلى هذه الحلقات من حيث تواصلها التاريخي، نراها تنتج كذلك آثاراً تراكمية. فحين "استهلكت" أجيالاً سياسية متوالية، ومعها آمال الأجيال، نجحت في إحداث شعور مفاده أنه "كلما تغيرت الأمور بقيت على حالها". حالات الفشل الحقيقية أو المعتبرة كذلك مسؤولة جزئياً عن التعب الإجتماعي وعن انفكاك التعبئة العام الذي نلاحظه في العقد الأول من الألفية الثالثة في كافة أنحاء الشرق الأوسط تقريباً.

(1) Andreas Suter, "Histoire sociale et événements historiques: Pour une nouvelle approche," *Annales HSS* (1977), p. 549.

الخروج من العنف وأشكال إسلاموية جديدة

هل تؤذن نهاية التعبئة في التسعينيات بنهاية الإسلام السياسي كحركة شاملة؟ أمر غير مؤكد البتة. صحيح أننا لا نمتلك، ولأسباب وجيهة، استقصاءات للرأي حتى نقيّم شعبية هذا التيار، لكن يمكننا أن نؤكد أنه شكّل في منعطف الألفية الثالثة، في الجزائر كما في مصر وحتى في المغرب، تياراً سياسياً الأفضل تنظيماً والأكثر شعبية على الأرجح[2]. ولا شيء يشير أنه لم يكن في مكان آخر، كما في سوريا أو في تونس، "البديل الوحيد" القادر على فرض نفسه نظراً إلى غياب بدائل أخرى، في حال عاينت الأنظمة أزمة خطيرة.

وإذا كنا لا نستطيع الحديث عن "نهاية الإسلاموية" كمعنى وكتطلع، إلا أن الحركة الإسلامية وضعت مسافة بينها وبين العنف. تعلم عدد من المناضلين من تجربتهم الخاصة، فقد أكد المجاهد المصري السابق، كمال السعيد حبيب، أنهم كانوا ساذجين ووقحين وغير ناضجين، تحركهم روح الشباب. وأضاف قائلاً إنهم كانوا يحملون أحلاماً كبيرة وموارد قليلة وكان هناك هاوية سحيقة بين الوسائل المتاحة أمامهم وبين طموحاتهم. وشيئاً فشيئاً، فقدوا القدرة على الموازنة بين أهدافهم ووسائلهم ووقعوا في فخ التصعيد المسلح مع السلطة. ولكن، ولله الحمد، كما يقول، لم ينتصروا لأنهم كانوا سيبنون دولة كما تلك الدول المستبدة الموجودة في العالم الإسلامي[3]. وقد قال كذلك إن

---

(2) مع زيادة كبيرة للآراء المؤيدة. يذكر دانييل ريفيه أن عدد طلاب جامعة الدار البيضاء المعارضين في العام 1980 لتداخل السياسة والدين قد بلغ 57% ليهبط إلى 8,6% في بداية الألفية الثالثة.

Daniel Rivet, "Le Couple religion et politique en islam méditerranéen au regard de l'islamologie," *Vingtième siècle*, no. 82 (2004), pp. 40-41.

(3) Fawaz A. Gerges, *Journey of the Jihadist, Inside Muslim Militancy* (Orlando; Austin: Harcourt Inc., 2006), pp. 54-55.

الأمة لم تحرك ساكناً في حين كان الصليبيون والصهاينة يضطهدون المسلمين[4]. وبعد مرور بضع سنوات، ستذكر "وصية" بن لادن الشهيرة كذلك "خيانة" الأمة الحقيقية بمرارة[5]. لم يكن بوسع مجاهدي التسعينيات سوى أن يلاحظوا بألم جمود الشعوب العربية ومن خلفها "أمة المؤمنين" إزاء الكفاح الذي يخاض باسمها.

تبين هذه الخلاصة السبب الذي جعل حقل الاحتجاج الإسلاموي في كل البلدان الإسلامية تقريباً يصير مسرحاً لتحولات وتمايزات داخلية أجبرته على التخلي عن الجهاد وعن أي برنامج حصري وإجماعي. على الرغم من سيطرة الدول المتسلطة التي لم تترك للأحزاب الإسلاموية أي فرصة لامتلاك تمثيل جدير بهذه التسمية، إلا أن الأحزاب صارت تراهن على العمليات الانتخابية[6]. ارتدت الإسلاموية شكلاً اجتماعياً يؤمن التماسك ضمن أحياء المدن الكبرى. وفي سياق الهوية المغفلة والاختلاط، أصبحت الإسلاموية انضباطاً وطريقة عيش و"أخلاقيات" الوسط، وحتى انطواءً على القيم المحافظة. وكما يشير باتريك هايني (Patrick Haenni)، في مقابل الحركة النضالية الخائبة نشأ شكل جديد من الجهاد جرى التعريف به على أنه تقوى وعمل تطوعي وعمل اجتماعي. وقد شرح عمر خالد، الإمام التلفزيوني، قائلاً إن النبي قد اختصر الإسلام بجملة واحدة هي "الدين النصيحة". أما النصيحة فهي "أن تكون إيجابياً"[7].

---

(4) Ibid., p. 61.

(5) انظر بالنسبة إلى النص:
Roland Jacquard, *Les Archives secrètes d'Al-Qaida* (Paris: Jean Picolick, 2002), pp. 237-242.

(6) James Piscatori, *Islam, Islamists and the Electoral Principle in the Middle East* (Leiden: ISIM Papers, 2000).

(7) Patrick Haenni, *L'Islam de marché: L'Autre révolution conservatrice* (Paris: Seuil, 2005), p. 88.

ترافق التخلي عن المظهر "الاجتماعي الثوري" في الإسلاموية مع التخلي عن طموحها الكوني. في سياق مسعى الإسلاموية التوليفي مع الديمقراطية[8]، "توطنت"[9]، أي قبلت بشرعية الدول القائمة. زالت صورة الشهيد التي كانت تسيطر على الأدبيات اليسارية كما الإسلاموية، ليحل محلها تفكيك نقدي وأحياناً شرس، لأعمال العنف في الماضي[10]. وفي أماكن أخرى، ظهر التماثل مع الإسلام، المختلف تماماً عن الإسلاموية، كمرادف لنمط الإمساك الفردي بقانون يؤمن السعادة على الأرض والخلاص في الحياة الأخرى. شكلت الإسلاموية الجديدة طريقة تلقي وتفسير فردي لبرنامج ولإيديولوجية جماعيتين، فنظّمت كمية كبيرة من الأفعال والسلوكيات اليومية وأعطتها معنى. وشكلت بالنسبة إلى الأجيال الشابة التي يفصلها عقد من الزمن عن كبارها أصحاب الكمائن والواقعين فيها في حروب عصابات الجزائر ومصر العليا، جسراً بين الكيان والمظهر، فشرّعت من دون عقد نمط الشخصية والموضة والمعارض وموسيقى "العصر الجديد" وكلها مواقف لا تتماشى مع النمط النضالي المقاتل.

لم يكن الجيل القديم من "المثقفين العضويين" بمعزل عن التغييرات الجذرية بدوره، وبالأخص في نهاية التسعينيات، حيث أنتج عدد من المناضلين المخضرمين إعادة قراءة نقدية حول تجربتهم المنبثقة

---

(8) Gudrun Krämer, *Islamist notions of democracy, in Joel Beinin, Joe Stork, Political Islam* (Berkeley: University of California Press, 1997), pp. 71-82.

(9) Olivier Roy, *L'Islam mondialisé* (Paris: Seuil, 2002), pp. 30-33.

(10) Verena Klemm, "The Deconstruction of martyrdom in the modern Arabic novel," in: Friederike Pannewick, dir., *Martyrdom in Literature: Visions of Death and Meaningful Suffering in Europe and the Middle East from Antiquity to Modernity* (Wiesbaden: Dr Ludwig Reichart, 2004), pp. 329-342.

من أعمال سيد قطب ونظروا إلى أنفسهم كجيل من دون أن يتخلوا عن الإسلاموية. بيّن ريموند وليام بايكر أن هؤلاء المناضلين السابقين قاموا بعودة على مسألة الهوية والثقافة عند وضع مسافة بينهم وبين العنف. لم تتضمن ورشاتهم الثقافية إعادة قراءة للقرآن وحسب بل أيضاً أداة تعريف المسائل الدينية المعقدة، من دون اللجوء إلى اللغة الخشبية، كمسألة تحرّر المرأة أو وضعية غير المسلمين في أرض الإسلام. سعت الإسلاموية إلى لغة مشتركة مع "العلمانيين المعتدلين"، فجاءت بـ"موقع وسطي"[11]. امتلكت جبهة الإنقاذ في الجزائر والإخوان المسلمون في مصر أو في الأردن والإسلامويون المغاربة والأتراك، الذين كانوا يعاينون حالة تحوّل، القدرة على التحدث مع مختلف الفئات "الإسلاموية"، بيد أن الجماعة الإسلامية المسلحة والجماعة الإسلامية لم تعد تملك شيئاً تقوله لهم. وإذا كانت التنظيمات الإسلاموية، ولا سيما تلك التي رفضت الانخراط في الكفاح المسلح، لا تزال تحتفظ بقاعدة حقيقية ضمن الشباب وفي عدد من الأحياء المدينية، إلا أنها كانت بعيدة من أن تتحوّل إلى تعبئة اجتماعية.

بدأت شعلة الجهاد كثورة بالترنّح. وفي ما وراء الاستخدام المكثف للقمع، همّشت السلطات الأطراف الإسلاموية اجتماعياً وإيديولوجياً. ففي حين زادت من القمع سرّعت كذلك إعادة أسلمة المجتمعات من فوق ومنحت علماء الدين مكانة متزايدة و"مُمَخزنة"[12] أكثر فأكثر ضمن تركيبة الدولة نفسها. وكما يحدد فرانسوا بورغا، "لا تتردد الأنظمة أبداً،

---

(11) Raymond William Baker, *Islam without fear: Egypt and the new Islamists* (Cambridge: Harvard University Press, 2003).

(12) Raffael Cattedra et M'hommaed Idrissi Janati, "Espace du religieux, espace de citadinité, espace de movement: Les Territoires des mosquées au Maroc," dans: Mounia Bennani-Chraïbi et Olivier Fillieule, dir., *Résistances et protestations dans les sociétés musulmanes* (Paris: FNSP, 2003), p. 145.

عبر "دعاة التلفزيون" أو عبر علماء الدين، في تعبئة موارد الدين بنفسها وفي أن تفعل هذا بمعنى ليس بالضرورة أكثر "حداثة" أو "ليبرالية" من معارضيها"[13]. كما أجبرت الأنظمة المجتمعات، بدءاً بالإسلامويين، على النظر إلى نفسها من خلال المقولات المعرفية والأمنية الخاصة بالنظام، فصنّفت "رعاياها" ونزعت التصنيف عنهم، كما وصفتهم بـ "معتدلين" أو وصمتهم بـ"متطرفين""[14].

وفي العام 1998 كذلك، امتلكت الأطراف الجهادية يقيناً وهو أن "القدس لن تحرّر إلا بعد أن يتم الفوز بمعارك القاهرة والجزائر"[15]. مثلت حروب العصابات الإسلاموية في الجزائر وفي مصر قمة الجهاد في الداخل ومارس فشلها تأثيراً مدمراً في ما وراء هذين البلدين بكثير فغطى مجمل الحركة الإسلاموية المتطرفة. دلت نهاية العقد في الحقيقة على أن الإسلاموية العسكرية قد تعبت في حين نشأت أنماط أخرى من السلوكيات السياسية والاجتماعية "الجماعية". هجر بعض الإسلامويين المجال السياسي وانخرطوا في الطبقات الوسطى المسلمة وتحولوا إلى "أصحاب أعمال" يهمهم المظهر الجمالي لدى المؤمنين (عروض أزياء...) بقدر ما تهمهم إعادة أسلمتهم.

وفي الحقل التحريري، حلت محل الكتيبات التي تحكي عن التفسير العسكري للجهاد، أعمال خاصة بـ"مفكرين جدد" مهتمين بالحفاظ على استقلالية المجال الديني والروحاني إزاء تدخل المجال

(13) François Burgat, *L'Islamisme en Face* (Paris: La Découverte, 1996), p. 39.

(14) Alain Roussillon, "Les Islamologues dans l'impasse," *Esprit*, no. 8-9 (2001), pp. 93-113.

(15) François Burgat, *L'Islamisme à l'heure d'Al-Qaida, réislamisation, modernisation, radicalisation* (Paris: La Découverte, 2005), p. 151.

السياسي فيه فاقترحوا قراءة "كاشفة" للنص المقدس[16]. كما مارس العالم الإعلامي والافتراضي جاذبية مذهلة على الإنتلجنسيا الإسلاموية بانفتاحها على آفاق مخالفة لتلك التي قدمتها نزعاتهم العلمية الملونة بألوان المقدّس. وأخيراً، كما بينت الأمثلة التركية والمغربية، فإن أطراف الإسلام السياسي المرجعية نظرت إلى نفسها في المستقبل بكونها حركات "إسلامية ديمقراطية" أكثر فأكثر، على طريقة الأحزاب المسيحية الديمقراطية الأوروبية. وبالإجمال، سمحت مجموعة من المؤشرات المتلاقية والمتكررة والمندرجة في ديمومة زمنية والنابعة من مجتمع إسلامي بالتوصل إلى الخلاصة القائلة إن الإسلاموية كمشروع سياسي وكحركة شعبية قد أصبحت ظاهرة هامشية.

تطرّف الهوامش

لا يمكن أن ينجم عن هذا الوضع الجديد سوى عودة فرضية فشل الإسلام السياسي التي تقدم بها أوليفييه روا في كتاب شديد الوقع صدر في العام 1992[17]. لم يعنِ روا بكلمة "فشل" ضعف الحركة النضالية الإسلاموية بحد ذاتها ولكن عجز الإسلامويين عن إنتاج سياسة قطع مع الأنظمة القائمة. وفي كتاب جديد واسع التوثيق صدر قبل أقل من سنة على هجمات الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر 2001، بشر جيل كيبيل بدوره بانحدار الإسلاموية[18]. وقد ذكر كاتبون آخرون في الفترة

(16) Abou Filali-Ansary, *Réformer l'Islam? Une introduction aux débats contemporains* (Paris: La Découverte, 2003), et Alain Roussillon, *La Pensée islamique contemporaine: Acteurs et enjeux* (Paris: Téraèdre, 2005).

(17) Olivier Roy, *L'Echec de l'islam politique* (Paris: Seuil, 1992).

(18) Gilles Kepel, *Jihad: Expansion et déclin de l'islamisme* (Paris: Gallimard, 2001).

ذاتها سيناريو "الثورة الهادئة في المجتمعات الأهلية"[19]. وقد حملت تحليلاتهم إثباتات تتألف من عدد كبير جداً من الملاحظات التي تم تدوينها في مختلف أرجاء العالم الإسلامي.

بيد أن فرضية فشل الإسلام السياسي التي انتشرت في فرنسا كما في سائر الأماكن، قد أهملت أهمية "هوامش" المسارح السياسية موضوع البحث وأعداداً من "السيبة" الجديدة التي لم تكن مرئية. وخلصت الفرضية بحق إلى القول إن المجتمعات الإسلامية تتحول إلى مجتمعات سلمية في "الوسط" لكنها لم تدرك أن هذه المجتمعات استمرت، في موازاة ذلك، في إنتاج تطرف منكفئ على هوامشها يحاول إعادة تحديد الأجندة السياسية والاجتماعية في مجمل العالم الإسلامي. وليس من دواعي الدهشة، هنا كما في أي مكان آخر وفي أي زمن آخر من التاريخ، أن تكون الهوامش هي الأماكن حيث تلجأ المخاوف والصدمات الجماعية في المجتمعات الشرق أوسطية والإسلامية.

في التسعينيات، كان فرانسوا بورغا، بحسب معرفتي، هو الباحث الأول الذي لفت الانتباه إلى ""الدوائر" المحيطة بالمجتمعات بوصفها مساحة لإنتاج العنف: "إذا ما كان ثمة عنف في الدوائر المحيطة بالنظام السياسي المصري، فهذا، قبل أي شيء آخر، لأن قلب هذا النظام لم يعد يعمل"[20]. مصطلح "هوامش" لا يختلط مع التهميش الاجتماعي أو الاقتصادي وإني أضعه هنا محل مصطلح "دوائر". تتشكل الهوامش بعد

---

(19) John L. Esposito, *Islam and Civil Society* (Florence: EUI Working Papers, 2000).

(20) François Burgat, "A Propos des représentations de la violence politique en Egypte," Baudoin Dupret, dir., *Le Phénomène de la violence politique: Perspectives comparatistes et paradigme égyptien* (Le Caire: CEDEJ, 1994), p. 190.

حدوث قطيعة بين بعض فئات المجتمع وبين السلطات وكذلك بينها وبين حركات المعارضة في كثير من الأحيان، بما فيها الإسلاموية منها. تعبر الهوامش عما لا تجرؤ المجتمعات على قوله بما يخص ضيقها والظواهر التي يستحيل تحملها بوصفها نابعة منها. هي أمكنة نشأ فيها "رفض" المعاني المفروضة أو ببساطة المعاني المقبولة والمستبطنة.

في نهاية التسعينيات، كان كل شيء يشير إلى نشوء "انشقاقات" مسلحة جديدة[21] في هوامش مجتمعات الشرق الأوسط والمجتمعات الإسلامية عموماً، كما يشير إلى أن مناضلين كثيرين "عادوا من بعيد" من الجهاد الأفغاني في الثمانينيات بالنسبة إلى بعضهم، قد رفضوا خصخصة العنف، وهو خيار حاول بعض منهم اتباعه، كما رفضوا لعبة الإلحاق التي سمحت لبعضهم الآخر بأن "يُدمج" في النظام. أثار رفض الانغلاق في حرب العصابات، المرادفة للتفتت الشديد والقضاء على الذات كما في الجزائر، حذراً عميقاً إزاء الكفاء المسلّح الكلاسيكي.

حمل هؤلاء المناضلون المتصلبون العالم على التطرّف "من خلال التضحية، في حين أن النظام [هدف] إلى [تغييره] بالقوة"[22]. اعتبر بعضهم، كما ذلك المجاهد الإسلاموي الجزائري الذي قابلته فرهد خسروكافار، أنه ينبغي بعد كل ما جرى الانتقال من "المعارضة السياسية" إلى كفاح "باسم الإسلام" بحد ذاته[23]، أي كفاح هادف إلى الخضوع حصراً للأوامر المعتبرة قرآنية وحسب. تَحدّد وجه هذا التطرف الجديد

(21) Gabriel Martinez-Gros, *Lucette Valensi: L'Islam en dissidence. Genèse d'un affrontement* (Paris: Seuil, 2004).

(22) Jean Baudrillard, *L'Esprit du terrorisme* (Paris: Galilée, 2002), p. 16.

(23) Farhad Khosrokhavar, *Quand Al-Qaida Parle: Témoignages derrière les barreaux* (Paris: Grasset, 2002), p. 16.

من خلال "المعتقد" الذي، كما يقول إرنست جلنر، "يجب أن يولِّد توتراً لدى المناضل المبتدئ أو المعتنق الممكن. يجب أن يعذبه ويزعجه وألا يتركه لحظة. يجب أن يتمكن من إقلاقه وإزعاجه بواسطة الوعد الذي يقدمه والتهديد الذي يوجهه ويكون قادراً على أن يثير لديه قلقاً داخلياً كإثبات على أصالته. لن تبحث عني لو أنك ما وجدتني من قبل في قلبك"[24].

إذا كانت قلة التزام الأجيال الأكثر شباباً قد حالت دون السماح للمعارضات المسلحة في العقود السابقة أن تعيد إنتاج نفسها، فإن مناضلين جدد، نشؤوا على روح التضحية بالنفس، قد ظهروا بالرغم من هذا. وأحياناً، كما في حالة عمر الشيخ، التي سيكون لنا عودة إليها، لم يخرجوا من أي تقليد معارض مرصود، ومن أي حلقة تنشئة اجتماعية معروفة. وعلى عكس "الحيطيست" (الذين يسندون الحيطان) الجزائريين أو الطلاب الفقراء في مصر العليا، فإن عدداً منهم قد نشأ في أسر ميسورة وتلقى تعليماً ممتازاً[25].

تكاثرت عمليات التفجير الكلاسيكية، بما فيها التفجيرات في أرض غريبة كما في باريس في العامين 1995 و1996 التي أدت إلى وقوع عشرة قتلى وحوالي ثمانين جريحاً[26]، ومعها الهجمات الانتحارية في

---

(24) Ernest Gellner, *La Ruse de la déraison* (Paris: PUF, 1990), p. 50.

(25) كما يقول المحلل الأردني، لبيب قمحاوي: "هنا الناس الذين يقدرون على مهاجمة أميركا [و] القيام بحملة مناهضة لها سيكونون جزءاً من المتعلمين ومن الطبقات المثقفة وليس من الفلاحين".
Joyce M. Davis, *Martyrs: Innocence: Vengeance and Despair in the Middle East* (New York: Palgrave, 2003), p. 182.

(26) انظر الحوار الذي أجراه ديتمار لوخ مع خالد خلخال، المرتكب الأساسي لهجمات العام 1995، قبل مقتله في مواجهة مع الشرطة.
Le Monde, 6 octobre 1995.

فلسطين[27] أو في تشيشنيا، منذرة بنشاطية إسلاموية فَوْإقليمية. دلّ الهجوم بواسطة الشاحنة المفخخة ضد المركز التجاري العالمي في شباط/ فبراير 1993 مسبباً ستة قتلى وحوالي ألف جريح، والذي خطط له المناضل الإسلاموي رمزي يوسف[28]، على البعد المعادي للأميركيين ضمن المعارضة الجديدة. كما دلّ كم أن المناضلين الجدد كانوا يصغون إلى العنف الذي يمارس باسم الديانات الأخرى. عبّر محمود أبو حليمي، المتهم بأنه العقل المدبر للهجوم على نيويورك، في نهاية التسعينيات، وفي مقابلة مع مارك يوغنزماير، عن تعاطفه مع تيموثي مكفاي، مرتكب الهجوم الدموي على مبنى البلدية في أوكلاهوما. وقد اعتبر أنه بالرغم من سقوط المدنيين إلا أن "الحكومة قد تلقت الرسالة على الأقل"[29]. مثّل أبو حليمي صورة لا سابق لها ضمن الإسلام المتطرّف. وكما المسيحيين من "المولودون مجدداً"، شهد تجربة "ولادة جديدة" في الإسلام بعد أن أمضى "حياة من الفساد، مع النساء والمخدرات... سمها ما شئت"[30]. لم يكن تائباً أنجز فريضة

---

(27) Pénélope Larzillière, *Etre jeune en Palestine* (Paris: Balland, 2004), and Anne-Marie Oliver and Paul Steinberg, *The Road to Martys 'Square: A Journey into the World of the Suicide Bomber* (Oxford: Oxford University Press, 2005).

(28) في ما يتعلق بهذه الهجمات وبدور الشيخ عمر عبد الرحمن المصري وشركائه الذين اعتقلوا في كانون الثاني/ يناير من العام نفسه في حين أنهم كانوا يحضرون لهجمات جديدة ضد مقر الأمم المتحدة ونفقي لينكولن وهولاند وجسر واشنطن، انظر:
Steven Emerson, *American Jihad*: The Terrorists Living Among Us (London: Free Press, 2002).

(29) Mark Juergensmeyer, *Terror in the Mind of God, The Global Rise of Religious Violence* (Berkeley: University of California Press, 2001), p. 63-64.

(30) Ibid., p. 65.

التوبة وحسب بل حمل كذلك على عاتقه وزر ذنب العالم بقدر ما حمل آمال خلاصه.

أشكال جديدة من العنف

في حزيران/ يونيو من العام 1995، كان الرئيس المصري حسني مبارك هدفاً لمحاولة اغتيال. وفي تشرين الثاني/ نوفمبر 1995 وحزيران/ يونيو 1996، استهدفت الهجمات الحراس السعوديين المكلفين حماية مكتب إدارة البرامج الأميركية (سبعة قتلى) وأبراج الخُبَر التي تأوي ضباطاً أميركيين في الظهران (19 قتيلاً). ووقع ستة عشر قتيلاً ضحية الهجوم الانتحاري المزدوج ضد السفارة المصرية في باكستان بمناسبة الذكرى التاسعة عشرة لزيارة السادات إلى القدس في 19 تشرين الثاني/ نوفمبر 1995. وفي أيلول/ سبتمبر وتشرين الثاني/ نوفمبر استهدف سواح في القاهرة (9 قتلى) وفي الأقصر (62 قتيلاً من بينهم 58 سائحاً). كما هزّت الهجمات التي نسبت إلى المتطرفين الإسلامويين العديد من المدن الهندية في شباط/ فبراير 1998 (50 قتيلاً). أما عمليتا "الكعبة المقدسة" و"الأقصى" ضد سفارتي الولايات المتحدة في كينيا وتنزانيا، في السابع من آب/ أغسطس 1998، فقد أوقعتا 213 قتيلاً في الأولى و11 قتيلاً في الثانية. وفي العام 1999، وقع ستة قتلى ضحية هجوم في أحد أسواق صنعاء وانتهى الهجوم الانتحاري ضد السفينة الأميركية "يو إس إس كول" أمام سواحل اليمن بـ17 قتيلاً. واجتاحت موجة من العنف كنائس في إندونيسيا موقعة 18 ضحية في كانون الأول/ ديسمبر 2000. دلّت هذه الأعمال على محدودية فعالية السياسات الأمنية ضد الحركات الإسلاموية المتطرفة[31].

---

(31) Anonymous, *Ousama Bin Laden, Radical Islam and the Future of America: Through our Ennemies'Eyes* (Washington: Brassey's, Inc., 2002), pp. 138-141, 198-204, 211-219.

وهكذا كان العالم الإسلامي، قبل الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر 2001، يرسل كمية كبيرة من الإشارات الصادرة من هوامشه والتي كانت تستحق من دون شك أن تؤخذ على محمل الجد مثلها مثل النزعات السلمية في مراكزه وقد بدأت الأبحاث بالتقاطها والتعاطي معها بوصفها إشكاليات بحثية. دلت هذه الإشارات المتلاقية والمندرجة ضمن استمرارية على نشوء أوساط في سائر أرجاء الأرض الإسلامية عصية على أي نوع من أنواع القراءة. لم تمتلك هذه الأوساط تنظيماً ببنية واضحة ولم تصغْ أي مشروع تغييري للمجتمعات الإسلامية سواء بواسطة الإصلاح أم الثورة، بل أعادت ابتكار نفسها بشكل دائم بواسطة انتشارها الاجتماعي الموازي وممارساتها.

انكفأ هذا الاحتجاج إما نحو منفى داخلي وإما نحو هجرة إلى خارج المناطق الخاضعة لسيطرة الدولة، في أفغانستان والسودان أو أيضاً في الصومال. صحيح أن الظاهرة لم تكن جديدة بالكامل، ولكنها حدثت في سياق عالمي أعيد رسمه وعلى "ساحة عالمية جديدة، [...] تكون أحياناً غير مناطقية وأحياناً خاضعة لتنافس عدد من أنواع المنطق المناطقي، وقد تكون أيضاً متصلة بالدولة الأمة وهي حالة عادية صارت أكثر فأكثر ندرة"[32]. لم تهدف الهجرة التي نظمت في هذه المساحات الجديدة إلى التهرب من سيطرة الدولة وحسب، كانت كذلك شكلاً من أشكال الخروج من "اقتصاد المعاهدات"[33] الذي فرضته الدولة والذي تبعه جزء كبير من المجتمع بمن فيهم الإسلامويون التقليديون وحتى

(32) Bertrand Badie, *La Fin des territoires: Essai sur le désordre international et sur l'utilité sociale du respect* (Paris: Fayard, 1995), p. 14.

(33) Pierre Bourdieu, *Méditations pascaliennes* (Paris: Seuil, 2003), p. 284.

المعارضون. ترافق الانسحاب "الطوعي"[34] مع كل أشكال الإقصاء المفروض كما استبقه. وخلقت التضحية والحرمان المشترك في المنفى قرابةً رمزيةً حقيقيةً تربط أعضاءه برابطة دم جديدة[35].

ولّدت هذه الهوامش الجديدة توليفة مفارقة بقدر ما هي قاتلة "بين الوهابية السعودية الأكثر محافظة وبين روحانية الكفاح المسلح التي تشكلت إبان حرب أفغانستان الأولى"[36]. مع الدعوة المبالغ بها إلى الحرب، سواء ضد دار الحرب أم ضد دار الإسلام، لم تكتفِ هذه الهوامش بجبهة واحدة، بل على العكس، ففي ثنايا المجتمعات الإسلامية، تنظمت على شكل "أممية" ونقلت منطق العمل العسكري في الحرب المناطقية نحو الحرب الكونية. وحتى لو أنها عملت في سياق مرجعية رمزية ضمن صراع معولم، إلا أنها لم تنتظم في إطار لجان ثورية "مركزية" ولم تكن تهتم كذلك بـ"حركات جماهيرية" ثقيلة وبيروقراطية. وأخيراً، أكثر من أي معارضة سابقة، فضلت السلاح النهائي في كفاحها ضد الأعداء "الكفار"، أي التضحية بالنفس التي يفوق أثرها الرمزي أي شكل آخر من أشكال العنف. وهكذا، أصبحت القاعدة وأسامة بن لادن زعيمها وتاريخ الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر الثلاثي الذي يرمز إلى هذه الموجة الجديدة من الاحتجاجات.

(34) Jean-Paul Charnay, cité par: *Jean-François Daguzan, Terrorisme(s): Abrégé d'une violence qui dure* (Paris: CNRS, 2006), p. 32.

(35) George Elwert, Stéphan Feuchtwang and Dieter Neubert, "The Dynamics of Collective Violence. An introduction," in: George Elwert, Stephan Feuchtwang and Dieter Neubert, dir., *Dynamics of Violence: Processes of Escalation and De-Escalation in Violent Conflicts* (Berlin: Duncker, 1999), p. 13.

(36) Bernard Rougier, "L'Islamisme face au retour de l'Islam," *Vingtième siècle*, no. 92 (2004), p. 113.

قارن يورغن هابرماس الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر مع اغتيال الأرشيدوق فرانز فردينان في 28 حزيران/ يونيو 1914 في ساراييفو. فقد دشن مقتل الأرشيدوق قرناً من "الحرب الشاملة والاضطهاد التوتاليتاري والبربرية المُمَكْنَنة والجرائم الجماهيرية البيروقراطية"، وفي المقابل، دلّ الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر "بشكل درامي ولاإنساني على ضعف حضارتنا المركبة"[37]. وبقدر ما جعلنا نتساءل حول مستقبل حضارتنا، وقف كحدث غامض يقع على عاتق كل واحد منا أن يعطيه دلالة وأن يملأ "فراغ المعنى" الذي ولّده[38].

(37) Jacques Derrida and Jürgen Habermas, Le "Concept" du 11 Septembre, p. 55.

(38) Jean-Pierre Winter, *Valérie Marin La Meslée: Stupeur dans la civilisation* (Paris: Pauvert, 2002), p. 26, et Jacqueline Barus-Michel, "Crise et identité," dans: Max Pagès [et al.], *La Violence politique* (Paris: Erès, 2003), p. 67.

الفصل الرابع عشر

القاعدة أو تلاقي أشكال جديدة من التطرّف

جاءت هجمات الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر 2001 من فعل تسعة عشر شاباً عربياً، من بينهم خمسة عشر سعودياً، جميعهم من أثرى أبناء جيلهم. يتمتع أفراد تنظيم القاعدة بمستوى تعليم عالٍ جداً، وقد ضحت القاعدة آنذاك بأفضل ما عندها من بينهم[1]. أدى تطرّف الأثرياء لدى بن لادن إلى موت 2978 شخصاً في نيويورك، وهو تطرّف لم يحل محل يأس الفقراء، الذي لطالما أثار الخشية، بل ضاعفه إيديولوجياً وأخلاقياً.

صحيح أننا نستطيع الرجوع إلى سلسلة متصلة تردنا إلى سيد قطب[2] أو إلى واحد "من الانشقاقات السياسية في الإسلام"[3]، إلا أنه

---

(1) بحسب تقديرات مارك ساجمان (Marc Sageman)، فإن 63% من أعضاء المنظمة الأربعمائة المعروفين قد ارتادوا الجامعات وانتمى ثلاثة أرباعهم إلى الطبقات المتوسطة أو العليا وكانوا من العلماء في حين أن 73% منهم كانوا متأهلين.
Marc Sageman, *Le Vrai visage du terrorisme: Psychologie et sociologie des acteurs du djihad* (Paris: Denoël, 2005).

(2) Burgat, *L'Islamisme à l'heure d'Al-Qaida, réislamisation, modernisation, radicalisation,* p. 140.

(3) Maxime Rodinson, *L'Islam politique et croyance* (Paris: Fayard, 1993), pp. 99-105.

لا يمكن أن نجد للقاعدة معنى إذا ما ألغينا تاريخها الخاص لشدة ما يتميز هذا التاريخ بانقطاع جذري مع أنواع الإسلاموية ذات الأسلوب القديم[4].

"مأسدة الأنصار"

يردنا أصل هذا التنظيم، الحقيقي منه والأسطوري، إلى معركة العرب الأفغان التي أدت إلى نشوء "القاعدة العسكرية". إنها معركة "مأسدة الأنصار" وهو الاسم الذي أعطاه بن لادن للموقعة العسكرية التي دارت في العام 1987 حين قاوم بضع مئات من المتطوعين لمدة أسبوع كامل هجوماً سوفييتياً قبل أن يتراجعوا. حضر الموقعة خطّاب[5] وبن لادن وأبو الزبير المدني الذي قتل في البوسنة في العام 1992 والشيخ تميم العدناني"[6].

تحولت هذه "القاعدة" في العام 1988، انطلاقاً من تعدد معاني كلمة "القاعدة"، إلى تنظيم سياسي يقوم على ميثاق هو وثيقة من النوع التبشيري يحدد القواعد الأخلاقية لدى "جماعة مؤمنة وطليعة من طلائع الإسلام"[7] تمتلك بيروقراطية فعالة وجهازاً من المرجعيات

---

(4) انظر التحقيق الممتاز الذي أجراه جوناثان راندال:
Jonathan Randal, *Oussama: La Fabrication d'un terrorist* (Paris: Albin Michel, 2004).

(5) سمير صالح عبد الله السويلم، المدعو الأمير خطّاب، سعودي ولد في العام 1969، شارك، في سن السابعة عشرة، في حرب أفغانستان وقتل في تشيشنيا في 20 آذار/ مارس 2002.

(6) Olivier Roy, *L'Islam mondialisé* (Paris: Seuil, 2002), p. 187.
يواصل روا كلامه قائلاً: "بيد أنه، في شباط/ فبراير 1989، فشل المتطوعون العرب في الاستيلاء على مدينة جلال آباد، إذ استعاد المنطق الأفغاني حقوقه".

(7) يتعين على هذا الأخير "أن يلقي بنفسه في نار التجارب الأكثر شدة وفي الأمواج الأكثر شراسة"،

الإيديولوجية والأساطير المؤسِّسة و"الشهداء" أمثال الفلسطيني عبدالله عزّام (1941-1989)[8] وسواه الكثيرين[9].

ضمن هذا التأريخ الخاص، يعمل مصنع الأبطال، أو بالأحرى مصنع البطل الواحد، بكامل طاقته: بن لادن الرجل إنسان كريم، مرجعيته فتاوى كبار علماء الدين، وبدل أن يفرض نفسه كمرجع مخوّل، تأثر في وقت مبكر جداً بخطب محمد قطب، شقيق سيد قطب. أمضى وقته في دراسة القرآن والكتب الدينية ليكمل دراسته التي يدرك أنها ناقصة. هو شجاع وقادر على تحمل كل المخاطر الشخصية لكنه لا يخفي البتة نقاط ضعفه، فهو هشّ ويبحث عن قوته في العودة إلى الله. على عكس الأسلوب المعقد الذي تنتهجه الأدبيات الإسلامية وكتابات سيد قطب والأعمال الصادرة في الثمانينيات التي تستغل مختلف النظريات وتصدر موقفاً حول أي قضية سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية، حقّق بن لادن عودة مبسطة إلى المراجع المقدّسة وحتى إلى بعض الآيات القرآنية وحسب والتي جرى تفسيرها بحسب منطق الكتاب والعالم الآخر.

= Rohan Gunaratna, Inside al Qaeda: *Global Network of Terror* (London: Hurst & Co., 2002), p. 4.

(8) منظّر وصاحب دليل المجاهد في كتاب تحت عنوان "الجهاد آداب وأحكام" صادر في بيروت عن دار الجيل الجديد ومنشور على الانترنت على العنوان الآتي:
http:/ / www/ osmaùocawakening.com
بحسب معلومات غير مؤكدة، قام تنظيم القاعدة باغتيال عزّام. ويبدو أنه كان مقرباً نسبياً من القائد أحمد شاه مسعود (ولد في العام 1953 واغتيل في العام 2001 قبل أيام على قيام القاعدة بهجمات الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر. وكان الظواهري يتهم مسعود بأنه "جاسوس فرنسي".
Peter L. Bergen, *The Osama bin Laden I Know: An Oral History of Al-Qaida' Leader* (New York: Free Press, 2006), p. 69.

(9) "Military studies in the Jihad against Tyrants," http:/ / www.uact.-4t.com

في ما يتعدى العناصر المعروفة من سيرة أسامة بن لادن، ابن محمد بن لادن، الذي شغل منصب وزير الأشغال في السعودية وباني مجموعة بن لادن السعودية، وهي مجموعة يبلغ رقم أعمالها 31 مليار دولار، بالإضافة إلى إمبراطورية مالية ضخمة[10]، فقد كان الرجل يشكل صورة كارزمية حقيقية. وبالإضافة إلى استعانته بمرجعية التقليد استطاع بفضل "شخصيته والهالة المنبعثة منها" أن يفرض نفسه كمؤسس سلسلة انتقال جديدة[11].

ظهرت فقرة من هذا البناء الكارزمي في رواية معركة جلال آباد كما كتبتها "جهاد ماغازين" في العام 1989، حيث توفي العديد من رفاق بن لادن ومن بينهم أبو قتيبة:

"كان أبو عبد الله (بن لادن) يتكلم حينما جاء ذكر أبي قتيبة فجأة، فجف حلقه وامتلأت عيناه بالدموع ولم يعد يأتيه الكلام. حاول مجدداً لكن حلقه بقي جافاً وعيناه دامعتان. وحين عجز للمرة الثالثة عن الكلام، غمر صمت عميق الحضور".

"كانت المعارك الشرسة قد عادت مجدداً إلى جلال آباد وانتقل أبو عبد الله إلى خطوط الجبهة الأقرب إلى العدو للهجوم مع كل بطل منحه الله إياه. وقد زاد عددهم بقدر ما زادت رغبتهم في المشاركة في تحرير جلال آباد تحت قيادة أسامة بن لادن. فقد المجاهدون العرب ثمانين مجاهداً وجرح مائة آخرون من بينهم[12]".

---

(10) Jean-Charles Brisard et Guillaume Dasquié, *Ben Laden: La Vérité interdite* (Paris: Denoël, 2002).

(11) John G. A. Pocock, *Politics, Language and Time, Essays on Political Thought and History* (Chicago: University of Chicago Press, 1989), p. 243.

(12) Peter L. Bergen, *The Osama bin Laden I Know: An Oral History*

شكلت الحرب الأفغانية مسرحاً حقيقياً لـ"إعادة تأصيل"[13] رسالة الجهاد ونضاله، وكانت حاسمة في تطور بن لادن والقاعدة. فقد أسّست من ناحية جماعة أصيلة حول وجوه مثل محمد عارف وأبي حفص المصري وأبي عبادة البنشيري[14]، كما شكلت من ناحية أخرى رحماً مولداً لجهاد اعتبر آلية طويلة يتخطى أرضاً واحدة ومعركة واحدة. الحرب الأفغانية هي مفتاح قراءة الآلام والقيم الطاهرة والوعد بالنصر المكتوب في تضحية الشهداء. وكما يشدد أيمن الظواهري، هي كذلك لحظة القطع النهائية مع المقاومات العربية والإسلامية في القرن العشرين. وللمرة الأولى، بالفعل، "للمرة الأولى، خاض الشباب المسلم في أفغانستان حرباً لتحرير أرض إسلامية بشعارات إسلامية حصراً. ترتدي هذه النقطة أهمية حيوية لأن عدداً من حروب التحرير في عالمنا الإسلامي قد استخدم شعارات مركبة وخليطاً من القومية والإسلام وحتى خليطاً من الإسلام وشعارات اليسار الشيوعي"[15].

ومع هذا، فإن الحرب الأفغانية، التي انتهت بنصف نجاح لشد ما خاضت الأطراف المقاومة حروباً في ما بينها لا علاقة لها بالجهاد، ليست هدفاً بحد ذاته. شهدت القاعدة توجهاً متدرجاً نحو التطرّف، وبالأخص إبان حرب الخليج العام 1991، حين رفضت المملكة العربية

= *of Al-Qaida's Leader* (New York: Free Press, 2006), p. 87.
وقد أكد المصور ستيف مكوري (Steve McCury) هذه الواقعة.

(13) للاطلاع على هذا المفهوم، انظر:
Michel Dousse, *Dieu en guerre: La Violence au cœur des trois monothéismes* (Paris: Albin Michel, 2002).

(14) Randal, *Oussama: La Fabrication d'un terrorist*, p. 109.

(15) Ayman al-Zawahiri, "The Importance of Afghanistan for Islamist Revolution 2001," in: Barry Rubin, Judith Colp Rubin, *Anti-American Terrorism and the Middle East, Understanding the Violence* (Oxford: Oxford University Press, 2002), p. 48.

السعودية عرض بن لادن الدفاع عنها بواسطة "مائة ألف رجل" حتى يجنبها اللجوء إلى طلب المساعدة الأميركية. ويقول تركي الفيصل إن بن لادن ظن نفسه قادراً في البداية على تعبئة جيش من أجل مواجهة جنود صدام، ثم عارض قرار المملكة بطلب مساعدة فرق عسكرية حليفة. وهكذا خرج عن طاعة الملك وتنكر لفتوى علماء الدين الأجلاء الذين أيدوا المشروع لأنهم رأوا فيه عملاً مهماً لمحاربة الظلم والعدوان[16]. وبحسب أبي مصعب السوري الذي عرف بن لادن خير معرفة منذ العام 1988 ووضع كتاباً بعنون **دعوة المقاومة الإسلامية العالمية** (*The International Islamic Resistance Call*)، إذا كان بن لادن والمجاهدون السعوديون معه يعتبرون النظام السعودي قبل العام 1991، نظاماً ظالماً "اعتبروا كذلك أنه، على الرغم من فساده وظلمه، حكم شرعي كما أن الملك فهد والأسرة السعودية مسلمون وحكام شرعيون، مثلما احترموا بعمق علماء الدين السعوديين وأطاعوا فتاويهم"[17].

أما الرؤية التي حملها بن لادن عن السعودية بعد حرب العام 1991، فلم تكن نقدية بشكل جذري وحسب بل كانت أيضاً "نظرة مراجعة" بما أن الأسرة المالكة اتُهمت بـ"الخيانة من الداخل" منذ العام 1936، تاريخ تدخلها لمصلحة الإنجليز حتى تضع حداً للجهاد في فلسطين وتقدِّم الأقصى، "الكعبة الأولى" في الإسلام إلى الصهاينة[18]. تلى قطيعةَ العام 1991، "بيانٌ صريح" في العام 1995، هو عبارة عن كتاب اتهام وشتائم

(16) Randal, Ibid., p. 115.

(17) Bergen, *The Osama bin Laden I Know: An Oral History of Al-Qaida's Leader*, p. 115.

(18) Anonymous, *Ousama Bin Laden, Radical Islam and the Future of America: Through our Ennemies'Eyes* (Washington: Brassey's, Inc., 2002), p. 57 et 116-117.

أرسله بن لادن إلى الملك فهد ينكر فيه أي شرعية على السلالة السعودية الحاكمة.

عقلانية وأفق أخروي

لا يمكن فهم القاعدة انطلاقاً من نموذج ثنائي يضع في مقابل العقلانية المادية توقع الخلاص في الآخرة. في هذه الحالة، كما في حالات أخرى من المعارضة الجذرية التي تجد شرعيتها في المرجعية الدينية[19]، تتعايش هذه المقولات وتعطي كل واحدة منها معنى للأخرى. فلا شيء يحول دون أن يخضع الفكر العقلاني على الأرض إلى هدف أخروي سواء أكان دينياً أم علمانياً.

تحدد عقلانية القاعدة السياسة على أساس حربي. أعلن التنظيم، في العام 1996، الحرب على القوات الأميركية التي تحتل الأماكن المقدسة وجدّد إعلانه هذا في العام 1998، مع تأسيس جبهة "ضد الصليبيين واليهود". تسلّحت القاعدة تارة بالقضية الفلسطينية والجهاد الأفغاني والوجود الأميركي في "الأماكن المقدسة" و"خيانة" القادة المسلمين، وتارة بالقمع في مصر وحروب البوسنة وتشيشنيا ومفهوم الكرامة والعدالة[20]، لتتبنى نظرية "الحضارات المتحاربة"[21]، المبرَّرة

---

(19) بالنسبة إلى أوروبا القروسطية، انظر:
Norman Cohn, *Les Fanatiques de l'apocalypse* (Paris: Payot, 1983).

(20) للاطلاع على مرجع مدقق بعناية، انظر:
Bruce Lawrence, éd., *Messages to the World: The Statements of Osama bin Laden* (London: Verso, 2005).

(21) انظر المقابلة التي أجريت مع بن لادن في:
Bostom, *The Legacy of Jihad: Islamic Holy War and the Fate of Non-Muslims*, p. 230.

بحجج شرعية[22] وقرأت مختلف النزاعات في دار الإسلام على أنها جميعها وجوه متعددة لمعركة واحدة بدأت مع الحملات الصليبية.

نعلم كذلك أن القاعدة امتلكت منذ التسعينيات تنظيماً عسكرياً فعالاً[23] وأنها نظّرت إلى المواجهة مع أعدائها بوصفها حرباً غير تقليدية جرى اتباعها "بسبب الخلل بين القوى". وقد اعتبرت أن عقيدة "الحروب غير المتناظرة" التي طورها البنتاغون أساساً منذ عقود تشكل إثباتاً على ضرورة إقامة "توازن الرعب" من أجل الدفاع عن دار الإسلام ضد دار الحرب[24]، وهذا سواء أكان على المستوى الإنساني أم الاقتصادي[25]. على الرغم من خصوصية نمط عمل القاعدة القائم على التضحية بالنفس، إلا أن نظرية علم الحرب لديها لا تختلف بشكل جذري عن نظريات حرب العصابات في القرن العشرين. يؤكد أبو عبيدة القرشي،

---

(22) في خلال مقابلة منحها بن لادن لقناة الجزيرة في تشرين الأول/ أكتوبر 2001، قال فيها إن اليهود والأميركيين قد اخترعوا كذبة السلام على الأرض معتبراً إياها مجرد حكاية للأطفال، يخدرون بها المسلمين ويقودونهم للذبح في مذبحة لا تزال مستمرة. أما إذا دافع المسلمون عن أنفسهم فيقولون عنهم إنهم إرهابيون. وذكر بن لادن حديثاً للرسول (صلى الله عليه وسلم) يذكر فيه حلول الساعة التي لن تحل قبل أن يتحارب المسلمون واليهود وإلى أن يختبئ اليهودي خلف شجرة وخلف صخرة فتنادي الصخرة والشجرة على المسلم لتقول له أن ثمة يهودي يختبئ خلفها. ومن يدعي، بحسب بن لادن، أن سلاماً دائماً سيحل بين المسلمين وبين اليهود فهو كافر لأنه يكفر بالكتاب وبما يتضمنه. ذكره:
Gilles Kepel, *Fitna: Guerre au cœur de l'islam* (Paris: Gallimard, 2007), pp. 182-183.

(23) Mohammed Mahmoud Ould Mohamedou, "Al-Qaida: Une guerre non linéaire," *A Contrario*, no. 2, vo. 3 (2005), pp. 130-170.

(24) Anonymous, *Ousama Bin Laden, Radical Islam and the Future of America: Through our Ennemies'Eyes*, pp. 67, 247.

(25) لحساب الأضرار الاقتصادية التي أوقعت بالأميركيين والتي يقدر بن لادن أنها تبلغ أكثر من 30 مليار دولار، انظر:
Lawrence, éd., *Messages to the World: The Statements of Osama bin Laden*, p. 106 et 112.

وهو واحد من مسؤولي التنظيم، أن علماء الاستراتيجيا الغربيين ادّعوا أن حروب الجيل الرابع ستكون من الناحية التكتيكية حروباً على نطاق ضيق، تندلع في مختلف أجزاء الكرة الأرضية ضد عدو يظهر ويختفي كالشبح. وستكون السياسة والاجتماع والاقتصاد والعسكر هي نقطتها الحسّاسة. كما ستكون هذه الحروب دولية ووطنية وقبلية، حتى أن التنظيمات باستطاعتها ان تشارك فيها. وفي الواقع، إن حروب الجيل الرابع قد بدأت، أما تفوُّق الطرف الضعيف نظرياً فيها فقد أصبح ثابتاً[26].

ستظل العقيدة العسكرية للتنظيم صالحة طالما أن "الشعب الأميركي لم يبدل موقفه ولم يجبر حكومته على تبديل موقفها" وستترجم على أكمل وجه في "موسوعة الجهاد"[27] حيث يعلق بن لادن قائلاً إنه يظن أن أميركا أضعف بكثير من روسيا وقد تعلّم من أشقائه الذين يجاهدون في الصومال ضعف الجنود الأميركيين الذي لا يصدق[28]. بيد أن التنظيم يرجع كذلك إلى "أسباب" مشروعة أخرى ضد "الرومان الجدد"[29] ولاسيّما إلى حركات حرب العصابات خارج العالم الإسلامي كما في فيتنام[30]، واعتبر أن أميركا ذهبت إلى فيتنام،

(26) ذكره Richard Bonney, *Jihâd. From Qur'an to bin Lâden* (New York: Palgrave, 2004), p. 322.

(27) للمقتطفات، انظر: Barry Rubin and Judith Colp Rubin, *Anti-American Terrorism and the Middle East, Understanding the Violence* (Oxford: Oxford University Press, 2002), pp. 157-169, and *Les Archives secrètes d'Al-Qaida* (Paris: Jean Picoleck, 2002), pp. 232-235,

للاطلاع على مراجع أخرى:

Rohan Gunaratna, *Inside al Qaeda: Global Network of Terror* (London: Hurst & Co., 2002), pp. 71-72.

(28) Lawrence, éd., *Messages to the World: The Statements of Osama bin Laden*, p. 82.

(29) Ibid., pp. 212-232.

(30) Ibid., pp. 139.

إلى مسافة آلاف الكيلومترات، وبدأت بالقصف. لم يتخلّ الأميركيون عن فيتنام قبل أن يتكبدوا خسائر جمّة فيها. قتل أكثر من ستين ألف جندي أميركي قبل أن ينزل الشعب الأميركي إلى الشوارع. ولن يتوقف الأميركيون عن دعم اليهود في فلسطين طالما أنهم لا يتكبدون خسائر كبيرة. لن يتوقفوا طالما أن الجهاد ليس معلناً ضدهم(31).

على غرار سيد قطب، اعتبر بن لادن أنه لم يعد هناك خيار آخر سوى الجهاد المعتبر بمثابة واجب دفاعي(32)، إلا أنه على خلاف قطب، اعتبر أن حقه في الحرب يلغي التمييز بين الأهداف العسكرية والأهداف المدنية باسم مبدأ المعاملة بالمثل. وهكذا، عند ذكر آثار الحظر ضد العراق كتب يقول في العام 1998: "من قال إن أهلنا وأطفالنا ليسوا أبرياء وإنه من المسموح سفك دمائهم؟ من قال إن دمنا ليس دماً في حين أن دمهم دم؟". وكذلك بعد هجمات الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر، قال بن لادن من على شاشة الجزيرة إنهم سيقتلون ملوك الكفار وملوك الصليبيين والمدنيين الكفار في مقابل أطفال الأمة الذين يقتلونهم واعتبر هذا أمراً مباحاً بالقانون وبالعقل. كما أشار إلى أن البرجين يشكلان قوة اقتصادية لا مدرسة للأطفال ومن كانوا فيهما هم رجال ونساء يدعمون أعتى قوة اقتصادية في العالم، وما عليهم سوى أن يراجعوا كتبهم لأن المجاهدين سيفعلون مثلهم، إن قتلوا نساء الأمة وناسها الأبرياء سيقتلوا نساءهم وناسهم الأبرياء. فكل إرهاب برأيه ليس إرهاباً ملعوناً إذ إن بعض أنواع الإرهاب تكون مباركة. إن أميركا وإسرائيل تمارسان إرهاباً مداناً في حين أن المجاهدين يمارسون الإرهاب الجيد الذي يمنع

(31) Lawrence Wright, *The Looming Tower: Al Qaeda and the Road to 9/ 11* (New York: Knopf, 2006), p. 151.

(32) Lawrence, Ibid., p. 141.

أميركا وإسرائيل من قتل أطفال الأمة في فلسطين وأماكن أخرى"[33].

وفي سياق يتصل بهذه الحجة، يصير من الممكن كذلك تبرير قتل المسلمين على أنه شرّ لابد منه وقد قال بن لادن مفترضاً أن الأميركيين قد هاجموا بلداً إسلامياً وخطفوا أطفاله، أطفال أسامة بن لادن من أجل استخدامهم كدروع بشرية ثم بدؤوا بقتل المسلمين، كما هو الحال في لبنان وفلسطين والعراق وكما كان الحال في السابق حينما دعموا الصرب الذين ذبحوا المسلمين وفي البوسنة. فبحسب الفقه الإسلامي، إذا ما امتنع المجاهدون عن فتح النار على الأميركيين خوفاً من أن يؤدي هذا إلى قتل الرهائن المسلمين، فإن الخسائر التي سيمنى بها المسلمون بعمومهم ستكون أكبر في مقابل ما سيكسبونه من الحفاظ على حياة من هم مستخدمين كدروع بشرية[34].

هذا المنطق الذي يعتبر مركزياً لفهم استراتيجية التنظيم لا يتعارض البتة مع توقع الخلاص، بل إن القاعدة التي تندرج في منطق دنيوي تبين كذلك الانتقال من العقل الديني إلى العقل الأخروي الذي بإمكانه أن يقضي على كل أنواع العقل الأخرى ويشكل مخرجاً من "الخيبة من الدنيا" المحرجة[35]. فالخلاص يصير فورياً ويصاغ بما يشكل قطيعة مع العالم وما فيه من عقود من الكفاح الإسلاموي. ومما لاشك فيه أن الخلاص يجد أسبابه العميقة في البعد الاجتماعي إلا أنه يشكل رداً على "فساد الدنيا" الذي يقود إلى الرسالة الأولى ووعدها بالخلاص.

---

(33) Peter L. Bergen, *Holy War inc.: Inside the Secret World of Osama bin Laden* (New York and London: Touchstone, 2002), p. 233.

(34) Anonymous, *Ousama Bin Laden, Radical Islam and the Future of America: Through our Ennemies'Eyes*, pp. 28 et 57.

(35) Xavier Crettiez, *Violence et Nationalisme* (Paris: Odile Jacob, 2006), p. 87.

ثمة مسارات متعددة بما يخص قيمية التضحية بالنفس عند القاعدة لا تزال بحاجة إلى استكشاف. يبدو أن مصطلح "تضحية" يرد بحسب التقليد الإبراهيمي، إلى التضحية بالآخر كما إلى قبول التضحية بالنفس من جانب "الأب". وسواء أكان اسم الأب الشيخ ياسين أو أسامة بن لادن، فهو يضحي بأغلى ما يملك أي أفضل أبنائه، من أجل هدفٍ سامٍ لا يمكن أن يكتفي بأضحية أقل قيمة. وفي حين يكتسب جسد الضحية وجوداً كونياً، يستجيب المضحي بها إلى توقع مزدوج، توقّع الخلاص وتوقّع الشفاعة أيضاً[36]. والتضحية التي "لا تعني قتل النفوس بقدر ما تعني قتل الحياة"[37] ترفع مرتبة الأمة التي تقدِّم باسمها إلى مرتبة الحياة الكونية والأبدية.

إن ممارسة التضحية هذه، الجديدة في التاريخ الإسلامي على الرغم ممّا يذكر كثيراً عن فرقة الحشاشين[38]، تبرز كذلك المآزق التي يواجهها الإسلام اليوم كدين. فكما المسيحية، باستطاعته أن يغذي "يوتوبيا سياسية ودينية"، "تستمد قوتها الخلاقة بالتحديد [...] من كونها ديناميكية خيالية وديناميكية اجتماعية في آن، ومن كونها تصل بين عالم من الرموز وبين مصالح جماعية تحملها مجموعات حقيقية"[39]. لكن،

---

(36) Pierre Bonte, "Sacrifices en islam: Texte et contexte," dans: Pierre Bonte, Anne-Marie Brisbane et Altan Gokalp, dir., *Sacrifices en islam: Espaces et temps d'un rituel* (CNRS, Paris, 1999), pp. 21-61.

(37) Françoise Héritier, "Réflexions pour nourrir la réflexion," dans: Françoise Héritier, dir., *De la violence* (Paris: Odile Jacob, 1996), p. 73.

(38) Bernard Lewis, *Les Assassins: Terrorisme et politique dans l'islam mediéval* (Paris: Berger-Levrault, 1982).

(39) Danièle Hervieu-Léger, *La Réligion pour mémoire* (Paris: CERF, 1993), p. 134.

كما المسيحية التي تعطي عالماً صار مابعد مسيحي معنى "للذاكرة"، فإن الإسلام لا يمكنه أن يؤمن بقاءه إلا بشرط أن تصبح "داره" مساحة ما بعد إسلامية واقعة حيث يعاد تعريف الدين على أنه ميراث من الماضي ومن ممارسات معاصرة متعددة. وبشكل واضح، يعني هذا التحوّل أن يتخلص المعتقد من مظهره الجماعي ذي الرسالة الشاملة والانضباطية ليصير فردياً ويفسح المجال أمام إعادة ابتكاره الدائم "بحسب الطلب". وحده المخرج الكوني يمكنه أن يجنّب "خروجاً كهذا من الدين" بواسطة الدين، كما يعرِّف مارسيل غوشيه الكاثوليكية[40].

أما المتخيّلات التاريخية التي تفسر العلمانية على أنها متلازمة في جوهرها مع المؤامرة "الغربية" وعلى أنها مطية "الاستلاب"، ومعها الذاكرات المتطرفة في القرن العشرين، فهي تجعل من الصعب في أيامنا هذه وجود منظور "الخيبة" هذا من دون التمكن كذلك من إزاحته. وليس من قبيل الصدفة أن تفرض الخلاصية التي حاربتها السلطات الإسلامية والفقهاء، نفسها كمخرج من فساد العالم ومن إفراغ معنى الدين ومن أفق الانتظار، في الوقت الذي هزّ فيه "مفكرو الإسلام الجدد" الأسس الدينية والسياسية للإسلاموية بواسطة قراءاتهم التناصية والبَيْدينية أو التأويلية.

ترتكز الفكرة الخلاصية، التي يعاد تنشيطها بين الفينة والأخرى في التاريخ الإسلامي، إلى بعض الأحاديث النبوية الخاضعة إلى تعديلات مستمرة بواسطة التفسيرات التي تعطى لها. وتتنبأ هذه التأويلات باهتزاز "القواعد المؤسِّسة لمدينة المسلمين" وبانتصار المسيحيين "ردحاً من الزمن على الإسلام"[41]. ويبدو أن "انتصار الغرب" الحالي في العالم

---

(40) متوافر على الموقع الآتي:
www.21eme-siecle.org.

(41) Daniel Rivet, *Le Maghreb à l'épreuve de la colonisation* (Paris: =

وفي أرض الإسلام، يقنع عدداً من المؤمنين بصحة السبب الأخروي. كما يدل فشل الأسباب الأخرى الوضعية التي وسمت حقبة التغريب الماركسية خلال يوفوريا الخمسينيات وحتى السبعينيات، وأيضاً فشل الإسلاموية التي هيمنت على عقدي الثمانينيات والتسعينيات، على حدود النماذج المقلدة ليذكر بضرورة حلول الكوني محل الدنيوي.

ونشدّد من جديد أنه من دون هذه "النغمة الدارجة" التي لا تستبعد البتة العقلانية القيمية، لا يمكننا فهم التضحية بالذات وإعادة تعريف مصطلح "شهيد" المتعدد المعاني على امتداد قرون[42]، انطلاقاً من تفسير وحيد قطبي المرجع، بوصفه "مجرد تغيير في الحياة" وليس موتاً[43]. ويمكن القول إن الاستمرارية في التطرّف القطبي هي التي تقود إلى قطيعة القاعدة مع التقليد الإسلاموي الكلاسيكي. فالمعارضة الإسلاموية المتطرفة، ومعها سيد قطب، قد ارتسمت على الدوام في "زمن أنطولوجي" يرى إلى "الماضي على أنه المستقبل الناجز وإلى المستقبل على أنه الماضي المعاد توكيده"[44]. بيد أن "الخروج من الإسلاموية" من بوابة التطرف الإسلاموي، كما تفعل القاعدة، يجعل من المستحيل إنجاز أي تغيير سياسي واجتماعي بواسطة الإصلاح أو العنف، وهو تغيير ضروري للعودة إلى هذا "الزمن الأنطولوجي" إبان عصر النبي وخلفائه "الراشدين" الأربعة.

= Hachette, 2002), p. 25.

(42) Zakaria Seddiki, "Le Martyr en islam: Témoigner et vivre par la mort," *Maghreb-Machrek*, no. 186 (2006), pp. 85-92.

(43) Olivier Carré, *Sayyid Qotb, Mystique et politique: Lecture révolutionnaire du Cor'an par Sayyid Qotb, frère musulman* (Paris: CERF-Presses de la FNSP, 1984), pp. 62-64.

(44) Aziz Al-Azmeh, *Islams and Modernities* (London: Verso, 1993), p. 48.

أن تصبح منشقاً مسلحاً

لقد شددتُ إلى الآن على شخصية بن لادن الكارزمية مع أنها لم تكن الوحيدة التي وسمت القاعدة، كما شددت من ورائها على التطرف الجديد الصادر عن هوامش المجتمعات الإسلامية. ثمة شخصيات أخرى معروفة من الجمهور العريض تحمل بدورها مسارات قريبة من النماذج المثالية والممثلة لعدد من المجاهدين.

الوجه الأول هو أحمد فاضل الخلايلة، المعروف باسم محمد الغريب أو باسم أبو مصعب الزرقاوي الذي لم يصبح من أتباع بن لادن إلا في عام 2004، قبيل موته في العراق في السابع من حزيران/ يونيو 2007. ولد الزرقاوي في الأردن ولم يتطرّف إلا بعد فترة تتسم بالبؤس والفشل المدرسي كما تتسم بـ "الانحدار" والسجن لأسباب تتصل بالانحراف المبكر. عند خروجه، جذبته الرومنطيقية الأفغانية وصورة عزّام الأسطورية التي تلخص بحد ذاتها الهجرة[45] والكفاح وتضحيات العرب الأفغان. وقد جعله مسعاه هذا فريسة سهلة بالنسبة إلى شبكات التجنيد التي تعمل بمباركة من عمّان[46].

---

(45) للاطلاع على سيرته التي كتبها عبد الله بن عمر انظر:
Barry Rubin and Judith Colp Rubin, *Anti-American Terrorism and the Middle East, Understanding the Violence* (Oxford: Oxford University Press, 2002), pp. 62-64.

(46) "كتبت لوريتا نابوليوني، وهي كاتبة سيرة حياته، تقول: "كانت الحكومة الأردنية على عجلة من أمرها في تصدير صانعي الشغب، فسهلت انتقال أحمد فاضل". كان المجنِّد، الشيخ عبد المجيد المجالي المعروف بلقب "أبي قتيبة" ممثل الأردن في المكتب العربي الأفغاني، وقد أخذ على عاتقه كل الترتيبات والنفقات الضرورية للسفر إلى أفغانستان."
Loretta Napoleoni, *Insurgent Iraq: Al Zarkaoui and the New Generation* (London: Constable, 2005), p. 41.

وفي أفغانستان تولاه محمد المقدسي وهو شخصية فكرية معروفة في الأوساط الإسلاموية. تأثر المقدسي بحركة جهيمان العتيبي الإخوانية وبمن بقي حياً من بعده، وقد التقاهم في الفترة الواقعة بين العامين 1981 و1982[47]. كان يكبر الزرقاوي بسبع سنوات وكان مجلّلاً بهالة البطل بما أنه أنجز بشكل مزدوج مهمة الهجرة حين غادر فلسطين أولاً في العام 1967 عندما كان مجرد طفل، ثم حين انضم منذ العام 1980 إلى صفوف المقاتلين العرب الأفغان الأوائل. وكما الكثيرين من قبله، "وضع الدين في خدمة الحرب وليس العكس"[48] على أرض الجهاد هذه.

بنى الزرقاوي لنفسه، في منفاه، صورة أسطورية، ولاسيما حينما قدم شقيقته زوجة إلى صالح الحامي، وهو أردني أصيب بإعاقة في القتال، عاقداً قرابة حقيقية ورمزية مطابقة كل التطابق مع التعاليم النبوية. عند عودته من أفغانستان، دخل السجن في العام 1995 بسبب معارضته الشرسة لاعتراف الأردن بإسرائيل. خلال هذه الفترة التي قاوم فيها عمليات التعذيب وأثبت تضامنه مع السجناء الآخرين، حتى غير الإسلامويين منهم، فرض نفسه أميراً، فأسقط إلى المرتبة الثانية أستاذه المقدسي المسجون مثله. وبعيد خروجه من السجن، عاد إلى أفغانستان حيث شكل مجموعته السياسية والعسكرية الخاصة به. واكتملت الأسطورة مع خروجه من جبال تورا بورا في العام 2001. طغى عليه شعور بالعجز أمام القنابل، أي أمام ظلم البشر، فأمضى أياماً عدة يبكي ويتوسل إلى الله حتى يعطيه القوة. وقد نالها، إذ، كما يقول مؤرخوه، تمكن موكبه المؤلف من

(47) Thomas Hegghammer et Stéphane Lacroix, "Rejectionnist Islamism in Saudi Arabia: The story of Juhayman al-'Utaybi Revisited," *Middle East Studies*, no. 39 (2007), p. 115.

(48) الجهادي المصري، كمال السعيد حبيب، ذكره:
Fawaz A. Gerges, *Journey of the jihadist, Inside Muslim Militancy* (Austin: Harcourt Inc., Orlando, 2006), p. 112.

عدة مئات السيارات من مغادرة أفغانستان من دون أن تتم إصابته ولو مرة واحدة. تمركز بداية في كردستان العراق حيث استقبلته منظمة إسلاموية كردية تدعى "أنصار الإسلام" ثم انتقل إلى الأراضي العراقية العربية حيث أعلن ولاءه لبن لادن وأصبح أحد أهم صانعي إرهاب لا حدود له سواء أكان ضد الأميركيين أو ضد الشيعة[49].

تحدّى الزرقاوي بشكل مزدوج شرعية الأردن كدولة إسلامية، من خلال ارتباطه أولاً بهذا "الغريب" الأفغاني بعد فترة سجنه الأولى، ثم في الزرقاء، مسقط رأسه، بعد فترة سجنه الثانية، فجاء التحدي من أعلى (من "أمة المؤمنين") ومن أسفل (التضامن مع القاعدة التي تحددها مدينته).

تعود سيرة الحياة الثانية إلى الدكتور أيمن الظواهري[50] المولود في العام 1952 والمعتبر الشخصية الثانية في القاعدة. يتحدر الظواهري من واحدة من أكبر السلالات القاهرية العريقة، تضم عائلته اثنين وثلاثين طبيباً على أقل تقدير ورئيساً لمجلس الأمّة على امتداد ثلاثة أجيال. وعلى عكس الزرقاوي، بلغ التطرف، ليس من طريق البؤس، ولكن من طريق طهرانية الثري المرفقة بتجربة العمل السري في المراهقة. وتشكل عائلته مثالاً على التغريب الذي لا يستثني الطهرانية الدينية من أخلاقيات مرتبتها الاجتماعية العالية.

بعد إعدام سيد قطب، أسّس الظواهري، وكان آنذاك في الرابعة عشرة من عمره وحسب، تنظيمه السري الأول، الذي ظل ناشطاً حتى الثمانينيات. وكواحد من قدامى المقاتلين في أفغانستان حيث ذهب

---

(49) Jean-Pierre Milelli, "Un texte attribué à al-Zarqaoui, " *Maghreb-Machrek*, vol. 181 (2004), pp. 92-110.

(50) بالنسبة إلى الظواهري، انظر:
Wright, *The Looming Tower: Al Qaeda and the Road to 9/11*, pp. 32-59.

للمرة الأولى في العام 1980، صار يمثل الرمز وشخصية الأب لـ"تطرف الأثرياء" وعلى عكس الزرقاوي، لم يرتبط الظواهري لا بـ "الغرابة" ولا بأحد أحياء مصر الراقية (المعادي)، بل لجأ، كما يدل لقبه الحربي "عبد المعز" إلى الله "واهب الشرف". يشترك مع الزرقاوي في تجربة السجن والتعذيب وكذلك في كرهه لـ"حكومته". وفي حين أن هاتين الشخصيتين اللتين تمثلان شخصيات أخرى كثيرة، تتناقضان في كل شيء، إلا أنهما تشتركان في تشكيل هوامش المجتمعات العربية والإسلامية، من خلال تجاربهما في السجن، وفي الهجرة وفي تشكيل مجتمعات موازية في مخيمات التدريب.

يمثل الظواهري، ضمن الحراك المتطرف، توليفة ما بين العلموية وانتظار الخلاص. وكما الزرقاوي، يجد مورده في القوة (الصلابة والقسوة متى لزم الأمر، وفي النزاهة وقوة الاحتمال)، وفي الضعف (البكاء العلني، العار المعترف به، التضرع العلني إلى الله من "ظلم" البشر). لكن، على عكس الزرقاوي، يدفعه واجب مزدوج يرقى إلى المبدأ المجرد. الواجب الأول هو الانتقام لسيد قطب، "الشهيد" المصري في فترة مراهقته[51]؛ والثاني التكفير عن ضعفه الشخصي الذي أجبره في بداية الثمانينيات، على أن يفشي باسم أحد أتباعه وهو عصام القمري[52]. وكما يقول أسامة رشد، وهو عضو في الجماعة الإسلامية ممن شاركوا الظواهري زنزانته: "قضى الظواهري ثلاث سنوات في السجن. لقد دمروه من الداخل. مارسوا عليه أشد أنواع

(51) عند ذكر هذه الحادثة، كتب في مذكراته يقول: "ظن النظام الناصري أن الحركة الإسلامية قد تلقت ضربة قاتلة مع إعدام سيد قطب. بيد أن الهدوء على السطح كان يخفي تفاعلاً فورياً بين أفكار سيد قطب وبين تشكل نواة صلبة في الحركة الجهادية الحديثة في مصر"، Ibid., p. 37.

(52) Ibid., p. 52.

التعذيب. أجبروه على أن يشهد ضد أحد أصدقائه. [...] إذا كنت تود أن تحمّل شخصاً مسؤوليات جسيمة في تأسيس جبهة بن لادن [ضد الصليبيين واليهود التي تأسست في العام 1998]، فإن هذا الشخص هو مبارك"(53). يقول الظواهري نفسه في مذكراته إن "أقسى ما يمكن في الأسر هو إجبار مجاهد، تحت التعذيب، على أن يفشي بأسماء رفاقه ويدمر بيديه التنظيم ويسلم أسراره وأسرار رفاقه إلى العدو"(54).

لم يفقد الظواهري اهتمامه بمصر وبـ"ثورتها الإسلامية"(55)، ولم يفقد نوعاً من البرغماتية على المستوى المحلي. ولكن سرعان ما اكتسب قامة دولية في عيون الأوساط المتطرفة الإسلاموية في مختلف أصقاع العالم (الولايات المتحدة، بوسنيا، سويسرا، آسيا، القوقاز). احتفظ بنوع من الاستقلالية بالنسبة إلى القاعدة حتى حزيران/ يونيو من العام 2000، وقاد في التسعينيات، في السودان، مخيماً مؤلفاً من بضع مئات من العرب، تمتعت غالبيتهم بمستوى ثقافي عالٍ وأبدى شراسة كبيرة مع "الجواسيس" الذين أرسلتهم الحكومة المصرية. أما رفاقه، الذين اصطحبوا أحياناً زوجاتهم وأطفالهم، فقد رفضوا جميعهم فساد هذا العالم وراحته مع ما تمثله الرواتب الخيالية التي وعدتهم بها مؤسسات الخليج.

ثمة وجوه رمزية أخرى متصلة بتجربة الهجرة تمثل بدورها

---

(53) Bergen, *The Osama bin Laden I Know: An Oral History of Al-Qaida's Leader*, p. 67.

(54) Wright, *The Looming Tower: Al Qaeda and the Road to 9/ 11*, p. 52.

(55) Ayman Al-Zawahiri, "On the Islamist Revolution in Egypt (2001)," in: Rubin and Colp Rubin, *Anti-American Terrorism and the Middle East, Understanding the Violence*, pp. 69-72.

شخصيات شبه نمطية مثالية. في بعض الأحيان، نصادف مخططاً أثبت نجاحه: "يقوم مبعوث مسيّس [...] بتجنيد الشبان، الذين انجرفوا في غالبيتهم نحو الانحراف البسيط، من دون الأخذ بالاعتبار أصولهم الإثنية بقدر ما أن الأهم هو أن يكونوا مهمشين اجتماعياً، ليعتنقوا أخيراً هوية إسلامية بحتة، في حين أنهم لا يملكون حقاً أية ممارسة ولا أية معرفة دينية سابقة"(56).

يتناسب زكريا موسوي مع هذا الوصف تماماً، وهو المتورط مع القاعدة في هجمات الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر وسواها. نشأ الموسوي في أسرة مهاجرة لا بنية للسلطة فيها ولا نقطة ارتكاز، في وسط حيث العنف المنزلي يقابله عنف زعيم يسعى إلى أن يطاع في الحي الذي يعيش فيه. رجل صنع نفسه بنفسه، مصيره المفترض "البيرة والبليار والملاهي الليلية"، تسيّس بتأثير من حرب الخليج في العام 1991 ليتماثل مع نادي "السود" ضد "الفرنسيين البيض" ويلتقي في جامعة مونبيليه مع الإسلاموية وأعمال سيد قطب. اكتشف في لندن، حيث تسجل في "ماستر الأعمال الدولية" في جامعة ساوث بانك، أن القرآن والسنة كافيان لتعلّم أسس الدين(57).

محمد عطا، حالة أخرى، معروفة هي أيضاً. ولد في العام 1969 في محافظة كفر الشيخ في دلتا مصر، ابن أسرة ملتزمة من الطبقة الوسطى، لا يعرف بأي التزام سياسي في خلال مراهقته، ولا حتى في خلال سنواته الجامعية الأولى. قطع مع "النظام" كما قطع أيضاً وبسرعة مع "العالم" في ألمانيا حيث استقر كطالب ممنوح من الحكومة الألمانية صبيحة

---

(56) Olivier Roy, *L'Islam mondialisé* (Paris: Seuil, 2002), p. 194.

(57) للاطلاع على هذه المعلومات، انظر: Abd Samad Moussaoui et Florence Bouqillat, *Zacaria Moussaoui, mon frère* (Paris: Denoël, 2006).

حرب الخليج في العام 1991. أدى هذا النزاع دوراً مهماً في "توعية" هذا المهندس الشاب حول علاقات الغيرية مع الغرب. انتقل من مناصرة العالم الثالث المتأخرة إلى نوعية من العروبة التي لا تسمي نفسها وصولاً إلى الانزلاق نحو التطرف. لم يقع انتقاله إلى العنف في سياق مواجهة مباشرة مع "عدو" ولكن في "بيئة محبة ومسالمة"[58] بعد "أزمة اقتصاد الهبات" حين لم يتمكن من رد الامتيازات التي حظي بها، ما أفضى به إلى "انقطاع الافتتان"[59] انقطاعاً كاملاً. فبدت له "الهبة" الممنوحة من "الغرب" بمثابة علامة الإذلال الأخيرة التي يقبلها الممنوحون/ الضحايا "العرب" أو "المسلمون".

تأثر عطا كذلك بحرب البوسنة، ونما لديه تدريجاً، ولكن في إطار زمان ومكان مكثفين للغاية، تديّن روحاني إلى درجة أنه أكد، بحسب سيرته الذاتية، شفاء الضيق الذي تعاني منه شابة ألمانية أوصاها بقراءة بعض آيات القرآن. تردد إلى مسجد القدس ولكنه انكفأ بسرعة إلى ما سيصبح في ما بعد "مجموعة هامبورغ"، وهي كناية عن شبان عرب يتقاسمون المسيرات ذاتها. وبدافع من مسعاه الروحاني، سافر هذا الطالب اللامع إلى مكة لأداء فريضة الحج، ثم قام بزيارة وداع إلى مصر قبل أن يختار حلب، المدينة الأكثر تعددية من حيث الطوائف، لتشكل ميدان رسالته الدراسية قبل نيل الشهادة العليا[60].

---

(58) للاطلاع على أثر هذا النوع من البيئات ومن أنظمة الحماية النرجسية، انظر: Nicole Jeammet, *Les Violences morales* (Paris: Odile Jacob, 2004), p. 228.

(59) Pierre Bourdieu, *Méditations pascaliennes* (Paris: Seuil, 2003), p. 287.

(60) لاستنساخ هذه الصفحة، انظر: Roland Jacquard, *Les archives secrètes d'Al-Qaida* (Paris: Jean Picolick, 2002), p. 228.

في العام 1995، كتب عطا وصيته التي منع فيها مشاركة النساء في مراسم دفنه كما منع أي مظهر من مظاهر الحداد. وعلى عكس القواعد المحددة والخاصة بجثمان الشهداء، طلب أن يغسل بماء الكولونيا. ثم على امتداد ست سنوات، عمل على قطع كل ما لايزال يربطه بهذا العالم، وبالأخص دراساته ليصبح "رجلاً ميتاً يمشي"[61]. في تشرين الثاني/ نوفمبر 1999، تدرب في مخيم خلدان في أفغانستان مع ثلاثة من رفاقه في خلية هامبورغ هم رمزي بن الشبح ومروان الشحي وزياد الجرّاح. وعند عودته إلى هامبورغ سار في الدرب التي ستقوده إلى تنظيم هجمات الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر 2001.

شكل أحمد عمر سعد الشيخ حالة أخرى. إذا كانت أوروبا قد عنت "الغرابة" بالنسبة إلى عطا، إلا أنها كانت مسقط رأس الشيخ. ولد هذا الأخير في بريطانيا في العام 1973 في كنف أسرة باكستانية فاحشة الثراء بحسب معايير بلده الأصلي، وذات مستوى عالٍ إلى حد ما بحسب المعايير البريطانية. كان مساره مثالياً: تلميذ في مدرسة لندن سكول أوف إيكونوميكس المرموقة، عرف بكرمه وغيريته. فقد غامر بحياته لإنقاذ رجل أراد الانتحار برمي نفسه على سكك قطار الأنفاق اللندني.

من الواضح أن الشيخ لم يكن شديد التأثر بحرب أفغانستان في الثمانينيات، ولا بحرب الخليج في العام 1991. كانت النزاعات البلقانية التي قرئت خارج سياقها كحرب المسيحيين ضد المسلمين الأوروبيين، هي التي أطلقت آلية التطرف لديه. بعد اطلاعه على وثائقيات حول

(61) للاطلاع على النص الذي يحمل عنوان "الليلة الأخيرة" والذي يستعيد عناصر هذه الوصية ومعها سير حياة المسؤولين التسعة عشر عن اعتداءات الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر، انظر: Rubin and Colp Rubin, *Anti-American Terrorism and the Middle East, Understanding the Violence*, pp. 233-238.

البوسنة، انخرط في "جمع التبرعات" لمصلحة البوسنيين وفي الكثير من اللجان. فالتقى حينذاك المدعو عبد الرؤوف، المبشر بالمعنى الذي تستخدم جان فافري سعادة (Jeanne Favret Saada) هذه الكلمة[62]، الذي قدم له تفسيرات لأزماته وسمح له بالتالي بإعادة صياغة تساؤلاته وبرؤية العالم منقسماً بين دار الإسلام ودار الحرب. كانت هذه بداية آلية سريعة تتسم بعمليات خطف البشر والطائرات وأخيراً باغتيال دانييل بيرل (Daniel Pearl)، مراسل وول ستريت جورنال، في الأول من شباط/ فبراير والذي أدى فيها الشيخ دوراً مركزياً[63].

دعونا نذكر أخيراً حالة الملا كرايكار، أو المدعو فتح نجم الدين فرج، أو نجم الدين فرج أحمد، المنتمي إلى تنظيم أنصار الإسلام الذي أشار إليه كولين باول في العام 2002 كدليل على العلاقة بين القاعدة والنظام العراقي. يدل لقبه "الملا كرايكار" (أي الملا العامل) تقاربه مع موضوعات اليسار في السبعينيات. ولد هذا المناضل الكردي في العام 1956 في السليمانية ودرس الفقه الإسلامي في باكستان تحت عبد الله عزام، وقدم أطروحة بعنوان "منهج الدعوة في تاريخ موسى". يحمل كل من أولاده الأربعة اسماً متصلاً بميراث سيد قطب: سيد قطب، معالم (بحسب كتاب سيد قطب **معالم في الطريق**)، ظلال (بحسب كتاب سيد قطب المهم الثاني) و ابن تيمية (معلم سيد قطب البعيد). انخرط في الأوساط الإسلاموية المتطرفة والتجأ في العام 1991 إلى النروج، أرض

---

(62) للاطلاع على هذا المفهوم، انظر: Jeanne Favret-Saada, *Les Mots, la mort, les sorts* (Paris: Gallimard, 2002).

(63) للاطلاع على سيرة حياته، انظر: Yosri Fouda, Nick Fielding, *Masterminds of Terror. The Truth Behind the Most Devastating Terrorist Attack the World Has Ever Seen* (New York: Arcade, 2003).

التطرف البعيدة، حيث ساهم في تشكيل التنظيم الإسلاموي المتطرف "أنصار الإسلام"[64].

تدل دراسات دومينيك توماس وأمينة محمد عارف[65] على أنه بالرغم من الطابع الاستثنائي للحالات التي تم إحصاؤها، فإن النضالية المتطرفة انطلاقاً من أوروبا يمكن أن تقود بسهولة إلى الانخراط بالعنف.

هجرة التسعينيات

لا يمكن للقارئ الذي يحاول متابعة الأوساط التي تدور حول القاعدة إلا أن يحس بالدوخة. بحسب معطيات الاستخبارات الأميركية عن العام 2001، تألفت أوساط القاعدة في أفغانستان من 2830 شخصاً أتوا من العالم العربي: 594 مصرياً، 401 أردني، 291 يمنياً، 255 عراقياً، 162 سورياً، 177 جزائرياً، 111 سودانياً، 63 تونسياً، 35 مغربياً، 32 فلسطينياً وبضعة عشرات من السعوديين[66]. وبحسب تقديرات مشاركين في مؤتمر عقد في العام 2006 حول الموضوع، ثمة "87% من جهاديي اليوم يشاركون في الجهاد انطلاقاً من بلد ليس هو بلدهم الأصلي"[67].

(64) هو ليس الوحيد. بعد أن أمضى كردي آخر من أصول لبنانية ويدعى مصطفى درويش رمادا، أربعة عشر عاماً في المنفى في الدنمرك، انضم إلى صفوف أنصار الإسلام ليصبح أحد قادة التنظيم تحت لقب عبد محمد اللبناني ويقتل في العام 2005. Gerges, *Journey of the jihadist, Inside Muslim Militancy*, p. 273.

(65) Dominique Thomas, *Le Londonistan: Le Djihad au Coeur de l'Europe* (Paris: Michalon, 2005), et Aminah Mohammed-Aref, "Mouvements migratoire et ré-islamisation: Effets de miroir et chocs en retour dans le sous-continent indien," dans: Aminah Mohammed-Aref et Jean Schmitz, *Figures de l'islam après le 11 Septembre: Disciples et martyrs, réfugiés et migrants* (Paris: Karthala, 2006), pp. 257-278.

(66) Zidane Meriboute, *La Fracture islamique* (Paris: Fayard, 2004), p. 115.

(67) Nichole Argo, *Human Bombs: Rethinking Religion and Terror* =

فخريطة الكوكب تعيد تركيب نفسها في كل لحظة وليس فقط بواسطة "الهجرة السيبرّانية"[68]، إذ ترى المسارات الفردية تضيع تارة في آسيا وتارة في أفريقيا مروراً أحياناً بأوروبا أو الولايات المتحدة[69]. وصارت صلات القربى والالتزامات الجديدة تقوم وتنفك بسرعة مذهلة بين "المجاهدين الدوليين"، على غرار الزرقاوي أو الظواهري، الذين يكافحون من أجل تدمير أنظمتهم انطلاقاً من بلد آخر، وبين "المجاهدين المحليين" الذين بقوا في أماكنهم[70].

هي "شبكات إرهاب" بالنسبة إلى من يهتم بالأمور الأمنية، بيد أنها مجموعات تثير اهتمام الباحث بما تقوله عن هوامش مجتمعات العالم الإسلامي، حيث تقود ذاتيات جديدة إلى قيام "مواثيق" موقعة بالدم وممهورة بالسرية، كما فعل قراصنة الجو التسعة عشر يوم الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر. تسمح هذه المسارات الفردية المتمايزة على الرغم من امتزاجها، بمقاربة تَمَفْصُل منطق الالتزام، القابل للتضحية بالذات، مع بيروقراطية باردة، كما نراها في حالة القاعدة، تأخذ العنف على عاتقها. يجب فهم هذه الهوامش بوصفها أماكن حيث تولد ولاءات جديدة[71]، من طريق الخضوع الطوعي أو القهري، قادرة على أن

= (Boston: MIT, 2006).

(68) للاطلاع على "هجرة المبحرين على الإنترنت" انظر:
Jean-Pierre Filiu, *Les Frontière du djihad* (Paris: Fayard, 2006), p. 305.

(69) Fawaz A. Gerges, *The Far Enemy: Why Jihad went Global*? (Cambridge: Cambridge University Press, 2005).

(70) انظر، على سبيل المثال: Terry McDermott, *Perfect Soldiers: the 9/ 11 Hijackers. Who they were, why they did it*? (New York; London: Harper, 2006).

(71) يمكن أن نتبنى في الحديث عنهم التعريف الذي يقدمه دانييل بيكو (Daniel Pecaut) عن شبكات العنف المقبولة بوصفها "تمتلك موارد سلطة مختلفة وتفرض نظاماً =

تلتحق فيما بعد بأساس تعاضدي يسبقها حيث يتم ابتكار أشكال قربى جديدة، سواء بالمعنى الحرفي، عندما "وهب" الزرقاوي شقيقته إلى مجاهد معاق، أم بالمعنى الرمزي، حينما آخى أسامة بن لادن الملا عمر الأفغاني. كل هذه أمكنة تولد فيها "حالات عنف مؤسِّسة" تخيف الدول أشد الخوف[72] وتترسخ فيها أصول مستعدة لأن تتحول إلى سرديات تاريخية.

على نقيض هذه البنية العابرة للحدود، ولكن بشكل متكامل عضوياً معها، نشأت أرضية تطرف نتيجة حالة العزلة أو السجن أو مخيمات التدريب. ففي وضعية الاعتقال تشكلت وتمأسست صورة جديدة للذات وسلاسل أو انتماءات روحية وسلطات كارزمية وتراكيب سياسية وإيديولوجية غير مسبوقة. في السجن، أي في ظروف انعدام الحرية وإخضاع الجسد إلى التعذيب، ابتكر الزرقاوي ومعلمه المقدسي وأيضاً الظواهري، كما سيد قطب في الماضي، متخيلاً لحرية عملهم لا قيود له ولا حدود.

كذلك الأمر بالنسبة إلى المخيمات. أجرى برنار روجييه (Bernard Rougier) دراسة حالة ملفتة بيّن فيها كيف أن مخيماً فلسطينياً يقطنه 35000 شخص في عين الحلوة في لبنان، وقد كان تحت سيطرة منظمة التحرير الفلسطينية، ثم تأثر بالتطرف الشيعي، الذي تراعيه فتح حتى تعطي شرعية لها في جنوب لبنان، وجد نفسه "غارقاً في العالم الاجتماعي

= جماعياً يتضمن نسبة قوية من القهر ولا تستدعي الاعتناق الطوعي بل الولاء القهري، كما تقيم حدوداً أرضية محددة ولا تحيل إلى أي بناء رمزي"،
Daniel Pecaut, "Réflexions sur la violence en Colombie," dans: Françoise Héritier, dir., *De la violence* (Paris: Odile Jacob, 1996), p. 257.

(72) Jacques Derrida, *Force de loi: Le Fondement mystique de l'autorité* (Paris: Galilée, 1994), p. 86-87.

والإيديولوجي للمجاهدين". وإذا كانت وضعية المخيم في الأراضي اللبنانية تمكنه من التهرب من أي رقابة للدولة عليه(73)، إلا أنها تسقطه كذلك في هوية فلسطينية تحددها السلفية الجهادية التي تحمل إيديولوجيا "ولدت في بيشاور، في وسط الجهاديين الدوليين وتطورت مذاك بشكل مستقل عبر جماعات تعتبر نفسها طليعة الإسلام"(74). أما صورة الأب التي يمثلها عبد الله عزّام، الفلسطيني والمقاوم الأفغاني فهي تغذّي المخيم بالمعنى وبالشرعية. فمنذ نهاية الثمانينيات، قامت "شبكة اتصالات بين بيشاور وعين الحلوة" إلى درجة أن "جزءاً من لاجئي عين الحلوة كان قد [...] تملّكه متخيّل بيشاور، المدينة الباكستانية التي شكلت قاعدة النضال للمتطوعين العرب المتوجهين إلى الجهاد في أفغانستان"(75).

امتلكت القاعدة في فترة الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر بنية هرمية، وكان على رأسها بن لادن، بوصفه كفيل العقلانية القيمية وانتظار الخلاص الأخروي، والمتجاذَب باستمرار بين دور السياسي ودور المخلص المنتظر كما تكشف لنا عاداته في الملبس. وفي الوسط، كان ثمة بيروقراطية فعالة وعقلانية، قادرة على القيام بالتوظيفات الاقتصادية المربحة مثلما تقوم بالأعمال العسكرية المحضَّرة بدقة. وأخيراً، في قاعدة الهرم، وقف المناضلون الأوفياء، إلى درجة أنهم اعتبروا جسدهم بمثابة الملكية الوحيدة التي يجدر التضحية بها للشهادة على قدسية القضية. وقد رفعهم هذا القبول بالتضحية إلى مرتبة قادة روحيين وأفضل أتباع النبي. وبحسب بن لادن، لم يكن المشاركون في هجمات الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر "على دراية بالفقه، بالمعنى المتعارف عليه للكلمة.

(73) Bernard Rougier, *Le Jihad au quotidien* (Paris: PUF, 2004), pp. 145-148, p.159.

(74) Ibid., pp. 17-18.

(75) Ibid., p. 67.

لكنهم امتلكوا الفقه بحسب تقليد محمد، الصلاة والسلام عليه، وكان يعلي التضحية بالذات من أجل [إسماع نداء] لا إله إلا الله"[76].

كمنت قوة القاعدة في قدرتها على جعل التضحية بالذات مقبولة كطريقة عمل مشروعة من خلال سجلين متناقضين: الواجب والإرادة. هي واجب جماعي يقع على عاتق أمة المسلمين وهي مقبولة طوعاً من الفرد على أنها بملء إرادته[77]. وهكذا، تشكلت "هوية عابرة للثقافات"[78]، كما هي بالتأكيد عابرة للأجيال والطبقات، أمّنت إعادة إنتاج العنف القائم على التضحية بالذات.

بعد الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر

إن قبول المئات وحتى آلاف الشبان بالفرض الجماعي قبولاً طوعياً قد جعل من الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر نقطة انطلاق حلقة جديدة من أعمال العنف التي تستخدم أساساً الجسد كسلاح لها. والقائمة تطول منذ تاريخ الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر: جزيرة جربا (11 نيسان/ أبريل 2002، 21 قتيلاً)، مومباسا (28 تشرين الثاني/ نوفمبر 2002، 18 قتيلاً)، بالي (12 تشرين الأول/ أكتوبر 2002، 202 قتيلاً، 10 تشرين الأول/ أكتوبر 2005، 23 قتيلاً)، الرياض (12 أيار/ مايو 2003، 35 قتيلاً)، الدار البيضاء (16 أيار/ مايو 2003، 45 قتيلاً)، إسطنبول (16 و20 تشرين الثاني/ نوفمبر، 43 قتيلاً)، أربيل (2 آذار/ مارس 2002،

(76) Gerges, *Journey of the jihadist: Inside Muslim Militancy*, p. 207.

(77) يقول موريس هالبواكس (Maurice Halbwachs) "إن المنتحر وليس أكثر منه المضحى به لا يشاور إلا نفسه. فالأول والثاني ينفذان فعلاً تكمن أسبابه في تمثلات أو فروض جماعية"، Maurice Halbwachs, *Les Causes du suicide* (Paris: Alcan, 1930), p. 475.

(78) Farhad Khosrokhavar, *Quand Al-Qaida Parle: Témoignages derrière les barreaux* (Paris: Grasset, 2002), p. 20.

204 قتلى)، مدريد (11 آذار/ مارس 2004، 191 قتيلاً)[79]، سيناء (8 تشرين الأول/ أكتوبر 2004، 34 قتيلاً)، لندن (7 تموز/ يوليو 2005، 56 قتيلاً)، شرم الشيخ (23 تموز/ يوليو 2005، 60 قتيلاً)، عمان (9 تشرين الثاني/ نوفمبر 2005، 60 قتيلاً)، دهوب (26 نيسان/ أبريل 2006، 20 قتيلاً)، الجزائر العاصمة (11 نيسان/ أبريل 2007، 33 قتيلاً) ، سنكار (كردستان العراق، أكثر من 500 ضحية يزيدية، 16 آب/ أغسطس، 2007). يضاف إلى هذه القائمة اختطاف رهائن في المسجد الأحمر في إسلام آباد في تموز/ يوليو 2007 وموجة الاعتداءات الانتحارية ولا سيما ضد الجيش الباكستاني (حوالي 1000 قتيل) أو الهجمات المجهضة الأخرى (الدار البيضاء[80]، لندن وغلاسغو).

إذا كانت "الحرب ضد الإرهاب" قد خرجت عن نطاق الحدود الضيقة وإذا كانت صورة "الشهيد - النصير" قد أصبحت مصدر قلق على نطاق العالم[81]، إلا أن الرومنطيقية القاعدية القاتلة تصبح كونية بدورها لتنتج "جمالية"[82] عنف جديدة أشد سحراً بكثير من تلك التي سادت في ثمانينيات القرن العشرين، إلى درجة أنها جذبت، في كل مكان تقريباً، أجيالاً "عفوية" انتمت إلى القاعدة. عدد الحالات الكبير يحول بالطبع دون تقديم معلومات مفصلة عن هذه الأجيال. لذا، سنكتفي ببضعة أمثلة:

---

(79) Les testaments "Nous, le bataillon de la mort," *Libération* (10 mars 2005).

للاطلاع على نص إعلان المسؤولية من جانب القاعدة، انظر:

Gilles Kepel, *Fitna: Guerre au cœur de l'islam* (Paris: Gallimard, 2007), pp. 206-207.

(80) Ali Amar et Taleb Chadi, "Sidi Moument, la fabrique de Kamikazes," *Courrier International*, no. 859 (2007), p. 13.

(81) Gerhard Scheit, *Suicide Attack: Zur Kritik der politischen Gewalt* (Caira: Fribourg, 2004), p. 375.

(82) Ibid., p. 500.

في المملكة العربية السعودية، من أصل قائمة تضم 26 "إرهابياً" مطلوباً من الشرطة، تتراوح أعمارهم ما بين سن الثامنة عشرة وحتى الخامسة والعشرين، ثمة أشخاص احتلوا مواقع في مؤسستي الشرطة أو الجيش. ومن بينهم كذلك أعضاء سابقون في الشرطة الدينية وطلاب من جامعة الإمام محمد بن سعود في الرياض(83). أما زعيم القاعدة المفترض في هذا البلد فهو عبد العزيز المقرن، وهو ضابط في الجيش السعودي، وخلفه المفترض ويدعى صالح العوفي قائد سابق في شرطة جدة(84).

في أقصى أطراف العالم الإسلامي، جمبور بودي أنغكوري، المعروف بجابر، سبعة وعشرين عاماً، "صانع قنابل" قتل في 29 نيسان/ أبريل 2006 في جاوا، يحمل سمات مختلفة في شخصه. انقطع عن أسرة يحبها حباً جماً واعتبر أن العالم الإسلامي قد أصبح هدف "الكفار والصهاينة والزنادقة [...]. منذ اغتصاب أرض المسلمين وشرفهم في فلسطين وأفغانستان وكشمير وتشيشنيا، صار لزاماً على كل المؤمنين الالتحاق بالجهاد"(85).

منذ الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر 2001، بدت القاعدة وكأنها أعادت بناء نفسها حول قادتها السابقين وأيضاً حول وجوه جديدة غير معروفة كثيراً، من بينها، بحسب نيويورك تايمز، المصريان أبو جهاد المصري وأبو عبيدة المصري والليبي عطية عبد الرحمن والمغربي

(83) للاطلاع على أوساط القاعدة في هذا البلد، انظر:
Stéphane Lacroix, "L'Arabie Saoudite entre violence et réform," *Politique étrangère*, no. 4 (2004-2005), pp. 743-755.

(84) Fatiha Dazi-Héni, *Monarchies et sociétés d'Arabie: Le Temps des confrontations* (Paris: Sciences Po, 2005), p. 110.

(85) Budi Setyarsa et Ami Afriatni [et al.], "Le Journal intime d'un fabricant de bombes," *Courrier International*, no. 818 (2006), pp. 30-31.

خالد حبيب والعراقي عبد الهادي العراقي[86]. والأهم، على غرار الزرقاوي في العراق[87] وعبد المالك دروكدال، قائد الجماعة السلفية للدعوة والقتال، الناشطة أساساً في الجزائر[88]، أعلن عدد من المقاتلين انتماءهم إلى القاعدة أو أقسموا الولاء لبن لادن. لا شيء يدل على أن هذه المبادرات المختلفة متصلة فيما بينها أو أن قبول الولاء من جانب "البنية الأم" يرتدي أي معنى من حيث العمل أو التنظيم. بيد أن المهم هو أن القاعدة قد أصبحت علامة إحالة ذاتية لأي مجموعة تدعي اتباعها. من الواضح أن المتخيّل المتطرّف لدى هوامش مجتمعات العالم الإسلامي ينتج على الدوام هزّات صغيرة مولداً تشكيلات جديدة تسقط نفسها في عالم القاعدة فتؤمن لها استمرارية تفوق آمال مؤسسيها.

كيف نفسر الإدانة التي تلت أحداث الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر في العالم الإسلامي والتي ترافقت مع هذه الحلقة الجديدة من العنف؟ في الوقائع، كان الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر هو الحدث الذي أطلق حرباً مزدوجة، داخل الحدود وخارجها، تلك التي لا قيادات فيها والتي خاضها الإسلاميون المتطرفون ضد دار الحرب والمسلمين من "أعوانها" وتلك التي قادها الأنجلو - أميركيون أساساً "ضد الإرهاب".

فسّرت الأوساط الإسلامية المتطرفة هذه الحرب الثانية التي لا نهاية

---

(86) Mark Mazetti, "Al Qaeda Displays its Resilience with Rebuilt Networks in Pakistan," *New York Times et Le Monde*: 07/ 04/ 2007.

(87) Milelli, "Un texte attribué à al-Zarqaoui, " *Maghreb-Machrek.*

(88) Raffi Katchadourian, "Marines contre djihadistes: Chasse à l'homme dans le Sahel," *Courrier International*, no. 801 (2006), pp. 46-48, et José Maria Irujo, "Un nouveau front: Le Sahel," *Courrier International*, no. 852 (2007), pp. 12-13.

لها من حيث أهدافها المعلنة، انطلاقاً من شبكة قراءة استكفائية مستندة إلى مسلّمة تقتصر على خلاصتها وهي: "وحده العنف يمكن أن يشكل رداً على الحرب الصليبية المتقطعة ضد الإسلام". من تفسير النزاعات الحالية على أنها وَرَنزاع لا يخضع لمنطق هنا والآن بل لمنطق في كل آن ومكان، إلى الصراع بين الخير والشر والسجل الأخروي، لا نجد في أغلب الأحيان سوى خطوة واحدة يجتازها الكثير من المجاهدين ضمن مكان وزمان يقتصر فقط أحياناً على بضعة أسابيع.

إلا أن الصراع ضد الشر ومن أجل الخير يحيل إلى سجل اليأس والأمل المزدوج. فكل من السجلين يضعان الفرد على حافة الهاوية ليكون مسؤولاً بشكل شخصي عن اليأس مع كونه موقع المقاومة الأخير وبالتالي موقع الأمل. حين يحمّل نظامُ الذاتية، في العقد الأول من الألفية الثانية، الفردَ هذه المسؤولية إلى أقصى الحدود، يولّد ظروف الالتزام ضمن سياق عنف أكثر فأكثر تطرفاً ليتحوّل إلى ظاهرة عادية عبر إعادة إنتاج ديناميكياته في ديمومته.

الفصل الخامس عشر

حروب العقد الأول من الألفية الثالثة

شهدت السنوات السبع الأولى من العقد الأول من الألفية الثالثة، وهي سنوات قريبة جداً لا تتسع للمسافة الزمنية الضرورية، "حرباً كونية ضد الإرهاب" على خلفية حروب دولية كانت ساحتها الشرق الأوسط الذي صار مستقبله مرتهناً بشدة لحساب اللايقينيات.

يتسم سياق العقد الأول من الألفية الثالثة بكثرة الأكاذيب وتصفية الحسابات ضمن المؤسسات السياسية الأميركية والبريطانية فحمل وجوه شَبَه كثيرة مع فترة حرب فيتنام التي حلّلتها بشكل ممتاز حنة أرندت[1] (Hannah Arendt): إنتاج معلومات مزيفة، خيانات داخلية، حروب العُصَب، الإعلان عن أسماء مسؤولي أجهزة المخابرات. بيد أنه، في ما فاق الستينيات، يمتزج اليوم منطق الحروب مع منطق متعهدي مشاريع الإكراه، ما خلط الحدود بين الدولة وبين منظمات الإكراه غير التابعة لها، وكذلك بين الأمن الداخلي والأمن الخارجي[2].

---

(1) Hannah Arendt, *Du mensonge à la violence* (Paris: Calmann-Lévy, 1972).

(2) انظر في هذا الصدد: Sami Makki, "Militarisation de l'humanitaire, =

كما كانت هذه الحقبة مناسبة تماماً لنظريات المؤامرة ("الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر لم يقع")[3] ولكل أنواع القراءات الغائية وأحياناً الاقتصادوية ("السيطرة على الموارد النفطية" كالسبب الأخير للحرب) أو أيضاً للشائعات التي تخلق الظروف المعرفية المناسبة لـ"إمكانية صدقيتها"[4] ("نظراً إلى عجز الأميركيين عن السيطرة على الشرق الأوسط فإنهم يزرعون فيه الفوضى عمداً"). أكثر من أي وقت مضى، فرضت الشائعة نفسها على الرأي العام (وأحياناً حتى على الأوساط البحثية) بوصفها نظام تفسير وتحليل يستند إلى مرتكزات موثوقة وقادرة على إعطاء معنى لعالم صار عصياً على الفهم[5].

وأخيراً ارتسم في السياق منطق تحديد ماهوي[6] للنزاعات، سواء أتمَّ تقديمها على أنها لاتاريخية، على غرار النزاع الأفغاني[7]، أو أنها

---

privatisation du militaire et stratégie globale des Etats-Unis," *Cahiers D'Études Stratégiques*, no. 36-37 (2003-2004), pp. 7-294 et le numéro spécial ("Les Entreprises para-privées de coercition: de nouveaux mercenaires?"), de la revue *Cultures et Conflits*, no 53 (2003). =

(3) Jean-Bruno Bernard, "Les Rumeurs négatrices," *Diogène*, no. 213 (2006), pp. 54-73.

(4) بالنسبة إلى "إمكانية الحدوث" و"إمكانية الصدقية" كشرط فعالية الشائعات، انظر:
Gary Alain Fine, "Rumeurs, confiance et société civile," Ibid., pp. 3-22.

(5) Allen Fieldman, "Ethnographic States of emergency," in: Carolyne Nordmann and Antonieus C. G. M. Robben, dir., *Fieldwork under Fire: Contemporary Studies of Violence and Survival* (Berkeley: University of California Press, 1995), pp. 230-231.

(6) Roger D. Petersen, *Understanding Ethnic Violence: Fear, Hatred, and Resentment in Twentieth-Century Eastern Europe* (Cambridge: Cambridge University Press, 2002).

(7) Jonathan Goodhand, "Afghanistan in Central Asia," in: Michael Pugh and Neil Cooper, dir., *War Economies in a Regional Context: Challenges of Transformation* (Boulder: Lynne Rienner, 2004), p. 47.

نابعة من أسس الإسلام نفسه الذي صار معتبراً على نطاق واسع في أوروبا والولايات المتحدة على أنه غيرية غير قابلة للاختزال وصاحب طبيعة حربية، بعد أن كان ينظر إليه بوصفه "ثقافة غريبة" ينبغي احترامها، حتى في مظاهرها القمعية[8]. والإثبات على ذلك "خزّان الصور السلبية" الضخم حول هذا الدين[9] حيث يعتبر كل صحافي نفسه مؤهلاً للتعليق على الأحداث انطلاقاً من بعض الأساطير والرموز أو الآيات القرآنية والأحاديث النبوية المعتبرة بمثابة مفاتيح قراءة أصلية ونهائية[10].

وجدت "أسلمة العالم الإسلامي" استقبالاً إيجابياً في الشرق الأوسط أيضاً الذي صار يبني نفسه بواسطة استبطان الصور. فكان لنظرية "حرب الحضارات" صدى جيداً، لأنها تبدو علمية من ناحية نظراً إلى أنها موقعة من قبل علماء ذائعي الصيت، ولأنها تقدم عكسها أي الوعد اللاهوتي بتدمير الشر من ناحية أخرى. كما تبنى العالم الإسلامي فكرة محور الشر أو "السببية الشيطانية" التي قدمتها الإدارة الأميركية ليرد عليها بسببية مشابهة فيحول الغرب إلى أحد أعوان الشيطان[11].

الحروب الأربع

مع تشرين الأول/ أكتوبر 2001، تنبأ الروائي البريطاني بفشل "الحرب ضد الإرهاب حتى النصر"[12]. كان باستطاعته أن يقول الشيء

---

(8) Unni Wikan and Generous Betrayal, *Politics of Culture in the New Europe* (Chicago: University of Chicago Press, 2002).

(9) Karim H. Karim, *Islamic Peril: Media and Global Violence* (Montréal; New York; London: Black Rose, 2001), p. XIII, and Vincent Geisser, *La Nouvelle Islamophobie* (Paris: La Découverte, 2003).

(10) Karim, Ibid., p. 11.

(11) Joseph Gabel, "Idéologie," in: *Encyclopédia Universalis, Dictionnaire de la sociologie* (Paris: Albin Michel, 1998), p. 409.

(12) ذكره: Erhard Eppler, *Vom Gewaltmonopol Zum Gewaltmarkt?* (Frankfurt: Suhrkamp, 2002), p. 20.

نفسه عن الحروب الأربع الأخرى التي خيضت في أفغانستان والعراق ولبنان وفلسطين في غضون خمس سنوات فقط.

انطلقت الحرب الجديدة ضد أفغانستان في السابع من تشرين الأول/ أكتوبر 2001 وحملت العملية اسم "الحرية الراسخة" وانتهت رسمياً في 13 تشرين الثاني/ نوفمبر مع استيلاء القوات الطاجكية على كابل. وقع ضحية الحرب 3700 قتيل من المدنيين لكنها لم تصب أهدافها الرئيسة وهي بن لادن والظواهري والملا عمر الذين ظلوا على قيد الحياة لبضع سنوات بعدها[13]. سرعان ما طُردت حركة طالبان من السلطة وبعد بضعة أسابيع من المفاوضات، أفضت اتفاقات بون في الخامس من كانون الأول/ ديسمبر 2001 إلى تأليف لجنة الدستور الأفغانية. فتحت الاتفاقية الطريق أمام تشكيل حكومة حميد كرزاي الذي صار هدف محاولة اغتيال في قندهار في 2 أيلول/ سبتمبر 2002، بعد أشهر على اغتيال نائب الرئيس حاجي عبد القادر، ثم محاولة اغتيال ثانية في حزيران/ يونيو 2007. بعد مفاوضات ومداولات طويلة جرت بين الشخصيات الدينية وشيوخ القبائل (لويا جيرغا، 14 كانون الأول/ ديسمبر 2003-4 كانون الثاني/ يناير 2004)، ثم تبني دستور جديد، وانتخب كرزاي رئيساً بنسبة 55،4% من الأصوات. في 18 أيلول/ سبتمبر 2005 تم تنظيم انتخابات المجالس المحلية والبرلمان.

وطد تواجد ثلاثين ألف جندي من قوات حلف شمال الأطلسي نظام كرزاي ولكنه شكل كذلك نقطة ضعفه لأنه اعتبر رجل واشنطن[14]. ومع العام 2003، "عادت" حركة طالبان انطلاقاً من المنطقة الحدودية

(13) Peter L. Bergen, *The Osama bin Laden I Know: An Oral History of Al-Qaida's Leader* (New York: Free Press, 2006), p. 377.

(14) William Maley, *Rescuing Afghanistan* (London: Hurst & Company, 2006), pp. 34-35.

مع باكستان واشتدت معارضتها المسلحة بعد العام 2005 على وجه الخصوص. بحسب أحد الشهود "يسود النظام" بما أنه "في خلال النهار يكون الناس والشرطة والجيش مع الحكومة، وفي خلال الليل يكونون مع طالبان والقاعدة"(15).

شكل العراق الجبهة الثانية حيث تلاحقت الأحداث الكبرى بسرعة مدوّخة لتعود فتسقط بعد بضعة أيام إلى مصاف الأحداث المنوّعة وتختفي خلف أحداث أخرى. وكما قالت حنة أرندت عن وضعيات تاريخية أخرى، "كل شيء أو شخص اعتبر البارحة فقط "عظيماً" [...] يطوى في النسيان، وفي حال استمرت الحركة على اندفاعتها، يصير وضعه طي النسيان أمراً ضرورياً"(16). والحقيقة، لم تنشأ فكرة الحرب للتخلص من صدام حسين بعد الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر. كان جزءاً كبيراً من الجمهوريين المسؤولين إبان حكم بوش الأب عن بقاء هذا النظام، قد تجنّد منذ سنوات عدة لتحقيق هذا الهدف. وفي 26 كانون الثاني/ يناير 1998، كان "المشروع من أجل القرن الأميركي الجديد"، الذي يشكل المرجع الفكري للمحافظين الجدد، قد وجه رسالة مفتوحة إلى الرئيس كلينتون يدعوه فيها إلى "طرد صدام من السلطة" بتوقيع غالبية الأصوات الأساسية التي ستشكل إدارة بوش الابن وهم إليوت أبرامز، ريتشارد ل. آرميتاج، جون بولتون، زلماي خليلزاد، ريتشارد بيرل، دونالد رمسفيلد، بول فولفوفيتز(17).

---

(15) Ibid., p. 157.

(16) Hannah Arendt, *Qu'est-ce que la politique*? (Paris: Seuil, 1993), p. 47.

(17) Project for the New American Century, "An Open Letter to President Clinton: Remove Saddam from Power," in: Micah Sifry and Christophe Cerf, *The Iraq War Reader* (Now York: Touchstone, 2003), pp. =

أدّى سياق الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر دور المسرّع في الأحداث. بعد حوالي سنة من التوتر مع فرنسا وروسيا اللتين هددتا باستعمال حق النقض في مجلس الأمن، أطلقت الولايات المتحدة، ومعها بعض البلدان الحليفة، الحملة العسكرية التي حملت عنوان "حرية العراق" في 19 آذار/ مارس 2003، بحجة وجود أسلحة دمار شامل، لم يُعثر عليها أبداً، وعلاقات بين بغداد والقاعدة لم يتم إثباتها يوماً. بعد بضعة أسابيع صعبة، دخلوا بغداد من دون مقاومة. وفي الأول من أيار/ مايو 2003، أعلن بوش النصر. بعد بداية مشجعة هي كناية عن ستة أشهر من الهدوء حيث بدا كل شيء ممكناً، بدأت مرحلة من العنف المتصاعد مذّاك: حروب عصابات بعثية وإسلامية أصولية سنية تماهت مع القاعدة، إضافة إلى الحركات الاحتجاجية لجيش المهدي التابع لمقتدى الصدر. وجاءت إجراءات تفكيك الجيش العراقي في 13 تموز/ يوليو 2005 وتطهير الإدارة العراقية من البعث، التي قام بها بول بريمر، الحاكم المدني الذي حل محل الحاكم العسكري جاي جيرنر والذي كان أكثر دراية بالوقائع على الأرض، لتزيد من حدة العنف. ولم تتمكن العمليتان الانتخابيتان البرلمانيتان، في 30 كانون الثاني/ يناير و15 كانون الأول/ ديسمبر 2005، ولا الاستفتاء حول الدستور، في 15 تشرين الأول/ أكتوبر 2005، من وضع حد له لأنه عنف ميليشيوي وطائفي و"بيولوجي" أكثر فأكثر، حينما اعتبر مختلف الفرقاء أن كل واحد منهم يشكل تهديداً للآخر بمجرد وجوده نفسه. أما "الأبطال" الذين شكلوا الوجوه البارزة لهذا العنف فهم الزرقاوي و"جوبا"، وهو قنّاص قام بـ"أكثر من 600 اعتداء" قاتل ضد الأميركيين وجالت أفلامه

= 199-201.

وقد كانت المجموعة ذاتها ستبعث برسالة إلى جورج بوش هذه المرة في 20 أيلول/ سبتمبر 2001.

عبر الإنترنت، بالإضافة إلى الأفراد الأجانب في كتيبة البراء بن مالك، كالبرتغالي باولو خوسيه دي ألميدا سانتوس[18]، وأبو الوليد وأبو يحيا وهما ألمانيان أو سويديان اعتنقا الإسلام[19].

تدل "سيرة أعلام الشهداء" لأبي اسماعيل المهاجر، خليفة الزرقاوي، "أمير الشهداء"، على رأس "القاعدة في بلاد ما بين النهرين" على بناء ظاهرة الشهيد في العراق. حين يترك الشهيد في العراق أمه وزوجته الحامل أحياناً ويدفع بنفسه نفقات سفره والتزامه، يتفرّد بنموذجيته وحس التضحية من أجل الأمة بكليّتها. يترك كل من هؤلاء الشهداء خلفة سيرة (سنّة) ترشد إلى الطريق من يقفون في طابور الانتظار. ثلاثون من بينهم ضحوا بأنفسهم في العام 2003، وأكثر من تسعين منهم في العام 2004 ثم أكثر من مائتين في العام 2005، جامعين بذلك "شكلي الجهاد في "التقليد الإسلامي" وهما جهاد النفس وجهاد الجسد" [20].

رفع تشرذم المجتمع العراقي الأطراف الدينية إلى مرتبة العمل والتحكيم. في العاشر من نيسان/ أبريل 2003، اغتيل عبد المجيد الخوئي على يد أنصار مقتدى الصدر على الأرجح، وقد كان من الشخصيات الشيعية الكبرى التي تدعو إلى حل سلمي للأزمة العراقية، ثم وقع هجوم

(18) للاطلاع على شهادته، انظر: Peter L. Bergen, *The Osama bin Laden I Know: An Oral History of Al-Qaida's Leader* (New York: Free Press, 2006), p. 116.

(19) Peter Harling, "Les Dynamiques du conflit irakien," pp. 29-43, et Mathieu Guidère, "L'Irak ou la terre promise des djihadistes," *Critique internationale*, no. 34 (2007), pp. 45-58.

(20) Mathieu Guidère, Les "Martyrs" d'Al-Qaida: Au cœur de la propagande terroriste (Nantes: Editions du Temps, 2006), p. 199, and Mohammed M. Hafez, *Suicide Bombers in Iraq: The Strategy and Ideology of Martyrdom* (Washington: USIP, 2007).

تسبب بمصرع 95 شخصاً من بينهم آية الله محمد باقر الحكيم في العام 2003، وهما حادثتان حملتا آية الله علي الحسيني السيستاني، المولود في العام 1930، رغماً عنه إلى أعلى مرتبة في المجال الشيعي.

استهدف العنف السكان المدنيين العراقيين أكثر ممّا استهدف قوى التحالف التي فقدت حوالي 4000 عنصر بين العامين 2003 و2007. في 31 آب/ أغسطس 2005، إبان الاحتفال بذكرى وفاة الإمام السابع، موسى الكاظم، تناهت إلى مسامع الحجاج شائعة هجوم انتحاري بينما كانوا على جسر الأئمة، فما كان من الهلع ومن التدافع الذي تلاه إلا أن أوقعا 965 قتيلاً. في 22 شباط/ فبراير 2006، أطلق نسف مقامي الإمامين علي الهادي وحسن العسكري في سامراء حرب مساجد وحملات ذبح منظمة[21]. بين العامين 2003 و2005، قتل في بغداد 14829 مدنياً و453 شرطياً. فاق عدد الضحايا في العراق 35000 شخص في العام 2006، أما المهجّرين، فيعدون بالملايين[22]. في العراق، كما في أي مكان آخر، ارتدى العنف مظهر الفظاعة اليومية من أجل "منع السكان من التفكير بإمكانية المقاومة"[23].

يدل الوضع العراقي بالفعل كيف أن آلية نزاعية ما يمكنها أن تولّد أشكال عنف متعددة. بالنسبة إلى الظواهري، ليس العراق سوى مكاناً للحرب بهدف "إقامة حكم إسلامي أو إمارة ودعمه حتى يبلغ حجم الخلافة" قبل "توسيع موجة الجهاد إلى البلدان العلمانية الأخرى المجاورة للعراق" من أجل التوصل أخيراً إلى "المواجهة مع إسرائيل،

(21) Myriam Benraad, "L'Irak dans l'abîme de la guerre civile," *Politique étrangère*, no. 1(2007), pp. 13-26.

(22) Peter W. Galbraith, *The End of Iraq: How American Incompetence Created a War Without End* (New York: Simon & Schuster, [n. d.]), p. 177.

(23) Daniel Pecaut, "De la banalité de la violence à la terreur: Le Cas colombien, " *Cultures et Conflits*, no. 24/ 25 (1997), p. 183.

لأن إسرائيل قد خلقت فقط لتحدي أي كيان إسلامي جديد"[24]. أما بالنسبة إلى الأطراف الطائفية البعيدة نوعاً ما عن آفاق القاعدة، فهي حرب من أجل السيطرة على أرض وعلى الطوائف فيها بواسطة فرض الضرائب والتجنيد. وفي ما يتعلق بالأطراف التي تقع على هوامش المجتمع العراقي، فإن "بلاد ما بين النهرين" هي مكان تشكُّل دعوات متطرفة جديدة، سواء أكانت كونية أو طائفية، مثلما هي مكان لتشكُّل صيغ تعاضدية جديدة تنكر البنى الهرمية الطائفية الموجودة. وأخيراً، ترى الأطراف الرسمية في الدولة، بحسب نموذج حرب أفغانستان للعام 1980، أن هذه الحرب هي مكان تصدر فيه اتجاهاتها المتطرفة الخاصة[25].

لا يمكن التقليل من شأن الأثر الذي تركته معاملة المجتمع العراقي بـ"وحشية" إبان حكم صدام حسين والذي يحلله علي علاوي[26] من خلال ردود الفعل الضعيفة جداً اليوم ضد العنف. لكن، كما لاحظ محللون كثيرون[27]، وكما سنرى في ما بعد، فإن الحرب وبالأخص

(24) Fawaz A. Gerges, *Journey of the Jihadist, Inside Muslim Militancy* (Orlando; Austin: Harcourt Inc., 2006), pp. 254-255.

(25) Ahmed S. Hashim, *Insurgency and counter-Insurgency in Iraq* (Ithaca: Cornell University Press, 2006), pp. 141-146.

(26) Ali A. Allawi, *The Occupation of Iraq: Winning the War: Losing the Peace* (New Haven: Yale University Press, 2007).

(27) "صحيح أن القوات الأميركية والبريطانية قد حررت العراق من مستبد فظيع صاحب عمليات إبادة متكررة لشعبه وجلاد لا رحمة عنده مع سجنائه السياسيين، إلا أن الصورة التي ستبقى عن العملية هي صورة أمة، أي الولايات المتحدة، مهووسة بالحرب إلى درجة أنها عملت المستحيل لاستبعاد أي حل كان قد سمح بتجنبها، وصورة رئيس دولة يضع يده على قلبه ويدعو إله المسيحيين ليحارب الشعوب المسلمة، وصورة مؤسسات ديمقراطية عاجزة عن مقاومة الكذب والبروباغندا: نعم، في هذه العملية، فقد الغرب التفوّق المعنوي الذي ساعده مرات عدة على إحراز الانتصار حتى في قلوب أعدائه"، Jacques Julliard, *Rupture dans la civilisation: Le Révélateur irakien* (Paris: Gallimard, 2003), p. 49.

إدارتها، قد سرّعا وحسْب آلية تحلّل المجتمع العراقي إلى درجة خلق وضعيات لا عودة عنها.

حتى لو أن المواجهة الإسرائيلية-الفلسطينية لا تحمل رسمياً اسم الحرب الثالثة إلا أنها كذلك. بعد الانتفاضة الثانية التي أوهنت السلطة الفلسطينية وانسحاب الجيش الإسرائيلي الأحادي الجانب يوم 12 أيلول/ سبتمبر 2005 من غزة، اتخذت الحرب، في خريف العام 2006، شكل ضربات جوية ضد هذا القطاع "المحرّر" رداً على اختطاف رقيب إسرائيلي شاب هو جلعاد شليط. وقد حصدت أكثر من 400 ضحية قبل أن تفضي إلى حرب فلسطينية-فلسطينية.

إذا ما نظرنا إلى الحرب بمجمل مراحلها، منذ بدء الانتفاضة الثانية في العام 2000، نجدها تحمل باستمرار منطق السيطرة والإجراءات القمعية الشديدة. سرعان ما تمّ تفكيك جزء كبير من البنى التحتية الفلسطينية، بما فيها البنى الأمنية، وضربت مصداقية عرفات الذي توفي في 11 تشرين الثاني/ نوفمبر 2004 في فرنسا ليحل محله محمود عباس. يعتبر هذا التدمير مسؤولاً جزئياً عن انتصار حركة حماس التي حازت، في انتخابات 26 كانون الثاني/ يناير 2006، 56% من الأصوات و74 مقعداً في البرلمان الفلسطيني يقابلها 45 مقعداً لحركة فتح.

عند تعيين اسماعيل هنية، أستاذ الأدب المولود في العام 1963 في غزة، في منصب رئيس الوزراء، ردت الولايات المتحدة ومعها الاتحاد الأوروبي بسياسة المقاطعة. فاعتراف حماس الضمني بدولة إسرائيل، أو على الأصح باتفاقات أوسلو، لا يكفي لتليين الموقف الغربي. أدى اعتماد فلسطين اعتماداً كاملاً على المساعدة الأميركية الأوروبية وعلى حوالي 50 مليار دولار من واردات الضرائب الجمركية المجمدة من قبل إسرائيل، إلى غرقها في حال من الفقر المطلق، حيث إن 67% من

السكان صاروا يعيشون تحت عتبة الفقر في العام 2006 مقابل 44% منهم في العام 2005[28]. أما تكتل فتح - حماس الذي عملت السعودية على تشكيله في محاولة للخروج من الأزمة وتجنّب حرب أهلية، فلم يدم إلا بضعة أشهر مخلياً الساحة أمام مواجهة مفتوحة ودامية بين التنظيمين في قطاع غزة، في حزيران/ يونيو 2007، أوقعت أكثر من 150 قتيلاً وانتهت بانتصار حماس العسكري وتقسيم فلسطين على الأرض إلى جزأين منفصلين الواحد عن الآخر.

طالت الحرب الرابعة أخيراً لبنان حيث شنّت إسرائيل، في صيف العام 1993 أولاً ثم في ربيع العام 1996 ثانياً، غارات جوية مكثفة. انسحبت إسرائيل من الجنوب اللبناني في العام 2000، في ما عدا من منطقة مزارع شبعا، وكان انسحابها تجسيداً لحلم جزءٍ كبير من اللبنانيين الذين يتوقون إلى رؤية بلادهم تتحرّر كذلك من الاحتلال السوري الذي تلى اتفاقات الطائف في العام 1989، وهو احتلال مستمر في الواقع منذ العام 1976. في 3 أيلول/ سبتمبر 2004، فرضت سوريا تعديلاً للدستور من أجل تمديد ولاية الرئيس إميل لحود المقرّب من دمشق، ما أدى إلى قيام معارضة مفتوحة ضده. في الأول من تشرين الأول/ أكتوبر 2004، جرح مروان حمادة، وزير الصحة وأحد معارضي لحود، في اعتداء ضده. وفي 3 تشرين الأول/ أكتوبر 2004، استقال رئيس الوزراء رفيق الحريري الرافض للتمديد للحود والرافض كذلك للوجود السوري، ليحل محله عمر كرامي.

نص قرار الأمم المتحدة رقم 1559 الصادر في 2 أيلول/ سبتمبر 2004، نزولاً عند طلب الولايات المتحدة وفرنسا، على رحيل السوريين

(28) Audes Signoles, *Le Hamas au pouvoir et après*? (Toulouse: Milan, 2006), pp. 100-195.

من لبنان. وفي 14 شباط/ فبراير 2005، قتل الحريري مع عشرة من رفاقه وحراسه في عملية ضخمة[29]. تلى اغتيال الحريري عمليات اغتيال أخرى: في 2 حزيران/ يونيو 2005، قتل سمير قصير وهو المثقف الذي يحظى باحترام كبير، تلاه جورج حاوي، الأمين العام السابق للحزب الشيوعي في 21 حزيران/ يونيو؛ جرح الياس المر، وزير الدفاع السابق، ومي شدياق، صحافية معادية للسوريين، في عمليتين متتاليتين بتاريخ 12 و25 أيلول/ سبتمبر 2005؛ وقتل جبران التويني، وهو من كبار أصحاب الصحف، في كانون الأول/ ديسمبر 2005، وأودى اعتداء قاتل، في 21 تشرين الثاني/ نوفمبر، بحياة بيار الجميل، ابن أخ الرئيس السابق بشير الجميل الذي كان قد قتل في العام 1982، وبعده وليد عيدو، النائب المعادي للسوريين ومعه تسعة أشخاص آخرين في اعتداء جديد يوم 13 حزيران/ يونيو من العام 2007.

قد كان الحريري موضع انتقادات جمّة في حياته، إلا أن موته أدى إلى استنفار جزء كبير من الشعب اللبناني أجبر في النهاية القوات السورية على مغادرة البلاد في نيسان/ أبريل 2005. وجاءت انتخابات أيار/ مايو 2005 لتحمل النصر إلى المعسكر المعادي للسوريين بقيادة سعد الحريري، ابن رئيس الوزراء المقتول. بيد أن خروج السوريين لم يؤدِّ إلى قيام عقد اجتماعي لبناني يقطع مع العقد الطائفي للعام 1943 والمسمى بالميثاق الوطني، الذي استمر في تقديم الطائفتين المارونية والسنية. من جديد، تشكل النظام السياسي الذي ظل خاضعاً للتقاسم الطائفي للسلطات، انطلاقاً من انقسام جديد بين حزب الله وخصمه السابق ولكن حليفه المستجد، ميشال عون من جهة، وبين القوات

(29) Nicolas Blondford, *Killing Mr. Lebanon: The Assassination of Rafik Hariri and its Impact on the Middle East* (London: I. V. Tauris, 2006).

اللبنانية بقيادة الماروني سمير جعجع ورئيس الوزراء السنّي فؤاد السنيورة من جهة أخرى. خضع هذا التشكل الجديد لأمرين: اختيار الاصطفاف مع سوريا أو مع أوروبا والولايات المتحدة بالإضافة إلى نزاعات داخل الطائفة المارونية يرجع تاريخها إلى الحرب الأهلية.

تدهور الوضع اللبناني بعد هجوم قام به حزب الله ضد جنود إسرائيليين تسبّب بمقتل ثمانية منهم واختطاف اثنين. فشكل هذا ذريعة لإسرائيل حتى تنطلق في "حرب الثلاثة والثلاثين يوماً"(30) أدّت إلى مقتل 1183 شخصاً وجرح 4059 آخرين وتشريد حوالي مليون شخص من السكان المدنيين اللبنانيين. مع عجز الحرب عن وضع حد لإطلاق صورايخ حزب الله التي حصدت 43 قتيلاً مدنياً في عمق إسرائيل، انتهت بقرار مجلس الأمن رقم 1701 في 11 آب/ أغسطس 2006، الذي زاد من عديد قوة الفصل التابعة للأمم المتحدة. اعتبرت هذه "الحرب العربية الإسرائيلية السادسة" بمثابة فشل بالنسبة إلى الجيش الإسرائيلي الذي خسر فيها قرابة 120 جندياً.

مجتمعات تضعف ورغبات في قوة معاكسة

دارت هذه الحروب في بلدان سبق وأصيبت بهشاشة كبيرة أو ضدها. خرجت فلسطين من العام 2006 منهكة القوى بعد سنوات من القمع والإفقار. وكان تشظي المجتمع الأفغاني الكبير قد بدأ منذ العام 1979. وفي العراق، دمّر حكم البعث في سنواته الخمس والثلاثين المجتمع إلى حد كبير. أما الأزمة اللبنانية، فتجد تفسيرها في عجز

(30) Elizabeth Picard, "Liban, la matrice historique," dans: François Jean et Jean-Christophe Ruffin, dir., *Economies des guerres civiles* (Paris: Hachette, 1996).

المجتمع اللبناني وشخصياته الطائفية عن إقامة نظام سياسي لاطائفي. وفي كل حالة من الحالات، سرّعت الحرب آلية الإضعاف والتشظي الداخلي في المجتمعات وعسكرت بشدة خطوط الانقسام التي كانت موجودة قبلها، بين منظمة التحرير الفلسطينية وحماس، بين طالبان والقوى الحكومية، بين الشيعة والسنة العراقيين، بين حزب الله وحلفائه من جهة مقابل الحكومة من جهة أخرى.

تمتلك هذه النزاعات نقاطاً مشتركة أخرى، بدءاً بمفهومها الأمني، وحتى "المضاد للسياسة" في أساسه الحربي، بمعنى أنها "تسعى إلى التخلص إلى الأبد من المشكلات التي تعكّر هدوء الحياة الخاصة في مجتمع مزدهر ومنغلق على نفسه[31]". حوّل الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر هذه الرؤية، الأميركية في الأساس، إلى محور استبدالي عالمي. لا يتسع المجال هنا لتحليل الأثر الكبير الذي تركته هذه الحادثة على الرأي العام الأميركي والعالمي، إلا أنه من المهم في المقابل التشديد على أن العجز عن فهم العنف من خارج المقولات الأمنية قد أدى إلى فشل ذريع في كل حرب من هذه الحروب.

تعتبر المقولة الأمنية المتصلة بالعنف أن "الإرهابيين"، من حيث التعريف بهم، لا يمتلكون أي برنامج ولا أي مطلب ولا أي دافع سياسي أو اجتماعي أو اقتصادي أو ثقافي. كذلك، وبقدر ما أنه يُنظر إلى "الإرهابي" من خلال قدرته على إلحاق الضرر وحسب، فهو يبدو خارج

---

(31) Dick Howard, "Quand l'Amérique rejoint tragiquement le monde," *Esprit*, no. 10 (2001), p. 13.

انظر أيضاً حول الحرب كنظام أمني في العدد نفسه:
Olivier Mongin, "Sous le choc: Fin de cycle? Chagement d'ère," pp. 22-39.

أي رابط اجتماعي وأي تجربة جماعية وخارج قراءة الماضي والإسقاط على المستقبل. بيد أن إنكار الذاتية على مرتكبي العنف لا يمكن أن يقود إلا إلى فهم سطحي للغاية للديناميكيات التي أدت إلى نشوئهم.

هل لنا أن ندهش بعدها حينما يستعيد مناضلون متطرفون نموذج "نزع الذاتية" عن الآخر وينجحون بشكل ملحوظ بدورهم في "مَوْضَعَة" أعدائهم والعثور على وسائل لجعل "قواهم"[32] تصاب بـ"العجز"؟ على سبيل المثال، فإن القاعدة كتنظيم وحراك ومختلف الجماعات المنتفضة في العراق وحركة حماس وأيضاً حزب الله، بعيدون عن التكوُّن واتخاذ شكل ثابت مرة وإلى الأبد، بل هم يعيدون ابتكار أنفسهم باستمرار من خلال مقاومتهم أو حتى من خلال مجرد بقائهم، وتتعزز صفوفهم بجيل ثانٍ ثم ثالث أو رابع، ويخططون لمقاربات في علم الحرب تجبر "الأقوياء في هذا العالم" على إعادة النظر في مقارباتهم الخاصة[33].

وأيضاً، تبين هذه الحروب حدود المسلّمة الأساسية في الاستراتيجية الأميركية، ومعها الإسرائيلية وهي: إن القوة، الشرعية بذاتها ومن خلال ذاتها، تقيم القانون الدولي، أو على الأقل تعيده، وتنتج العدالة ولازمتها، أي خضوع العناصر المخرِّبة. تسببت هذه المسلّمة بفشلها لأنها ببساط ترفض أي انعكاسية، أي أنها تحرم نفسها من أدوات إعادة النظر بنفسها ونقدها الداخلي. وهي تنسى أن القانون الدولي بناء يستلزم، حتى يكون قابلاً للحياة، علاقات تعاقدية، وأن العدالة شعور وتوقُّع ولا يمكن بلوغها من دون الأخذ بالاعتبار الرؤى

(32) انظر حول هذا الموضوع: Bertrand Badie, *L'Impuissance de la puissance: Essai sur les incertitudes et les espoirs des nouvelles relations internationales* (Paris: Fayard, 2004).

(33) Ruel Meijer, "Re-reading al-Qaeda: Writings of Yusuf al-Ayiri," *ISIM Review*, no. 18 (2006), pp. 16-17.

المتناقضة لدى كل الأطراف. أما الانتصار العسكري الذي لا يعتبر عادلاً فهو لا ينتج سوى تمرّد المهزوم المنطوي على ذاتيته المظلمة. وكما يقول بيار بورديو (Pierre Bourdieu)، لا يكمن مبدأ الطاعة في القسوة التي تفرضه والتي لا تنفصل عنه، ولكن في علاقات رمزية تجنّد "البنى المعرفية" المستبطنة[34]. بيد أن كل شيء يشير إلى أن هذه "البنى" من جانب المهزومين تشرِّع لمقاومات داخلية، حتى عندما تمارس قسوة كبيرة، كما هو حال طالبان أو المنتفضين في العراق، بدل أن تشرِّع لطاعة الجيوش المعتبرة عدوة بشكل معلن.

أضف إلى ما سبق، أن الإعلان عن الذات كقوة عظيمة وعالمية، كما الولايات المتحدة، أو إقليمية، كما إسرائيل، تستخدم كل طاقات القوة العسكرية، يغذي كأثر مرتد، رغبات القوة الأخرى. "ليس من طبيعة السلطة أن تكون ضعيفة"، يقول برتران دو جوفنيل[35] (Bertrand de Jouvenel). تصلح هذه القاعدة كذلك للمهزومين. قامت رغبات القوة المضادة هذه لدى دول مثل إيران وسوريا خصوصاً، ولدى أطراف غير دولياتية أو "نصف دولياتية" ناشئة عن هوامش المجتمعات الشرق أوسطية، على غرار "ميليشيا حزب الله ما بعد الحديثة" التي تضم عشرة آلاف مقاتل[36]، ومعها حركة حماس وجيش المهدي... إلخ. وهكذا، يبدو أن حزب الله، بعد حرب 2006، لن يكون، على سلّم القوة، اسماً

(34) Pierre Bourdieu, *Raisons pratiques: Sur la théorie de l'action* (Paris: Seuil, 1994), p. 124.

(35) Bertrand De Jouvenel, *Du pouvoir* (Paris: Hachette, 1998), p. 35.

(36) Elizabeth Picard, "Le Hezbollah, milice islamiste et acteur communautaire pragmatique," dans: Franck Mermier et Elizabeth Picard, dir., *Le Liban: Une guerre de 33 jours* (Paris: La Découverte, 2006), p. 89, and Augustus R. Norton, *Hezbollah: A Short Story* (Princeton: Princeton University Press, 2007).

لحزب وجيش طائفي وحسب. بفضل "انتصاره" اللامتوقع، صار "حزب الله" "طريقاً" لن يتردد آخرون، سواء بين السنة أو بين الشيعة، في السير في ركابه. والإثبات على ذلك، أطراف كانت مطواعة من حيث المبدأ في المجال الديني وانتقلت بعدها إلى المعارضة المسلّحة[37]، كأحد فروع فرقة القادري في العراق والتي نشأت عنها "كتائب عبد القادر الجيلاني" أو الباكستاني أجمل قدري الذي أصبح في الوقت نفسه قائد جناح في حزب إسلامي وقائد "جيش محمد".

الحرب والمعرفة

حينما نحلّل حروب العقد الأول من الألفية الثالثة، يجب أن نذكر كذلك آليات القرار الأميركية والإسرائيلية. فتكتل حلف شمالي الأطلسي، على سبيل المثال، قد أغفل أن حركة طالبان، على الرغم من ممارساتها اللاإنسانية، لا تشكل فقط امتداداً للقاعدة ولا قوة خارجية في أفغانستان، بل أن انتصارها في التسعينيات كان نتيجة طلب اجتماعي على الأمن. وقد كانت قوى الملا عمر في ترابط وثيق مع جماعة البشتون من ناحية، وهي تشكل أساسها الاجتماعي الصلب، ومع واقع قبلي مترسخ في الديمومة كما مع العصبيات المتعسكرة من جراء عقود من الحروب، من ناحية أخرى. أما الإسلاموية فقد كانت الدعوة التي تشرّع وتدجن، وأيضاً تجذّر عند الضرورة هذه الديناميكيات التي لا تقف أمام أي حدود. إن عودة على قراءة تجربة الاحتلال السوفييتي قد كانت كافية حتى نفهم أن أي هجوم ضد القبائل سيجلب معه لا محالة عسكرة عصبيتها وتطرّف دعوتها. وإذا كان صحيحاً أن المساعدة المالية البالغة حوالي سبعين مليون دولار والتي قدمتها واشنطن في العام 2001، قد سمحت بشراء

(37) François Burgat, *L'Islamisme à l'heure d'Al-Qaida, réislamisation, modernisation, radicalisation* (Paris: La Découverte, 2005), p. 120.

حياد بعض القبائل، إلا أنها لم تتمكن البتة من منع تصدير العصبية والدعوة وسيبة الآخرين نحو باكستان وعودتهم في وقت ما إلى افغانستان.

كما أن عشرات ملايين الدولارات هذه التي غذّت اقتصاد حرب بدل أن تغذي نشاطاً إنتاجياً، تركت آثاراً كان التكتل يود القضاء عليها بالتحديد وإلى الأبد. وكما يقول جوناثان غودهاند (Jonathan Good-hand)، لم ينتج "تمويل القادة المحليين في الحرب ضد القاعدة وطالبان" سوى أمراء حرب من "صنع البنتاغون" كان لهم "أثراً مخلخلاً مثلما قاوموا على الأرجح جهود الدولة من أجل إرساء احتكارها للعنف"(38). يذكر الكاتب كذلك، أنه بين العامين 1994 و1999، تم تدريب ما بين ثمانين ألفاً ومائة ألف باكستاني في أفغانستان حيث تركت حروب الثمانينيات حوالي ثلاثة ملايين طن من الأسلحة، من بينها عشرة ملايين طن من الأسلحة الخفيفة. أما المخدرات التي تنتج مردوداً يبلغ 1,2 مليار دولار في العام 2002، فقد موَّلت الجيوش الخاصة وشكلت مصدراً أساسياً للعنف. في العام 2002، كان عديد الجيش الرسمي يبلغ 70 ألف جندي، في حين أن 100 ألف آخرين كانوا منضوين تحت راية الميليشيات(39). وأخيراً، وحتى تصير اللوحة أكثر تعقيداً، تمتعت 700 مدرسة دينية مناضلة في البنجاب و120 أخرى في الشمال الشرقي باستقلالية شبه تامة(40).

(38) Jonathan Goodhand, "Afghanistan in Central Asia," in: Pugh and Cooper, dir., *War Economies in a Regional Context: Challenges of Transformation*, p. 58.

(39) Ibid., pp. 62-63.

(40) Yosri Fouda and Nick Fielding, *Masterminds of Terror: The Truth Behind the Most Devastating Terrorist Attack the World Has Ever Seen* (New York: Arcade, 2003), p. 43.

وقد شدّد جيل دورونسورو (Gilles Dorronsoro)، الذي بشّر منذ خريف العام 2003 بهزيمة تكتل حلف شمال الأطلسي، كم أن قوة حركة طالبان، الناجمة عن كل هذه العوامل، قد أسيئ تقديرها ولاحظ أن حكم حميد كرزاي كان ينحصر في كابل وحدها في حين أن حرباً قد بدأت بين القادة العسكريين. كما أشار إلى العودة الوشيكة لحركة طالبان التي تمكنت، في غضون بضعة شهور، من إعادة شن حرب عصابات على الحدود الأفغانية الباكستانية[41]. وفي مقالة أخرى، قال إن حركة طالبان لم تكن "مهزومة" بل هي اختارت أن تنطوي على المنطقة الحدودية بين أفغانستان وباكستان، بعد أن حرمت مؤقتاً من دعم أجهزة المخابرات الباكستانية على الأرض وبعد أن هجرتها، مؤقتاً أيضاً، قبائل البشتون التي ساءها منع زراعة الأفيون وجذبتها المساعدة الاقتصادية الأميركية[42]. بيد أن هذه المعلومات المتاحة للاختصاصيين في باريس أو واشنطن لم تؤخذ بالحسبان في سياق آليات القرار لدى التكتل.

في العراق، استخدمت الإدارة الأميركية المعرفة التحليلية المتاحة حول البلاد وطوائفها وقبائلها ونزاعاتها بوصفها معرفة عملانية. واعتقدت في لحظة ما أن القبائل التي ينبغي أن تمنح امتيازات واسعة تشكل العناصر المركزية في المجتمع وأن النزاعات الطائفية كانت ستؤدي إلى ولاء الشيعة التام. تسلحت بهذه المعرفة التي افترضت أنها لا تتزحزح كما تسلحت بما اعتبرته حقائق، واقترفت كل الأخطاء الممكنة: سيناريو على الطريقة الألمانية أو اليابانية للخروج من التوتاليتارية، مع

---

(41) Gilles Dorronsoro, "Afghanistan: Chronique d'un échec annoncé," *Critique internationale*, no. 21 (2003), pp. 17-25.

(42) Gilles Dorronsoro, "L'Afghanistan: Le Probable réalisé: De l'inutilité des sciences sociales en temps de crise?," dans: Aminah Mohammed-Aref et Jean Schmitz, *Figures de l'islam après le 11 septembre: Disciples et martyrs, régugiés et migrants* (Paris: Karthala, 2006), pp. 45-68.

إهمال كامل لتأريخية البلاد الخاصة، وقاحة، حلّ الجيش ببساطة، علماً أنه جيش مجهز بكمية كبيرة جداً من الأسلحة، اغتيال مدنيين، عمليات تعذيب مصورة في سجن أبو غريب وإساءة تقدير المشاعر الوطنية و"كره السنّة".

لم ترَ الإدارة الأميركية، ولاسيّما بول بريمر، أن نظام صدام لم يكن يستند إلى السكان السنّة بمجملهم، بل إلى بضع مدن سنّية صغيرة أساساً ومغذّية للعصبية. وحين عيّنت القوات الأميركية الطائفة السنّية بوصفها العدو البعثي، حرمت نفسها من حلفاء محتملين وساهمت على الأرض في تبرير خيارات الحرب الجهادية(43). كما منعتها قلة البصيرة هذه في المرحلة الأولى من فهم الطائفة الشيعية التي تعتمل في داخلها الانقسامات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والجيلية، والتي بوسعها أن تنتج معارضة مضادة للأميركيين بشكل متطرف. تميزت الحرب الأميركية مرات عدة بالعنف الشديد، بدءاً بالنجف، ضد ميليشيا مقتدى الصدر، وصولاً إلى الفالوجة ضد مناضلي الزرقاوي في العامين 2004 و2005، مع سقوط 800 قتيل في هذين الموقعين. لم يكن رجال العصابات السنة والميليشيا الشيعية بحاجة إلى أكثر من هذا حتى يقتنعوا بأحقية انشقاقاتهم المسلحة.

يضاف إلى ما سبق الأخطاء في الحكم، سوء تقدير قوات البعث التي كانت قد استبقت بكثير فترة ما بعد صدام، مع توزيع حوالي طن من الأسلحة والمتفجرات على المخلصين لها(44)، كما يضاف سوء معرفة أنواع

---

(43) للحصول على معلومات وافرة بحصوص هذا الموضوع، انظر: Ahmed S. Hashim, *Insurgency and Counter-Insurgency in Iraq* (Cornell University Press, Ithaca, NY, 2006).

(44) Ibid., p. 73

التطرّف الإقليمي التي سارعت إلى إعادة الانتشار على الأرض العراقية. لم يكن المرء يحتاج إلى علم واسع حتى يتوقع أن عدداً من المناضلين السنّة، بدءاً بالزرقاوي، وعدداً من السوريين والسعوديين واليمنيين والأردنيين كانوا سيجدون في العراق أرضاً جديدة "خارج الدولة".

كثيراً ما لوحظ تعاطف واشنطن مع السياسات الإسرائيلية وهو أمر يساهم في تعزيز التطرف في الشرق الأوسط. وسيكون من دون شك ضرباً من التسرّع تفسير الحروب الإسرائيلية على أنها امتداد للحروب الأميركية لشدة ما أن استقلالية مختلف الأطراف كبيرة ولشدة ما أن تأريخية النزاعات الإسرائيلية الفلسطينية عميقة. بيد أن هذا لا يحول دون أن تستمد الحربان الإسرائيليتان شرعيتهما بدورهما من الحرب ضد "الإرهاب". وإذ خيضتا تحت شعار استخدام القوة العسكرية المكثفة وبالأخص الطيران، عملتا على تشييء "الإرهاب". تتقاسم هاتان الحربان والحروب الأميركية سمة مشتركة وهي رفضها الأخذ في الاعتبار البيئات القريبة منها فخلقت آثاراً معاكسة للتي كانت تسعى إلى فرضها بواسطة السلاح.

وهكذا، لم ينتج التدمير المنهجي للسلطة الفلسطينية في خلال الانتفاضة الثانية النتائج المرجوة منه. صحيح أن الهجمات الانتحارية قد توقفت مع العام 2005، والسبب يرجع كذلك إلى إنهاك الحركات النضالية الفلسطينية وإلى تغيّر طرأ على سجل عملها. بيد أن التطرف الفلسطيني قد اشتد إلى درجة حمل معه حركة حماس إلى السلطة إبان الانتخابات التشريعية. أما القمع المكثّف الذي مورس ضد حماس علماً أنها تمكنت من السلطة بواسطة الانتخابات، بالإضافة إلى اعتقال العشرات من نوابها وستة من وزرائها، فقد أنتج الظروف الملائمة لقيام دولة إسلامية في غزّة، وهو السيناريو الأسوأ بالنسبة إلى أمن إسرائيل وكذلك بالنسبة إلى أمن مصر المجاورة.

أما الحرب الأخرى، أي حرب لبنان، هذا البلد الهش، فقد تقررت في غضون بضع ساعات من دون إلقاء أي نظرة متأنية على تحليلات الاختصاصيين الإسرائيليين ولا على ما أنتجته المعرفة "المحلية" أي ما أنتجه لبنان عن نفسه. فقد كان عدد من المراقبين قد لاحظوا أن السحق الكامل لحزب الله في بضع ساعات ستنتج عنه موجة تطرّف شيعي جديدة. وكانت الحرب وسياسة الأرض المحروقة التي رافقتها تهدف إلى إجبار السكان الشيعة في الجنوب على فك ارتباطهم بحزب الله، إلا أنها أنتجت الأثر المعاكس.

ولم ينتج عن بقاء حزب الله رفع حسن نصر الله، قائده، إلى مرتبة رمز المقاومة في الشرق الأوسط وحسب، بل قطع بشكل فج آلية إعادة لبننة الحزب. وفي بلد كلبنان، أقل جهوزية بكثير من السابق لمحاولة الخروج من الأزمة بواسطة إلغاء طائفية النظام السياسي التي تحدث عنها "بيان بيروت"[45]، قسمت الحرب الطائفة المسيحية بين مؤيد لحزب الله ومناهض له وأضعفت القادة المناصرين للغرب في الطائفة السنية. وتمكنت الطلعات الجوية التي بلغت سبعة آلاف طلعة من تدمير البنية التحتية من أجل إفقاد حكومة السنيورة صدقيتها أكثر فأكثر. هنأت واشنطن ولندن لبنان على قدرته على التحمّل في خلال هذه المحنة، لكنهما لم تطرحا أبداً السؤال الآتي: كيف يمكن أن ندعو مجتمعات الشرق الأوسط الأخرى إلى الوثوق بالمعسكر الغربي في الصراع الذي يقوده ضد "محور الشر" بعد هذه الحرب؟

(45) "Manifeste de Beyrouth," *Esprit*, no. 8 (2004), pp. 203-207.

الخاتمة

لحظة كتابة هذه السطور، تلوح في الشرق الأوسط علامات الاستقرار السياسي، إلا أن ثمة علامات عنف مندرج في الزمن تلوح في الأفق كذلك. نقول بالاستقرار لأن الأنظمة المتسلطة المستهدفة، إيران وسوريا، أو حليفة واشنطن، مصر والسعودية وسواها، تحافظ على نفسها أو أنها حتى تتوطد[1]. أما بالنسبة إلى الزمن، فلا شيء يوحي بنهاية قريبة للعنف في العراق أو أفغانستان، في حين أن مساحات أخرى تتحول إلى مسرح مواجهات جديدة: في كردستان وحرب عصابات حزب العمال الكردستاني منذ العام 2005 والانتفاضات الكردية في سوريا وإيران في العام 2004، في المخيمات الفلسطينية كنهر البارد حيث قامت مواجهات بين مقاتلي فتح الإسلام والجيش اللبناني التي أوقعت مئات القتلى في صيف العام 2007، وأبعد منهما في الصومال. وفي ما يتعلق بالتطرف الإسلاموي، فهو ما يزال بعيداً جداً عن الإنهاك.

الدرس الأول الذي يمكننا استخلاصه من تكاثر مناطق عدم الاستقرار هو أنه يجب ألا نبحث عن ديناميكيات العنف في العنف

(1) Jean-Philippe Bras, "Le Maghreb dans la "guerre contre le terrorisme" "Enjeux juridiques et politiques des législations anti-terroristes," *IREMAM, L'Année du Maghreb, 2005-2006* (Paris: CNRS, 2007), pp. 447-470.

نفسه، بل في السياقات التي تشهد نشوءه وفي الآليات التي يؤدي بدوره إلى إطلاقها. ويشكل العنف المزمن الذي نلاحظه التحدي الأكبر للنظام القائم في الشرق الأوسط علماً أنه نتاج هذا النظام. قد يرد بعضهم على هذا العنف، كالرئيس الإسرائيلي شمعون بيريز، باستخدام النانوتكنولوجيا في الحرب ضد "الإرهاب"[2]، وقد يلاحظ بعضهم الآخر كم أن "حالة العنف"[3] التي تطرح على بساط البحث "نظام الشرق الأوسط" ومعه حضارتنا بحد ذاتها، تتعايش مع حالة الحرب وتسبقها وتكسب معاني جديدة معها، كما تشتد وتحافظ على بقائها بعدها من خلال الموارد التي يقدمها نسيج اجتماعي رث إلى صانعي العنف. لايمكننا، للأسف، أن نستبعد الفرضية القائلة إن بيروت أو غزة أو بغداد تبشر بمستقبل منطقة واسعة تعيش حال أزمة متأججة.

ثانياً، كل شيء يشير إلى أن مستقبل الشرق الأوسط سيظل مرهوناً على مدى سنوات من قبل أنظمة غير ديمقراطية، ذات "قدرة ضعيفة" أو "عالية"، تفضي في كثير من الأحيان إلى "استبدادات متشظية"[4] وتمتلك موارد هائلة لتأمين بقائها. إن بلاء الأنظمة الذي نلاحظه في مجمل منطقة الشرق الأوسط الموسع حتى المغرب غرباً وأفغانستان وباكستان شرقاً، لا يهدد استمراريتها التي يؤمنها الإكراه وقدرة الأنظمة على إعادة نشر نفسها بكثافة في مجالات تعتبرها حيوية.

مهما كانت ظروف ولادة الأنظمة السياسية الشرق أوسطية، فقد

(2) Shimon Perez, "Upgrading War, Privatizing Peace," *Haaretz*: 31/ 8/ 2006.

(3) Frédéric Gros, *Etats de violence: Essai sur la fin de la guerre* (Paris: Gallimard, 2005).

(4) Charles Tilly, *The Politics of Collective Violence* (Cambridge: Cambridge University Press, 2003), p. 42.

كانت في أغلب الأحيان أنظمة إكراهية. من سحق ثورات العشرينيات إلى مجازر حماه في سوريا في العام 1982 أو المجازر بحق الأكراد والشيعة في العراق في التسعينيات، تمكنت هذه الدول، في لحظة ما من حياتها، من تأمين بقائها بواسطة تجنيد أدوات القمع. وإذا كانت "الأنظمة العسكرية الثورية" في العقد الخامس من القرن العشرين قد امتلكت في وقت ما دعم شعوبها، وبالأخص سكان المدن، إلا أنها تحولت، في غضون سنوات قليلة، إلى أنظمة شديدة القمع. وفي أيامنا هذه، يبدو الإكراه ظاهرة بنيوية، سواء أكان تحت وصاية "الريس" أو الملك أو حراس الثورة أو العسكر، وكلها أسماء تمثل سلطات بالية. وحتى عندما لا يكون الإكراه شديداً، كما في حالة الجزائر أو مصر في التسعينيات، إلا أنه عارٍ. وهو يهدف أساساً إلى إفهام المجتمع بأنه مهزوم ولا يمتلك الوسائل الكفيلة بجعله يرى نفسه في مستقبل مختلف جذرياً.

وفي أي حال، فإن السلطات ليست على خطأ. فالتعب الاجتماعي الناجم عن إخضاع المجتمعات بواسطة الإكراه، سواء أكان مدعوماً من قبل النظام العالمي أم لا، وبواسطة إنهاك الديناميكيات الاجتماعية ما يجعل السعي إلى البقاء اليومي هو الأفق الوحيد المتاح، هذا التعب هو الذي ينتج الخضوع ويؤمن بالتالي بقاء الأنظمة المتسلطة. لكنه يحمل معه ثمناً هو العنف الخفي بالطبع ولكنه عنف يرتدي أشكالاً متعددة أكثر فأكثر وذات طبيعة مؤثرة في المتخيّلات.

ثمة علاقة بين تغير أشكال العنف في القرن العشرين الشرق أوسطي وبين هذا الإنهاك الاجتماعي. في شتى أنحاء المنطقة تقريباً جاءت بعد ثورات العقد الثالث الكبرى والانتفاضات الثورية في العقدين السادس والسابع، حربُ عصابات إسلاموية في الجزائر ومصر بداية، صرخت عالياً عري الملك مقابل إطلاق حلقة عدمية، وأرست عنفاً مدمراً للآخر

بقدر ما هو مدمر للذات تجسّد بعدها في هوامش المجتمعات. كما جاء بعد نظام الذاتية للعقدين السادس والسابع الذي اعتبر العنف وسيلة لبناء مستقبل إيجابي، عنفٌ يعتبر جسد الذات موقع شدّ وجذب يدور فيه الصراع بين الخير والشر، بين القضية المقدسة و"فساد" العالم وأخيراً يعتبر هذا الجسد سلاحاً يمهد للخلاص النهائي حين يستخدم ضد حشود مجهولة الهوية في أغلب الأحيان.

ضمن الهيكلية العاطفية الخاصة بالاحتجاجات السابقة، اعتُبر الحاضر سبيل الخروج المباشر من ماضٍ مفسود وسبيل الدخول في مستقبل يتسم بالاستقلال الوطني ونهاية الاستلاب بواسطة التحرّر أو أيضاً بواسطة الأصالة. وبعدها، فيما الماضي لا يحمل معه أي مصدر اعتزاز ويتبين أن المستقبل فارغ من أي وعد، يكف الحاضر عن كونه زمناً ينبغي العيش فيه ويشتد إغواء تحويله إلى مسرح عنف مركّز، الوحيد الذي يحمل معه الخلاص الأخروي.

كيف السبيل إلى الدهشة طالما أن أطراف الرسم الأخروي يحلون محل الأطراف الجماعية التي سادت من العشرينيات إلى السبعينيات، وحتى في السنوات 1980-1990، وطالما أن فدائي النضالات السابقة يخلي المكان أمام صورة فاعل سلبي لا وجود له إلا إذا مارس عنفاً على جسده وبواسطته؟ كيف نشعر بالدهشة عندما نرى أن الأجساد الشابة والرشيقة والعسكرية المتمثلة بعبد الناصر وعرفات أو ليلى خالد، رموز النضال والانتصار، قد زالت لتحل محلها أجساد هرمة أو مهددة، كجسد الخميني وياسين وبن لادن أو نصر الله التي تجسد شرف الأمة وتطلب من أنصارها التضحية بالذات علامة الالتزام الأصيل والإخلاص؟

إذا كنا لا نستطيع الحديث عن "ثقافة العنف" الخاصة بالشرق

الأوسط، ومن خلفه بالعالم الإسلامي، لا يمكننا كذلك إهمال وجود ثقافة وتركيبة سياسية تتألف من الفئات الأمنية في السلطة والنظام - العالم، بدءاً بالإرهاب، كما تتألف من معارضة هوامش المجتمعات أمثال الشهيد أو أيضاً الجهاد. ولا يظنن أن هذه اللغة تقتصر على الكلمات، ففي مقابل صور جسد "الإرهابي" المقتول والتعذيب غير المعترف به وغير المخبأ الذي تمارسه السلطات وسجون أبو غريب وغوانتانامو، نجد رد وصايا الشهداء الذين يشكلون النموذج ويجددون القضية ويعيدون إليها قدسيتها. معاً، يتفّهون الإكراه كما يتفّهون العمليات الانتحارية الدامية.

وأخيراً، سواء أكان العنف محلياً (مدينة الصدر، الفالوجة، بيروت، غزة) أو عابراً للحدود، سواء أَوَجد شرعيته في الاحتجاج الجيلي أو في انقطاع الهوامش عن النظام السياسي وحتى عن النظام الاجتماعي، سواء أَصَدر عن مخيم للاجئين أو عن "شبكة" منظمة، فهو يندرج في آليات معقدة لا يسيطر عليها أحد، ومتى صعد إلى الخشبة أنتج آثاراً لا عودة عنها ولا يستطيع أحد التنبؤ بها. يعيد العنف إنتاج نفسه مع الوقت سواء من خلال قدرته على أن يصبح مرجعاً قيمياً فيخلق حالة تقليد أو من خلال تمفصله مع المجال الاقتصادي الذي يخصخصه، وسواء بواسطة الموارد الانفعالية والرمزية التي تلي ظهوره أو بواسطة حلقات الانتشار الاجتماعي الذي يولده، وسواء بواسطة روح الرفقة أو من خلال الظاهرة البيروقراطية التي ينتجها. وهكذا، فإن صورة الشهيد تحمل لازمة لابد منها وهي صورة الميليشيوي القادر على ممارسة الإكراه ضمن مجموعته كما يمارس العنف باسمها أو باسم القائد أو الأمير وهو يخلف بانشقاقه الزعيم الذي يقاتله.

مما لا شك فيه أن تمفصل آثار أنظمة الذاتية حيث يتجسد العنف، مع بنية الأرض تلاحظ أساساً في السياق الأقلّوي والطائفي حيث ينتج

العنف أولاً عن نظام سيطرة. تدل الحالتان الكردية والفلسطينية كم أن إكراه السلطات وإنكار كرامة المجموعة ورموزها وغياب أي أفق للتحرّر الوطني قد يفضي من ناحية إلى نظام ذاتية قاتم وعنف يضحي بالذات، ومن ناحية أخرى إلى أنماط قمعية جداً في تركيبات المعارضة ترتكز على التأطير العسكري للمجموعة. أما بالنسبة إلى النزاعات الطائفية التي لا نستطيع من دونها فهم تشكل أنظمة التبعية على امتداد القرن، والتي تدور أساساً في مساحة المدينة وتهدف إلى سيطرة المجموعة المتمثلة كما السيطرة على المدينة، فهي قد تتخذ شكلاً شاملاً وحتى "حيواتياً"، حيث الحدود التي تفصل "نحن" عن "هم" تكون معسكرة وحيث أي غيرية تعتبر بمثابة عداوة. فكل من الحرب الأهلية من العام 1975 وحتى العام 1989 والتوترات الحالية في لبنان، أو المعارضة السنية في السنوات 1970-1980 في سوريا أو العنف في العراق منذ العام 2003، تدل جميعها على أن النزاع الطائفي لا ينفصل كذلك عن قيام آليات سيطرة داخلية ضمن الطائفة بواسطة فرض الضرائب والطاعة والعسكرة. ويعتبر هذا الصراع بالضرورة مرادفاً للتشظي ينتج بدوره أشكال عنف جديدة تجعل معالم الانتماء هشة.

وأخيراً، لا يمكن فهم حلقات العنف في الشرق الأوسط من دون الأخذ بالاعتبار "النظام-العالم" الذي يتضمن أطراف قوية، سواء إقليمية أو دولية. وهكذا، فإن ثورات 1920-1930 هي النتيجة المباشرة لتقسيم الشرق الأوسط وأنظمة الانتداب الإكراهية أو الدول السلطوية. والمعارضة اليسارية هي حقاً ثمرة قيام دولة إسرائيل من ناحية، ورفض التبعية الحقيقية للدول الشرق أوسطية تجاه القوى الأوروبية من ناحية أخرى. لا يمكن فهم عنف السنوات 1970-1980 في إيران وتركيا وفي المجالات الكردية والفلسطينية من دون الأخذ بالاعتبار سياسات

الدول القمعية التي ساندتها إلى حد كبير الولايات المتحدة. وأخيراً، يجب أن نعترف بأن قمع المعارضات الإسلامية في الثمانينيات والذي شكل على أكثر من مستوى مولداً لسياسات مناهضة للإسلامويين بعد الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر، قد حصل من دون أي احترام لحقوق الإنسان التي نادت بها آنذاك الولايات المتحدة وأوروبا. وعلى أي حال، فانغلاق الرؤية الأمنية لم يسمح البتة بتقديم رد على العنف. لم يكن جان بودريار (Jean Baudrillard) على خطأ حينما كتب منذ العام 1976 أن "النظام لا يستطيع ولا يعرف أن يجيب إلا بواسطة الموت الجسدي، موت الإرهابي الحقيقي. ولكن هذه هي هزيمته بما أن هذا الموت هو بالتحديد هدفُهم وبهذه الطريقة لا يقوم النظام سوى برمي نفسه على خازوق عنفه الخاص من دون أن يرد حقاً على التحدي الذي وُجِّه إليه"[5].

من الحرب العالمية الأولى بين العامين 1914 و1918 والتي اجتاحت الشرق الأوسط لتعطيه شكله الحالي وصولاً إلى نزاعات العقد الأول من الألفية الثالثة مروراً بالحروب العربية الإسرائيلية وحروب أفغانستان ولبنان أو الخليج، ساهمت الحروب بشكل كبير في "وحشنة" المجتمعات. فهي لم تقدس فقط "القضايا" السياسية والدينية والطائفية التي أعيد تعريفها أحياناً من منظار اجتماعي - دارويني، بل تفهّت أيضاً اللجوء إلى الإكراه وإلى العنف كنمط إدارة ومعارضة شرعي.

كما أن أياً من الحروب العربية الإسرائيلية الأولى التي أفضت إلى تقسيم فلسطين التاريخية وصولاً إلى حروب الألفية الثالثة، لم تنتهِ بـ"سلام" حقيقي ما يمهد الطريق مجدداً لقيام أشكال عنف مستقبلية. ويشكل رفض الأطراف القوية، سواء الإقليمية منها والدولية، النظر إلى

(5) Jean Baudrillard, *L'Échange symbolique de la mort* (Paris: Gallimard, 1976), p. 63.

الحلول الوحيدة التي قد تسمح بالخروج من حالة اللاإستقرار، عاملاً بنيوياً لإعادة إنتاج العنف مع الزمن بأشكاله الأكثر فأكثر دموية.

ثلاثة أمثلة نقدمها هنا، من دون احترام التتابع الزمني، تكفي لتبين صحة أقوالنا. ترافق الخروج من الحرب في أفعانستان في العام 1989 مع تهميش كامل لهذا البلد الذي فقد مكانته الاستراتيجية على الرقعة العالمية، ما يفسر، جزئياً على الأقل، نشوء طالبان. عدم تدخل القوى الغربية، بدءاً بالولايات المتحدة، إبان حرب صيف العام 2006 قد نسف عقد عدم الاعتداء الضمني والذي كان لا يزال مطبقاً في لبنان على الرغم من اغتيال رئيس الوزراء السابق رفيق الحريري في شباط/ فبراير 2005. أما بالنسبة إلى النزاع الفلسطيني الذي بلغ عقده السادس، فلنصغِ إلى درس مكسيم رودنسون (Maxime Rodinson 1915-2004) الملفت والذي ألقاه قبل حرب الأيام الستة في العام 1967، قائلاً: "إذا ما كان هناك أي فرصة لنرى يوماً حلاً سلمياً، فإننا لن نصل إليه حين نقول إلى العرب إن عليهم واجب التصفيق لغزاتهم لأن هؤلاء أوروبيون أو على طريق الأَوْرَبة، ولأنهم "متطورون" ولأنهم ثوريون أو اشتراكيون (افتراضياً!) وأيضاً لأنهم بكل بساطة يهود! أقصى ما يمكن أن نطلبه منهم هو أن يذعنوا لوضع مزعج وأن يستفيدوا في سياق إذعانهم من هذا الإذعان. أن تحصل من مهزوم على إذعانه لهزيمته أمر ليس بالسهل ولا يمكن تسهيل هذه المسألة بالتشدّق عالياً كم كنا على حق بأن نلقنه فلقة. إنه لمن الأكثر ذكاء، على وجه العموم، أن نقدم له التعويضات"[6].

كل شيء يشير إلى أننا سنعيش زمناً طويلاً مع الآلام الشرق أوسطية القاتمة وانطلاقاً منها الذاتيات العالمية وحالات العنف التي تحملها.

(6) Maxime Rodinson, *Peuple juif ou problème juif* (Paris: Maspero, 1981), p. 238.

لكن التاريخ العالمي يثبت أيضاً أنه مهما كانت الليلة ليلاء فلابدّ للصبح أن ينجلي. الباحث اليوم، كما المراقب العادي، لا يمكنه إلا أن يعمل على "تأجيل" الأمل. وهو يعلم أن توقع الحياة الأخرى الذي يسيطر اليوم لا بد أن تحل محله ديناميكيات أخرى، حتى في تاريخ غير منظور، شرط أن نعرف كيف نتجنب الكارثة المدمرة.

تسلسل الأحداث التاريخية

	العالم الإسلامي	العالم العربي
	السلطنة العثمانية/ تركيا، فارس/ إيران	النزاع العربي الإسرائيلي
1906	ثورة دستورية في بلاد فارس	
1908	ثورة تركيا الفتاة وعودة الدستور في السلطنة العثمانية	
1909	- انتصار الدستوريين في إيران - انتفاضة مناهضة للوحدة في إسطنبول قمعها "جيش الحركة"	

1913	إقامة نظام الحزب الواحد الاتحادي في السلطنة العثمانية	
1914-1918	السلطنة العثمانية تفقد ولاياتها العربية بعد الحرب العالمية	
1915	الإبادة الأرمنية	
1916		اتفاقات سايكس بيكو
1917		وعد بلفور الذي يتضمن إنشاء وطن قومي يهودي في فلسطين.
	- بداية حرب الاستقلال التركي التي ستؤدي إلى إقامة الجمهورية في العام 1923.	- تقسيم الولايات العربية في السلطنة العثمانية بين بريطانيا العظمى وفرنسا

1919	- بداية الثورة الكردية بقيادة سيمكو في بلاد فارس.	- الثورة المصرية - أول الاحتجاجات المسلحة الكردية في العراق.
1920		الثورة العراقية الكبرى
1921	انقلاب رضا خان في بلاد فارس	
1925- 1927		الثورة السورية الكبرى
1924	إلغاء الخلافة في تركيا	
1925	- إعلان رضا خان رسمياً الشاه الجديدعلى بلاد فارس، - أول ثورة كردية كبرى في تركيا بقيادة الشيخ سعيد. تبعتها ثورات 1927–1930 و1936- 1938. - "إصلاح الطربوش" الذي يمنع ارتداء الطربوش التقليدي	

	ويدخل سلسلة طويلة من الإجراءات الجذرية كما يثير احتجاجات عدة جرى قمعها بشدة في تركيا.	
1929		أول ثورة فلسطينية على نطاق واسع.
1930	- اغتيال سيمكو ينهي الثورة الكردية في إيران - معارضة خلاصية في مدينة مينمن في تركيا.	
1932		استقلال شكلي في العراق تبعه قمع الثورة المسيحية التي شارك فيها الأكراد اليزيديون.
1935	أثارت الإجراءات المتعلقة بالملابس احتجاجات قمعت بشدة في بلاد فارس التي صار اسمها إيران في السنة ذاتها.	ثورة شيعية جديدة في العراق.

1936		- انقلاب الجنرال باقر صدقي الذي قتل سنة في العراق. - ثورة فلسطينية كبرى دامت حتى العام 1939.
1941	احتلال إيران من قبل القوات السوفييتية والبريطانية.	انقلاب رشيد الجيلاني في العراق. عزلته عن السلطة بعدها بريطانيا العظمى.
1946	إعلان الجمهوريات الآذرية والكردية المستقلة في إيران وإلغاؤها من قبل الجيش الإيراني.	- الهجوم على فندق الملك داوود، المقر العام للقوات البريطانية في فلسطين قامت به منظمة "إيرغون": ثمانون قتيلاً في 22 حزيران/ يونيو.
1947		- ميشال عفلق يؤسس حزب البعث. - "وثبة" عراقية نتيجة المفاوضات السرية بين بغداد ولندن.

1948-1947		- حرب عربية إسرائيلية وقيام دولة إسرائيل. بداية المسألة الفلسطينية. - اغتيال الباشا محمود فهمي النقرشي، رئيس الوزراء المصري من قبل أحد أعضاء الإخوان المسلمين (28 كانون الأول/ ديسمبر 1948).
1949		انقلابات في سوريا، قادها على التوالي حسني الزعيم، سامي حناوي وأديب الشيشكلي.
1952	- أعمال شغب معادية للبريطانيين وانقلاب الضباط الأحرار في مصر. - احتجاجات شعبية كثيفة على القانون الانتخابي في العراق، جرى قمعها بشدة.	

1953 الإطاحة بمصدّق وبداية نظام قمعي في إيران (19 آب/ أغسطس).

1954 - إزاحة محمد نجيب في مصر. عبد الناصر يحظر حركة الإخوان المسلمين بعد محاولة اغتيال ضده ويفرض نفسه القائد الأوحد في البلاد.

- بداية حرب الجزائر التي ستفضي إلى استقلال البلاد في العام 1962.

1956 - حرب السويس التي انتهت بهزيمة سياسية لبريطانيا العظمى وفرنسا وإسرائيل.

- انقلاب الضباط الأحرار في السودان.

- استقلال تونس والمغرب.

1957	إنشاء "السافاك" في إيران.	
1961-1958		الوحدة المجهضة بين مصر وسوريا
1958		- انقلاب عبد الكريم قاسم في العراق (14 تموز/ يوليو) - مواجهات طائفية في لبنان.
1960	انقلاب عسكري في تركيا (27 أيار/ مايو)، إعدام رئيس الوزراء المخلوع، عدنان مندريس في العام 1961.	
1961		- ثورة مصطفى البرزاني في العراق. - بدء "الثورة الاشتراكية" في مصر.

1963	قمع دموي لأعمال شغب ضد "الثورة البيضاء" في إيران.	- انقلاب بعثي في سوريا - انقلاب عبد السلام عارف في العراق، تبعته مجازر ضد الشيوعيين.
1966		- انقلاب بعثي جديد في سوريا أطاح بالجناح اليميني لحزب البعث الحاكم. - إعدام سيد قطب، المفكر الإسلامي، في مصر (29 آب/ أغسطس).
1967		حرب الأيام الستة، بداية المسألة الفلسطينية الثانية.
1968		انقلاب بعثي في العراق (17 تموز/ يوليو)، بروز صدام حسين خلف صورة أحمد حسن البكر الأبوية.

1969	- انقلاب العقيد معمّر القذافي في ليبيا (1 أيلول/ سبتمبر). - بدء الإعدامات العلنية للـ"عملاء" في العراق (5 كانون الثاني/ يناير)
1970	- انقلاب أخير في سوريا يحمل حافظ الأسد إلى السلطة (12 تشرين الثاني/ نوفمبر) - تدمير طائرة الخطوط الجوية السويسرية المتجهة إلى تل أبيب في شباط/ فبراير 1970 (47 قتيلاً) وخطف طائرات في أيلول/ سبتمبر 1970 من قبل مناضلين فلسطينيين. - "أيلول الأسود":

		قمع منظمة التحرير الفلسطينية في الأردن أوقع آلاف الضحايا المدنيين.
1971	انقلاب عسكري في تركيا، بداية سياسة قمعية ضد اليسار.	
1972		- إطلاق النار على ركاب في مطار تل أبيب في 30 أيار/ مايو من قبل مناضلين في الجيش الأحمر الياباني - قتل أحد عشر لاعباً إسرائيلياً من قبل منظمة أيلول الأسود إبان الألعاب الأولمبية في ميونيخ.
1973		حرب تشرين (6- 26 تشرين الأول/ أكتوبر)

1975		- نهاية ثورة البرزاني الكردية في العراق. - بداية الحرب الأهلية في لبنان.
1976		- حصار مخيم تل الزعتر الفلسطيني من قبل الكتائب في لبنان.
1977		ثورات الجوع في مصر،
1979	- عودة الإمام آية الله الخميني في 1 شباط/ فبراير، يؤذن بنهاية عهد الشاه وانتصار الثورة الإسلامية في إيران.	- اتفاقات كمب ديفيد وإقامة علاقات دبلوماسية بين مصر وإسرائيل (26 آذار/ مارس).
	- احتلال أفغانستان من قبل القوات السوفييتية (24 كانون الأول/ ديسمبر).	- احتلال الكعبة من قبل مناضلين إسلامويين (20 تشرين الثاني/ نوفمبر). - صدام حسين رئيساً في العراق.

1980	- انقلاب في تركيا يدشن حقبة من القمع بالأخص ضد اليسار (12 أيلول/ سبتمبر). - الحرب الإيرانية العراقية (23 أيلول/ سبتمبر)	
1981		اغتيال الرئيس المصري أنور السادات من قبل مناضلين إسلامويين.
1982		- إسرائيل تجتاح لبنان (6 حزيران/ يونيو). - 14 أيلول/ سبتمبر، اغتيال الرئيس بشير الجميّل يشكل مقدمة لمجازر بحق الفلسطينيين في مخيمي صبرا وشاتيلا (16-19 أيلول/ ستبمبر). - أول عملية انتحارية في تاريخ لبنان يقدم

		عليها مراهق في سن الخامسة عشرة. - انتفاضة الإخوان المسلمين في حماه بسوريا، تم سحقها وتدمير جزء من المدينة. - قمع متزايد ضد الشيعة في العراق وإعدام 148 شخصاً بعد محاولة اغتيال صدام حسين.
1984	بدء حرب عصابات حزب العمال الكردستاني في تركيا.	
1987		بدء الانتفاضة الأولى في فلسطين.
1988		- عملية الأنفال في كردستان العراق واستخدام الأسلحة الكيمياوية.

		- أسامة بن لادن يؤسس القاعدة - أعمال شغب لشباب الجزائر، سقوط حوالي 500 قتيل، تشير في الواقع إلى نهاية حكم جبهة التحرير الوطني.
1989	اغتيال عبد الرحمن قاسملو، قائد الحزب الديمقراطي الكردستاني، من قبل المبعوثين الإيرانيين الذين كان يتفاوض معهم.	- نهاية حرب العراق وإيران والحرب الأهلية اللبنانية والاحتلال السوفييتي لأفغانستان. - 22 تشرين الثاني/ نوفمبر، اغتيال الرئيس اللبناني رينيه معوض بعد 17 يوماً فقط على تسلمه مهامه. خلفه في السلطة الرئيس الياس الهراوي.
1990		احتلال العراق للكويت (2 آب/ أغسطس)

1991 - حرب الخليج الثانية ضد العراق خاضها تحالف بقيادة واشنطن.
- قمع دموي للانتفاضات الكردية والشيعية في العراق.
- إعلان مجلس الأمن كردستان العراق "منطقة محمية".

1992-1996 ثلاثة حروب على أطراف الشرق الأوسط: بوسنيا، طاجكستان وتشيشنيا، تسرّع تطرف المناضلين الإسلامويين.

1992 - قطع الآلية الانتخابية (11 كانون الثاني/ يناير) وقمع جبهة الإسلامية للإنقاذ يفضيان إلى الحرب الأهلية في الجزائر.
- بداية الكفاح المسلح الإسلاموي في مصر.

1993	أول عملية ضد مركز التجارة العالمي يقوم بها مناضلون إسلامويون.	اتفاقات أوسلو بين منظمة التحرير الفلسطينية وإسرائيل.
1996-1994		حرب أهلية في كردستان العراق.
1996		حادث سير يلقى مصرعه فيه مناضل من اليمين المتطرف برفقة أحد الرتب العالية في شرطة إسطنبول، يكشف تواطؤ أجهزة الاستخبارات والطبقة السياسية وجهات المافيا.
1997		هجمات الجماعة الإسلامية ضد سواح توقع عشرات القتلى في مصر.

1999	اعتقال عبدالله أوجلان يثير موجة من العنف في تركيا يتبعها تعليق حرب عصابات حزب العمال الكردستاني.	عمليات "الكعبة الشريفة" و"الأقصى" ضد السفارات الأميركية في كينيا وتنزانيا في 7 آب/ أغسطس (224 قتيلاً).
2000		زيارة أرييل شارون، زعيم اليمين الإسرائيلي، إلى ساحة المسجدين في القدس يطلق الانتفاضة الفلسطينية الثانية التي تميزت بالهجمات الانتحارية.
2001	- هجمات 11 أيلول/ سبتمبر (2979 قتيل) - حرب جديدة في أفغانستان (عملية "الحرية الدائمة")	

2007-2002	تزايد الهجمات الانتحارية في العالم (بالي، إسطنبول، أربيل، مدريد، لندن...)	
2003		حرب جديدة في الخليج (عملية "حرية العراق" بدأت في 19 آذار/ مارس وأدت إلى سقوط بغداد في 9 نيسان/ أبريل).
2004		وفاة ياسر عرفات.
2005	6 آب/ أغسطس، انتخاب محمود أحمدي نجاد رئيساً يختم حقبة الإصلاح في إيران	اغتيال رفيق الحريري، رئيس الوزراء السابق في لبنان (14 شباط/ فبراير)، يطلق تعبئة واسعة ضد سوريا.
2006		"حرب 33 يوماً" قامت بها إسرائيل ضد حزب الله في لبنان (تموز/ يوليو- آب/ أغسطس)

2007

- مواجهات بين منظمة التحرير الفلسطينية وحركة حماس في قطاع غزة انتهت بانتصار الحزب الإسلاموي.
- مواجهات بين المقاتلين الإسلامويين في فتح الإسلام وبين الجيش اللبناني في المخيم الفلسطيني في نهر البارد.

المراجع

ABDEL-MALEK, *A., La Pensée politique arabe contemporaine,* Seuil, Paris, 1975.

ABRAHAMIAN, *E., Iran between two Revolutions,* Princeton University Press, Princeton, 1982.

ANONYMOUS, *Oussama Bin Laden, Radical Islam and the Future of America: Through our Enemies'Eyes,* Brassey's Inc., Washington, 2002.

ARGO, N., *Human Bombs: Rethinking Religion and Terror,* MIT, Boston, 2006.

AL-AZMEH, A., *Islams and Modernities,* Verso, Londres, 1993.

AL-KHALIL, *S., lrak, la machine infernale, politique de l'Irak moderne, JCL,* Paris, 1991.

ALLAWI, A. A., *The Occupation of Iraq: Winning the*

War, Losing the Peace, Yale University Press, New Haven, 2007.

BAKER, R.W., *Islam without Fear. Egypt and the new Islamists,* Harvard University Press, Cambridge MA, 2003.

BALANCHE, *F., La Religion alaouite et le pouvoir syrien,* Karthala, Paris, 2006.

BATATU, H., *The Old Social Classes and the Revolutionary Movements of Iraq: A Study of Iraq's Old Landed and Commercial Classes and of its Communists,*

Ba'thists and Free Officers, Princeton University Press, Princeton, 1978.

BEININ J., J. STORK, *Political Islam,* University of California Press, Berkeley, 1997.

BENNANI-CHRAIBI, *M.,* 0. FILLEULE (dir.), *Resistances et protestations dans les societes musulmanes,* Sciences *Po,* Paris, 2003.

BENSLAMA, F., N. TAZI (dir.), *La Virilite en Islam, L'Aube,* La Tourd'Aigues, 2004.

BERGEN, P.L., *The Osama bin Laden I Know An Oral History of Al-Qaida's Leader,* Free Press, New York, 2006.

BERGEN, P. L., *Holy War Inc., Inside the Secret World of Osama bin Laden,* Touchstone, New York, 2002.

BERQUE, J., *L'Egypte: Imperialisme et revolution,* Gallimard, Paris, 1967.

BONNEY, R., Jihâd. *From Qur'an to bin Lâden,* Palgrave, New York, 2004.

BONTE, P., BRISBANE *A.-M.,* GOKALP A. (dir.), *Sacrifices en islam. Espaces et temps d'un rituel,* CNRS, Paris, 1999.

BOURDIEU, P., *Meditations pascaliennes,* Seuil, Paris, 2003.

BURGAT, F., *L'Islamisme en face,* La Decouverte, Paris, 1996.

BURGAT, F.; *L'Islamisme a l'heure d'Al-Qaida. Reislamisation, modernisation, radicalisations,* La Découverte, Paris, 2005.

CAMUS, A., *Reflexions sur le terrorisme* (ed. par J. Levi-Valensi, A. Garapon et D. Salas), Nicolas Philippe, Paris, 2002.

CARLIER, O., *Entre Nation et Jihad: histoire sociale des radicalismes algeriens,* Sciences Po, Paris, 1995.

CARRE, O., *Mystique et politique: lecture revolutionnaire du Cor'an par Sayyid Qotb, frere musulman,* CERF-Presses de la FNSP, Paris, 1984.

CARRE, C., *La Légitimation islamique des socialismes arabes: Analyse conceptuelle combinatoire de manuels scolaires egyptiens, syriens et irakiens,* FNSP, Paris, 1979.

CERTEAU, M. DE, *La Culture au pluriel,* Seuil, Paris, 1993.

CHARNEY, J.-P., *Principes de strategie arabe,* L'Herne, Paris, 2003.

CORM, G., *Le Proche-Orient éclaté1956-2000,* Gallimard, Paris, 1999.

CROITORU, J., *Der Märtyrer als Waffe. Die historischen Wurzeln des Selbstmordattentats,* Carl Hanser, Munich, 2003.

DARLE, P., *Saddam Hussein, Maître des mots. Du langage de la tyrannie a la tyrannie du langage,* L'Harmattan, Paris, 2003.

DAVIS, J. M., *Martyrs. Innocence, Vengeance and Despair in the Middle East,* Palgrave, New York, 2003.

DAWISHA, A., *Arab Nationalism in the Twentieth Century. From Triumph to Despair,* Princeton University Press, Princeton, 2003.

DENCEUX, G., *Urban Unrest in the Middle East. A comparative Study of Informal Networks in Egypt, Iran and*

Lebanon, State University of New York Press, Albany, 1993.

DERRIDA, J., J. HABERMAS, *Le "concept" du11 Septembre. Dialogues a New York (octobre-décembre 2001) avec Giovanna Borradori,* Galilee, Paris, 2003.

DIECKHOFF, A., R. LEVEAU, *Israeliens et Palestiniens. La Guerre en partage,* Balland, Paris, 2003.

DIGARD, J.-P., B. HOURCADE, Y. RICHARD, *L'Iran au XX' siecle,* Fayard, Paris, 1996.

DODGE, *T., Inventing Iraq. The failure of Nation-Building and a History Denied,* Hurst & Company, Londres, 2003.

DORRONSORO, G., *La Révolution afghane,* Karthala, Paris, 2000.

DOUSSE, M., *Dieu en guerre. La violence au coeur des trois monothéismes,* Albin Michel, Paris, 2002.

DUCLOS J.-L., D. HERMANT (dir.) "Mort volontaire combattante. Sacrifices et Strategies"1 *Cultures et Conflits,* no 63, 2006.

DUPRET B., (dir.), *Le Phénomene de la violence politique: perspectives comparatistes et paradigme egyptien, CEDEJ,* Le Caire, 1994.

El KENZ, D., *Le Massacre, objet d'histoire,* Gallimard, Paris, 2005.

ELWERT, G., S. FEUCHTWANG, D. NEUBERT(dir.), *Dynamics of Violence. Processes of Escalation and De-Escalation* in *Violent Conflicts,* Duncker, Berlin, 1999.

EMERSON, S., *American Jihad. The Terrorists Living Among Us,* Free Press, New York, 2002.

ENTELIS, J .-P., *Islam, Democracy and the State* in *North Africa,* Indiana University Press, Bloomington et Indianapolis, 1997.

EVANS, P.B., D. RUESCHEMEYER, *Bringing the State Back in,* Cambridge University Press, Cambridge, 1985.

FLORY, J., *Guerre sainte, djihad, croisade. Violence et religion dans le christianisme et l'islam,* Seuil, Paris, 2002.

FOUDA Y., N. Fielding, *Masterminds of Terror. The Truth Behind the Most Devastating Terrorist Attack the World Has Ever Seen,* Arcade, NewYork, 2003.

GARNHAM, D., M. TESSLER (dir.), *Democracy, War and Peace* in *the Middle East,* Indiana University Press, Bloomington, Indianapolis, 1995.

GALISSOT, G., (dir.), *Mouvement ouvrier, communisme et nationalisme dans le monde arabe,* Editions ouvrieres, Paris, 1978.

GELVIN, J.-L., *The Israel-Palestine Conflict: One Hundred Years of War,* Cambridge University Press, Cambridge, 2005.

GERGES, F. A., *Journey of the Jihadist, Inside Muslim Militancy,* Harcourt Inc., Orlando et Austin, 2006.

GIDDENS, A., *The Nation-State and Violence,* University of California Press, Berkeley, 1987.

GRAHAM-BROWN, S., *Sanctioning Saddam. The Politics of Intervention* in *Iraq,* I. B. Tauris, Londres, 1999.

GUIDERE, M., *Les "Martyrs " d'Al-Qaida. Au coeur de la propagande terroriste,* Editions du Temps, Nantes, 2006.

GUINGAMP, P., *Hafez el-Assad et le Parti Ba'ath en Syrie,* L'Harmattan, Paris, 1996.

GUNARATNA, R., *Inside al Qaeda. Global Network of Terror,* Hurst & Co., Londres, 2002.

HAENNI, P., *L'Ordre des caïds: conjurer la dissidence urbaine au Caire,* Karthala, Paris, 2005.

HASHIM, A.S., *Insurgency and Counter-Insurgency* in *Iraq,* Cornell University Press, Ithaca, 2006.

HAFEZ, M. M., *Suicide Bombers* in *Iraq. The Strategy and Ideology of Martyrdom,* USIP, Washington, 2007.

HAFEZ, M. M., *Why Muslims Rebel? Repression and Resistance* in *the Islamic World,* Lynne Rienner, Boulder, 2003.

HALLIDAY, F., *Arabia without Sultans,* Penguin, Londres, 1974.

HANNOYER, J., (dir.), *Guerres civiles. Economies de la violence, dimensions de la civilite,* Karthala, Paris, 1999.

HERITIER, F., (dir.), *De la violence,* Octile Jacob, Paris, 1996.

Hmou, B., *La Force de l'obeissance: economie politique de la repression en Tunisie,* La Découverte, Paris, 2006.

HILTERMANN, J. R., *Beyond the Intifada. Labor and Women Movements* in *the Occupied Territories,* Princeton University Press, Princeton, 1991.

HOURANI, A., *Histoire des peuples arabes,* Seuil, Paris, 1993.

HOURANI, A., P. S. KHOURY, M. C. Wilson (dir.), *The Modern Middle East,* University of California Press, Berkeley, 1993.

HUDSON, M. C., *Arab Politics. The Search for Legitimacy,* New Haven, Yale University Press, 1977.

JABAR, F. A., *The Shi'ite Movement* in *Iraq,* alSaqi, Londres, 2003.

JANKOWSKI J., I. GERSHOMI, *Rethinking Nationalism in the Arab Middle East,* Columbia University Press, New York, 1997.

JONGERDEN, J., *The Settlement Issue in Turkey and the Kurds: An Analysis of Spatial Policies, Modernity and War,* Leiden, Brill, 2007.

JUERGENSMEYER, M., *Terror in the Mind of God, The Global Rise of Religious Violence,* University of California Press, Berkeley, 2001.

KAMRAVA, M., *The Modern Middle East: A political History since the Fisrt World War,* University of California Press, Berkeley, 2005.

KARIM, K. H., *Islamic Peril. Media and Global Violence,* Black Rose, Londres, 2001.

KEPEL, G., *Le Prophète et Pharaon: les mouvements islamistes dans l'Egypte contemporaine*, La Découverte, Paris, 1984.

KEPEL, G., *Jihad. Expansion et déclin de l'islamisme,* Gallimard, Paris, 2001.

KEVORKIAN, R., *Le Génocide des Arméniens,* Odile Jacob, Paris, 2006.

KIESER, H.-L., *Der verpasste Friede. Mission, Ethnie und Staat in den Ostprovinzen der Turkei 1839-1938,* Chronos, Zurich, 2000.

KHOSROKHAVAR, F., *Les Nouveaux Martyrs d'Allah,* Flammarion, Paris, 2002.

KHOSROKHAVAR, F., *Quand Al-Qaida Parle. Temoignages derriere les barreaux,* Grasset, Paris, 2006.

KUTSCHERA, Ch., (dir.), *Le Livre noir de Saddam Hussein,* Oh! Editions, Paris, 2005.

LARZILLIERE, P., *Etre jeune en Palestine,* Balland, Paris, 2004.

LAURENS, H., *Paix et grterre au Moyen-Orient. L'Orient arabe et le monde de 1945 a nos jours,* Armand Colin, Paris, 2005.

LAURENS, H., *Question palestinienne1947-1967. L'accomplissement des propheties,* Fayard, Paris, 2007.

LAWRENCE, B., (dir.), *Messages to the World. The Statements of Osama bin Laden,* Verso, Londres, 2005.

LEWIS, B., *Le Langage politique de l'islam,* NRF, Paris, 1988.

LUIZARD, P-J., (dir.), "Memoires d'Irakiens: à la decouverte d'une societe vaincue...", *Monde arabe Maghreb Machrek,* 1999, no 163.

MALLEY, R., *The Call from Algeria. Third Worldism, Revolution and the Tum to Islam,* University of Califomia Press, Berkeley, 1998.

MARTINEZ, L., *La Guerre civile en Algerie: 1990-1998,* Karthala, Paris, 1998.

MARTINEZ-GROS, G., L. VALENSI, *L'Is/ am en dissidence. Genese d'un affrontement,* Seuil, Paris, 2004.

MAYEUR-JAOUEN, C. (dir.), *Saints et heros du Moyen-Orient contemporain,* Maisonneuve & Larose, Paris, 2002.

MAYEUR-JAOUANT C., et B. HEYBERGER (dir.), "Le corps et le sacré en Orient musulman", *REMMM,* no 113-114, 2006.

MCDERMOTT, T., *Perfect Soldiers: the 9/11 Hijackers. Who they were, why they dit it?,* Harper, New York 2006.

MERMIER F., E. PICARD (dir.), *Liban. Une grterre de 33 jours,* La Découverte, Paris, 2007.

MEOUCHY, N., P. SLUGLETT (dir.), *The British and French Mandates in Comparative Perspectives/ Les Mandats franrais et anglais dans une perspective comparative,* Brill, Leiden, 2004.

MIDDLE EAST WATCH, *Genocide en Irak. La campagne d'Anfal contre les Kurdes,* Paris, Karthala, 2003.

MIZRAHI, J.-D., *Genèse de l'Etat mandataire. Service de renseignement et bandes armees en Syrie et au Liban dans les années 1920,* La Sorbonne, Paris, 2003.

MOREAU, O., A. EL-MOUDDEN (dir.), "Reforme par le haut, reforme par le bas: la modernisation de l'armee aux XIXe et XXe siècles" *Quadreni di Oriente Modemo,* vo XXIII, no 5, 2004.

MOHAMMED-AREF, A., SCHMITZ J., *Figures de l'islam après le 11 Septembre. Disciples et martyrs, réfugiés et migrants,* Karthala, Paris, 2006, p. 91-122.

MORRIS, B., *The Birth of the Palestinian Refitgee Problem Revisited,* Cambridge University Press, Cambridge, 2004.

MOUSSAOUI, A., *De la Violence en Algerie. Les lois du chaos,* Actes Sud, Arles, 2006.

MUNSON, H. Jr., *Islam and Revolution in the Middle East,* Yale University Press, New Haven, 1988.

NAKASH, Y., *Reaching for Power. The Shi'a in the Modem Arab World,* Princeton University Press, Princeton, 2006.

NAKASH, Y., *The Chi'is of Iraq,* Princeton University Press, Princeton, 1994.

NAPOLEONI, L., *Insurgent Iraq. Al Zarkaoui and the New Generation,* Constable, Londres, 2005.

NASR, V., *The Shia Revival. How Conflicts within Islam Will Shape the Future,* Norton, New York, 2006.

NORDMANN C., A. C.G. M. ROBBEN (dir.), *Fieldwork under Fire. Contemporary Studies of Violence and Survival,* University of California, Berkeley Press, 1995.

OLIVER, A.-M., P. STEINBERG, *The Road to Martyrs' Square. A Journey into the World of the Suicide Bomber,* Oxford University Press, Oxford, 2005.

PAGES, M. et al., *La Violence politique,* Erès, Paris, 2003.

PANNEWICK, F., (dir.), *Martyrdom in Literature. Visions of Death and meaningful suffering in Europe and*

the Middle East from Antiquity to Modernity, Dr Ludwig Reichart, Wiesbaden, 2004.

PETERS, R., *Jihad in Classical and Modern Islam,* Markus Wiener, Princeton, 2005.

PICARD, E., *Liban Etat de discorde. Des fondations aux guerres fratricides,* Flammarion, Paris, 1988.

PICARD, E., (dir.), *La Politique dans le monde arabe,* Armand Colin, Paris, 2006.

PICAUDOU, N., *La Décennie qui ébranla le Moyen-Orient. 1914-1923,* Complexe, Bruxelles, 1992.

PICAUDOU, N., (dir.), *Territoires palestiniens de memoire,* Karthala, Paris, 2006.

RANDAL, J., *Oussama. La fabrication d'un terroriste,* Albin Michel, Paris, 2004.

REID, J. J., *Crisis of the Ottoman Empire. Prelude to Collapse 1839-1878,* Franz Steiner Verlag, Stuttgart, 2000.

RICHARD, Y., *L'Iran. Naissance d'une republique islamique,* La Martiniere, Paris, 2006.

ROGAN, E.R., A. Shlai'm (dir.), *The War in Palestine. Rewriting History of 1948,* Cambridge University Press, Cambridge, 2001.

RULE, J. B., *Theories of Civil Violence,* University of California Press, Berkeley, 1988.

RODINSON, M., *Peuple juif ou problème juif?,* Maspero, Paris, 1981.

RODINSON, M., *Marxisme et le monde musulman,* Seuil, Paris, 1972.

ROUGIER, B., *Le Jihad au quotidien,* PUF, Paris, 2004.

ROY, O., *L'Echec de l'islam politique,* Seuil, Paris, 1992.

RUBIN, B., Colp J., *Anti-American Terrorism and the Middle East, Understanding the Violence,* Oxford University Press, Oxford, 2002.

SAGEMAN,M.,*Le Vrai Visage du terrorisme: psychologie et sociologie des acteurs du djihad,* Denoël, Paris, 2005.

SALAME, Gh., (dir.), *Democraties sans democrates. Politiques d'ouverture dans le monde arabe et islamique,* Fayard, Paris, 1994.

SCHULZE, R., *A modern History of Islamic World,* New York University Press, 2002.

SEURAT, M., *L'Etat de Barbarie,* édité par G. Kepel, Seuil, Paris, 1989.

SIGNOLES, A., *Le Hamas au pouvoir et après?,* Milan, Toulouse, 2006.

SKOCPOL, T., *States and Social Revolutions. A*

Comprehensive Analysis of France, Russia and China, Cambridge University Press, Cambridge, 1979.

SIFRY M. L., C. CERF, *The Iraq War Reader. History, Documents, Opinions,* Touchstone, Londres, 2003.

STANKO, E. A., (dir.), *The Meanings of Violence,* Routledge, NewYork, 2003.

STEWART, P. J, A. Strathern, *Violence. Theory and Ethnography,* Continuum, Londres-New York, 2002.

TER MINASSIAN, T., *Colporteurs du Komintern: l'Union sovietique et les minorites au Moyen-Orient,* Sciences Po, Paris, 1997.

THOMAS, D., *Le Londonistan: le djihad au cceur de l'Europe,* Michalon, Paris, 2005.

TILLY, Ch., *The Politics of Collective Violence,* Cambridge University Press, Cambridge, 2003.

TRIPP, Ch., *A History of Iraq,* Cambridge University Press, Cambridge, 2000.

VAN BRUINESSEN, M., *Kurdish Ethno-Nationalism* versus *Nation-Building States,* ISIS, Istanbul, 2000.

VANER, S., (dir.), *Modernisation autoritaire en Turquie et en Iran,* L'Harmattan, Paris, 1991.

WRIGHT, L., *The Looming Tower. Al-Qaeda and the Road to 9/ 11,* Knopf, New York, 2006.

YERASIMOS, S., *Questions d'Orient. Frontieres et minorites des Balkans au Caucase,* La Découverte, Paris, 1993.

ZUBAIDA, S., *Islam, the People and the State; Essays on Political Ideas and Movements in the Middle East,* I. B. Tauris, Londres, 1993.

ZURCHER, E.-J., (dir.), *Arming the State. Military Conscription in the Middle East and Central Asia, 1775-1925,* I. B. Tauris, Londres, 1999.

أعلام

أ

إبراهيم كايباكايا (Ibrahim Kaypakkaya) (1948–1973)، أحد قادة اليسار المتطرّف التركي، أعدم في السجن بعد مقاومة شديدة تحت التعذيب.

أبو مصعب الزرقاوي (Abou Moussab Al-Zarkaoui) (1966–2006)، تتلمذ على يد محمد المقدسي، أحد أهم وجوه التطرف الإسلاموي في التسعينيات، زعيم المقاتلين الأجانب في العراق حيث مارس عنفاً شديداً قبل أن تقتله القوات الأميركية.

أحمد تقي الدين ابن تيمية (Ahmad Taqi ad-din Ibn Taymiyya) (1263–1328)، أديب وعالم حنبلي، عرف بصرامته ومعارضته الغزاة المغول، اعتبر المصدر القروسطي الأساسي للتطرّف الإسلامي.

أحمد حسن البكر (Hassan Al-Bakr) (1916-1982)، لواء في الجيش العراقي، أحد أهم مهندسي انقلابي العامين 1963 و1968، رئيس العراق من العام 1968 إلى العام 1979.

أحمد رضا (Ahmad Rida) (1859-1930)، مفكر وضعي عثماني وزعيم لجنة الاتحاد والترقي قبل أن يتم استبعاده تدريجاً من قبل قيادة قومية شديدة التطرّف بعد ثورة العام 1908.

أحمد ياسين، الشيخ (Ahmad Yassine, Cheikh) (1936 أو 1938-2004)، عالم فلسطيني، عضو في حركة الإخوان المسلمين قبل أن ينشئ حركة حماس في العام 1987 ويتزعمها حتى اغتياله من جانب القوات الإسرائيلية.

أرييل شارون (Ariel Sharon) (1928-2014)، جنرال ورجل دولة إسرائيلي. انتمى إلى "الهجانا" في شبابه وعرف بمواقفه المتطرّفة إزاء القضية الفلسطينية. أجبر على الاستقالة من منصبه كوزير الدفاع بعد مجازر صبرا وشاتيلا في العام 1982 وأصبح رئيساً للوزراء في العام 2001. أصيب بشلل منذ كانون الأول/ يناير 2006 نتيجة نزف دماغي وتوفي في العام 2014.

أسامة بن محمد بن عوض بن لادن (Oussama ben Mohammed ben Awad ben Laden) (1957-2011)، سعودي من أصول يمنية، من قدامى المحاربين في أفغانستان في الثمانينيات، أسّس تنظيم القاعدة في العام 1988. قتله الأميركيون في عملية قاموا بها ضده في باكستان.

أسامة المقدسي (Oussama Al-Makdisi) (1959-)، مناضل إسلاموي أردني من أصول فلسطينية، من قدامى المحاربين في حرب أفغانستان والأب الروحي لأبي مصعب الزرقاوي.

إسحق رابين (Yitzhak Rabin) (1922-1995)، جنرال ورئيس وزراء إسرائيلي بين العامين 1974 و1977، ثم بين العامين 1992

و1995، قتله يهودي متطرف لأنه وقع اتفاقات أوسلو مع منظمة التحرير الفلسطينية.

إسماعيل آغا سيمكو (Ismail Agha Simko) (1887–1930)، زعيم قبيلة كردي، منظم ثورة في العشرينيات. قتل بينما كان متوجهاً إلى طاولة المفاوضات مع مبعوثين من طهران.

أمين الحافظ (Amine Al-Hafez) (1911–2009)، ضابط سوري، تزعم انقلاباً بعثياً في العام 1963، أطيح به بدوره في انقلاب آخر في العام 1966. توفي بسبب المرض في حلب في العام 2009.

أنور باشا (Anwar Bacha) (1881–1922)، محرّض على ثورة تركيا الفتاة في العام 1908 وأحد القادة الثلاثة في لجنة الاتحاد والترقي (1908–1918). قتله الجيش الأحمر في طاجكستان الحالية.

إيغال عامير (Yigal Amir) (1970–)، مناضل يهودي متطرّف، قتل رئيس الوزراء إسحق رابين في خلال اجتماع ينادي بالسلام بين الفلسطينيين والإسرائيليين في تل أبيب.

أيمن الظواهري (Ayman Al-Zawahiri) (1952–)، طبيب، وجه بارز من وجوه التطرّف الإسلامي المصري ومن قدامى المحاربين في أفغانستان. يعتبر الرقم الثاني في القاعدة والرقم الأول بعد مقتل أسامة بن لادن.

إيميل لحود (Emile Lahoud) (1936–)، جنرال لبناني، أصبح رئيساً للجمهورية بين العامين 1998 و2007. تسبب التجديد له على رأس الدولة بطلب من سوريا بانقسام عميق في البلاد وبداية مرحلة أزمة جديدة.

ب

بابراك كارمال (Babrak Karmal) (1929–1996)، قائد شيوعي أفغاني، عيّن رئيساً بعد غزو البلاد. أقيل من منصبه رسمياً لأسباب صحية ونفى نفسه إلى الاتحاد السوفييتي حيث توفي في موسكو.

بيجان جازاني (Bijan Jazani) (1938–1975)، نشأ بين أبوين شيوعيين، اعتبر مؤسس منظمة فدائيي خلق. قتلته السافاك مع ثمانية من رفاقه.

بكر صدقي (Bakr Sidiq) (1890–1992)، جنرال عراقي مسؤول عن مجازر ضد المسيحيين إبان بلوغ العراق استقلاله في العام 1932. قام بانقلاب العام 1936 وقتله ضباط آخرون بعد مرور عام على ذلك.

ت

تركي ألب أرسلان (Alparslan Türkes) (1917–1997)، عقيد في الجيش التركي، مقرّب من ألمانيا النازية في خلال الحرب العالمية الثانية. أصبح زعيم اليمين المتطرف في الستينيات والسبعينيات وأحد أهم صانعي العنف المكثّف الذي شهدته تركيا قبل انقلاب 12 أيلول/ سبتمبر 1980.

تركي الفيصل (Turki Al-Fayçal) (1945–)، رئيس جهاز الأمن السعودي وأحد أهم المسؤولين عن إرسال مقاتلين عرب إلى حرب أفغانستان (1980–1989).

تيمور بختيار (Teymour Bakhtiyar) (1914–1970)، جنرال إيراني، مؤسّس شرطة السافاك وقائدها من العام 1958 وحتى العام 1961.

ج

جعفر الأفغاني (Djaffar Al-Afghani) (؟-2004)، أمير الجبهة الإسلامية للإنقاذ الجزائرية.

جلال الأحمد (1923-1969)، مفكر إيراني، ناقد جذري للتغريب، أدت أعماله دوراً مهماً في تسييس الناشئة قبل الثورة الإسلامية وبعدها.

جمال الدين الأفغاني (Djamal al-din Al-Afghani) (1838-1897)، عالم فارسي، مدافع عن فكرة وحدة المسلمين وعن الإصلاحات في العالم الإسلامي، مقبول كوجه بارز من وجوه السلفية في نهاية القرن التاسع عشر.

جمال زيتوني (Djemal Zeoutini) الملقب بأبي عبد الرحمن أمين (؟-1996)، جزائري، زعيم الجبهة الإسلامية للإنقاذ بين العامين 1994 و1996، معروف بقسوته. اتهم بأنه نظم عملية خطف واغتيال سبعة رهبان فرنسيين في العام 1996 وبأنه خطط للهجمات التي هزّت فرنساً في العامين 1995 و1996. قتله رفاقه وحلّ محله عنتر زوابري.

جمال عبد الناصر (Gamal Abd Al-Nasser) (1918-1970)، من جماعة الضباط الأحرار، أحد أهم القادة البارزين في انقلاب العام 1952 في مصر قبل أن يصير رئيس الجمهورية في العام 1954.

جهيمان العتيبي (Juhayman Al-Utaybi) (1936-1980)، طالب جامعي من مدينة مكة ثم عضو في الحرس الملكي. المخطط الرئيسي لاحتلال الكعبة في العام 1979، أعدم بعد سنة على العملية.

جورج حبش (Georges Habbash) (1925 /1926)، زعيم الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. له علاقة بالعديد من عمليات خطف

الطائرات في السبعينيات. معارض لاتفاقات أوسلو، تخلى عن منصبه في العام 2000. توفي في عمان نتيجة المرض.

جوزيف سعادة (Joseph Saada) (1929–)، قائد كتائبي تسبب اغتيال ابنه رولان في نيسان/ أبريل العام 1975 بمذابح منظمة ضد المدنيين المسلمين.

ح

حافظ الأسد (Hafez Al-Assad) (1930–2000)، لواء في الجيش السوري صار رئيساً للدولة بعد انقلاب عسكري في العام 1970.

حافظ الله أمين (Amine Al-Hafez) (1929–1979)، زعيم فرع خلق في الحزب الديمقراطي الشعبي في أفغانستان. وصل إلى السلطة من طريق انقلاب في 14 أيلول/ سبتمبر 1979، وقتل إبان الغزو السوفييتي للبلاد في 27 كانون الأول من السنة ذاتها.

حامد كرزاي (Hamid Karzai) (1957–)، تسيّس إبان منفاه في باكستان والهند، دفع إلى مقدمة الساحة بعد حرب أفغانستان الجديدة في العام 2001 ليصبح رئيساً للبلاد في حزيران/ يونيو من العام 2002.

حسن البنّا (Al-Banna, Hassan) (1906–1949)، مؤسس حركة الإخوان المسلمين ومرشدها الأول.

حسن قصير (Hassan Kasir) (1967–؟1982)، صاحب أول عملية انتحارية في لبنان ضد القوات الإسرائيلية، قام بها في 11 تشرين الثاني/ نوفمبر من العام 1982 (47 قتيلاً)

حسن نصرالله (Hassan Nassrallah) (1960-)، خلف محمد حسين فضل الله على رأس حزب الله اللبناني منذ العام 1991.

حسني الزعيم (Husni Al-Zaim) (1897-1949)، لواء في الجيش السوري من أصول كردية، قام بانقلاب 11 نيسان/ أبريل ضد الرئيس القوتلي. أعدم في السنة ذاتها في 8 تموز/ يوليو، بعد الانقلاب الذي نفذه سامي الحناوي.

حسني مبارك (Hosni Moubark) (1928-)، كان فريقاً في الجيش المصري، ثم نائباً للرئيس وبعدها رئيساً لمصر بعد اغتيال أنور السادات، أقصي عن السلطة وحوكم إثر انتفاضات شعبية في العام 2011.

سيد حسين بورجردي آية الله العظمى (Sayyid Hussein Bourjerdi, grand Ayatollah) (1870-1962)، كاتب إيراني ناشط في الحملة ضد رئيس الوزراء محمد مصدّق قبل أن يأخذ مسافة من الشاه.

خ

خالد الإسلامبولي (Khalid Islambouli) (؟-1982)، أحد أهم منفذي عملية اغتيال الرئيس المصري أنور السادات في العام 1981. أعدم في 15 نيسان/ أبريل 1982.

خالد نزار (Khaled Nazzar) (1937-)، جنرال جزائري، أحد أهم منظّمي انقلاب العام 1992 ومنفذي "سياسة الاستئصال" ضد الإسلامويين في السبعينيات.

د

دنيز جزميز (Deniz Gezmis) (1947–1972)، قائد جيش تحرير شعب تركيا، أعدم مع اثنين من رفاقه في 6 أيار/ مايو 1972.

ر

رجب طيّب أردوغان (Recep Tayyip Erdogan) (1954–)، رئيس بلدية إسطنبول السابق، مؤسس حزب العدالة والتنمية الذي تسلم السلطة منذ نهاية العام 2002. هو المهندس الأساسي في تحوّل الحراك الإسلاموي التركي إلى تيار يمين الوسط.

رشيد عالي الجيلاني (Rachid Ali Al-Geylani) (1892-1965)، رئيس وزراء عراقي في العام 1933 ثم بعد انقلاب العام 1940. عزل من منصبه في أيار/ مايو 1941 لمواقفه المساندة للنازية.

رضا شاه (Riza Chah) (1878–1944)، ضابط قوزاقي وصل إلى السلطة من طريق انقلاب في العام 1921. أعلن شاهاً لإيران في العام 1925 وأجبر على التخلي عن العرش في العام 1941 نتيجة الاحتلال الأنجلو – سوفييتي لبلاده.

رضا ميرزا كرماني (Mirza Riza Kermani) (1837–1896؟)، مناضل إيراني تأثر بجمال الدين الأفغاني والتطرّف الأوروبي، اغتال نصرالدين شاه.

رفعت الأسد (Rifaat Al-Assad) (1947–)، عسكري سوري، أحد أهم المسؤولين عن مجازر حماه في العام 1982.

رفيق الحريري (Rafiq Hariri) (1946–2005)، رجل أعمال

ورئيس وزراء لبناني من العام 1992 إلى العام 2004. اغتيل في 14 شباط/ فبراير 2005 بعد معارضته التجديد للرئيس إيميل لحود والذي فرضته سوريا على رأس الدولة.

ز

زكي الأرسوزي (Zaki Al-Arsuzi) (1889–1968) مثقف وسياسي سوري، أحد منظري القومية العربية ما قبل حزب البعث.

س

سعد زغلول (Saad Zaghloul) (1859–1927)، زعيم حزب الوفد شكل اعتقاله العامل المسبب للثورة المصرية في العام 1919. رئيس وزراء مصر في العام 1924.

سلطان باشا الأطرش (Al-Atrach Sultan Pacha) (1891-1982)، زعيم درزي، الوجه الأهم في الثورة السورية الكبرى للعامين 1925–1927 وأحد أطراف الثورة ضد الفرنسيين في العام 1945 والتي قادت إلى استقلال البلاد الفعلي.

سليمان فرنجية (Suleiman Kabalan Frangié) (1910-1992)، رئيس جمهورية لبناني من العام 1970 وحتى العام 1976. جاء اغتيال ابنه طوني (ولد في العام 1939) ليفجر المعسكر المسيحي من الداخل.

سليمان مرشد (Suleiman Murchid) (؟–1944)، راعٍ علوي شاب جمع حوله أتباع كثر قبل أن يصبح نائباً في برلمان الشام ويعدم لكونه "رجل عصابات" مصبوغ بنفحة من التبشيرية.

سمير جعجع (Samir Geagaa) (1952-)، رجل ميليشيا لبناني، زعيم القوات اللبنانية من العام 1983 وحتى العام 1990. متورط في اغتيال طوني فرنجية، ابن الرئيس السابق سليمان فرنجية، سجن من العام 1994 إلى العام 2005 عاد بعدها ليتزعم القوات اللبنانية من جديد.

سيد قطب (Sayyid Qotb) (1906-1966)، أديب ومناضل إسلاموي مصري، سجن عشر سنوات تحت حكم عبد الناصر وقدم تفسيراً ثورياً للقرآن. دعا إلى العنف ضد الأمراء الكفار. أعدم في 29 آب/ أغسطس 1966.

ش

شكري مصطفى (Shukri Mustafa) (1942-1978)، مؤسس "التكفير والهجرة" في مصر وهو التنظيم المتورط في خطف ثم اغتيال وزير الأوقاف محمد الزعبي، وقد أعدم مع عدد من القادة الإسلامويين الآخرين.

ص

صادق أحمدي خلخالي، آية الله (Sadegh Ahmadi Khalkali, Ayatollah) (1927-2003)، رئيس المحاكم الثورية الإسلامية في إيران والمعروفة بقسوتها التي أفضت إلى إعدام سريع للمعارضين.

صادق شرفقندي (Sadiq Sharafkandi) (1938-1992)، خليفة عبد الرحمن قاسملو على رأس الحزب الديمقراطي الكردستاني في إيران، قتله عملاء إيرانيون في برلين.

صادق قطب زاده (Sadeq qotbzadeh) (1936-1982)، وزير الخارجية في حكومة إيران الثورية المؤقتة، أتهم بالتآمر ضد الخميني وأعدم في 15 أيلول/ سبتمبر 1982.

صلاح الدين البيطار (Salah ad-Din Al-Bitar) (1912-1980)، مناضل سوري قومي، أحد مؤسسي حزب البعث مع ميشال عفلق. بعد أن كان رئيساً للوزراء بين العامين 1963 و1966، أجبر على سلوك طريق المنفى واغتيل في باريس من قبل عملاء سوريين على الأرجح.

صدام حسين الماجد التكريتي (Saddam Hussein Al-Madjid Al-Tikrity) (1937-2006)، رجل السلطة البعثية القوي بين العامين 1968 و1979، رئيس الجمهورية بعدها. قام بحرب في العام 1980 ضد إيران ثم اجتاح الكويت في العام 1990. يعتبر نظامه رديفاً لمئات آلاف القتلى وقد أطيح به في حرب العام 2003. أعدم في 30 كانون الأول/ ديسمبر 2006 لمسؤوليته عن مجازر الشيعة في الدجيل في العام 1982.

صدام كامل حسين المجيد (Saddam Kamel Hussein Al-Madjid) (؟-2006)، صهر صدام حسين ووزير الدفاع العراقي قبل خروجه عليه في العام 2005، قتل مع شقيقه عند عودته إلى العراق.

ط

طه ياسين رمضان الجزراوي (Taha Yassine al-Jizrawi Ramadane) (1938-2007)، نائب الرئيس العراقي من العام 1991 وحتى العام 2003، حكم عليه بالإعدام ونفذ الحكم في 20 آذار/ مارس 2007 لمشاركته في مجازر شيعة الدجيل في العام 1982.

طالقاني، آية الله (Ayatollah Teleqani) (1904-1979)، اعتقل مرات عدة بسبب معارضته للشاه، أسّس مع مهدي بازركان حركة الحرية في إيران في العام 1961، انضمّ إلى الثورة الإيرانية.

ع

عباس أمير هويدا (Amir Abbas Hoveyda) (1919–1979)، ضابط ورئيس وزراء إيراني من كانون الثاني/ يناير 1965 إلى آب/ أغسطس 1977، أعدم في 7 نيسان/ أبريل 1979.

عباسي مدني (Abbasi Madani) (1931–)، أستاذ علم اجتماع جزائري، اعتقل لمشاركته في النضال ضد الاستعمار بين العامين 1954 و1962. أسّس في العام 1989 الجبهة الإسلامية للإنقاذ واعتقل مجدداً لخمس سنوات بعد وقف العملية الانتخابية في كانون الثاني/ يناير 1992.

عبد الرحمن قاسملو (Abderrahman Ghassemlou) (1989- 1930)، مثقف كردي وقائد الحزب الديمقراطي الكردستاني والميليشيا التابعة له ضد النظام الإسلامي الإيراني. قتل في فيينا في 13 تموز/ يوليو 1989 من قبل المبعوثين الإيرانيين الذين كان يتفاوض معهم.

عبد العزيز الرنتيسي (Abd-al Azizi Rantissi) (1947–2004)، طبيب فلسطيني، الزعيم الثاني لحركة حماس بعد اغتيال الشيخ أحمد ياسين، اغتيل بدوره من قبل القوات الإسرائيلية.

عبد الكريم قاسم (Abd al-Karim Qasim) (1914–1963)، ضابط حر عراقي من أصول مختلطة، عربية وكردية، سنية وشيعية، الطرف الأساسي في انقلاب العام 1958. قتل في 9 شباط/ فبراير 1963 إبان أول انقلاب بعثي.

عبد الله أوجلان (Abdullah Öcalan) (1948–)، مؤسّس حزب

العمال الكردستاني والزعيم الرئيسي لحرب العصابات الكردية من العام 1984 وحتى العام 1999، تاريخ اعتقاله في كينيا وسجنه مدى الحياة في تركيا.

عبد الله شاتلي (Abdullah Çatlı) (1956–1996)، مناضل تركي من اليمين المتطرف، مطلوب لاغتيالاته السياسية العديدة، متورط في محاولة اغتيال البابا يوحنا بولس الثاني. قتل في حادث برفقة نائب وأحد كبار المسؤولين في شرطة إسطنبول.

عبد الله صالح سيريا (Abdallah Salih Siriyya) (-1975 1933)، مناضل إسلاموي مصري من أصول فلسطينية، الطرف الرئيس في نيسان/ أبريل 1974، في تمرد العسكر المقربين من حزب التحرير الإسلامي. أعدم مع خمسة من رفاقه.

عبد الله يوسف عزّام (Abdallah Yussuf Azzam)، (-1989 1941)، شيخ وعالم فلسطيني، أحد أبرز منظري ومنظمي الجهاد في أفغانستان.

عدنان عقله (Adnan Oqla) (؟-)، زعيم الجناح العسكري للإخوان المسلمين في سوريا من العام 1976 وحتى العام 1982، ولا سيما ثورة حماه في العام 1982. اختفى منذ عودته إلى دمشق في العام 1985.

عز الدين القسام (Izzeddin Al-Qassam) (1935–1982)، عالم، مقاتل إسلاموي من أصول سورية، قتل في فلسطين. هو واحد من المرجعيات التاريخية لحركة حماس.

عزّت إبراهيم الدوري **(Ibrahim Izzat Al-Duri)** (1942–)، أحد أقرب المعاونين لصدام حسين كان خلفاً له في قيادة حزب البعث بعد إعدامه في العام 2006.

علي أكبر هاشمي رفسنجاني **(Ali Akbar Hashimi Rafsanjani)** (1934–)، رئيس الجمعية الوطنية المنتخبة الأولى في الجمهورية الإسلامية ثم ممثل الخميني في المجلس الحربي إبان حرب الخليج الأولى، وأخيراً رئيس الجمهورية بين العامين 1989 و1997. خسر الانتخابات الرئاسية في العام 2005 ضد محمود أحمدي نجاد.

علي بلهادي **(Ali Belhadj)** (1956–)، أستاذ لغة عربية جزائري ومناضل إسلاموي في السنوات 1970–1980، نائب رئيس الجبهة الإسلامية للإنقاذ قبل سجنه بين عامي 1992 و2003.

علي شريعتي **(Ali Shariatri)** (1933–1977)، مفكر إيراني تأثر بالماركسية كما بالفانونية والإسلام. تقدم أعماله تفسيراً ثورياً للشيعية وتؤدي دوراً مهماً في تسييس الشباب قبل الثورة الإسلامية وخلالها.

علي حسن المجيد **(Ali Hassan Al-Majid)** (1941–2010) ابن عم صدام حسين ووزير دفاعه بين العامين 1980 و1990، المنظم الأساسي للحرب الكيميائية الملقبة بحرب الأنفال والتي خيضت في كردستان العراق في العام 1988-1989. حوكم وأعدم في العام 2010.

عمر سعد الشيخ **(Omar Saad Sheikh)** (1973–)، بريطاني من أصول باكستانية. بعد دراسات لامعة، تقرّب من الأوساط الإسلاموية المتطرّفة وتورّط في العام 2002 في اغتيال دانييل بيرل من وول ستريت جورنال.

عمر عبد الرحمن **(Omar Abdl Al-Rahman)** (1938–)،

معروف أيضاً بلقب "الشيخ الضرير"، أحد قادة الجماعة الإسلامية، متورّط في اغتيال أنور السادات. حكم عليه بالسجن المؤبد لمشاركته في الاعتداء الأول ضد برجي التجارة العالميين في نيويورك في العام 1993.

عمر عبد المجيد ملا (Omar Abdl Majid Mollah) (-1956)، زعيم حركة طالبان والرئيس الفعلي لدولة أفغانستان بين العامين 1996 و2001. طردته من السلطة عملية "الحرية الراسخة".

ف

فتحي الشقاقي (Fathi Chakaki) (1951–1991)، مؤسس وأمين عام حركة الجهاد الإسلامي الفلسطينية، قتل في مالطا من جانب عملاء إسرائيليين على الأرجح.

فرانز فانون (Frantz Fanon) (1925–1961)، طبيب نفسي من جزر الأنتيل، عيّن في بليدا وأصبح تدريجاً أحد منظري "الثورة الجزائرية". تمتعت أعماله، ولاسيّما كتابه **المعذبون في الأرض**، حيث يدعو إلى العنف للقضاء على استعمار الإنسان، بتأثير واسع في أوساط الشرق الأوسط الاحتجاجية وكذلك في أفريقيا وأميركا الجنوبية وأوروبا.

فوزي القاوقجي (Fawzi Al-Qawuqji) (1890–1977)، ضابط سوري، شارك في الثورة الفلسطينية في العام 1936 وفي الحرب العربية الإسرائيلية للعام 1948. قريب من ألمانيا النازية في الثلاثينيات وفي خلال الحرب العالمية الثانية.

ك

كريكار ملا واسمه فتح نجم الدين فرج (Fateh Nadjmaddin

(‎-1956) Faraj)، مناضل كردي متطرّف، نفي إلى النروج، المؤسس المفترض لأنصار الإسلام.

كمال جنبلاط (Kemal Joumblatt) (1917-1977)، زعيم الطائفة الدرزية اللبنانية، مؤسّس ورئيس الحزب التقدمي الاشتراكي، قتله عملاء سوريون على الأرجح.

كميل نمر شمعون (Camille Nimr Chamoun) (1900-1989)، رئيس جمهورية لبناني بين العامين 1958 و1962، أحد أهم قادة الطائفة المارونية في خلال الحرب الأهلية.

كنعان إيفرين (Kenan Evren) (1918-)، جنرال تركي، تسلم السلطة بواسطة انقلاب في العام 1980 وأقام نظاماً شديد القمع ولاسّيما ضد اليسار، تبوأ منصب رئيس جمهورية بين العامين 1982 و1989.

ل

لولا عبود (Loula Abboud) (1964-1985)، مناضلة شيوعية لبنانية، قامت بواحدة من أوائل العمليات الانتحارية في الشرق الأوسط.

ليلى خالد (Leyla Khaled) (1944-)، عضوة سابقة في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، قامت بعمليات خطف طائرات في العام 1969.

م

ماهر شايان (Mahir Ç ayan) (1945-1972)، قائد حزب جبهة تحرير الشعب في تركيا. قتل مع تسعة من رفاقه في 30 آذار/ مارس 1972 من قبل الجيش التركي.

محمد أمين الحسيني (Mohammed Amin Al-Husseini) (1896-1974)، مفتي القدس، معروف بمواقفه المعادية للسامية والمناصرة للنازية.

أنور السادات (Anouar Al-Sadate) (1918-1981)، أحد الضباط الأحرار، نائب رئيس الجمهورية بين العامين 1964-1971، ثم رئيس مصر بين العامين 1971-1981. مهندس السلام بين مصر وإسرائيل، قتله عسكر إسلامويون.

محمد باقر الحكيم، آية الله (Mohammed Ayatollah Al-Hakim) (1939-2003)، رئيس المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق، استبدل بعد اغتياله بشقيقه عبد العزيز الحكيم.

محمد باقر القسام الصدر (Grand Ayatollah Sayyid Mohammed Bakir Al-Qassam Al-Sadr) (1935-1980)، مؤسس حزب الدعوة، أعدم في العام 1980 مع شقيقته أمينة الصدر بنت الهدى، بعد محاولة اغتيال ضد صدام حسين.

محمد بهشتي، آية الله (Mohammed Behechti Ayatollah) (؟-1981)، من معاوني الخميني المقربين، رئيس حزب الجمهورية الإسلامية، ووزير العدل الفعلي في الجمهورية الإسلامية. قتل إبان اعتداء قام به مجاهدو خلق.

محمد بوضياف (Mohammed Boudiaf) (1919-1992)، أحد مؤسسي الجبهة الوطنية لتحرير الجزائر قبل انتقاله إلى المعارضة في العام 1962. سمي رئيساً في شباط/ فبراير 1992، بعد إلغاء العملية الانتخابية وقتل في حزيران/ يونيو من العام نفسه.

محمد رضا بهلوي (Mohammed Reza Pahlavi) (1919-1980)، شاه إيران، صاحب العودة القوية بعد الإطاحة بحكومة مصدّق وبالثورة البيضاء، توفي في المنفى في القاهرة.

محمد رمزي يوسف (Mohammed Youssef Ramzi) (؟-)، مهندس من أصول باكستانية، حكم عليه بالسجن المؤبد لتورطه في الهجوم على مركز التجارة العالمي في العام 1993.

محمد طلعت باشا (Mehmet Talaat Pacha) (1874-1921)، واحد من القادة البارزين الثلاثة في لجنة الاتحاد والترقي، ثم رئيس وزراء عثماني بين العامين 1916 و1918. أحد أهم مهندسي الإبادة الأرمنية، قتل في برلين في العام 1921 على يد مناضل أرمني.

محمد عبده (Mohammed Abduh) (1849-1905)، رجل قانون وعالم ومصلح مصري اعتبر واحداً من مؤسسي السلفية الجديدة في بداية القرن العشرين.

محمد عطا (Mohammed Atta) (1969-2001)، طالب مصري تحول تدريجاً إلى الإسلاموية المتطرفة، أدى دوراً حاسماً في تنظيم وتنفيذ هجمات الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر 2001.

محمد عبد السلام فرج عطيه (Mohammed Abd Al-Salem Faraj)(؟-1982)، مناضل مصري متطرف، جاء كتيّبه "الفريضة الناقصة" ليقدم الجهاد على أنه ركيزة من ركائز الإسلام ويشجع قاتلي أنور السادات على ما فعلوه، ما أدى إلى الحكم عليه بالإعدام.

محمد علي رجائي (Mohammed Ali Rajai) (1933-1981)، كان بداية وزيراً للخارجية في إيران الثورة واغتيل بعد أربعة عشر يوماً فقط على انتخابه رئيساً للجمهورية الإسلامية.

محمد كاظم شريعتمداري، آية الله (Mohammed Kazem Shariatmadar, Ayattollah) (1905-1986)، كان مقرباً من الخميني في خلال ثورة العام 1963، ثم في المرحلة الأولى من الثورة

الإسلامية. خسر مواقعه بعد أن وضع مسافة بينه وبين السلطة الجديدة.

محمد العماري (Mohamed Lamari) (1939-2012)، واحد ممن قاموا بانقلاب العام 1992 في الجزائر وأحد أنصار سياسة القضاء على الإسلامويين. قائد الأركان قبل استقالته في العام 2004.

محمد مصدّق (Mohammed Mossadegh) (1882-1967)، معارض لنظام رضا خان، ثم رئيس وزراء إيراني بين العامين 1951 و1953. سياسة تأميم موارد الطاقة التي اتبعها تسببت بالإطاحة به من طريق انقلاب دعمته واشنطن ثم صدر بحقه حكم بالإعدام استبدل بحكم بالسجن ثلاث سنوات.

محمد نجيب (Mohammed Naguib) (1901-1984)، من الضباط الأحرار المصريين، رئيس وزراء ثم رئيس جمهورية قبل أن يخرجه عبد الناصر من السلطة في العام 1954.

محمود أحمدي نجاد (Mahmoud Ahmadinejad) (1956-)، مناضل خميني في الثمانينيات، انتخب رئيساً لجمهورية إيران في العام 2005

محمود فهمي النقرشي (Mahmoud Fahmi Al-Nuqrashi) (1888-1948)، رئيس وزراء مصري إبان الحرب العربية الإسرائيلية الأولى، قتل على يد أحد أعضاء حركة الإخوان المسلمين.

محمود عباس الملقب بأبي مازن (Mahmoud Abbas) (1935-)، أمين عام منظمة التحرير الفلسطينية ورئيس السلطة الفلسطينية منذ العام 2005.

مسعود رجوي (Mohammed Ali Rajai) (1948-)، زعيم منظمة مجاهدي خلق في إيران، وقّع العديد من العمليات ضد

شخصيات في الثورة الإسلامية. كان موضع عبادة شخصية حقيقية شاركته فيه زوجته مريم وهو يعيش في العراق منذ العام 1985.

مصطفى البرزاني (Mustafa Barzani) (1903–1979)، قائد الحزب الديمقراطي الكردستاني في العراق وزعيم الثورة الكردية بين العامين 1961 و1975، المعروفة بثورة البرزاني. توفي في المنفى في الولايات المتحدة.

مصطفى بويالي (Mustafa Bouyali) (1940–1987)، قائد جيش التحرير الوطني الجزائري ومؤسّس الجيش الإسلامي في الجزائر، قتل في كمين.

مصطفى طلاس (Mustafa Tlass) (1932–)، لواء سوري اشتهر بمعاداته للسامية، واحد ممن دمروا مدينة حماه في العام 1982 بعد التمرّد الإسلاموي فيها والمدافع الرئيسي عن نظام الأسد إبان النزاع الشخصي الذي قام بين الرئيس حافظ الأسد وشقيقه رفعت. أجبر على تقديم استقالته في العام 2004.

مصطفى كمال أتاتورك (Mustafa Kemal Ataturk) (1881-1938) جنرال عثماني ومؤسس الجمهورية التركية في العام 1923. صارت القومية التركية إيديولوجية الدولة خلال رئاسته التي اتسمت بحكم الحزب الواحد والإصلاحات الجذرية.

مظفر الدين شاه (Mouzaffar al-din Shah) (1853–1906)، شاه فارس إبان ثورة 1906، توفي بعد أربعين يوماً على قبوله إصدار الدستور.

معمر القذافي (Muammar Al-Ghaddafi) (1942–2011)، عقيد ليبي، قام بانقلاب العام 1969 وصار الرجل الأول في البلاد منذ تاريخه. قتل في خلال الانتفاضات التي اندلعت في ليبيا في العام 2011.

مقتدى الصدر (Moqtada Al-Sadr) (1973؟–)، ابن آية الله

العظمى محمد صادق الصدر الذي قتل في العام 1999، على يد الحكم في بغداد على الأرجح، قائد جيش المهدي المعروف بمواقفه المتطرفة المناهضة للأميركيين وللسّنة.

مناحيم بيغن (Menahem Begin) (1913–1992)، مناضل في حركة الإيرغون في خلال الانتداب البريطاني، زعيم تجمع الليكود ورئيس وزراء إسرائيلي بين العامين 1977 و1983. كان أحد أهم مهندسي اتفاق كمب ديفيد مع مصر واجتياح لبنان من جانب الجيش الإسرائيلي في العام 1982.

مهدي بارزكان (Mahdi Bazargan) (1907–1995)، مهندس وسياسي ليبرالي، رئيس حكومة مؤقت في إيران الثورة من شباط/ فبراير 1979 إلى شباط/ فبراير 1980.

موسوي الخميني، آية الله روح الله (Mousavi Khomeiny, Ayatollah) (1900–1989)، أحد أبرز معارضي الشاه إبان الثورة البيضاء، ثم في السبعينيات، مؤسس الجمهورية الإسلامية في إيران.

موسى الصدر (Musa Al-Sadr) (1928-اختفى في العام 1978)، رجل دين درس في مدينة قم، أحد أهم وجوه النهضة الشيعية في لبنان.

ميشال عون (Michel Aoun) (1936–)، عسكري لبناني، رئيس وزراء من أيلول/ سبتمبر 1988 وحتى تشرين الأول/ أكتوبر 1989 وقائد للجيش. عارض اتفاقات الطائف للعام 1992 وأسس التيار الوطني الحر قبل أن يحدث تقارباً مع حزب الله بعد انسحاب السوريين من لبنان في العام 2005.

ميشال عفلق (Michel Aflaq) (1910–1989)، مؤسس حزب البعث في العام 1947 ووزير التربية في سوريا في العام 1949، أحد أبرز وجوه القومية العربية في القرن العشرين.

ن

نايف حواتمة (Nayef Havatme) (1935–)، زعيم الجبهة الديمقراطية الشعبية لتحرير فلسطين، متورّط في أعمال حرب عصابات ضد إسرائيل في السبعينيات ومعارض لاتفاقات أوسلو للعام 1993.

نجم الدين أربكان (Necmettin Erbakan) (1926–2011)، وجه بارز من التيار الإسلاموي التركي، تبوأ مناصب وزارية مرات عدة ومنصب رئيس الوزراء في العامين 1996 و1997، إلى حين أجبره الجيش على تقديم استقالته. توفي بسبب المرض في العام 2011.

نصرالدين شاه (Nasrod-din Chah) (1831–1896)، شاه مصلح فارسي قتل في العام 1896 من قبل ميرزا رضا كرماني.

نعمة الله نصيري (Nematollah Nassiri) (1911–1979)، جنرال إيراني متورط في الانقلاب ضد مصدّق في العام 1953، قاد شرطة السافاك ابتداءً من العام 1965 وأعدم في 16 شباط/ فبراير 1979.

نوري السعيد (Nuri As-Said) (1888–1958)، بعد أن شارك في الثورة العربية في العام 1916 وفي تأسيس دولة الانتداب العراقية، تبوأ مرات عدة منصب رئيس الوزراء بين العامين 1930 و1958. قتل بعد أيام على قيام عبد الكريم قاسم بانقلابه.

ي

ياسر عرفات (Yasser Arafat) (محمد عبد الرؤوف عرفات القدوة الحسيني) الملقب بأبي عمار، (1929–2004)، مؤسس حركة فتح في العام 1959، ثم زعيم منظمة التحرير الفلسطينية (1969) ورئيس السلطة الفلسطينية بعدها (1994–2004)، والتي نشأت بعد اتفاقات أوسلو.

أحزاب ومنظمات

الاتحاد الثوري الأرمني (الطشناق): تأسّس في العام 1890 على يد عدد من المثقفين بهدف تحقيق إصلاحات في الولايات الشرقية في السلطنة العثمانية.

الاتحاد الوطني الكردستاني: تأسّس في العام 1975 بزعامة جلال طالباني (1933–)، التشكيل الأساسي الثاني في كردستان العراق.

أنصار الإسلام: تنظيم إسلاموي متطرّف كردي تأسّس في العام 2001 بعد الانشقاق عن جند الإسلام، وكان ذلك على يد الملا كريكار على الأرجح. قام بعدد من أعمال العنف في كردستان العراق.

أنصار السنة: أعلن عن نفسه في 20 أيلول/ سبتمبر 2003، يقوده أبو عبدالله الحسن المحمود وقد أعلن عن مسؤوليته في العديد من العمليات الانتحارية في العراق.

تنظيم الجماعة الإسلامية: تأسّس في السبعينيات تحت وصاية الشيخ عمر عبد الرحمن المعنوية وشكّل أكبر قوة في حرب العصابات الإسلامية في التسعينيات.

الجبهة الإسلامية للإنقاذ: تأسّست في شباط/ فبراير 1989 على يد

عباسي مدني وحلّت في آذار/ مارس 1992 من قبل المحكمة الإدارية في الجزائر العاصمة.

جبهة المقاتلين الإسلاميين في الشرق الكبير: تنظيم تركي يدعو إلى قيام دولة إسلامية بواسطة الجهاد. تأسّس في العام 1985 حول صالح ميرزا باي أوغلو.

الجماعة الإسلامية المسلّحة: المعروفة أيضاً باسم الجماعات الإسلامية المسلحة، انشقت عن الجبهة الإسلامية للإنقاذ وهي أحد أهم أطراف حرب العصابات الإسلاموية في الجزائر في التسعينيات.

جمعية الإخوان المسلمين: تنظيم أسّسه حسن البنّا في العام 1928، أدّى دوراً مهماً في الثورة المصرية للعام 1952 قبل أن يحظره عبد الناصر. قاده مهدي عاكف وامتلك 88 نائباً في الجمعية العمومية انتخبوا على أساس أنهم نواب مستقلون.

يمتلك الإخوان المسلمون أيضاً امتدادات لهم في بلدان أخرى من الشرق الأوسط.

الجيش الإسلامي للإنقاذ: فرع من فروع الجبهة الإسلامية للإنقاذ الجزائرية ابتداء من العام 1993، أعلن وقف إطلاق النار من جانب واحد في العام 1997 ثم توقف نهائياً عن خوض حرب العصابات في العام 2000.

جيش المهدي: ميليشيا أسّسها في حزيران/ يونيو من العام 2003 مقتدى الصدر وانخرطت في مواجهات مع الجيش الأميركي وقامت بعمليات عنف ضد السنة.

حركة أمل، أفواج المقاومة اللبنانية: تأسّست في العام 1975 في

سياق إعادة بناء الطائفة الشيعية اللبنانية، كانت أحد أطراف الحرب الأهلية اللبنانية من العام 1975 إلى العام 1989، يقودها نبيه بري (1938-) وهو كذلك رئيس المجلس النيابي اللبناني.

حركة تحرير كردستان (KUK): تنظيم تأسّس في العام 1977 على يد شبان أكراد في تركيا، نشط إبان "حقبة العنف" بين العامين 1975-1980.

حركة الجهاد الإسلامي الفلسطيني: أسّسها فتحي الشقاقي (1951-1995)، قتل في يالطا على يد عملاء إسرائيليين على الأرجح.

حركة فتح: تنظيم فلسطيني تأسّس عام 1959 على يد ياسر عرفات الذي تزّعمه إلى أن انتقلت الزعامة إلى محمود عباس عند وفاة عرفات في العام 2004.

حركة مجاهدي خلق: تأسّست في العام 1965، كانت حركة ناشطة إبان الثورة الإيرانية وحرب إيران والعراق، يقودها مسعود رجوي.

حركة المقاومة الإسلامية، حماس: تأسّست في العام 1987 على يد الشيخ أحمد ياسين ثم تزعمها عبد العزيز الرنتيسي، وقد قتل الاثنان في العام 2004. أما زعيمها الجديد، خالد مشعل، فهو يعيش في دمشق.

حركة النهضة التونسية: تنظيم تونسي تأسس في العام 1981 بزعامة رشيد الغنوشي (1941-).

الحزب الاشتراكي الديمقراطي الأرمني (الهنشاك): أسّسه مثقفون أرمن يناضلون من أجل استقلال أرمينيا، في العام 1887.

حزب الدعوة: حزب شيعي عراقي، تأسّس في الخمسينيات على

يد آية الله محمد باقر الصدر. يقوده حالياً إبراهيم الجعفري (1947-) وجواد المالكي (1950-).

حزب الله: تنظيم سرّي شكّله طلاب إسلامويون أكراد في تركيا، من بينهم حسين وليوغلو (مواليد العام 1952، قتل في العام 2000)

حزب الله اللبناني: حزب وميليشيا شيعية لبنانية، أسّسه محمد حسين فضل الله في العام 1982 ويقوده حسن نصرالله منذ العام 1991.

حزب البعث: أسسه في العام 1947 ميشال عفلق وصلاح الدين البيطار، وعانى مذّاك من العديد من الانشقاقات الداخلية، وقد كان الحزب الحاكم الأوحد في سوريا منذ العام 1966 وفي العراق بين العامين 1968 و2003.

حزب توده: تأسّس في العام 1941، نشط كثيراً في الخمسينيات، أُضعف في عهد النظام الإسلامي في الثمانينيات.

الحزب الديمقراطي الكردستاني: أسّسه في العام 1946 مصطفى البرزاني ويقوده حالياً ابنه مسعود (1946). شكّل واحدة من أهم التشكيلات الأساسية في كردستان العراق.

الحزب الديمقراطي الكردستاني/ إيران: الفرع الإيراني من الحزب الديمقراطي الكردستاني، بعد اغتيال أمينيه العامين، عبد الرحمن قاسملو وصديق شرفقندي، تزعّمه مصطفى حجري (1945-).

حزب رستاخيز (القيامة): حزب دولة أسّسه شاه إيران ووضع تحت قيادة رئيس الوزراء أمين عباس هويدا.

الحزب الشيوعي العراقي: تأسّس في العام 1934، وكان الحزب الأقوى على الأرجح في الشرق الأوسط في الخمسينيات، إلا أنه انهار بسبب القمع البعثي في السنوات 1980-1990.

حزب العمال الكردستاني: أسّسه عبد الله أوجلان في العام 1978، ومارس حرب عصابات منذ العام 1984.

حزب القوات اللبنانية: الجناح العسكري للجبهة اللبنانية التي تشكّلت في العام 1976 على يد بشير الجميّل. شكل سمير جعجع أحد أبرز وجوه القوات اللبنانية التي شاركت في التعبئة المضادة لسوريا في العام 2005 وتحول إلى حزب بعد الإفراج عن سمير جعجع.

حزب الكتائب اللبنانية: حزب يميني متطرّف أسّسه بيار الجميّل في العام 1936 على نموذج الأحزاب الفاشية الأوروبية. امتلك ميليشياته الخاصة ودافع عن "الهوية المسيحية" للبنان. دعمته إسرائيل وكان من أهم أطراف الحرب الأهلية اللبنانية.

حزب الوفد: حزب معارض بزعامة سعد زغلول، أدى دوراً مهماً إبان الثورة المصرية في العام 1919، تم حلّه بعد ثورة 1952.

لجنة الاتحاد والترقي: تأسّست في العام 1899، كانت صاحبة إعلان العام 1908. أشهرت قوميتها ابتداءً من العام 1906 وكانت الحزب الحاكم الوحيد بين العامين 1913 و1918 في السلطنة العثمانية.

المجلس الأعلى الإسلامي العراقي: تأسّس في العام 1982 وكان زعيمه في البداية آية الله محمد باقر الحكيم، خلفه بعد اغتياله، شقيقه عبد العزيز الحكيم. هو إحدى أهم التشكيلات السياسية العراقية

ويمتلك كذلك ميليشيا أطلق عليها اسم "بدر" تيمّناً بمعركة بدر في 17 آذار/ مارس 624 ميلادية.

مجموعة كومله: حزب يساري متطرّف أسّسه طلاب ومثقفون، وشكل إحدى قوى حرب العصابات الكردية في إيران في الثمانينيات.

منظمة التحرير الفلسطينية: أنشئت في العام 1964 من قبل جامعة الدول العربية بطلب من الرئيس المصري جمال عبد الناصر. عاشت طويلاً في المنفى، أولاً في لبنان ثم في تونس. تمكنت، بعد توقيع اتفاقات أوسلو، من بناء السلطة الفلسطينية. وقد قادها على التوالي أحمد الشقيري وياسر عرفات ومحمود عباس.

منظمة فدائيي خلق الإيرانية: تنظيم ماركسي - لينيني أسّسه بيجان جازاني في العام 1971.

خاتمة الطبعة العربية[1]

بقلم حميد بوزارسلان

منذ صدور الطبعة الفرنسية لهذا الكتاب الذي انتهى على حروب العقد الأول من الألفية الثالثة، كان الشرق الأوسط مسرحاً لثلاثة أحداث تشكل جزءاً من حلقة تاريخية قصيرة بدأت مع هجمات الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر ويبدو أنها اختُتِمت، كما سأشير إلى هذا في ما بعد. الحدث الأول بالطبع هو عملية "الرصاص المصبوب" التي أطلقها الجيش الإسرائيلي ضد قطاع غزة الذي تسيطر عليه حركة حماس (27 كانون الأول/ ديسمبر 2008-18 كانون الثاني/ يناير 2009؛ 1400 قتيل في غالبيتهم من المدنيين). هذا ولم تشكل هذه العملية الفقرة الأخيرة من قائمة الحروب الإسرائيلية الطويلة: في تموز/ يوليو وآب/ أغسطس 2014، كانت غزة من جديد مسرحاً لعملية عسكرية شديدة التدمير أوقعت أكثر من 2000 قتيل وأتت على عدد كبير جداً من المنازل. الحدث الثاني كان إعادة انتخاب محمود أحمدي نجاد بشكل غير قانوني على رأس الجمهورية الإسلامية في إيران في حزيران/

(1) الصفحات الأخيرة من هذه الخاتمة هي جزء من مقال كتبته بعنوان "من تحلُّل الدول إلى انهيار المجتمعات".
"De la désintégration des Etats à l'effondrement des sociétés," *Moyen-Orient*, no. 27 (2015), pp. 18-23.

يونيو 2009، ما أثار أكبر موجة قمع شهدتها البلاد منذ تلك التي ضربت مناضلي اليسار بين عامي 1986 و 1988. ويجدر بنا أخيراً ذكر عملية قتل أسامة بن لادن في باكستان في 2 أيار/ مايو 2011. على الرغم من تسمية أيمن الظواهري، رفيق دربه لعقود طويلة، على رأس تنظيم القاعدة، إلا أن غياب "الشيخ أسامة" قد أذن رمزياً بانتهاء سيطرة جيل من الجهاديين تَشَكَّل إبان حرب أفغانستان الأولى في الثمانينيات على خشبة المعارضة الإسلاموية المتطرفة.

على الرغم من أثر هذه الأحداث المحلي أو الموضعي، إلا أنها لم تؤثر كثيراً في الاحتجاجات الثورية التي هزّت العالم العربي بمجمله تقريباً في العامين 2011 و2012. سيكون لنا عودة إلى هذه المسألة: إذا كانت العوامل البنيوية التي تقف على أساس ظاهرة العنف في الشرق الأوسط لم تختفِ البتة، إلا أن الانتفاضات العربية قد ختمت مع هذا **حلقة أولى** قصيرة بدأت مع هجمات الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر ومعها **حلقة أخرى**، طويلة هذه المرة، بدأت مع شروخ العام 1979 والتي قمنا بتحليلها في هذا الكتاب. وحتى لو كانت المسافة الزمنية الضرورية ما زالت تنقصنا، إلا أن كل شيء يشير إلى أن العامين 2011 و2012 سيتربعان في كتب الحوليات التاريخية بوصفهما التاريخ الرابع الذي أعاد رسم خريطة الشرق الأوسط، بعد العامين 1918-1919 (نهاية السلطنة العثمانية ونشوء الأنظمة الانتدابية)، والعامين 1947- 1948 (قيام دولة إسرائيل) والعام 1979 (اتفاقات كمب ديفيد، الثورة الإيرانية، احتلال أفغانستان من قبل الجيش الأحمر). قال ابن خلدون، في القرن الرابع عشر، إن فترة من الزمن قوامها "أربعون عاماً" ضرورية من أجل أن يتجدد العالم بعد ولادة جيل معين وصعوده ثم اضمحلاله.

يبدو أن نظريته تتأكد في ما خص الشرق الأوسط، حتى لو أن "الحلقات الطويلة" صارت تقتصر على ثلاثين عاماً.

دشنت كل انعطافة في السنوات المذكورة، 1918-1919، 1947-1948، 1979، حلقة تاريخية من ثلاثة عقود، تخلّلتها شروخ، عنيفة في كثير من الأحيان ومفاجئة تماماً. وهكذا رأينا أن تقسيم العالم العربي بعد نهاية الحرب العالمية الأولى قد تبعته "الثورات العربية الكبرى" ونشوء إنتلجنسيا مابعد عثمانية ومعها أشكال جديدة من النضالية السياسية، سواء أكانت يمينية أو يسارية أو إسلاموية. وولّد قيام دولة إسرائيل تطرفاً يسارياً سرعان ما أصبح مهيمناً في الشرق الأوسط بمجمله تقريباً، على الرغم من انقسام المنطقة إلى كتلتين في سياق الثنائية القطبية المطلوبة إبان الحرب الباردة. أما أحداث العام 1979 فقد مهدت الأرض من أجل قيام حالة عنف معمّمة تتسم بتحوّل الإسلاموية إلى تركيبة هيمنة إقليمية وانتجاع عسكري من المغرب ومن المشرق وأيضاً من الخليج نحو أفغانستان مع تحوّل المناطق الحدودية إلى مساحات حركة للمجموعات العسكرية غير النظامية وبروز وجوه مقاتلين جدد، كـ"الشهيد" و"الميليشيوي" و"المجاهد"، كبديل عن الفدائي أو رجل العصابات المسلحة، كما نشأت أنماط عمل جديدة من بينها عنف التضحية بالذات على شكل هجمات انتحارية. وقد سمحت كل حلقة من هذه الحلقات كذلك بتوسيع الشرق الأوسط: حلقة 1018-1919 قسمت الولايات العربية في السلطنة العثمانية ولكنها ولدت أيضاً قومية عربية تتخطى حدود الدول ؛ حلقة 1947-1948 وضعت القضية الفلسطينية في قلب المشاعر الشرق أوسطية وأدّت، من خلال آثار الحرب الباردة، إلى دمج بلدان غير عربية مثل إيران وتركيا في الشرق الأوسط؛ وأخيراً حلقة 1979 حولت طهران وبيشاور إلى نماذج في المنطقة بأسرها قبل

أن تشهد، بعد أكثر من عشر سنوات، على دمج البوسنة أو آسيا الوسطى السوفييتية السابقة في متخيّلات الشرق الأوسط.

كل شيء يشير إلى أن الحلقة التي بدأت مع الاحتجاجات الثورية في تونس مصر ستحمل معها حصتها من المفاجآت سواء أكان في بلدان مختلفة ذات خصوصية أو على النطاق الإقليمي برمته. تدل الأحداث التي تجري تحت أعيننا في أفريقيا السوداء المسلمة، من مالي إلى النيجر، على أن ديناميكية توسيع الشرق الأوسط نحو مساحة غير محددة بعد ما زالت ناشطة.

فهم التشكيلات الثورية في تونس وفي مصر

ليس المجال هنا لتحليل تفاصيل الاحتجاجات الثورية التي هزت العالم العربي في العامين 2011 و2012 والتي سنحت لنا فرصة التحدث عنها في عدد من المساهمات(2). لكن لنقل هنا أنها نجمت عن حالة ملحة للخروج، بشكل مؤقت ولكن مدوٍ، من "التعب الاجتماعي" في العالم العربي والذي جئنا على الحديث عن إشكاليته في مكان آخر(3)، كما نجمت عن إنهاك تسلط سياسي مستند بشكل حصري إلى الخطاب والجهاز الأمنيين، والذي كان، على الرغم من مواصلة الحاقه مختلف الأطراف الاجتماعية والسياسية، قد تخلى عن أي محاولة لبناء هيمنة سياسية. مكنت هذه الهندسية السلطات من البقاء بفضل الريع الأمني الناتج عن هجمات الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر وبفضل تعب

(2) انظر على وجه الخصوص: "Arab World and Middle East 2010-2015: From Revolutionary Configurations to the State of Violence," in: J. Karakoç, ed., *Authoritarianism in the Middle East. Before and After the Arab Uprisings* (New York: Pallgrave, 2015), pp. 67-91.

(3) Hamit Bozarslan, *Sociologie politique du moyen-Orient* (Paris: La Découverte, 2011).

الشعوب التي تأجلت توقعات الشرخ لديها مرات عدة، إلا أن حدودها قد تبدت جلية صبيحة الاحتجاجات الواسعة في تونس العاصمة أولاً ثم في القاهرة حيث لم يتمكن بن علي ومبارك سوى من أن يعدا مجتمعاتهما بشيء غير عدم الترشح للانتخابات الرئاسية المقبلة. وقد كانت لنيّتهما التمديد بضع سنوات أو بضعة أشهر لميثاق اللاشرعية الذي فرضاه على مجتمعاتهما أن تطرّفت الاحتجاجات أكثر فأكثر؛ ليس هذا وحسب بل أنها حرمت الأطراف الأخرى في الدولة-الكارتيل، ومن بينها الجيش، من أي أفق انتظار، ما أجبرها على الانفصال عن الريّس وأقنع واشنطن ومختلف العواصم الأوروبية بضرورة التخلي عن هذه الأنظمة التي لطالما كانت عزيزة على قلبها.

كانت هذه الثورات ثورات ديمقراطية بالفعل، بمعنى أنها ترجمت إرادة المجتمعين التونسي والمصري في الاندماج بالمدينة البرجوازية التي يعرّفها كلود لوفور على أنها تتسم بـ"اللايقين الديمقراطي". يقصد لوفور بهذه الفكرة إدارة النزاعية السياسية والاجتماعية، المعترف بشرعيتها مسبقاً، بواسطة الانتخابات من ناحية وبواسطة دولة القانون من ناحية أخرى. الثورات الديمقراطية هي الثورات التي من خلالها وبواسطتها يعبر "الشعب المتحد" عن نفسه بفضل تحالف بين الطبقات وبين الأجيال وبين الجنسين، ليطالب بحقه في الخروج من أي نوع من أنواع الإجماعية لامتلاك الحق بأن يعترف به على أنه متنازع ومنقسم. بهذا المعنى، لا يمكن الحصول على الـ"لايقين الديمقراطي" إلا برفض "يقين" النظام المتسلط المندرج في الديمومة رفضاً مطلقاً. لم يكن من شأن "يقين السلطة" لدى بن علي أو مبارك، اللذين لم يكن ليزحزهما أي انتخاب، أن يحول دون أي تمثيل سياسي وحسب، بل هو كان يخضع أيضاً المجتمعَين التونسي والمصري لاستبداد مستقبل غامض بنيوياً في

المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية. بهذا المعنى، يمكن مقارنة الثورتين التونسية والمصرية، ليس بثورة "1789" الفرنسية، كما ظن بعض المحلّلين في البداية، ولكن بالخروج من الأنظمة السلطوية في أوروبا الغربية بين العامين 1974-1976 أو في أوروبا الشرقية في العام 1989.

ليس من قبيل الصدفة إذن، أن يتولد انطباع لفترة قصيرة من الزمن، لدى هذين المجتمعَين ولدى عدد من المحللين أيضاً، قوامه أن هاتين الثورتين قد غيّرتا قدر العالم العربي حينما تغلّبتا على ثقليه التاريخيين الكبيرين، أي التسلط المُمَأسس الذي سقط بفعل التعبير الضخم عن الإرادة الديمقراطية، ومعه الإسلاموية الإجماعية التي جوبهت بمشروع مجتمع تعددي. وعلى الرغم من القمع الشديد الذي أوقع حوالي 300 ضحية في تونس وأكثر من 900 ضحية في مصر، بقيت المظاهرات سلمية في مجملها ما فتح الباب أمام توقع نهاية العنف كنمط عمل في المجالين السياسي والاجتماعي.

في خضم هذه الانتفاضات، عبّر بعض المراقبين، ومن بينهم كاتب هذه السطور، عن خشيتهم من قيام سريع لآلية عودة الحكم القديم أو تشكل "حزب جديد للنظام" مؤلف من كتلة مهيمنة تأتي حصيلة الانتخابات ومن ركائز الدول-الكارتيل[4] القديمة بعد تطهيرها من أقرب المساعدين الذين تعاونوا مع الرئيسين اللصين المخلوعين. إن تجربة 1848 في فرنسا ما بعد الثورة والمحافظة جداً مع هذا، قد شهدت نشوء بونابرتية غريبة بقدر ما هي فعالة، هدفت أول إجراءاتها إلى القضاء

---

(4) للاطلاع على هذا المفهوم، انظر: Michel Camau in: Elizabeth Picard, dir., *La Politique dans le monde arabe* (Paris: Armand Colin, 2006), pp. 33-36.

على أي تطلع نحو الديمقراطية التي جاءت بها إلى الحكم. وهذا أمر يدلنا على أن الثورات الديمقراطية ليست على الدوام ثورات ناجحة ولا تؤدي بواسطة ديناميكياتها الأولية على الأقل إلى تشكيل مجتمعات ديمقراطية.

بعد مرور مسافة زمنية، على قصرها، بتنا مجبرين على الاعتراف بصحة هذه المخاوف، ولو جزئياً. في الفترة الأولى، وصلت الأحزاب الإسلامية أو الناشئة عن الإسلاموية إلى السلطة بفضل الانتخابات التي أجريت في مصر كما في تونس، لكنها كانت عاجزة عن بناء كتل مهيمنة ومستدامة قادرة على الاستناد إلى تكتل بين الطبقات أو الأجيال أو المقاطعات ذات المصالح المتناقضة، بالإضافة إلى عجزها عن إلحاق عناصر ومؤسسات من النظام القديم. صحيح أننا كنا نشهد منذ بضع سنوات، ضمن الحراك الإسلاموي بالمعنى الواسع، تشعيباً بين سلفية لاتزال متانتها تدهشنا وبين تيار رئيس يتماهى، على طريقة حزب العدالة والتنمية التركي، مع الاتجاه المحافظ اجتماعياً والنيوليبرالي اقتصادياً. سواء تسمّى هذا التيار باسم حزب النهضة التونسي أو حزب العدالة والحرية المصري، أو أيضاً حزب العدالة والتنمية المغربي الذي لم يشهد احتجاجات واسعة ولا أي تغيير في النظام، وعلى الرغم من أنه عرف كيف يتعامل مع زمن العمل السري أو التهميش السياسي، إلا أنه لم يرضِ الطلب المزدوج على المستويين السياسي والأخلاقي الذي صاغته المجتمعات العربية والتي أصبحت محافظة بشدة في العشرين سنة الماضية بتأثير، جزئي فقط، من الإجراءات التي اتخذها الحكام السابقون. عجزت هذه السلطات عن حل المسألة الاجتماعية الضخمة، وقد جاءت على تعريفها بعبارات غير سياسية بوصفها مسألة يجدر معالجتها بـ"الإحسان"، كما عجزت عن الدخول في مزايدة تتصل

بـ"القضية العربية القومية" أي القضية الفلسطينية، فلم يكن بمقدورها أن تُطاع إلا بواسطة تطرفها على المستوى الأخلاقي وعلى مستوى التشدّد في الممارسة الدينية. أما اليسار، الذي أضعفته السلطات السابقة ولم تترك له سوى مساحة "خطابية" ضيقة، والذي لم يكن يملك إلا قواعد اجتماعية ضئيلة أو قل أنها غير ذات شأن، وقد تميز أساساً بأسلوب حياة بعيد جداً عن أسلوب حياة الغالبية الساحقة من السكان إما المفقرين وإما الطهرانيين، فلم يكن يمتلك أي ورقة ولا أي مورد لتغيير هذا المعطى القائم. جرى تخطي الجدار المسدود في هذين البلدين اللذين سلكا مسارين موازيين بين العامي 2001 و2014. وكان أن شهدت مصر عودة نظام عسكري جديد حيث تسلم الفريق السيسي السلطة في صيف العام 2013 ثم استفتى الشعب أو بالأحرى أساء استفتاءه بعد مرور سنة. أما في تونس فقد جرت انتخابات شريفة وشفافة حافظت على النظام الديمقراطي إلا أنها شهدت عودة بعض رموز النظام القديم بدءاً بالرئيس الجديد، الباجي قائد السبسي، المولود في العام 1926!

على الرغم من سقوط بن علي ومبارك، فإن التسلط الحقيقي أو الكامن احتفظ بوجوده في كل من هذين البلدين. كثيرة هي الأمثلة، من تركيا تحت حكم رجب طيب أردوغان وصولاً إلى روسيا تحت حكم فلاديمير بوتين، التي تشير إلى أن إنشاء مؤسسات ديمقراطية شكلية أو إجراء انتخابات شريفة إلى هذا الحد أو ذاك لا تفضي بحد ذاتها إلى الخروج من التسلط ؛ بل على العكس تماماً، كما شهدنا مرة أخرى في فرنسا في العام 1848، فإن "مسرح" الديمقراطية السياسي[5]، بألاعيبه وقواعده، قد يوضع تماماً في خدمة عملية بناء هيمنة سياسية لا تتلاءم

(5) انظر بالنسبة إلى هذا المفهوم: Murray Edelman, *Pièces et règles du jeu politique* (Paris: Seuil, 1991).

البتة مع الديمقراطية. وما قامت به مجموعة من الباحثين الفرنسيين من أعمال فكرية حول "الديمقراطيات المتسلطة والتسلط الديمقراطي"، قبل ربيع العام 2011[6] بكثير، يرتدي هنا بعداً كاشفاً حقيقياً.

تشرح لنا هذه العوامل سبب استمرار العنف في احتلال مكانة مركزية في تونس ولكن أساساً في مصر حيث يصل إلى درجات شديدة القتل ويتغذى من ديناميكيات سيناء الجاذبة ومن الانتجاع العسكري في حراك القاعدة وداعش كما يتغذى من تطرف فئة من الإخوان المسلمين الذين قطع قمع النظام العسكري عدداً لابأس به من رؤوسهم. ولا يظهر العنف تحت راية اجتماعية مباشرة إلا في الهوامش. ولكن مما لا شك فيه أن المسألة الاجتماعية الضخمة في المجتمعين تشكل أحد أسس العنف المزمن والمتعدد الأشكال ولا سيما في مناطق واسعة من الأطراف كالجنوب التونسي أو صحراء سيناء. فالـ"محلي" وهو هنا "هامشي" نسبة إلى المركز إلا أنه عابر للحدود بالكامل، يأخذ في كلتا الحالتين شكل عالم مصغر يحدد العنف فيه، ولو جزئياً على الأقل، سياسات المركز، كما شهدنا في الانعطافة الأمنية التي سلكها الرئيس المصري محمد مرسي أولاً وبعده على وجه الخصوص الفريق السيسي ضد قبائل سيناء المسلحة.

---

(6) Olivier Dabène, Vincent Geisser et Gilles Massardier, dir., *Autoritarismes démocratiques et démocraties autoritaires au XXI^{ème} siècle: Convergences Nord-Sud: Mélanges offerts à Michel Camau* (Paris: La Découverte, 2008).

أثر الدومينو الناجم عن العام 2011 وحالة العنف على النطاق الإقليمي

كان للاحتجاجات التونسية والمصرية أثر الدومينو الرائج نسبياً في التاريخ وقد أطلقت انتفاضات في بلدان عربية أخرى ولاسيّما في البحرين واليمن وليبيا وسوريا، على سبيل المثال لا الحصر. تدل هذه "الآثار" كم أن العالم العربي، على الرغم من انقسامه، يعيش حالة اندماج داخلي عميقة من خلال اللغة والثقافة والمشاعر المشتركة والانفعالات الثورية والآمال بالتغيير. بيد أن آثار الدومينو تعني كذلك أن الاندفاعة الثورية الواحدة قد تصطدم بديناميكيات محلية شديدة التنوع تحددها الطبيعة الخاصة التي تتسم بها دولة-كارتيل مفترسة من النمط الميليشيوي أوالحالات القبلية أو الطائفية أو الهويات الجهوية القوية. ويشهد القدر المأسوي الذي عرفته الاحتجاجات البحرينية، حيث دمرت السلطة حتى المساحة الجغرافية التي جرت فيها المظاهرات من أجل أن تمحيها من الذاكرة إلى الأبد، على أن السعودية تمارس إسقاطاً ذاتياً على مجمل الخليج بوصفها قوة امبراطورية وعلى أن النظام-العالم ينكفئ في النهاية على الواقعية السياسية اللئيمة التي تتعارض بالكامل مع خطاباته.

أما مسار البلدان الثلاثة الأخرى فهو يشهد من ناحيته على إمكانية الانزلاق السريع من وضعية ثورية إلى حالة عنف معمّمة. وهكذا، رأينا في ليبيا أن دولة-الكارتيل في عهد القذافي شكلت وحدة عضوية ملتحمة حول "القائد" وهي لم تعطِ القوات المسلحة والأمنية أي استقلالية في ما عدا اختيار الانشقاق العلني الذي يعني الموت. لذا كان القمع فيها أكثر دموية بكثير من القمع الذي مورس في تونس وفي مصر، مع وجود خطر إبادة حقيقي للسكان المدنيين في الكثير من المدن كما في بنغازي

ومصراته. بيد أن نهاية النظام في 23 آب/ أغسطس 2011، والتي سرّع بها تدخل حلف شمال الأطلسي، أغرقت ليبيا في حالة من العنف لا تقل مأسوية صحبها نشوء حوالي 300 تنظيم ميليشيوي من القبائل ومن الأوساط الإسلاموية المتطرفة ومن لجان الأحياء وأحياناً من بعض الدوائر البسيطة للتنشئة العسكرية بين الشبان. أما السبب فهو بسيط: لم تؤدِ طرابلس في زمانها الدور الجامع نفسه الذي أدّته تونس العاصمة والقاهرة، اللتان كانتا مساحات لدولة مركزية منذ القرن التاسع عشر، فوجب عليها أن تؤمن، في وقت واحد، بعد سقوط "القائد"، مهاماً عدة: اللامركزية وعملية دمج المقاطعات والسيطرة على الانتجاع العسكري على حدودها وإعادة توزيع الموارد الاقتصادية على السكان المتروكين لأنفسهم في المناطق الحدودية ونزع السلاح والانخراط الاجتماعي والمهني لميليشياتها. من الواضح أن السلطات الجديدة التي قامت بعد انتخابات 7 تموز/ يوليو 2012 والتي تبعتها انتخابات 26 حزيران/ يونيو 2014، لم تكن قادرة على مواجهة هذا التحدي. وسرعان ما وجدت البلاد نفسها مع حكومتين وبرلمانين لا يتمتع أي منهما بأي شرعية ولا بأي فعالية. وصارت الديناميكيات التي أطلقتها الانتفاضات أو عسكرتها، تمتلك استقلالية مسلحة كافية لاستمراريتها، بما فيها قدرتها على تحريك بعض القوى العابرة للحدود.

على الرغم من أن اليمن يشكل حالة مختلفة تماماً، إلا أنه يبدو كذلك مسرحاً لعنف متعدد الأشكال. صحيح أن رحيل الرئيس صالح في 22 كانون الثاني/ يناير 2012، بعد مواجهات دامية عديدة ومحاولة قتل كادت أن تكلفه حياته، قد غير المعطى بعد الشيء، إلا أن التغيير ظل هامشياً. فالاحتجاجات العريضة التي هزت صنعاء في العام 2011 والتي تعبر فعلياً عن التوقعات الديمقراطية ذاتها التي كانت في تونس أو

القاهرة، قد تلاشت أمام ضخامة النزاع القبلي الذي تحوّل إلى حضري إلى حد كبير، وتجلّى في انقسام تجمع حاشد للقبائل، وصالح جزء منه، وفي نزاع طائفي بين الأقلية الشيعية-الزيدية الحاكمة، ونزاع بين الشمال والجنوب على خلفية تاريخية من الحروب الأهلية السابقة بالإضافة أخيراً إلى الحرب التي تقودها القاعدة ذات الوجود الراسخ على الأرض. حاولت الولايات المتحدة ومعها السعودية "احتواء" ديناميكيات العنف في هذه المساحة بدل أن "تحل السلام" فيها، وهي مهمة لا تقدر عليها بالتأكيد أي من هاتين القوتين. أما "الميثاق الوطني" الذي حاول الرئيس عبد ربه منصور هادي، المنتخب كمرشح وحيد بعد رحيل صالح، أن يطبقه، فلم يسمح هو أيضاً بـ"إعادة اللحمة" إلى البلاد بعد أن احتلت الميليشيات الزيدية العاصمة صنعاء وهددت عدن، عاصمة الجنوب اليمني. وقد جاءت الحرب التي شنتها السعودية و"التكتل السني" في آذار/ مارس 2015 لتفرض معاناة كبيرة على السكان المدنيين لكنها تبدو غير فعالة على المستوى العسكري.

وأخيراً، لدينا بالطبع الوضع السوري حيث بدأت الاحتجاجات في درعا في 15 آذار/ مارس 2011 بعد وفاة عدد من المراهقين تحت التعذيب وأطلقت آلية يصفها بعضهم بحرب أهلية. كانت الاحتجاجات في بدايتها غير طائفية ومحصورة أساساً في المدن ودفعت نظام بشار الأسد إلى أن يعرّي نفسه، بواسطة القمع وحده أولاً ثم عبر هندسة أزمة مكنته من كسب الوقت وفرضت آلاماً فظيعة على جزء كبير من المجتمع السوري. كان واضحاً، منذ البداية، أن طبيعة النظام الميليشيوية والافتراسية ستحول دون اكتساب الجيش نوعاً من الاستقلالية بما أن أي عسكري منشق سيكون مصيره الموت المحتوم. لكن تمكن النظام، لفترة من الزمن، من تفتيت مكان الاحتجاج وزمانه من أجل تجنب

إعادة إنتاج سيناريو مشابه لسيناريو "ساحة التحرير" في قلب العاصمة دمشق. أدّت هذه الاستراتيجية إلى نتيجة مزدوجة ومتناقضة: أدخلت متغيرة الانقطاع بين الاحتجاجات الواسعة ولكن المحتجزة على حدود المقاطعات وولدت بشكل موازٍ جمهوريات منشقة على مجمل مساحة البلاد تقريباً. أما الشق الثاني من هندسة الأزمة هذه، فقد كمن في تطييف النزاع وحتى في تحويله إلى نزاع عرقي عبر اللجوء إلى الإكراه الكثيف الذي مورس على الطائفة العلوية من أجل ضمان ولائها وتعبئتها، وعبر تحريك الخوف عند المسيحيين والأكراد من أجل الحصول على حيادهم وعبر التدمير المنهجي لمجمل المساحة العربية السنية، على غرار ما شوهد في حماه في العام 1982. وقد دشن النظام حلقة جديدة من القمع حينما استخدم الطيران العسكري بعد وقوع هجوم دموي في 18 تموز/ يوليو 2012 قضى على جزء من قياداته، ومن بينهم آصف شوكت، صهر الرئيس الأسد. فوقعت حلب، على وجه الخصوص، فريسة حلقة جهنمية من القصف اليومي إذ كان جزء كبير منها تحت سيطرة المعارضة المسلحة. وكانت نتيجة تطييف النزاع الذي فرضه النظام أن تطيّفت المعارضة نفسها المؤلفة من العسكر المنشقين ومن الشبان الذين اندفعوا إلى العمل العسكري، قبل أن يولد تحول كثيف نحو الجهاد. امتدت آثار هذا النزاع كذلك لتطال مباشرة البلدين المجاورين لسوريا، لبنان الواقف على الحافة، ولكن بالأخص العراق.

انعطافة العام 2014 والآفاق الخلدونية

بعد العام 2014، يتحدد مصير العالم العربي ومعه من دون شك جزء كبير من الشرق الأوسط، ليس في تونس ومصر ولكن في المشرق. في 4 كانون الثاني/ يناير 2014، وقعت مدينة الفالوجة، التي يقطنها أكثر من ثلاثمائة ألف نسمة، بين أيدي مقاتلي الدولة الإسلامية في العراق

والشام. هذه الطليعة المنشقة عن القاعدة والتي حققت بهذا الحدث انتصاراً حقيقياً في العراق بعد الانتصارات التي حققتها في سوريا في العامين 2012 و2013، كسرت صورتها كمجرد "مجموعة صغيرة" لترسخ "دولتها" على مساحة واسعة من الأرض. استقبل هذا الحدث الذي يرتدي بعداً رمزياً واستراتيجياً كبيراً، بوصفه جزءاً من الأحداث المتفرقة، سواء في الشرق الأوسط كما في الولايات المتحدة وأوروبا. وفي 10 حزيران/ يونيو، جاء دور الموصل، المدينة التي تضم مليون وثلاثمائة ألف نسمة وتمتلك ستة وثمانين ألف رجل مسلح ونصف مليار دولار كأموال نقدية انتقلت كلها تحت سيطرة تنظيم البغدادي الذي اتجه بعدها للهجوم على المدن الكردية في سنجار في العراق وكوباني في سوريا.

سواء اعتبرت داعش مجموعة إجرامية أو بدايات دولة، إلا أنها نجحت في غضون بضعة أشهر في تغيير خريطة سوريا والعراق تغييراً جذرياً. على سبيل المثال، كردستان العراق، الذي فقد أي اتصال جغرافي فعلي مع المناطق التي تسيطر عليها "الحكومة المركزية" في بغداد، يمتلك حدوداً مشتركة تبلغ أكثر من ألف كيلومتر مع "الدولة" الإسلامية التي "تجاور" بدورها تركيا والأردن. جاءت نجاحات داعش بعد مواجهاتها الدامية، في العام 2013، مع جبهة النصرة التابعة للقاعدة في سوريا، والتي راح ضحيتها أكثر من ألف ضحية[7]، وقد حققت لها هذه النجاحات كسب ولاء الكثير من المجموعات الجهادية في العالم الإسلامي. أعاد التنظيم تسمية نفسه بـ"الخلافة" تحت حكم أبي بكر البغدادي المطلق، و"الخليفة إبراهيم" من مواليد العام 1971، واقترف سلسلة من أعمال العنف، من بينها قطع الرؤوس بالجملة أو الحرق.

(7) *Le Monde*, 16/ 01/ 2014.

وبدل أن تخفف هذه الأعمال من جاذبيته، سمحت له بأن ينوع مصادر عديدة مع مجيء متطوعين من العالم العربي وتركيا وأوروبا. وإذا كان تشكل "تكتل" دولي تقوده الولايات المتحدة قد أدى إلى إخراج قواته من كوباني، ومن بعض مناطق سنجار والموصل ومن مدينة تكريت بين آب/ أغسطس 2014 وأيار/ مايو 2015، إلا أن التكتل لم يتمكن سوى من احتواء هوامش هذه البنية من دون أن يقضي عليها في الوقت الراهن.

لم يشهد عاما 2014–2015 صعود قوة منشقة إلى مقدمة المسرح وحسب، بل شهدا كذلك تحقق توقع، أو بالأحرى لعنة "تنبأ" بها ابن خلدون (1332–1406). اعتبر هذا المؤرخ والمفكر المغاربي أن السلطة والمجتمع والحضارة الحضرية تشهد حلقات من الانحطاط والانبعاث. صحيح أن ابن خلدون ليس هو من ابتكر هذا النموذج الأرسطي والمنتشر بكثرة بين المفكرين المسلمين في زمانه، إلا أنه هو أول من شدد على أن المدينة لا يمكن أن تؤسس من دون عنف ولكنها كذلك لا يمكن أن تعيش وتستمر في العنف. بعد أن يستولي الحاكم على السلطة، يكون مجبراً على إحلال السلم في مجتمعه وصولاً إلى جعله ينسى وحشية فترة التأسيس لـ"يشتري" من هوامشها "الهمجية" العنف الذي هو بحاجة إليه لتأمين استمراريته وحسن سير العمل اليومي في مدينته. لكن هذه الهوامش تمتلك موردين، أحدهما دون سياسي، وهي العصبية أي التعاضد الداخلي بين جماعات متساوية ومتمايزة، وثانيهما فوق سياسي وهو الدعوة أي الإيديولوجيا وهي أساساً دينية ولكن ليس بشكل حصري. ولن تتوانى هذه الهوامش عن الانطلاق بدورها نحو الاستيلاء على السلطة. فهي تحتفظ بكامل القدرة على زعزعة نظام السلطة الرتيب لتعلن حلول الساعة على طريقة القوى "غير المعاصرة" والحاملة رسائل آتية من أزمان غابرة "ترافق مظاهرها

مع وحشية وثنية"[8] فتدخل الموت من جديد إلى المدينة وتحوِّل زمنها وهو زمن "الحرب الممتدة" إلى أداة لاحتلال المكان. أما الحاكم الذي لا ينفعه حرسه الامبراطوري في شيء في أوقات الأزمات الكبيرة، فهو سيدفع على الدوام ثمن إحلال السلام في مجتمعه، علماً أن هذا السلام كان شرط وجوده نفسه[9]. يبدو أن استسلام الموصل، بعد استسلام كيدال وتومبوكتو في سياق مشابه، العام 2012 في شمال مالي، يؤكد تماماً مقولة ابن خلدون.

تمكننا المقاربة الخلدونية من التفكير بزمن النزاع بوصفه آلية دائمة التطرف من خلال ديناميكياتها نفسها. وهكذا، فإن ما يسمى بخفر "الحرب الأهلية السورية" لا يحتل مكانة مركزية في مساحة شاسعة، حيث الحدود بين الدول صارت ممحية أكثر من أي وقت مضى، وحسب، بل يغير أيضاً، وباستمرار، طبيعة النزاعات التي سبقته أو ولدت في سياقه. بدأت "الأزمة السورية" بعد مظاهرات سلمية اشتركت في كثير من سماتها مع مظاهرات تونس والقاهرة، وهي تعيد رسم نفسها منذ العام 2011، من رأسها وحتى أعقابها مع انقضاء حلقات قصيرة لا تدوم أكثر من عشرة أشهر أو سنة. فبعد مرور أشهر عدة من القمع الدموي تشكل الجيش السوري الحر في صيف 2011 مع تعسكر جزء من المعارضة، تلته بعد سنة هجمات 18 تموز/ يوليو 2012 في دمشق والتي أتينا على ذكرها. شكلت هذه الهجمات مقدمة لاستخدام الطيران المكثف من قبل النظام الذي انسحب كذلك من "روج آفا" أي الكردستان السوري

(8) Ernest Bloch cité par: Alberto Toscano, *Le Fanatisme: Modes d'emploi* (Paris: La Fabrique Editions, 2011), p. 85.

(9) Hamit Bozarslan, *Le Luxe et la violence: Domination et contestation chez Ibn Khaldûn* (Paris: CNRS Editions, 2014), et Gabriel Martinez-Gros, *Brève histoire des Empires: Comment ils surgissent? Comment ils s'effondrent?* (Paris: Seuil, 2014).

من أجل أن ينتشر بشكل أفضل في مناطق يعتبرها استراتيجية. وفي خلال هذا الصيف المصيري نفسه، شهدنا تحول المعارضة المتسارع نحو الجهاد وهو تحول تغذى من تشظي البلاد على المستوى الجغرافي كما من الدعم الذي جاءه إثر قيام نظام الأسد بتحرير سجناء القاعدة في تشرين الثاني/ نوفمبر 2011 إضافة إلى وصول مقاتلين أجانب. وسجل صيف العام 2013 انخراط حزب الله اللبناني بشكل رسمي في الحرب وكانت النتيجة "تحرير" مدينة القصير. وهكذا ارتسمت معالم دولة "علويستان" من دون أن تسمي نفسها كذلك، وامتدت من الحدود اللبنانية إلى اللاذقية على الشاطئ مروراً بـ"غنيمتين وطنيتين" هما دمشق العاصمة وحمص "مهد" الثورة "المستولى عليها مجدداً" والمفرغة من جزء كبير من غالبيتها السنية. أما صيف العام 2014 فهو زمن الإزالة الفعلية للحدود بين سوريا والعراق كما أنه زمن تكاثر هجمات النصرة ضد الجيش اللبناني من الأراضي السورية لتتداخل "النزاعات" الثلاثة تداخلاً وثيقاً. وهكذا نرى أن أثر العنف قد جعل الآلية القائمة مفتوحة، ضمن حلقة قصيرة جداً، على تشعبات جديدة تدمر المعالم الزمنية والمكانية من أجل أن تضع مكانها معالم أخرى لا تزال تتسم بهشاشة كبيرة هي أيضاً.

يجد الامّحاء الجزئي أو الكلي للحدود بين المجالات السورية والعراقية واللبنانية واحداً من أفضل مظاهره في الانتجاع العسكري الذي تمارسه القوات السنية والعلوية وأيضاً الشيعية، هذا من دون ذكر الدور "التطييفي" الذي تؤديه السعودية وتركيا وإيران على النطاق الإقليمي، وهو امحاء يفاقم أزمة الدولة ذات النمط الوستفالي. فقد شكلت هذه الدولة الحل الذي وقعت عليه أوروبا في العام 1648 من أجل أن تتخلى عن حروبها الأهلية. دفنت كل متخيّل امبراطوري أو "فووطني" كان

بالإمكان التطلع إليه في القارة العجوز[10] واعترفت المواثيق الموقعة آنذاك بحق الدول في خوض الحروب خارج حدودها، إلا أنها أجبرتها كذلك على "ترتيب منازلها" وإحلال السلام ضمن أراضيها. يدل النزاع السوري على أن الدولة الناشئة عن عولمة هذا النموذج في القرن العشرين، يمكنها اتخاذ موقف مناقض لهذا المبدأ تماماً، لتحول الحرب التي تخوضها ضد جزء من شعبها إلى استراتيجية بقاء، وحتى لتتحول هي أيضاً إلى مجرد قوة ميليشيوية منخرطة في نزاع دامٍ مع ميليشيات أخرى في سبيل السيطرة على جزء من أرضها "الوطنية" المتشظية. وإذا كانت هذه الدولة لا تخوض حرباً مباشرة ما وراء حدودها، إلا أنها تهدد بقاء المجتمعات الأخرى بخرقها الحدود المفترض بها أن ترسم مجال سيادتها.

في العقد الأول من الألفية الثالثة، كان يُندد بوحش "اللوياثان" العربي بسبب طبيعته المتسلطة وتركيبته الكارتيلية التي صادرت كل السلطات وبسبب سرقاته. بيد أن إضعافه وحتى سقوطه لا يحرر المجتمع الذي كان قد أخضعه ؛ بل على العكس، هذا المجتمع ينهار بدوره ليصير مسرحاً متشظياً إلى أقصى الحدود مع تهجير عدد كبير وغير مسبوق من السكان ووضعهم تحت رحمة أي قوة تمتلك وسائل إكراه كافية لتفرض نفسها عليهم. إن مجرد نقل معطيات "النزاع السوري" على نطاق بلد كفرنسا يفضي إلى لوحة مروعة، الوحيدة التي يمكن لنا أن نذكرها أملاً في إحياء الضمائر: 750.000 قتيل، 32 مليون لاجئ أو مهجر، تقسيم البلاد بين حوالي 3600 ميليشيا مسلحة، من دون الحديث عن دمار جزء كبير من المدن الكبرى... في غضون أربع سنوات فقط.

---

(10) Bertrand Badie, *Quand l'histoire commence* (Paris: CNRS Editions, 2012).

قبل أن نطرح مسألة السلطة، يدعونا انهيار الدولة إلى التساؤل عن مسألة المدينة والمواطنة. من الواضح أن العالم العربي، كما أمكنة أخرى عديدة، يشهد انقسامات طائفية وقبلية أو محلية والتي لم يتسنّ لها أن تسيطر على المكان والزمان في الماضي، إلا أنها تسارعت بشكل ملفت في العقود الأخيرة، كما أنه يتضمن انتماءات فوق الدولة أو عابرة للدول لم تنجح في ضربها أي حدود ولو كانت معسكرة بشكل كثيف أحياناً. تطالب مختلف هذه الجماعات بـ"تمثيل" جدير بها أو بـ"تقرير مصيرها"، أي تطالب بالمشاركة في اللعبة السياسية والتمتع بأشكال خاصة من الاستقلالية أو الاعتراف بها، بغض النظر عن الحدود، كجماعة واحدة أو أيضاً "الانفصال" من أجل بناء كيانات دول جديدة، وهذه كلها لا تشكل بحد ذاتها مطالب غير ديمقراطية. بيد أن العسكرة القائمة تحول دون أي تفكير يدور حول المدينة والمواطنة وحول الديمقراطية، ولو كان هذا حصراً في إطار بنغازي أو سيرت أو عدن أو صعدة أو "المركز السني" أو "الجنوب الشيعي" العراقيين. والأخطر من هذا، أنه منذ احتلال صنعاء من قبل قوات الحوثيين وتدخل السعودية في اليمن، صرنا في مواجهة "حرب أهلية عربية" تخاض على جبهات عديدة "من المحيط إلى الخليج" وتفضي باستمرار إلى تقسيمات جديدة داخلية أو عابرة للحدود. ومن أجل "كسب المعركة" على النطاق "الوطني" أو العابر للحدود أو الفوجغرافي، ينبغي على الدول التي انحطت إلى مستوى الميليشيات أو على القوى الأخرى التي تخطف السلطة منها، أن تفرض نفسها أولاً ضمن الجماعة التي تدعي أنها منها حتى تحتكر مساحتها وزمنها ومواردها. وهكذا، فإن أي نزاع بين الطوائف وبين المناطق وحتى بين القبائل يصير أولاً نزاعاً ضمن الطائفة الواحدة والمنطقة الواحدة والقبيلة الواحدة. يضاف إلى هذه الديناميكية

الميليشيوية المتعددة، الآثار النظامية للـ"استبدادات المتشظية"[11] التي صارت عليها الدول أو لا تزال: وهكذا فإن الرئيس اليمني السابق والذي أجبر على الاستقالة في شباط/ فبراير 2012، لم "يختفِ" عن الشاشة، بل هو يقدم دعماً كبيراً، بعد مرور ثلاث سنوات، إلى ميليشيا الحوثيين الشيعية والتي لطالما حاربها وهي تحتل حالياً العاصمة صنعاء، في حين أن "الجنوب الاشتراكي" يقدم على العكس دعمه إلى الرياض وإلى "التكتل السني"؛ لا يزال رئيس الوزراء العراقي السابق، نوري المالكي والذي مهدت إدارته الكارثية لانتصار داعش، يتمتع بحصانة منحه إياها لقبه الرسمي كـ"نائب رئيس" كما أنه لا يزال يحافظ على قواته الخاصة التي سلمها لابنه أحمد.

العنف و"الديني التطرفي"

يحول تكاثر الأطراف الفاعلة هذا، وهي أطراف تمتلك موارد عنف وقاعدة اجتماعية، دون نشوء أي لوياثان جديد قادر على حكم أراضٍ مصغرة ناشئة عن آلية التشظي والانقسام. فالديني المتطرف ونقصد به هنا المقاتلين الذين يمتلكون معرفة أولية بالدين وينسبون شرعية إلى أنفسهم بواسطة تفسير الجهاد تفسيراً عسكرياً كما بواسطة نموذج الهجرة النبوية، وليس بوصفهم "رجال الله"، يمكنه مذاك أن يملأ فراغ السلطة الناجم عن حالة العنف المعمّمة في أكثر من بلد. كما أنه قادر على يحوّل بعض المجموعات إلى محاسيب، ومن بينها بعض القبائل السنية أو الضباط البعثيون السابقون في العراق حين يقدم لهم معنى سياسياً موحِّداً أو يتخطاهم عند الضرورة ليفرض سيطرته على المكان والزمان مستخدماً العنف وحسب. في خلال هذه الآلية التي تحوّل

(11) انظر في شأن هذا المفهوم: Charles Tilly, *The Politics of Collective Violence* (Cambridge; London: Cambridge University Press, 2003), p. 42.

"العنف" إلى قوة دولة بالمعنى الذي يعطيه سوريل للكلمة[12]، يمكن للديني المتطرف أن يقيم بناء عقلانياً بالكامل ويؤسس وزارات ويرفع أجور "الموظفين" ويقيم "العدالة" ويصك النقود ويفرض الضرائب وينشىء مصافٍ متحركة ويسهر على فتح الأسواق وينخرط في الكثير من الصفقات الاقتصادية في ما وراء حدود المناطق التي يسيطر عليها. بيد أن العنف الذي تلجأ إليه الدولة الإسلامية والأطراف الجهادية الأخرى كمورد وكنمط عمل خاص بـ"الانشقاق" لا يزول مع هذا؛ بل على العكس هو يعيد انتاج نفسه مع الزمن ليصير عدمياً ويدمر ما بنوه من عقلاني بواسطة الهجمات الانتحارية أو أعمال القسوة التي يحسنون إبرازها والتي من شأنها أن تزيد فقط عدد أعدائهم. هذه التركيبة الغريبة من الإكراه والعنف والعقلانية والتدمير الذاتي، التي لشد ما أدهشت سيباستيان هافنر[13] وكارل كروس[14] في سياق ألمانيا النازية، تبدل وجه الدعوة الدينية باستمرار مخضعة إياها لتسلط الهرب إلى الأمام المتدافع. وهكذا، نجد في مقابل سجل العنف "الشديد الموضوعية" والذي يترجم نفسه بواسطة العقلانية، سجلاً "شديد الذاتية"[15] لا يمكنه إلا أن يبشر بالنهاية بانتصار غريزة الموت[16].

هذه الطبيعة "الهجينة"، التي نلاحظها كذلك في أفريقيا السوداء ولاسيّما مع بوكو حرام، تلك المنظمة العابرة للحدود والتي تشبه

(12) George Sorel, *Réflexions sur la violence* (Paris: Quartier Libre, 2006).

(13) Sebastien Haffner, *Histoire d'un Allemand, Souvenirs 1914-1933* (Arles: Actes-Sud, 2002).

(14) Darl Draus, *Troisième nuit de Walpurgis* (Paris: Agone, 2005).

(15) Etienne Balibar, *Violence et civilité: Wellek Library Lectures et autres essais de philosophie politique* (Paris: Galilée, 2010), p. 34.

(16) Sigmund Freud, *Le Malaise dans la culture* (Paris: Le Monde et Flammarion, 2010), p. 127.

بشكل مدهش الدولة الإسلامية في العراق والشام، تضع الباحثين كما كل واحد منا أمام تحدٍ خطير: فلقد أصبح من المستحيل فهم هذه الأطراف مع استبعاد التاريخ، تاريخها، وكذلك مع أخذه في الحسبان. تمثل هذه القوى هوامش المجتمعات العربية و/ أو الإسلامية وهي في طريقها لاحتلال قلبها، وهي تمتلك سلالة يمكن توثيقها بالكامل والعودة بها إلى عبد الله عزام (1941–1989)، منظِّر الجهاد الأفغاني في الثمانينيات؛ لكنها قوى تتحرّر باستمرار من الظروف التي أدت إلى ولادتها أو مكنتها من الصعود. وإذا كانت تقيم علاقة بين الزمان وبين المكان فهذا حتى تدمر الأول والثاني وتمنع نفسها من القيام بأي بناء اجتماعي أو سياسي مترسخ في الديمومة. صحيح أنها تمتلك "رزنامة"، بيد أنها رزنامة لا "تحسب الوقت"[17]، لأن هذا الأخير يتحدث عن ساعة ليست أرضية بالكامل ولا ألفية بالكامل. تشير هذه التحولات الدائمة كذلك إلى حدود المقاربات الظاهراتية التي يتم اعتمادها عموماً لدراسة السلطة والسيطرة والإكراه والعنف.

باريس في 2015/ 6/ 1.

(17) Walter Benjamin, *Sur le concept d'histoire* (Paris: Payot, 2013), p. 56.

الثبت التعريفي

إجماعية (unanimisme): عقيدة تؤمن بأن المبادئ الموحَّدة في المجموعات الإنسانية أكثر أهمية من الفرديات الشخصية.

أخروي (eschatologique): مفهوم يتصل بالعلوم الدينية والفلسفة ويختص بالحديث عن نهاية العالم والأحداث الأخيرة التي ترافقها لتحدد مصير البشرية. تنبأت ديانات كثيرة بنهاية العالم في نصوصها المقدسة وربطتها بمفهوم المخلِّص والحياة الأخرى والروح. وتؤكد الديانات السماوية أن وحدهم بعض الأشخاص "المختارين" سيتم إنقاذهم من الغضب الإلهي وسيرسلون إلى الجنة قبل أو خلال أو بعد يوم القيامة بحسب سيناريو نهاية العالم الذي تؤمن به.

استكفاء (autarcie): نظام اقتصادي ضمن مساحة جغرافية محددة بمنطقة أو دولة يقطنها سكان قادرون على تلبية كل احتياجاتهم والعيش بفضل مواردهم وحدها. أما الاستكفاء الفكري فهو يطلق على حالة من يكتفي بنفسه ولا يقيم تبادلات فكرية مع الآخرين.

اقتصاد سري (économie souterraine): يضم ثلاثة أشكال

من الأنشطة المختلفة جداً وهي: الاقتصاد المولّد بواسطة العمل في السوق السوداء، الجنح الاقتصادية والنشاطات الإجرامية. وتشترك كل هذه الأنشطة في كونها تمارس بمعزل عن القواعد الاقتصادية والاجتماعية وقوانين الدولة وبأنها لا تخضع للضرائب وتخلّ بالمنافسة الحرة بالنسبة إلى النشاطات القانونية إما بسبب النشاط الممارس بحد ذاته، كالعمل في السوق السوداء، وإما بسبب إعادة إدخال الأموال غير المشروعة في الحركة الاقتصادية بغرض تبييضها.

إلحاق (cooptation): آلية تقوم بواسطتها مجموعة قوية أو كبيرة بضم مجموعة أضعف أو أصغر تحمل المصالح ذاتها، وكذلك آلية تكتسب فيها مجموعة أشخاصاً من مجموعة أخرى يحاولون إعادة إنتاج المظاهر التي يجدونها مغرية في المجموعة، من دون اعتناق برنامجها أو أفكارها بالكامل.

بروليتاريا رثّة (lumpenprolétariat): مصطلح ورد للمرة الأولى لدى كارل ماركس لوصف فئة من الطبقة العاملة التي لن تتمكن على الأرجح من بلوغ الوعي الطبقي وهي بالضرورة غير ذات فائدة للعمل الثوري، بل ربما قد تشكل إعاقة أمام تحقيق المجتمع اللاطبقي. تضم البروليتاريا الرثة الشحاذين وبائعات الهوى والمجرمين وسواهم ممن هم على هوامش المجتمع.

بؤرية (foquiste): نظرية ثورية صاغها تشي غيفارا وأراد بواسطتها إقامة أكثر من فيتنام واحدة من أجل مواجهة الإمبريالية الأميركية. تستند هذه النظرية الثورية إلى قيام عدد من بؤر حرب العصابات الريفية وقد نتجت عنها حروب عصابات عديدة في أميركا اللاتينية في فترة الستينيات.

بيريسترويكا (perestroïka): حركة سياسية للإصلاح من داخل الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي في الثمانينيات إبان حكم ميخائيل

غورباتشوف وقد ترافقت مع سياسة "غلاسنوست" أو الانفتاح. أما المعنى الحرفي لمصطلح "بيريسترويكا" فهو إعادة هيكلة النظام السياسي والاقتصادي السوفييتي. ويعزو الكثير من المحللين أسباب انهيار الاتحاد السوفييتي إلى هذه السياسة.

تحرير اقتصادي (libéralisation économique): جعل النشاط الاقتصادي مفتوحاً أمام مختلف الأطراف الاقتصادية الفاعلة، سواء أكانت خاصة أم عامة، ما يعني نهاية احتكار إدارة أو مؤسسة عامة أو خاصة لنشاط أو قطاع تعيّنه السلطات العامة. وفي موازاة تحرير قطاع معين، يمكن للسلطات العامة أن تتشدد في التقنين أو في التنظيم من أجل ضمان عدالة الوصول إلى الخدمات المعنية. فالتحرير لا يعني القضاء على الأصول والقوانين بل وضع قوانين جديدة من أجل تعريف الحقوق والواجبات الجديدة لدى مختلف الأطراف.

تحريفية/ مراجعة (révisionnisme): استخدم هذا المصطلح بالأصل للإشارة إلى تيار الرأي العام المطالب بإعادة محاكمة الضابط درايفوس في فرنسا. واتسع معناه في ما بعد ليشير اليوم إلى تيار فكري يميل إلى إعادة طرح أو تعديل نظام إيديولوجي أو سياسي قائم، أو أيضاً نص معاهدة دولية أو قانون أساسي. أهم استخدامات هذا المصطلح ضمن الحركة الاشتراكية كانت لوصف التيارات الماركسية التي أرادت أن تناقش بعض الطروحات الثورية أو ابتعدت عن الماركسية اللينينية الرسمية.

حزام أخضر (ceinture verte): مفهوم يعني أساساً العمل على حصر توسع بعض المدن وقد استعاره المؤلف في هذا الكتاب للحديث عن تشجيع الولايات المتحدة قيام تيارات إسلاموية في مواجهة انتشار الفكر الشيوعي إبان الحرب الباردة.

الرعب الأبيض (terreur blanche): اسم أعطي لمختلف حقبات القمع التي مارسها الملكيون أو بشكل أعم المحافظون ضد الثوريين بعد قيام حقبة ثورية أو محاولة ثورية أو من أجل مناهضتها.

عثمنة (ottomanisation): مفهوم نشأ قبيل الحقبة الدستورية الأولى في السلطنة العثمانية. آمن أصحابه أن باستطاعته أن يحل المشكلات الاجتماعية التي كانت تواجهها السلطنة وكانوا متأثرين بشدة بمفكري عصر الأنوار الفرنسيين أمثال مونتسكيو وروسو. تدعو العثمنة إلى المساواة بين الملل وإلى قبول جميع الإثنيات في السلطنة بغض النظر عن انتمائها الديني معتبرة أن رعايا السلطنة متساوون جميعهم أمام القانون.

عقيدة الخلاص (messianisme): الاعتقاد بمجيء منقذ أو مخلص يضع حداً للوضع القائم المعتبر سيء ويقيم نظاماً جديداً تسوده العدالة.

علموية (scientisme): عقيدة ظهرت في القرن التاسع عشر تعتبر أن العلوم الاختبارية تمتلك الأولوية لتفسير العالم بالنسبة إلى ما سبقها من تفسيرات دينية أو تقليدية أو أفكار مسبقة.

غائية (téléologie): عقيدة تهدف إلى شرح الظواهر من خلال الغاية النهائية، ليتم شرح ظاهرة معينة من خلال وجود غاية نهائية تكون تالية لها في الزمن.

غيرية (altérité): مفهوم صاغه الفيلسوف الفرنسي إيمانويل ليفيناس (Emmanuel Levinas) الذي كان يبحث عن طريقة جديدة للتفكير، أكثر انفتاحاً وإبداعاً لتجنب النماذج الفكرية التي صنعها القرن العشرين. وتمحورت فلسفته حول البحث عن العلاقة مع الغير، حيث إن الغيرية تعني كل ما هو آخر، أو الاعتراف بالآخر في اختلافه، سواء أكان الاختلاف ثقافياً أو دينياً.

قومية اشتراكية (national socialisme): اسم الحزب السياسي الذي أسسه أدولف هتلر في ألمانيا في العام 1920 وصار يعرف باسم الحزب النازي. والنازية هي نوع الفاشية الوحيد الذي يتضمن في الوقت نفسه عنصرية بيولوجية ومعاداة للسامية مستعيداً التقسيم الهرمي للجنس البشري حيث يحتل العرق الآري قمة الهرم في حين أن العرق السامي يحتل أسفله.

قيمية (axiologie): علم القيم الأخلاقية أو نظرية القيم أو أيضاً فرع من فروع الفلسفة المهتم بمجال القيم الأخلاقية، وهو بالنسبة إلى بعضهم بحث من أجل إقامة هرمية بين القيم.

كوميتاجي (comitadji): مصطلح تركي ويعني "أفراد اللجنة"، أي عصابات المتمردين الذين كانوا ينشطون في البلقان في المراحل الأخيرة من عهد السلطنة العثمانية. كان الكوميتاجي يحاربون السلطات العثمانية بدعم من الحكومات المجاورة وبالأخص بلغاريا.

مذبحة منظمة (pogrom): مصطلح "pogrom" مأخوذ عن اللغة الروسية وهو اسم مشتق من فعل يعني التدمير بعنف. و"البوغروم" هي أعمال شغب هدفها ذبح أو اضطهاد مجموعة إثنية أو دينية مورست أساساً ضد اليهود في الإمبراطورية الروسية في القرنين التاسع عشر والعشرين. وقد أطلق اسم "بوغروم" على أعمال مماثلة ضد اليهود في أماكن وأوقات أخرى، كما يستخدم حالياً للحديث عن أي هجوم ضد أي إثنية أو ديانة كانت بهدف إبادتها.

معاداة السامية (antisémitisme): اسم يعطى في أيامنا هذه للتمييز والعدوانية اللذين يمارسان ضد اليهود كمجموعة إثنية ودينية أو عرقية. وهو في معناه الأصلي كما ورد في القرن التاسع عشر نوع من العنصرية

الموجهة ضد الشعوب السامية التي سميت كذلك بناء على معايير لغوية، ولكنه لا يستهدف في الحقيقة سوى اليهود، حتى إنه قد يستخدم في الغرب لوصف العرب المعادين لليهود.

مناصرة العالم الثالث (tiers mondisme): اعتبار أن الانقسام بين العالم الأول المتقدم والعالم الثالث النامي يرتدي أهمية سياسية قصوى مع اتخاذ موقف مناصر لدول العالم الثالث وحركات التحرّر الوطنية ضد الغرب ووكلائه.

الهيئة الثالثة (tiers état): في ظل النظام الملكي الفرنسي، هي الاسم الذي أعطي للنواب الذين يمثلون المدن الكبيرة أي نواب البرجوازية.

ثبت المصطلحات

unanimisme	إجماع/ إجماعية
unanimiste	إجماعي
contestation	احتجاج
eschatologique	أخروي
cognitif	إدراكي
désacralisation	إزالة القدسية
autarcique	استكفائي
islamisme	إسلاموية
islamisation	أسلمة
notables	أعيان
enchantement	افتتان
virtuel	افتراضي

paupérisation	إفقار
dolorisme	اقتصاد سري
exclusion	إقصاء
territorialité	إقليمية
coercition	إكراه
cooptation	إلحاق
engagement	انخراط/ التزام/ تعهد
dissidence	انشقاق
partisans	أنصار
réflexivité	انعكاسية
scission	انقسام
coup d'état	انقلاب
lumpenprolétariat	البروليتاريا الرثة
intergénérationnel	بَيْجيلي
économie souterraine	تباكي
criminalisation	تجريم
essentialisation	تحديد ماهوي
libéralisation économique	تحرير اقتصادي

désintégration	تحلّل
minorisation	تحويل إلى أقلّية
politisation	تسييس
purge	تطهير
mobilisation	تعبئة
occidentalisation	تغريب
interprétation	تفسير/ تأويل
démembrement	تقطيع أوصال
centrage	تمركز
empowerment	تمكين
fluctuations	تموجات
socialisation	تنشئة اجتماعية
complicité	تواطؤ
vendetta	ثأر
faction	جناح
état d'urgence	حالة طوارئ
immunité	حصانة
dissolution	حلّ

protectionniste	حمائي
vitaliste	حيواتي
christologie	خريستولوجيا/ علم المسيح
axiologique	خلاقي/ قيمي
prédicateur	داعية
téléprédicateur	داعية تلفزيوني
constitutionnaliste	دستوري
cycle cyclique	دوري/ دورة حلقة
patrouille	دورية
état territorial	دولة إقليمية
étatique	دولياتي
réactionnaire	رجعي
terreur blanche	الرعب الأبيض
figure tutélaire	شخصية الأب
légitimité	شرعية
populiste	شعبوي
ascension sociale	صعود اجتماعي
acteur de référence	طرف مرجعي

cordon sanitaire	طوق صحي
ottomanisation	عثمنة
nihiliste	عدمي
transversal	عرْضي
arabité	عروبة
organiciste	عضوائية
messianisme	عقيدة الخلاص
herméneutique	علم التفسير/ التأويل
polémologie	علم الحرب
scientisme	علموية
action belligène	عمل حربي
opérationnel	عملاني
attentat suicide	عملية انتحارية
processus électoral	عملية انتخابية
téléologique	غائي
irréductible	غير قابل للاختزال
altérité	غيرية
obligation	فريضة

catégorie d’âge	فئة عمرية
endurance	قوة الاحتمال
nationalisme	قومية
national-socialisme	قومية اشتراكية
turquité	قومية تركية
panarabisme	قومية عربية
axiologie	قيمية
lutte armée	كفاح مسلح
mot d’ordre	كلمة جامعة
universel	كونية
anhistorique	لاتاريخي
corollaire	لازمة
incertitude	لايقين
institutionnaliser	مأسس
polysémique	متعدد الدلالات
hétérogène	متغاير
intellectuel organique	مثقف عضوي
homogénéisation	مجانسة

pogrom	مذبحة منظمة
révisionnisme	مراجعة تحريفية
flexible	مرن
quiétiste	مستكين
postulat	مسلّمة
spéculation	مضاربة
appropriation	مطابقة
antisémitisme	معاداة السامية
opposition	معارضة
anachronique	مغالط للتاريخ
tiers-mondisme	مناصرة العالم الثالث
crédible	موثوق
indicateur	مؤشر
objectiver	مَوْضَعَ
milice	ميليشيا
elite	نخبة
elitiste	نخبوي
emergence	نشوء

régime rentier	نظام ريعي
système corporatiste	نظام نقابي
régime mandataire	نظام/ سلطة انتدابية
paradigme	نموذج معياري
marge	هامش
barbarie	همجية
judéité	الهوية اليهودية
tiers-état	الهيئة الثالثة
allégeance	ولاء
certitude	يقين

الفهرس

-ص-

-ظ-

-ع-

-ف-

قراءة في تاريخ العنف في الشرق الأوسط

من نهاية السلطنة العثمانية إلى تنظيم القاعدة



- أصول المعرفة العلمية
- ثقافة علمية معاصرة
- فلسفة
- علوم إنسانية واجتماعية
- تقنيات وعلوم تطبيقية
- آداب وفنون
- لسانيات ومعاجم

المنظمة العربية للترجمة

يبدأ الكتاب بحقبة ثورات 1906-1918 التي تؤذن بنهاية السلطنة العثمانية وتنقسم إلى ثلاث حقبات تاريخية اعتبرت كل منها حقبة تحوّل في تاريخ الحركات السياسية والإسلاموية في الشرق الأوسط، وهذه الحقبات هي: 1906-1979، 1979-1991، 1991 حتى منتصف العقد الأول من الألفية الثالثة. تتمحور كل حقبة، وكل جزء من الكتاب يقابلها، حول أحداث العنف البارزة والشخصيات المؤثرة واللحظات التاريخية التي يتم وصفها وتحليلها من أجل فهم أشكال العنف التي تجلّت فيها. ونجول في هذه الحقبات في أرجاء الشرق الأوسط الكبير من تركيا إلى العراق ولبنان وسوريا وفلسطين ومصر وصولاً إلى أفغانستان.

- **حميد بوزارسلان:** أستاذ في كلية الدراسات العليا في العلوم الاجتماعية في جامعة باريس (EHESS)، ومؤلف دراسات وكتب عديدة بالفرنسية، منها: *Histoire de la Turquie: De l'empire à nos jours* (2013)، و *Sociologie politique du Moyen-Orient* (2011).

- **هدى مقنّص:** مديرة مركز اللغات والترجمة-الجامعة اللبنانية. من ترجماتها للمنظمة العربية للترجمة: **فكر اللغة الروائي، أسس تدريس الترجمة التقنية، المعجمية وعلم الدلالة المعجمي: مفاهيم أساسية، التباسات الحضارة.**

الثمـن: 30 دولاراً
أو ما يعادلها
ISBN 978-614-434-082-0
9 786144 340820